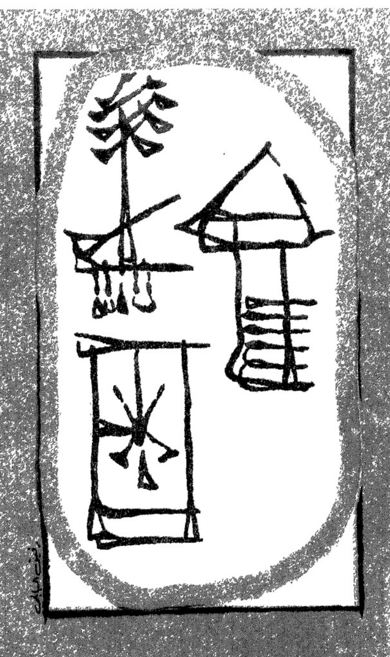
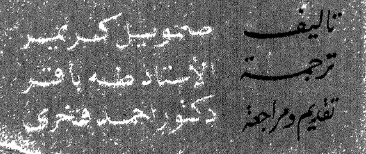



تأليف صموئيل كريمر
ترجمة الأستاذ طه باقر
تقديم ومراجعة دكتور أحمد فخري

مِنْ ألواح سُومَر

نشر هذا الكتاب بالاشتراك مع
مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر

من ألواح سومر

تأليف

صموئيل كريمر

ترجمة

طه باقر

مراجعة وتقديم

الدكتور أحمد فخري

مكتبة المثنى ببغداد
ومؤسسة الخانجي بالقاهرة

محتويات الكتاب

صفحة

مقدمة المترجم

« فى تعريف الكتاب ومؤلفه »

يسر المترجم أن يقدم الى قراء العربية ترجمة الكتاب الموسوم « من ألواح سومر » لمؤلفه صمويل كريمر [١] ، الاختصاصى الشهير فى المباحث السومرية . وقد اختارته للترجمة مؤسسة « فرانكلين » [٢] المشهورة بنقل المؤلفات الأمريكية الى اللغات الأخرى غير الانجليزية ، ومنها اللغة العربية . وكان لقبول المترجم للاضطلاع بمهمة نقل الكتاب الى العربية ظروف وأسباب أذكر الآن منها صلتى الشخصية بمؤلف الكتاب . اذ كان أستاذى فى اللغة السومرية يوم كنت طالبا فى جامعة شيكاغو . وأن المؤلف نفسه بناء على هذه الصلة الشخصية هو الذى

---

(١) وعنوانه
Samuel N. Kramer, *From the Tablets of Sumer* (The Falcon's Wing Press,1956).

(٢) مؤسسة « فرانكلين » ، المساهمة للطباعة والنشر ، هى مؤسسة ثقافية مهمتها الأساسية نقل المؤلفات الأمريكية الى اللغات الأجنبية (غير الانجليزية) . وتشمل أنواع الكتب التى تترجم مدى واسعا متنوعا من الموضوعات من بينها كتب التربية ، والكتب المخصصة للأطفال ، وكتب السير والروايات ، وعلم السياسة ، وعلم الاقتصاد ، وعلم الاجتماع ، وعلم النفس ، وتاريخ الفنون ، والآداب ، والمباحث الاسلامية العربية . وقد استطاعت هذه المؤسسة ان تخرج الى ما قبل بضع سنين زهاء مائتى كتاب فى مختلف فروع المعرفة . وان ثلثمائة وخمسين كتابا آخر هى فى سبيل الاعداد والتهيئة الى النشر . وأذكر من ذلك على سبيل المثال ذلك الكتاب الجليل الباحث فى تاريخ العلوم البشرية منذ أقدم نشوئها ، وأعنى به كتاب « سارتون » فى تاريخ العلم . (وقد اضطلع مترجم الكتاب بنقل الفصل الخاص بالعلوم والمعارف فى حضارة وادى الرافدين الى العربية) . ومن الكتب المهمة فى تاريخ الحضارة العربية الاسلامية نذكر على سبيل المثال أيضا كتاب « ديماند » (فى الفن الاسلامى) . وللمؤسسة مجلس من المديرين مؤلف من ناشرى الكتب فى البلاد الأمريكية ومن الشخصيات العلمية المهمة ويرأس هذا المجلس فى الوقت الحاضر « داتس سمث » (Datus C. Smith, Jr).

اقترح عليّ أن أقوم بترجمة كتابه ، ولما أن وجدت الكتاب ، على ما سأبين بعد قليل ، جديرا بالنقل الى العربية تقدمت باقتراح ترجمته الى مؤسسة « فرانكلين » عن طريق فرعها في القاهرة بالاتصال بالمستشار العام للمؤسسة الأستاذ « حسن جلال العروسى » ، فتم الاتفاق على انجاز الترجمة . وهأنذا سعيد بعرض ما قمت به من جهود متواضعة فى أداء نقل الكتاب الى العربية وأرجو أن أكون وفقت فى ذلك . وأرانى فى غنى عن التنويه بالصعوبات التى اعترضت سبيلى فى الترجمة . فانه على الرغم من أن الكتاب ليس من صنف المؤلفات المركزة فى اختصاصها الا أنه مع ذلك احتوى غير قليل من المصطلحات التى لا يزال المعنيون والمضطلعون بشئون النقل والترجمة من أبناء العربية يجدون الصعوبات فى تأدية ما يضارعها ويضاهيها فى العربية . ومهما كان الأمر فلست أرى حرجا فى القول اننى بذلت قصارى جهدى فى تأدية أدق ترجمة ممكنة للكتاب ، مراعيا فى ذلك أمانة النقل من جهة والتزام الأسلوب العربى المستساغ وتجنب الحرفية فى النقل من جهة أخرى . ومما لا مراء فيه أن هذا واجب يتطلب جهدا وصبرا لا يجدهما ذلك المترجم الذى يسير على طريقة الترجمة الحرة غير المقيدة بالأصل ، وبالتزام الدقة والمطابقة . ومع ما يبدو على هذه الملاحظة من طابع التبجح الشخصى من جانب المترجم ، غير أننى رأيت أن أنوه بها للقراء الكرام ليقدروا ترجمتى على ضوئها ولا سيما ما قد يبدو عليها من الحرفية .

واذ كنت قد نوهت بصلتى ومعرفتى الشخصية بمؤلف الكتاب ، التى كانت من بين الأسباب التى حملتنى على الاضطلاع بترجمته ، فيحسن بى قبل البدء بتعريف الكتاب وتقديمه الى القراء أن أذكر بعض الشيء عن مؤلفه ، ليكون ذلك مقدمة لادراك قيمة الكتاب ومكانته فى

الكشف عن أصول العمران البشرى وتطور الانسان الحضارى . فالأستاذ « صمويل نوح كريمر » (١) من مشهورى الباحثين المختصين بالمباحث المسمارية (٢) ، بوجه عام والمباحث السومرية بوجه خاص ، أى الكتابات والنصوص الخاصة بالسومريين وبلغتهم . والذى أعرفه عن المؤلف (٣) انه مثال المتخصص الحديث فى تفرغه وانقطاعه الى حقل اختصاصه ، بل يمكننى القول انه مغرق فى التخصص . فانه بعد تخرجه فى حقل المباحث المسمارية والمباحث الأشورية ، اختار موضوع البحوث السومرية ، وصرف حياته فى التفرغ لهذا الحقل . والى هذا فانه خصص جهوده فى سنى حياته العلمية الأخيرة على باب خاص من هذا الحقل : هو باب الآداب السومرية (راجع فى هذا الشأن توطئة المؤلف

---

(١) اذا كان المجال لا يساعد على ايراد ترجمة وافية عن المؤلف فأكتفى هنا بذكر اهم الأمور وابرزها مما له مساس بموضوع الكتاب : لقد ولد المؤلف فى روسيا فى عام ١٨٩٧ ، وهاجر منها الى الولايات المتحدة الأمريكية ، وهو فى سن التاسعة من عمره . وحصل على تدريبه العلمى فى جامعة بنسلفانيا التى اشتهرت ببحوثها وتحرياتها وتنقيباتها الآثارية فى الموضع السومرى الشهير « نفّر » ، وكشفت عن آلاف الألواح المدونة فى آداب السومريين بصفة خاصة ، مما يؤلف المادة الأساسية لهذا الكتاب . وبعد تخرج المؤلف من تلك الجامعة اشترك فى بعثة للتنقيبات ارسلتها هذه الجامعة فى عام ١٩٣٠ الى العراق . واشتغل ردحا من الزمن بصفته عضوا فى هيئة الباحثين فى المعهد الشرقى (فى جامعة شيكاغو) . ثم انتقل الى جامعة بنسلفانيا . وهو الآن أستاذ باحث فى تلك الجامعة وأمين متحفها فى قسم الألواح « السومرية ـ البابلية » .

(٢) Cuneiform Studies . ومنشأ التسمية ان الخطوط القديمة التى استعملت فى حضارة وادى الرافدين صارت فى عهودها المتأخرة تنتهى رؤوس العلامات فيها بما يشبه المسامير أو المثلثات او الأسافين فاطلق عليها الباحثون الأوروبيون الأوائل ذلك المصطلح اللاتينى . وتعرف هذه الدراسات أيضا باسم « المباحث الأشورية » Assyriology لأن اول اقوام واول تاريخ عرفه الباحثون الاولون منذ منتصف القرن الماضى عن حضارة وادى الرافدين هم الأشوريون والتاريخ الأشورى . اذ بدأوا تحرياتهم الآثارية فى العواصم الأشورية الشهيرة فى شمال العراق مثل نينوى ونمرود وخرسباد .

(٣) لقد سبق لى التنويه بتشرف التلمذ على مؤلف الكتاب فى مادة اللغة السومرية فى المعهد الشرقى (جامعة شيكاغو) يوم كنت طالب بعثة على حساب وزارة المعارف العراقية (١٩٣٤ ـ ١٩٣٨) .

ومقدمته والحق يقال ان هذا باب طريف وعلى قدر عظيم من الخطورة والأهمية فى تاريخ الحضارة ، بحيث يصبح القول ان مؤلف الكتاب الفاضل هو من الباحثين القلائل الذين يرجع اليهم الفضل فى الكشف عن أروع فصل فى تاريخ الانسان الروحى والأدبى .

ومما يجدر قوله عن مؤلفنا أيضا انه تميز بخصب الانتاج وكثرته ، وبالدقة فى موضوعه. فقدكتب ونشر بحوثا كثيرة متنوعة عالية الاختصاص فى حقل المباحث السومرية ، ظهرت فى أمهات المجلات وبهيئة رسائل ومقالات علمية . واذا كان ليس فى الامكان ولا من المناسب تعداد مثل هذه المقالات العلمية ، فان القارىء سيجد فى متن الكتاب كثيرا من الاشارات الى تلك البحوث والمقالات . وثمة فضل آخر تحسن الاشارة اليه فى معرض تعريفنا بمؤلف الكتاب . ذلك هو أن الأستاذ « كريمر » يعد من بين الباحثين القلائل ممن سار على منهج علمى خاص فى ترجمة النصوص السومريه وتفسير قضاياها اللغوية والنحوية على أسس علمية جديدة [1] . ولكن الغريب فى أمر مؤلفنا هو أن المعتاد فيمن انقطع الى التخصص المركز ، انه يندر أن يكون بمستطاعه انتاج الكتب العامة الى الجماهير ، أى تعريف الموضوع الى الناس من غير ذوى الاختصاص .

---

(١) كان على راس المؤسسين لهذه المدرسة العلمية فى دراسة اللغة السومرية الأستاذ الكبير « آرنوپوبل » ، الذى نوه بفضله المؤلف وبكونه احد طلابه فى مقدمته للكتاب (وقد درس عليه أيضا مترجم الكتاب) ، وكان من أساتذة المعهد الشرقى فى جامعةشيكاغو سابقا (اذ هو الآن متقاعد) . ولعل أعظم آثار هذا الباحث ، على كثرتها ، تاليفه فى نحو اللغة السومرية الذى جعل دراسة هـذه اللغة تقوم على أسس علمية جديدة (أنظر مقدمة المؤلف ص ٢٠) . ونذكر منهم أيضا « بنو لاندز بير جرر » ، الذى هو الآن من أساتذة المعهد الشرقى فى جامعة شيكاغو (وكان سابقا أستاذا فى جامعة أنقرة) . وتخرج على أيدى مثل هؤلاء المؤسسين لهذه المدرسة العلمية جيل من الباحثين المحدثين ، منهم مؤلف هذا الكتاب والأستاذ الباحث الدكتور « ياكوبسن » ، من هيئة المعهد الشرقى . ونذكر منهم فى المانيا الباحث الشهير « آدم فلكنشتاين » . وسترد أسماء هؤلاء مرارا فى متن الكتاب .

والاغراق فى التخصص وترفع المغرقين فى التخصص من الأمور التى عابها غير واحد على الحضارة الغربية الحاضرة ، وأخذوه على أهل الاختصاص فيها ، متهمين اياهم بأنهم يسلكون فى اخفاء نتاج بحوثهم ما كان عليه القدماء من أهل المعرفة فى حرصهم على معرفتهم والضن بها على الجماهير، بحيث كانت من الأسرار المقدسة . ولكن مؤلفنا هو من المختصين القلائل الذين حادوا عن هذا الاتجاه . فانه ، الى بحوثه المركزة والعالية فى مستوى اختصاصها ، نشر على الملأ كتبا مبسطة عرف بها أخطر وأهم موضوع فى تاريخ سير الحضارة البشرية وتطور الانسان العقلى والروحى . ولعل خير مثال أسوقه على ذلك هذا الكتاب الذى أقدم ترجمته الى القراء الكرام (1) ، وان حمل ذلك على محمل التحيز . على أن نعت مثل هذه الكتب بالكتب الجماهيرية ليس صحيحا على وجه الاطلاق . اذ الواقع من الأمر ، كما سيقف القارىء بنفسه من قراءته للكتاب ، أن كتاب « من ألواح سومر » يجمع بين ميزة تعريف أعلى المباحث اختصاصا الى غير المختصين وبين فائدته العامة ونفعه الجزيل الى المثقفين ، والأدباء ، ومؤرخى الحضارة بوجه عام ، وحتى الى المختصين فى حضارة وادى الرافدين وجميع حضارات الشرق الأدنى . وهذا لعمرى منتهى الابداع ، مما يجعل مؤلفنا فى صعيد أكابر المختصين القلائل ممن عالج هذا الموضوع ووفق فى الجمع بين هاتين الفائدتين العميمتين ، وبوجه خاص فى كتابه هذا .

ولعل ما ذكرته عن المؤلف يشفع لى ، أنا المترجم ، اذا اقتديت

(1) واضرب مثالا آخر على تعريف هذا الحقل العالى الاختصاص الى الناس فى كتاب آخر للمؤلف هو مؤلفه الموسوم « الميثولوجيا (الأساطير) السومرية » . (*Sumerian Mythology*, 1944)

بأستاذى واحتذيت مثاله فسقت كلمة موجزة عامة الى قراء العربية فى التنويه بفضل التحريات والكشوف الآثارية فى ربوع الشرق الأدنى بوجه عام والعراق بوجه خاص ، لأن ما سيجده القراء من مادة ممتعة فى هذا الكتاب انما هى ثمرة تلك التحريات . فأولا ينبغى لى أن أنوه بأن ما يدعى « علم الآثار » (الاركيولوجيا) انما هو فرع حديث الولادة من فروع العلوم والمعارف الحديثة ، اذ لا يكاد عمره يتجاوز مائة عام . ولكن فى وسعنا أن نؤكد القول أن هذا العلم ، على الرغم من حداثته ، قد حقق أروع اكتشافات فى تاريخ تطور الانسان منذ أن وجد على هذه الأرض ، فقد كشف لنا عن تلك المراحل الصعبة التى اجتازها للانتقال من عهود الهمجية والفطرة ، تلك العهود التى شغلت الجزء الأعظم من حياته الى أن دخل فى تلك التجربة المثيرة فى حياته بانشائه الحضارة والمدنية . والمجمع عليه بين الباحثين العلماء أن ذلك قد تم فى ربوع الشرق الأدنى ، يوم ظهرت فيه أولى الحضارات البشرية فى وادى الرافدين وفى وادى النيل ، وأقيمت أسس الحضارة والعمران على ما سيتضح من تتبع فصول هذا الكتاب .

ويصح القول ان علم الآثار بكشفه عن مراحل التطور البشرى قد أحدث انقلابا مدهشا فى المعرفة الانسانية وفتح فى تأريخ التقدم البشرى آفاقا واسعة بعيدة فى اتجاه الانسان ونظرته الى الحياة بوجه عام ، والى التاريخ وفلسفة التاريخ بوجه خاص . ولعل ألمع جانب من هذه الكشوف الحديثة أن « معاول » المنقبين قد استطاعت أن تستظهر من الركام وأنقاض التراب حياة عدد كبير من الحضارات والأمم والشعوب الغابرة لم يكن العالم ليعرف عنها شيئا حتى مجرد أسماء البعض منها . بيد أننا الآن نعرف تاريخها السياسى والحضارى — علومها وفنونها وآدابها

والأدوار التى مثلتها فى مسرح التأريخ البشرى . وتلك لعمرى مادة تاريخية غزيرة مكنت الباحثين فى العمران وعلماء الاجتماع المحدثين من درس النواميس الخاصة بنشوء الحضارات ونموها وركودها وانحلالها وزوالها ، بحيث قارب فلاسفة التأريخ أن يصلوا الى نتائج خطيرة فى حل اللغز الذى ينطوى عليه هذا العالم الأصغر الذى نسميه الانسان (١) .

وعلى ضوء هذه المقاصد الجليلة والغايات الخطيرة أدركت المؤسسات العلمية فى الغرب أهمية التحرى عن آثار البلاد العربية والكشف عنها فجنت من تحرياتها ثمرات بالغة الأهمية فى الكشف عن أصول الحضارات البشرية المستمدة من تراث حضارات الشرق الأدنى . واذا كان الأمر كذلك بالنسبة الى أمم الغرب ومؤسساته العلمية ، فما أحرانا ، نحن الذين لا نزال نعيش فى تراث تلك الحضارات ، أن تكون الحوافز الدافعة لنا أضعافا مضاعفة على التحرى عن ذلك التراث . وعسى أن يكون هذا الكتاب الذى أقدمه الى قراء العربية حافزا لنا على الاضطلاع بهذا الواجب الجليل ، بعد اطلاعنا على روائع الخلق والابداع مما أنتجته أمم الشرق الأدنى القديم ، ومنهم السومريون الذين يبحث فى روائعهم هذا الكتاب وسماها مؤلف الكتاب « بأصول الأشياء وأوائلها » .

يعزو مؤلف الكتاب الكثير من هذه الأصول « وأوائل » الأشياء فى العمران البشرى الى « السومريين » . فمن كان هؤلاء السومريون ؟

---

(١) لعل اشهر من كتب فى موضوع تأريخ الحضارات وفى فلسفة التأريخ ، مستفيدا من هذه المادة التاريخية الغزيرة التى كشفت عنها التحريات الآثارية ، هو الباحث الشهير « آرنولد توينبى » الذى اشتهر بمؤلفه الضخم المعنون « بحث فى التاريخ "A Study of History" » (انظر مقدمة المؤلف ايضا) . ونذكر من الباحثين المحدثين أيضا « شبنجلر » مؤلف كتاب « سقوط الغرب » . ومن القدماء نخص بالذكر الباحث العربى العظيم « ابن خلدون » الذى يجب أن يضعه التاريخ فى صعيد أكابر فلاسفة التاريخ ، ومؤسسى علم الاجتماع (انظر مقدمته الشهيرة) .

وما أصلهم ؟ ومن أين نزحوا الى العراق ؟ ومتى كان ذلك ؟ والواقع أنه ليس بالامكان الاجابة جوابا قاطعا على مثل هذه الأسئلة لأنها من القضايا التاريخية التى لما يصل البحث الحديث الى حلها حلا نهائيا مجمعا عليه وجل ما يمكن قوله بهذا الصدد أن من نسميهم بالسومريين فى تاريخ وادى الرافدين القديم كانوا قوما ليسوا من الأقوام السامية [١] ولغتهم غريبة لا تشبه اللغات السامية[٢] ، بل هى من اللغات غير السامية . ولا يعلم زمن مجيئهم الى وادى الرافدين . وانما الذى نعرفه أنهم ازدهروا بثقافتهم فى القسم الجنوبى من العراق منـذ حدود منتصف الألف الرابع ق.م . ومهما كان مهدهم الأصلى الذى نزحوا منه فالمعروف بين جمهور الباحثين أن ما نسميه بالحضارة السومرية انما نشأت وترعرعت فى وادى الرافدين [٣] ، وأنهم عاشوا فيه مع الساميين ولكنهم كانوا على ما هو مجمع عليه ، المؤسسين الأوائل لمقومات الحضارة والعمران . ومنهم اقتبس الساميون فى العراق أصول حضارتهم ، ولا يقتصر تراثهم

---

(١) اطلق مصطلح الاقوام السامية على الأقوام التى تكلمت باحدى فروع عائلة اللغات السامية (كالأكدية والبابلية والأشورية فى العراق والأمورية والكنعانية والارامية والعبرانية والعربية فى ربوع الشام وجزيرة العرب) . وقد طفت هذه الأقوام السامية فى هجراتها على الشرق الأدنى (والمجمع عليه تقريبا ان مهدهم كان الجزيرة العربية) . وأسست فيه دولا وسلالات حاكمة شهيرة . فنذكر فى العراق الفرع الشرقى من الساميين وهم الأكديون والبابليون والأشوريون ، واختصت بلاد الشام بهجرات سامية كثيرة نذكر أشهرهم بالتسلسل التاريخى وهم الأموريون والكنعانيون والفينيقيون والأراميون والعبرانيون والأقوام السامية المتأخرة فى الشام والعراق (وأشهرهم الغساسنة والمناذرة) . وهاجرت جماعات من الساميين فى عهد قديم (لعله قبل الألف الرابع ق . م) الى وادى النيل وامتزجت بالسكان الأصليين هناك فنتج عن هذا الامتزاج المصريون القدماء الذين نعرفهم فى التاريخ .

(٢) يصعب تصنيف اللغة السومرية وارجاعها الى احدى العائلات اللغوية المعروفة الآن . واذا كان ليس بالامكان تعداد ميزاتها هنـا فننوه بخاصية موجودة فى هـذه اللغة السومرية هى التى تعرف بالالصاق (Agglutination) . وانها فى صفتها هـذه شبيهة بالعائلة اللغوية المعروفة باسم « الأورال ـ الطاى » التى منها اللغات الصينية واللغات التركية والمجرية والفنلندية ... الخ .

(٣) نلفت القارىء الى رأى المؤلف الطريف فى الفصـل المعنون « أول عصر بطولة عند الانسان » وهو رأى طريف ولكنه لا يستند الا على الافتراضات .

الثقافى بكونه أساس حضارة وادى الرافدين ، بل انهم أثروا فى جميع الشرق الأدنى ويتجلى ذلك فى الحقول الآتية :

١ — المرجح كثيرا أن السومريين كانوا أول من أوجد وطور الكتابة التى عرفت بعدئذ بالخط المسمارى ، وهو الخط الذى اقتبسه معظم شعوب الشرق الأدنى القديم [1] (وأشهرهم الأكديون والبابليون والعيلاميون والأشوريون والحيثيون والحوريون والميتانيون والفرس الأخمينيون) . وكان ايجاد طريقة للتدوين مفتاح التطور والتقدم الحضارى فى تاريخ الشرق الأدنى .

٢ — تميز السومريون بابداعاتهم فى الحضارة المادية كأسس العمارة والفنون والنظم الاجتماعية والسياسية ، الى غير ذلك من مقومات الحضارة التى أثرت أثرا بارزا فى تقدم شعوب الشرق الأدنى .

٣ — أوجد السومريون آراء وتصورات وأفكارا فى الديانة والأوجه الروحية والعقلية الأخرى . وقد دخل الكثير منها الى معتقدات الديانة العبرانية والمسيحية وترشح الكثير منها الى الحضارة الحديثة .

٤ — تميز هؤلاء السومريون بنتاج أدبى أصيل معظمه بالشعر . وكان له أثره العميق فى الأقوام القديمة ولا سيما فى البابليين والأشوريين والحيثيين والعبرانيين وعن هؤلاء وصل أثره الى الحضارة الحاضرة . ولما كان موضوع هذا الكتاب يتناول هذه الناحية من الثقافة السومرية فأكتفى هنا بمجرد التنويه بها .

---

(١) لا نعلم بالضبط صلة الخط المسمارى بالخط الهيروغليفى من ناحية الأصل والمنشأ ولكن يرى بعض الباحثين احتمال أخذ الحافز من الخط المسمارى فى نشوء الخط الهيروغليفى (*The Legacy of Egypt*, P. 42) . والجدير بالذكر عن سعة انتشار الخط المسمارى أن المصريين القدماء استعملوه مع اللغة البابلية فى مراسلاتهم الدبلوماسية مع أقطار الشرق الأدنى (فى العهد المعروف بعصر العمارنة فى تاريخ مصر) فى القرن الرابع عشر ق.م.

وكان الوقوف على هذا التراث والتعرف عليه من الفصول الممتعة في تأريخ الاكتشافات الحضارية . لقد دون أولئك السومريون تتاجهم الأدبي وكذلك جميع شئون حياتهم بالخط الذي سميناه بالخط المسماري ، واستعمل الخط نفسه الأقوام السامية في العراق . وظل هذا الخط المسماري مستعملا في العراق الى القرون القليلة الأولى ق.م. ثم زال من الوجود ولم يعد أحد يعرفه حتى منتصف القرن التاسع عشر ، حيث بدأت المحاولات الأولى في حل رموزه . واذا كان لايسع المترجم في هذه المقدمة أن يفصل القول في تاريخ هذه المحاولات والمراحل التي تمت في حل الخط المسماري [1] فأكتفي بالتنويه هنا أن قصة حل رموز الخط المسماري شبيهة بقصة حل رموز الخط الهيروغليفي ، اذ كان المفتاح في ذلك أثرا مدونا بثلاثة نصوص لغوية معناها واحد . ففي حالة حل رموز الخط المسماري كان ما يضاهي حجر رشيد في الحضارة المصرية النصوص الكتابية الشهيرة في منحوتات « بهستون » ، وهي من مآثر الملك الفارسي الأخميني « دارا الأول » (٥٢١—٤٨٥ ق.م) . الذي دون مآثره في تلك المنحوتات بثلاث لغات هي الفارسية القديمة والعيلامية والبابلية [2] . وكان أول ما عرف من هذه اللغات والخطوط اللغة الفارسية القديمة بدراسات الكتابات الأخرى في العاصمة الفارسية

---

(١) اذا شاء القارىء الوقوف على تاريخ هذا البحث الطريف فانبه هنا بعض المراجع المبسطة :

1. S.N. Kramer, *Sumerian Mythology* (1944) PP. 1 ff.

2. E.A.W. Budge, *The Rise and Progress of Assyriology* (London, 1925).

3. Weissbach, *Zur Losung der Sumerischen Frage* (1897).

طه باقر : « مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة » الطبعة الثانية (١٩٥٥) الجزء الأول ٤ .

(٢) اما الخطوط واللغات الثلاث التي دونت في حجر « رشيد » الشهير فهي الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية (والكتابات في هذا الحجر دونت ذكرى اعتلاء بطليموس الخامس العرش في ١٩٦ ق . م) .

القديمة « برسيبوليس » (اصطخر) . وبعد معرفة الفارسية القديمة تدرج العلماء الباحثون فى حل اللغة البابلية من كتابات « بهستون » . واشتهر من أعلام الباحثين فى هذا الحقل « هنرى رولنصن » الانجليزى والباحث الأرلندى « هنكس » . ثم تتابعت بحوث العلماء وازدادت المعرفة باللغة البابلية وبعلامات خطها المسمارى . ولم يحل عام ١٨٥٧ للميلاد حتى أصبح موضوع قراءة البابلية والأشورية علما مضبوطا . ومما ساعد على معرفة هاتين اللغتين وأعجل مراحل حل رموزهما أنهما تنتميان الى عائلة اللغات السامية[1] التى منها العربية والعبرانية المعروفتان معرفة جيدة . والى هنا لم نذكر أى شىء عن اللغة السومرية التى هى موضوع هذه الكلمة الموجزة . والسبب فى ذلك أن معرفة العلماء بها قد تأخرت من بعد حل رموز اللغة البابلية . وكان العلماء فى أثناء قراءتهم للكتابات المدونة بالخط المسمارى يجدون فيها مفردات لغة غريبة جديدة لا تشبه اللغة البابلية التى كانوا يدرسونها . وقد سبق لأحد الباحثين فى المراحل الأولى من حل رموز الخط المسمارى (فى عام ١٨٥٠) ، وهو « هنكس » ، ان أظهر الشكوك فى أن البابليين (الساميين) لم يكونوا هم الذين أوجدوا الخط المسمارى ، مستندا فى ذلك الى اعتبارات سليمة (من جهة ملازمة حروف العلة فى الطريقة المسمارية ومعانى

(١) لقد سبق التنويه بالأقوام السامية وبعائلة لغاتهم واتماما للفائدة نذكر فروع هذه العائلة اللغوية . فمن جهة التشابه تقسم عائلة اللغات السامية الى كتلتين : شرقية وغربية . ويدخل ضمن الكتلة الشرقية اللغات السامية التى تكلم بها الساميون فى العراق وهم الأكديون والبابليون والاشوريون ، ومن هذه الكتلة أيضا اللغات العربية الجنوبية . اما الكتلة الغربية (وتعرف باللغات السامية الغربية) فيدخل ضمنها جميع اللغات واللهجات التى تكلم بها الساميون فى بلاد الشام (كالأمورية والكنعانية والعبرانية والآرامية بلهجاتها المختلفة) ومنها ايضا اللغات العربية الشمالية (التى منها العربية الحجازية) .

العلامات المسمارية) . وأنه ذهب الى الرأى أن من أوجد ذلك الخط[1] انما هم قوم غير ساميين ، بل سبقوا البابليين الساميين فى استيطان وادى الرافدين . ثم نشر الباحث الانجليزى الشهير « هنرى رولنصن » فى عام ١٨٥٥ فى « مجلة الجمعية الآسيوية الملكية » بحثا تكلم فيه عن اكتشافه كتابة جديدة بلغة غير سامية وجدها مدونة فى الآجر وفى ألواح الطين التى عثر عليها فى بعض المواقع القديمة فى بلاد بابل مثل « نفر » و « لارسا » و « الوركاء » . وعاود الباحث « هنكس » بحث هـذه المسألة فى عام ١٨٥٦ ، فقرر أن هذه اللغة الجديدة غير السامية هى من نوع اللغات الملصقة Agglutinative . وقد أطلق الباحثون الأوائل على هذه اللغة الجديدة جملة أسماء منها اسم اللغة « السيثية (الاسكيثية) ، وحتى اسم اللغة الأكدية (وهو الاسم الذى أطلق على اللغات السامية فى العراق القديم) . ولكن فى عام ١٨٦٩ سمى الباحث الفرنسى «أوبرت» Oppert هذه اللغة تسمية صحيحة اذ أطلق عليها اللغة « السومرية » لأول مرة [2] .

أما مصادر معرفة الباحثين بهذه اللغة السومرية فقد ظل طوال عشرات السنين مقتصرا على النصوص المدونة بالبابلية والسومرية (أى النصوص المدونة بلغتين) ، وعلى المعاجم التى تشرح معانى المفردات السومرية وأسماء العلامات المسمارية باللغة البابلية ، ولا سيما المعاجم التى جاءتنا

(١) حول بعض الأمور العامة عن الخط المسمارى انظر الملحق الثانى من الكتاب وبوجه خاص الشكل ٥ وشروحه .

(٢) لقد استند هذا الباحث فى تسميته هذه الى اساس صحيح ، هو الألقاب الرسمية الملكية التى وجدت فى الكتابات القديمة . ونعنى بذلك اللقب الشهير « ملك سومر واكد » فنسب بلاد آكد الى القسم الخاص بالساميين . واطلق اسم « سومر » على أهل تلك اللغة غير السامية .

من خزانة كتب الملك الأشورى الشهير « آشور بانيبال » فى القـرن السابع ق.م. وفيما عدا هذا كان هناك فى المتحف البريطانى بوجه خاص بضع كتابات بالسومرية وحدها . ولكن فى عام ١٨٧٧ بدأت أول تنقيبات فى موضع سومرى شهير ، حيث نقب الآثارى الفرنسى « دى سارزك De Sarzec » فى الموضع السومرى القديم « تلو » (وهو موضع مدينة لجش الشهيرة التى سيرد ذكرها كثيرا فى هذا الكتاب) . فكشف عن الكتابات السومرية بأنواعها المختلفة . ثم بدأت التنقيبات الأمريكية فى « نفر » فى عام (١٨٨٧ — الى عام ١٩٠٠) حيث كشفت عن عشرات الألوف من الكتابات السـومرية وبوجه خاص عن النصوص الأدبية السومرية التى تستند اليها مادة هذا الكتاب بالدرجة الأولى ثم تعاقبت التنقيبات فى المدن الشهيرة الأخرى ، مما أسفر عن استخراج العدد الوفير من الوثائق المدونة بعضها باللغات السامية القديمة كالأكدية والبابلية والأشورية وبعضها باللغة السومرية . فساعد ذلك على تفهم اللغـة السومرية وآدابها ، بحيث تسنى لبعض الباحثين من أمثال مؤلفنا الفاضل أن يؤلف فى نتاج الآداب السومرية كتابا شيقا هو هذا الكتاب الذى أقدمه الى القراء .

ونختتم هذه المقدمة فى تعريف الكتاب ومؤلف الكتاب بذكر بعض الأمور التى رأينا لزاما أن ننبه القارىء اليها . فأولا يجدر أن أنوه أن المؤلف الفاضل اقتصر فى كتابه من حضارة وادى الرافدين على ناحية واحدة . هى ناحية النتاج الأدبى الذى ابتدعه السومريون بالدرجـة الأولى . فلم يتناول الأوجه الأخرى من أوجه حضارتهم ، ولا سيما حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الا بقدر ما له مساس بتوضيح الناحية الأدبية الانسانية . وما كان هذا ليكون ممكنا قبل أكثر من عشرين عاما

أى قبل أن تدرس الألواح الأدبية السومرية الصرفة من جانب بعض أعلام الباحثين الذين خصصوا جهودهم لهذه الناحية . وبما أن الأقوام السامية فى العراق (الاكديون والبابليون والأشوريون) قد ساهموا فى بناء حضارة وادى الرافدين فى جميع أوجهها المختلفة وكان لهم أيضا ابداعهم وانتاجهم فى حقل الآداب والفنون ، فيكون هذا الكتاب مقتصرا على عرض وجه واحد من أوجه حضارة وادى الرافدين ومقوماتها ، ولكنه أهم وجه من هذه الحضارة وهو أسسها وأصولها ، لأن السومريين كانوا الواضعين لأسس تلك الحضارة ، والرواد فى طلائع الحضارة البشرية .

واذ كان المترجم قد نوه فى تعليقات له كثيرة فى متن الكتاب ببعض الآراء التى تفرد بها المؤلف مما لا يقره عليها الباحثون الآخرون ، فاننى أكتفى بما أوردته من تلك الملاحظات مشيرا بوجه خاص فى ختام كلمتى هذه الى أن الفصل المعنون « أدب الملاحم » و « أول عصر بطولة عند الانسان » ، ولا سيما الاستنتاجات التى توصل اليها المؤلف فانها ليست فى الواقع سوى افتراضات مستندة الى افتراضات على الرغم مما فيها من طرافة وجدة فى معالجة مشكلة مهمة فى تاريخ حضارة وادى الرافدين، وأعنى بها مشكلة أصل السومريين وعهد استيطانهم فى العراق وهل كانوا أول قوم استوطنوه أو سبقتهم فى ذلك أقوام آخرون .

وهناك أمر آخر تجدر الاشارة اليه هو أنه قد لا يقر المختصون الآخرون فى حقل المؤلف نفسه استنتاجاته التى استخلصها من تفسيره للوثائق التى فى متناول يده ، كما قد يختلفون معه فى أداء ترجمة تلك الوثائق وفهم فحواها وتفسير مضموناتها ، ولكن مع ذلك فسوف يظل مؤلف الكتاب ، الأستاذ « كريمر » ، علما شاخصا بين الباحثين فى أصول الحضارة والعمران البشرى فى فضل تعريفه بأهم موضوع حضارى الى غير المختصين .

المترجم

توطئة المؤلف

لقد كنت طوال الأعوام الستة والعشرين الماضية منكبا على الاشتغال فى ميدان البحوث السومرية وبوجه خاص فى الأدب السومرى . وقد ظهرت نتائج تلك الدراسات فى الأغلب على هيئة كتب عالية الاختصاص وفى رسائل ومقالات متفرقة فى عدد من المجلات العلمية . أما هذا الكتاب الذى بين أيدينا فهو يجمع بين دفتيه النتائج التى تضمنتها تلك البحوث السومرية والمؤلفات والنشرات الخاصة بها ويقدمها لغير المختصين ، والى المعنيين بالدراسات الانسانية والى العلماء .

يتألف هذا الكتاب من خمسة وعشرين موضوعا ينظمها جميعا عقد واحد مشترك : انها جميعها تخبرنا عن « الأوائل » (أوائل الأشـياء وأصولها) فى تاريخ الانسان المدون . وعلى هذا فان أهميتها ليست بالقليلة فى تاريخ الآراء وفى درس أصول الحضارة . ولكن هذا ماهو الا نتاج ثانوى عرضى ، ومن نتائج البحوث السومرية . والهدف الأصلى لهذه المقالات هو تقديم صورة واضحة لما حققته مدنية من أقدم مدنيات الانسان وأكثرها ابداعا وخلقا وذلك فى الناحيتين الروحية والثقافية . لقد عرضت فيها جميع النواحى الأساسـية لجهود الانسـان : الحكومة والسياسة . التربية والأدب . الفلسفة والأخلاق . القانون والعدالة بل أيضا الزراعة والطب . وانى لآمل أن تكون الشواهد المبينة لهذه الأمور قد أوجزت تصـويرها بلغـة واضـحة لا لبس فيهـا . والأهـم من ذلك أنى عرضت نصوص الوثائق القديمة نفسها أمام القارىء اما

بهيئتها الكاملة أو بعرض الاقتباسات الأساسية منها ، ليدرك القارىء بنفسه روحها وكنهها ويستذوق طعمها ولكى يتابع بنفسه سياق المناظرة والاستدلال .

ان القسم الأكبر من المادة العلمية التى جمعت وعرضت فى هـذا الكتاب ممزوج بـ « دمى وكدى ودموعى وعرقى » وهذا هو السبب لما سيجده القارىء من الطابع الشخصى المتغلغل فى جميع صفحاته . ففى مبدأ الأمر كنت أنا الذى جمعت نصوص الوثائق بعضها الى بعض ، وترجمتها . وفى حالات غير قليلة كنت فى الواقع أنا الذى اهتديت الى تعيين ماهية الألواح التى نقلت عنها تلك الأجزاء . بل اننى هيأت النسخ المكتوبة باليد لنقوشها .

ومهما كان الأمر فليست « البحوث السومرية » الا فرعا من فروع الدراسات المسمارية ، وهى الدراسات التى بدأت منذ أكثر من قرن من الزمان . ولقد قام فى غضون هذه السنين عشرات من الباحثين بدراسات لا عداد لها أضافت الكثير الى معارفنا ، يستخدمها الآن الباحثون فى « المسماريات » ويجنون منها أجزل الفوائد ، اذ اتخذوها أسسا بنوا عليه دراساتهم من حيث يشعرون أو لا يشعرون . وقد مات معظم هؤلاء العلماء منذ زمن بعيد وليس على الباحث السومرى الآن الا أن يطأطىء رأسه اعترافا بجميلهم وفضلهم ، اذ هو ينتفع من نتاج جهود سلفه الذين لا يذكر أسماءهم . على أنه سرعان ما ستنقضى أيامه هو أيضا ، وسيصير المثمر من بحوثه جزءا من ذلك المجرى الذى تتجمع فيه الفروع المختلفة، ألا وهو مجرى « البحوث المسمارية » .

هذا وأرانى مدينا بوجه خاص الى ثلاثة من أولئك العلماء المتوفين

حديثا : أولهم العلامة الفرنسى « فرانسوا تورو دانجان » (François Thureau-Dangin الذى كان العلم المبرز فى حقل البحوث المسمارية طوال نصف قرن من الزمان ، والذى كان فى رأيى المثل الأعلى لما ينبغى أن يكونه العالم الباحث : مكثر فى الانتاج ، واضح جلى ، ومدرك لخطورة موضوعه ، ثم هو على الدوام مستعد للاقرار بالجهل مفضلا ذلك على أن يشتط فى نظرياته . وثانيهم « أنتون دايمل » (Anton Deimel) أحد علماء الفاتيكان ذو الادراك الثاقب فى تنظيم المعاجم وتأليفها الذى برهن مؤلفه الضخم « المعجم السومرى » (Schumerisches Lexicon) على عظم فوائده رغم نقائصه المتعـددة . وثالثهـم « ادوارد كييرا » (Edward Chiera) الذى مهد بعد نظره ونشاطه السبيل لى فى بحوثى فى الأدب السومرى .

ومن بين الباحثين الأحياء فى « المسماريات » ممن وجدت دراساتهم عظيمة القيمة فى حقل (ميدان) مفردات اللغة السومرية ومعجمها أخص بالذكر « آدم فلكنشتاين (Adam Falkenstein) من جامعة « هايدلبرج » [1] و « ثوركلد ياكوبسن » (Thorkild Jacobsen) من المعهد الشرقى لجامعة شيكاغو وسيتكرر ظهور اسميهما ومؤلفاتهما فى صفحات هذا الكتاب . زد على ذلك أنه فى حالة « ياكوبسن » ، ترعرع بينى وبينه تعاون أوثق من جراء عملنا معا فى بحث ألواح الطين التى عثرت عليها فى « نفر » عام (١٩٤٨/١٩٥٢) بعثة التنقيبات الأثرية المشتركة من المعهد الشرقى لجامعة شيكاغو ومتحف جامعة بنسلفانيا . هذا الى أن المؤلفات الحافزة المرشدة التى أنتجها الباحث « بنو لانذبرجر » [1] (Benno Landsberger)

---

(١) يلفظ الجيم كافا فارسية كاللهجة العامية المصرية فى جميع الأعلام والأمكنة الواردة . (المترجم)

الذى يعد من أكثر علماء العالم انتاجا فى الدراسات المسمارية ، كانت لى موردا دائما لاستقاء المعرفة والهداية ، وان مؤلفاته الحديثة بوجه خاص تعد بحق كنوزا قيمة فى المباحث « المسمارية » اللغوية .

بيد أن أعظم دين أدين به فى بحوثى انما يعود الى « أرنو پوبل » (Arno Poebel) الذى تزعم قيادة البحوث السومرية طوال نصف القرن الماضى . ففى غضون السنوات العشر منذ ١٩٣٠ كنت ، بصفتى عضوا فى الهيئة التى اشتغلت باعداد «المعجم الأشورى» فى المعهد الشرقى ، ملازما له أنهل من فيض علمه . وفى تلك الأزمان يوم لم تكن « البحوث السومرية » معترفا بها فى أمريكا على أنها من المواد التى تدرس فى الجامعات أغدق على (پوبل) وهو اللوذعى فى أساليب البحوث السومرية من علمه ووقته الشىء الكثير .

وليس علم « السومريات » ، كما يستطيع أن يحدس القارىء ، من الموضوعات الأساسية التى تدرس حتى فى أكبر الجامعات الأمريكية ، ولذلك لم يكن السبيل الذى اخترته سبيلا يؤدى بصاحبه الى الثروة . فلكى أبلغ مركز أستاذ دائم مضمون كنت على الدوام فى كفاح مالى صعب . وكانت الأعوام (١٩٣٧ — ١٩٤٢) مرحلة متأزمة فى قصة حياتى العلمية ، ولولا تلك الهبات المالية التى حصلت عليها من « مؤسسة جون سيمون جوجنهايم التذكارية » [1] ومن « الجمعية الفلسفية الأمريكية » لانتهى مصيرى العلمى قبل الأوان . وفى السنين الحديثة استطعت بمساعدة « مؤسسة بولنجن » [2] أن أضمن المساعدة المالية الضرورية لتسيير الأعمال الكتابية والعلمية الخاصة بمباحثى

(١) John Simon Guggenheim

(٢) Bollingen Foundation

السومرية » كما مكنتنى من السفر خارج أمريكا فى شئون تتعلق بتلك المباحث .

وانني لأشعر بامتنان عميق لمصلحة الآثار فى الجمهورية التركية والى مدير متحف الآثار فى استانبول للمعونة الكريمة التى أمدونى بها . فلقد تمكنت من الافادة باستعمال الألواح السومرية الأدبية فى متحف الشرق القديم فى استانبول حيث كانت الأمينتان الموكلتان بمجموعات ألواح الطين وهما « معززجك » و « هاتيجه كزلياى » مصدر عون قيم لى لا سيما فى استنساخ عدة مئات من كسر ألواح الطين المنقوشة بأجزاء من التآليف الأدبية السومرية .

وبالختام أود أن أعبر عن شكرى الجزيل الى السيدة « جرترود سلفر » (Mrs Gertrude Silver) التى ساعدتنى فى كتابة مسودات هـذا الكتاب على الآلة الكاتبة .

فيلادلفيا ، بنسلفانيا

صمويل كريمر

مقدمة المؤلف

لا يكاد يوجد بين المتخصصين فى الدراسات الأكاديمية من هو أضيق تخصصا من الباحث فى السومريات ، فهو يكاد أن يكون مثـلا كاملا للرجل الذى يقال عنه « انه يعرف أكثر ما يمكن عن أقل الأشياء » فالعالم الذى يهتم به يتقلص الى ذلك الجزء الصغير منه المعروف باسم «الشرق الأوسط » ، ويقتصر فى دراساته التاريخية على ما حـدث قبل زمن الاسكندر الأكبر . ويقتصر فى مدى بحثه على الوثائق المدونة المكتشفة فى بلاد ما بين النهرين . ثم هو يحدد من اسهامه فى مجـالات البحث فيقصره على تلك النصوص المدونة باللغة السومرية . وتراه يكتب وينشر مقالات ورسالات تحت عناوين غريبة مثيرة مثل عنـوان « أدوات التصدير Be و Bi فى عهد امراء لجش الأوائل » [١] ومثل « رثاء تخريب مدينة أور » [٢] و « جلجـامش واجـا صاحب كيش »[٣] و « اينمركار وسيد أرتا »[٤] . وبعد أن يمضى عليه ثلاثون عاما وهو يكتب مثل هذه البحوث وأمثالها التى تكاد تقلب الدنيا رأسا على عقب!! ينال جزاءه فيصبح باحثا سومريا ! ومهما كانت الحـال فان ذلك هو ما حدث لى .

---

(١) "The *Be* and *Bi* Prefixes in the Times of the Early Princes of Lagash" وهو عنوان بحث نشره المؤلف فى رسالة خاصة . **(المترجم)**

(٢) وهو عنوان مقال نشره المؤلف . انظرنشرة « الدراسات الأشورية » الخاصة التى يصدرها المعهد الشرقى لجامعة شيكاغو *Assyriological Studies* No. 12 (1940)

(٣) تلفظ الجيم فى « جلجامش » و « اجا » كافا فارسية . انظر المقال الذى نشره المؤلف وسيأتى البحث فيه فى الفصول الآتية . **(المترجم)**

(٤) سيأتى البحث فيه فى فصول الكتاب الآتية .

ومع ذلك فان هذا المؤرخ الذى يقتصر فى مجال البحث على أقل وأضيق النقط ، ذلك الذى يمكننا ، أن نقول عنه انه يعمل على صورة مضادة للطريقة التى يذهب اليها « توينبى » فى دراسة التاريخ[1] .

يستطيع أن يقدم الى القارىء العام أمورا على غاية من الأهميـة والطرافة ، على الرغم من أن ذلك قد يبدو بعيدا عن التصـديق . فان الباحث السومرى يستطيع ، أكثر من معظم العلماء والمختصين ، أن يشبع لهفة الانسان فى بحثه الدائم المتطلع عن أصول الأشياء أو بعبارة أخرى « أوائل الأشياء » فى تاريخ الحضارة .

مثلا — ماذا كانت أولى مُثل الانسان الأخلاقية المدونة ؟ وماذا كانت آراؤه الدينية ؟ وكيف كانت أفكاره السياسية والاجتماعية وتأملاته الفلسفية ؟ كيف كانت أوائل المدونات فى التاريخ والأساطير وقصص الملاحم والتراتيل الدينية ؟ كيف كانت تصاغ أولى العقود القانونية ؟ من كان أول مصلح اجتماعى ؟ متى حدث لأول مرة فى التـاريخ أول تخفيض فى الضرائب ؟ من كان أول مشرع ؟ متى اجتمع أول برلمان ذى مجلسين[2] ولأى غرض كان اجتماعه ؟ وكيف كانت أولى مدارس التعليم عند البشر ؟ وكيف كانت مناهجها وهيئة مدرسيها وطلابها ؟

ان هذه وكثيرا من نظائرها من « أوائل الأشياء » فى تاريخ الانسان

(١) أرنولد ج . توينبى (Arnold Toynbee) المؤرخ الانجليزى الشـهير ، ومن أعاظم مؤرخى العصر الحديث الذى اشـتهر ببحـوثه فى التـاريخ وفلسـفة التـاريخ . وهو رئيس قسم الشئون الدولية فى المعهد الملكى الانجليزى . ولعل أكثر ما اشتهر به مؤلفاته الضـخمة فى التاريخ وفلسـفة التاريخ (A Study of History) ووجـه المقارنة المعكوسة بين « توينبى » ومؤلف هذا الكتاب هو اتساع مدى بحوث توينبى (أنظر نقل كتابه المشار اليه الى العربية من جانب المترجم) . (المترجم)

(٢) Bicameral Congress اى البرلمان المؤلف من مجلس النواب ومجلس الشـيوخ . (المترجم)

المدون لهى من صلب اختصاص « الباحث السومرى » . ففى وسعه أن يجيب بالجواب الصحيح عن تلك الأسئلة الكثيرة الخاصة بالأصـــول الثقافية . على أن سبب ذلك ليس لأنه فى الواقع عميق الفهم ، أو أنه قادر على استشفاف أسرار الأشياء بوجه خاص ؛ أو لأنه متعمق فى الحكمة واللوذعية الخارقة . اذ الواقع أن الباحث الســـومرى ليس الا شخصا محدود المدى وانه قليل القدر حتى بين أولئك «الأكاديميين» المتواضعين . أما الفضل فى كثرة مايستطيع تقديمه ذلك الباحث السومرى من أوائل الأشياء وأصول الثقافة فلا يعـــود اليه وانما يرجـــع الى « السومريين » أنفسهم الى أولئك القوم الموهوبين العمليين ، الذين كانوا على ما نعلم حتى الآن أول من اخترع وطور طريقة ناجحة فى الكتابة.

وهناك حقيقة عجيبة هى أنه قبل قرن مضى لم يكن أحد يعرف أى شىء حتى عن وجود هؤلاء السومريين فى العصور القديمة ؛ وان المنقبين عن الآثار والعلماء الباحثين الذين بدأوا قبل نحو مائة عـــام ينقبون ويبحثون فى ذلك الجزء من الشرق الأوسط المعروف باسم « بلاد ما بين النهرين » (العراق) لم يكونوا ينقبون ويبحثون عن السومريين وانما عن الأشوريين والبابليين . وكان لدى هؤلاء الباحثين عن هذين القومين وعن حضارتيهما أخبار غير قليلة من المصادر الاغريقية والعبرانية . أما عن بلاد سومر والسومريين فلم يكن لديهم أية اشارة أو لمحة ، اذ لم يرد أى أثر معروف عن بلاد السومريين أو عن أهلها فى جميع المصادر المتوافرة لدى الباحث الحديث . فان نفس « اسم » سومر قد امّحى من فكر الانسان وذاكرته طوال أكثر من ألفى عام .

ومع ذلك فان السومريين الآن هم من بين شعوب الشرق الأدنى القديم الذين نعرف عنهم الشىء الكثير . فقد أصبحنا نعرف كيف كانت

هيئآتهم وأشكالهم مما خلفوه لنا من تماثيلهم وأنصابهم (لوحاتهم) المنحوتة ، الموجودة فى عدد من أهم متاحف هذا البلد (أمريكا) وفى المتاحف الأخرى فى الخارج .

وهنا ، فى مثل هذه المتاحف ، يجد المرء أشياء تمثلهم أحسن تمثيل من ناحية ثقافتهم المادية كالعمد والآجر مما كانوا يشيدون به معابدهم وقصورهم ، وآلاتهم وأدواتهم وأسلحتهم ، أوانيهم وأوعيتهم ، أعوادهم وقيثاراتهم ، مجوهراتهم وحليهم . أضف الى ذلك أن هناك عشرات الألوف من ألواح الطين التى دونوا عليها الوثائق الخاصة بمعاملاتهم التجارية والقانونية والادارية مما تزخر به تلك المتاحف بين مجموعاتها الأثرية ، ونعرف منها الكثير عن النظام الاجتماعى ، والتنظيمات الادارية الخاصة بأولئك السومريين القدامى . والواقع أنه فى وسعنا أن نتوغل الى حد ما الى قلوبهم وأنفسهم — بينما يكون علم الآثار فى هذه الناحية أقل ثمرة نظرا لطبيعته الخرساء الساكتة . ففى متناول أيدينا عدد كبير من وثائق الطين السومرية المدونة بابداعهم وانتاجهم فى الأدب مما يكشف لنا عن الديانة السومرية والمبادىء الأخلاقية والفلسفية . وذلك لأن السومريين كانوا من بين الشعوب القلائل الذين لم يقتصروا على أنهم اخترعوا على الأرجح طريقة الكتابة بل هم طوروها وجعلوا منها أداة ناجعة للتدوين ونقل الأفكار .

لقد حدث فى أواخر الألف الرابع ق . م أى قبل نحو خمسة آلاف عام على ما يرجح أن السومريين وفقوا الى فكرة الكتابة على ألواح الطين بدافع حاجاتهم الاقتصادية والادارية . كانت أولى محاولاتهم فى الكتابة ساذجة فجة وبطريقة رسم الصور ولهذا لم يمكن استعمالها الا فى

أبسط أنواع التأشيرات الادارية . بيد أن الكتبة والمدرسين السومريين استطاعوا بالتدريج فى القرون التى أعقبت اختراع الكتابة أن يحوروا ويطوروا طريقة كتابتهم الى درجة فقدت فيها صفتها وهيئتها الصورية وأصبحت طريقة صوتية صرف [1] فى الكتابة وجهازا مصطلحا عليه وعلى درجة عالية من الرقى . وفى النصف الثانى من الألف الثالث ق . م أصبح فن الكتابة السومرية على درجـة من المرونة والقابلية بحيث أمكن التعبير بوساطتها بلا صعوبة عن أعقـد الكتابات التاريخية والأدبية . وليس هناك أدنى شك فى أن أرباب القلم من السومريين قد عمدوا فى الواقع فى زمن ما قبل نهاية الألف الثـالث ق . م الى تدوين ابداعاتهم الأدبية فى ألواح الطين وفى « المناشير » [2] والأساطين [3] ، وهو ذلك الانتاج الذى كان يتداوله الناس بطريق الرواية الشفهية حتى ذلك العهد. ولكن مهما كان الأمر فانه لم يعثر فى التنقيبات الا عن وثائق أدبيـة قليلة من ذلك العهد القديم وذلك راجع الى الصدفة فقط مع أنه جاءنا من هذا العهد نفسه عشرات الألوف من ألواح الطين المدونة بأمور تتعلق بالشئون الاقتصادية والادارية ، وعلى مئات من الكتابات المتعلقة بالنذور والقرابين .

وكان علينا أن ننتظر الى النصف الأول من الألف الثانى ق . م حتى نجد مجموعة من آلاف الألواح وكسر الألواح المدونة بالمؤلفات الأدبية السومرية . لقد كشف عن القسم الأعظم من هذه الألواح فى التنقيبات الأثرية التى أجريت فى عامى ١٨٨٩ و ١٩٠٠ فى مدينة « نـُفـَّر » ، وهى موضع سومرى قديم لايبعد أكثر من ١٠٠ ميل عن بغداد .

---

(١) الأصح أن لايقال صرف لأن المعروف عن الكتابة المسمارية انها لم تتطور الى المرحلة الصوتية الصرف ولو بهيئة مقاطع وانما ظلت خليطة من كتابة صوتية مقطعية وكتابة رمزية (ويقصد بالكتابة الرمزية ان العلامات تقوم مقام الكلمات) . (المترجم)

(٢) Prism　　(٣) Cylinder

وتوجد الغالبية العظمى من هذه الألواح فى متحف جامعة فيلادلفيا وفى متحف الشرق القديم فى استانبول ، وقد أمكن الحصول على القسم الأعظم من الألواح الأخرى بوساطة تجار الآثار وليس عن طريق التنقيبات الآثارية ، وأكثرها موجود الآن ضمن مجموعات المتحف البريطانى وفى متحف « اللوفر » ومتحف برلين وفى جامعة « ييل » . أما أحجام هذه الوثائق فهى تتراوح بين الألواح الكبيرة المؤلفة من اثنى عشر حقلا من النصوص المنقوش كل منها بمئات الأسطر المتراصة ، الى الكسر والقطع الصغيرة التى لا تحتوى الا على بضعة أسطر ناقصة .

ان التآليف الأدبية المنقوشة فى مثل هذه الألواح وكسر الألواح لتبلغ المئات عدا . وهى تتباين فى أطوالها من مجرد تراتيل دينية قوامها أقل من خمسين سطرا الى أساطير وقصص قد تناهز ألف سطر فى مقاديرها . أما من ناحية نماذجها ومحتوياتها فهى تعرض لنا تنوعا فى الأبواب والنماذج التى اذا اعتبرنا قدمها تعد على غاية من الروعة والابانة. فقبل أن يدوّن العبرانيون توراتهم ، والاغريق «الياذتهم» و «أوديستهم» بألف عام ، نجد فى بلاد « سومر » أدبا غنيا ناضجا يتضمن الأساطير وقصص الملاحم والتراتيل والمراثى ومجموعات متنوعة من الأمثال والخرافات والرسائل والمقالات . وعلى هذا فليس بعيدا عن الواقع اذا تنبأ المرء بأن الكشف عن هذا الأدب القديم الذى ظل منسيا دهرا طويلا واعادته ستكون فى الواقع عملا عظيما يقدمه قرننا الراهن الى الدراسات الانسانية (١) .

---

(١) Humanities ويقصد بها فروع الدراسات الخاصة بالفكر الانسانى وتطوره وعلاقة الناس بعضهم ببعض ، وعلى الأخص فى ميادين الأدب والفلسفة والتاريخ والفنون الجميلة . (المترجم)

ولكن تحقيق هذا الواجب ليس بالأمر السهل اليسير . فهو يتطلب جهودا مركزة من جانب عدد كبير من الباحثين السومريين يشتغلون مدة من السنين ، لا سيما اذا أخذنا بعين الاعتبــار أن معظم ألواح الطين المجففة بالشمس قد استخرج من التراب وهو مهشم وبحالة غير كاملة ، بحيث لم يبق سالما منه الا أجزاء قليلة من المحتويات الأصلية المجزأة فى جملة كسر وقطع . بيد أن هناك حقيقة تعوض عن هــذه الخسارة والنقص ، تلك هى أن « الأساتذة » السومريين القدامى وطلابهم هيأوا نسخا كثيرة من كل باب من أبواب التآليف الأدبية السومرية . ولذلك فان الأجزاء الناقصة والثغرات الحاصلة فى أحد الألواح أو فى جزء منه يمكن فى الغالب استعادتها وتكميلها من النسخ المكررة التى قد تكون بدورها فى حال غير كاملة أيضا . ولكن لكى تتم الفائدة الكاملة من مثل هذه القطع أو النسخ المكررة ينبغى أن تكون مادة مثل هذه المصادر فى متناول اليد عن طريق النشر . وان هذا يستلزم فى الغالب الاستنساخ اليدوى لمئات ومئات من ألواح الطين وكسرها المنقوشة بخطوط دقيقة ، وهو عمل شاق ، منهك للقوى ، ومستهلك للوقت .

ولنأخذ تلك الحالات النادرة التى لاتسد فيها طريق الباحث مثل هذه العقبات ، حين يكون نص التأليف السومرى بكامله قد استعيد وأكمل بوجه واف . فيكون كل ما يقتضى عمله فى مثل هذه الحالات أن تترجم تلك الوثيقة القديمة ويدرك معناها الأساسى . ولكن هذا أمر أسهل أن يقال من أن يفعل . فمع أن نحو اللغة السومرية ، التى مضى على موتها دهر طويل ، هو الآن معروف معرفة جيدة بفضل ما تجمع من الجهود التى ساهم فيها العلماء الباحثون طوال المائة العام الماضية ، الا أن معرفة مفردات تلك اللغة شىء آخر . فبالنسبة الى موضوع معانى المفردات



شكل ٥ ــ أصل الكتابة المسمارية وتطورها ــ ثبت يبين هيئات ثماني عشرة علامة ممثلة يتراوح تاريخها بن ٣٠٠٠ ق. م و ٦٠٠ ق. م .

وتطورها (١) فان الباحث السومرى المتعب يجد نفسه بين حين وآخر

(١) Semantics وهو علم معانى مفردات اللغة الذى يبحث فى تطور المعنى وأساسه السيكولوجى ... الخ . (المترجم)

كمن يدور حول نفسه ، فهو غالبا ما لا يكون فى وسعه الا التخمين والحدس فى معنى الكلمة من سياق النص المتضمن لها — وهذا لعمرى أمر مثبط مخيب للأمل . ولكن مع الصعاب الناجمة عن النصوص وعلى الرغم من المشاكل اللغوية المعجمية ، فقد ظهر الى الوجود فى السنين الحديثة عدد من الترجمات الموثوق بصحتها للمؤلفات الأدبية السومرية. وان هذه الترجمات ، المستندة الى جهود جملة باحثين ساهموا فى الموضوع وهم بين ميت وحى ، لتصور لنا تصويرا مؤثرا ما عسى أن يحققه البحث العلمى المنتج ، المبنى على التعاون والجهود المركزة ذات الصفة الدولية . فالحقيقة أنه فى تلك العشرات من السنين التى أعقبت الكشف عن الألواح الأدبية السومرية من التنقيبات التى أجريت فى مدينة « نفّر » انكب غير واحد من الباحثين الذين أدركوا قيمتها وجليل قدرها على درسها واستنساخ بعضها . نذكر من بينهم « جورج بارتون » (George Barton) و « ليون لجران » (Leon Legrain) و « هنرى لتز » (Henry Lutz) و « دفيد ميرمن » (David Myhrman) فكلهم ساهم فى انجاز هذا الواجب .

هذا وان الباحث « هوجو راداو » (Hugo Radau) وهو أول من وقف الكثير من وقته وطاقته على درس مادة الأدب السومرى ، كان قد أعد نسخا مضبوطة موثوقا بها لأكثر من أربعين لوحا من الألواح الموجودة فى متحف جامعة بنسلفانيا . ومع أن البحوث السومرية لم تكن قد نضجت وتقدمت فى زمنه ، الا أنه اشتغل بنشاط وهمة فى ترجمة هذه النصوص وتفسيرها وأحرز بعض النجاح فى ذلك المضمار . ونذكر المستشرق الانجلو — أمريكى الشهير « ستيفن لنجدون »

(Stephen Langdon)حيث تناول الموضوع من حيث انتهى « راداو » ، فاستنسخ ما يناهز مائة لوح من مجموعات الألواح المستخرجة من «نُفَّر» الموجودة فى كل من متحف جامعة بنسلفانيا ومتحف الشرق القديم فى استانبول . وكان « لنجدون » يميل الى سرعة الاستنساخ مما أدى الى أن تتسرب الى عمله أخطاء غير قليلة ؛ أضف الى ذلك أن ما حاوله من تفسير وترجمة ظهر أنه لم يثبت أمام النقد على مرّ الأيام ، ولكنه من ناحية أخرى نجح فى أنه جعل فى متناول أيدى الباحثين عددا مهما من النصوص الأدبية السومرية التى لولاه لبقيت منسية مخزونة فى خزانات المتاحف . انه ساعد بشغفه وحماسته على أن يجعل صحبه من المختصين فى المسماريات يدركون أهمية ما تضمنته تلك الألواح .

وكانت المتاحف الأوربية فى الوقت نفسه تعمل بالتدريج على جعل مجموعات الألواح الأدبية السومرية فى متناول أيدى الباحثين. فمنذ وقت مبكر يرجع الى عام ١٩٠٢ ، يوم كانت البحوث السومرية فى مرحلة طفولتها ، نشر المؤرخ البريطانى المختص بالمباحث المسمارية « كنج » (L. W. King) ستة عشر لوحا كاملا سليما من بين مجموعات المتحف البريطانى . ومن بعد نحو عشر سنين نشر « هاينرش تسمرن » (Heinrich Zimmern) من جامعة ليبزج مئتى نسخة متنوعة من الألواح الموجودة فى متحف برلين . وفى عام ١٩٢١ نشر سيرل جاد (Cyrill Gadd) أحد أمناء المتحف البريطانى فى ذلك الوقت ، عشر نسخ مهمة من الألواح التى لم تكن مألوفة . وجعل المنقب الفرنسى المرحوم «هنرى دى جنوياك» (Henri de Genouillac) فى عام ١٩٣٠ فى متناول أيدى الباحثين ثمانية وتسعين نسخة من الألواح المحفوظة حفظا جيدا ، مما اقتناه متحف « اللوفر » من ألواح الطين . ونخص بالذكر أحد مشهورى العلماء

المساهمين فى حقل الأدب السومرى وفى الدراسات السومرية ذلك هو « ارنوپوبل » الباحث الذى أقام الدراسات السومرية على أسس علمية بنشره كتابا مفصلا فى نحو اللغة السـومرية فى عام ١٩٢٣[1] . ونذكر مؤلفه الضخم الجليل المعنون « نصوص تاريخية ونحوية » [2] المشتمل على أكثر من (١٥٠) نسخة فاخرة من الألواح المكتشفة فى « نفَّر » ، والمحفوظة فى متحف الجامعة فى بنسلفانيا حيث يوجـد من بينها نحو ٤٠ لوحا منقوشا بأجزاء من مؤلفات أدبية سومرية .

ولكن الاسم البارز بروزا كبيرا فى حقل الأدب السـومرى هو « ادوارد كيرا »(Edward Chiera)الذى كان من أعضاء هيئة التدريس فى جامعة بنسلفانيا عددا من السنين . فانه ، أكثر من غيره ممن سبقه من الباحثين ، كان يدرك ادراكا أجلى وأوضح قيمـة التآليف الأدبيـة السومرية . كما أنه كان شاعرا بالحاجة الأساسية الماسة الى استنساخ ونشر النصوص السومرية المكتشفة فى نفر والموجـودة فى استانبول وفيلادلفيا ، ولهذا شد الرحال فى عام ١٩٢٤ الى استانبول واستنسخ زهاء خمسين قطعة من مجموعة ألواح « نفَّر » . وكان من بين هذه النصوص عدد من الألواح الكبيرة المحفوظة حفظا جيدا ، وقد تمكن الباحثون من دراستهم لما تضمنته تلك الألواح من ادراكهم لأشياء جديدة لم يدركوها من قبل فى التآليف الأدبية السومرية ؛ واستنسخ فى السنوات التى أعقبت ذلك التاريخ أكثر من مائتى لوح من ألواح « نفَّر » مماكان مودعا فى متحف جامعة بنسلفانيا ، فاستطاع أن يضع بين أيدى زملائه

(١) (وعنوانه)

Arno Poebel, *Grundzuge der Sumerischen Grammatik* (Rostoch 1923)

(٢) Historical and Grammatical Texts

من الباحثين المختصين بالمسماريات مادة من تلك النصوص أكثر مما استطاع أن يفعله سلفه الباحثون بأجمعهم ، بحيث يصح القول انه نتيجة لصبره وبعد نظره استطاعت قيمة الآداب الرفيعة السومرية أن تنال ما تستحقه من التقدير اللائق بها .

وكان الباعث لى على اهتمامى بهذا البحث الضيق التخصص الى أبعد الحدود ناتجا عما ساهم به « ادوارد كييرا » من دراسات فى ذلك الحقل ، على الرغم من اننى أدين بفضل تدريبى فى المباحث السومرية الى « ارنو پوبل » الذى كان لى الحظ الوفير بالاشتغال معه اشتغالا وثيقا عددا من السنين فى أعقاب عام ١٩٣٠ . وعندما استدعى « كييرا » الى المعهد الشرقى فى جامعة شيكاغو ليكون على رأس المشروع الخاص « بالمعجم الأشورى » استصحب معه استنساخاته لألواح « نفر » الأدبية ، فتولى المعهد الشرقى نشرها فى مجلدين . وبعد أن توفى «كييرا» فى عام ١٩٣٣ عهدت الىّ دائرة النشر فى ذلك المعهد أن أهيىء نشر هذين المجلدين ليخرجا باسم « كييرا » المتوفى . وأدركت أثناء اضطلاعى بانجاز ذلك الواجب قيمة الوثائق الأدبية السومرية كما تيقنت من أن كل الجهود الرامية الى ترجمة هذه الوثائق ونشر ترجمتها ستكون جهودا عقيمة على وجه العموم ، وستظل كذلك حتى يتسنى جعل الكثير من ألواح « نفر » ، الموجودة فى متحف استانبول والتى تستنسخ ، مهيأة لاستعمال الباحثين بطريق استنساخها .

ولهذا السبب وقفت معظم جهودى العلمية فى العشرين سنة التالية على مهمة الاستنساخ والجمع بين كسر الألواح المبعثرة وعلى ترجمة وتفسير التآليف الأدبية السومرية . ففى عام ١٩٣٧ شددت الرحال الى

استانبول بمنحة مالية من مؤسسة « جوجنهايم » . واستطعت بمساعدة دائرة الآثار التركية وتعاون موظفيها المسئولين أن أستنسخ من مجموعات ألواح « نفر » المخزونة فى متحفها أكثر من مائة وسبعين لوحا من الألواح المنقوشة بأقسام من المؤلفات الأدبية السومرية ، ولقد نشرت هذه النسخ مع مقدمة مطولة بالتركية والانجليزية . أما السنوات التالية فقد جعلت أكبر همّى فيها منصرفا للاشتغال فى متحف الجامعة فى فيلادلفيا . وهنا استطعت بمساعدة مالية سخية من « الجمعية الفلسفية الأمريكية » أن أدرس وأصنف المئات من الوثائق الأدبية السومرية مما لم تكن نشرت من قبل ، كما حققت وعينت ماهية محتويات أكثرها بحيث أمكن تصنيفها فى الأبواب المختلفة الخاصة بها من أنواع التآليف السومرية ، هذا الى اننى استنسخت عددا منها . وفى عام ١٩٤٦ سافرت مرة أخرى الى استانبول وأتممت استنساخ ما يناهز مائة لوح من الألواح المختلفة التى نقشت جميعها تقريبا بأجزاء من الأساطير وقصص الملاحم السومرية. وهى الآن فى طريق التهيئة والاعداد للنشر . ولكننى أعرف حق المعرفة أنه لا يزال هناك فى متحف استانبول مئات أخرى من الألواح التى لم تنشر فينتفع بها . ولكى أكمل هذا الواجب منحت منصب أستاذ باحث على حساب مشروع « فلبرايت » فى تركيا لعام ١٩٥١ — ١٩٥٢ وفى هذه المدة كنا ثلاثة أشخاص وهم أنا والسيدتان « هاتيجه كزلياى » و « معزز جك » (وهما الأمينتان على قسم ألواح الطين فى متحف الشرق فى استانبول) قد اشتغلنا معا فاستنسخنا ما يناهز ثلاثمائة لوح ، فوق ما قد تم استنساخه من قبل .

وأخيرا أصبح فى متناول اليد فى السنوات الأخيرة مجموعة جديدة من القطع الأدبية السومرية . ففى عام ١٩٤٨ تعاون المعهد الشرقى فى

جامعة شيكاغو مع متحف الجامعة فى فيلادلفيا ماليا وأرسلا بعثة تنقيبات مشتركة لاستئناف الحفر فى مدينة « نفر » ، بعد مضى نحو ٥٠ عاما على التنقيبات الأولى التى أجريت فيها ، فاستطاعت هذه البعثة الجديدة أن تكشف ، كما كان متوقعا ، عن المئات من الألواح الجديدة التى يعنى الآن بدراستها عناية تامة كل من «ثوركلد ياكوبسن » أحد عظماء العلماء فى العالم فى الدراسات المسمارية ، ومؤلف هذا الكتاب . وقد اتضح جليا أن هذه المادة المكتشفة حديثا ستكمل كثيرا من الثغرات والأجزاء الناقصة فى الآداب والفنون السومرية . ولدينا من الأسباب المعقولة ما يحملنا على الأمل بأن عددا غير قليل من المؤلفات الأدبية السومرية سيكون جاهزا فى متناول اليد فى العشر السنين القابلة . وان هذه المادة الجديدة بدورها ستكشف لنا عن جملة « أوائل » أخرى فى أصول الأشياء والحضارة فى تاريخ الانسان المدون .

مقدمة

بقلم الدكتور أحمد فخرى
أستاذ تاريخ مصر الفرعونية والشرق القديم بجامعة القاهرة

قرأت كتاب « من ألواح سومر » عقب ظهوره فى العـام الماضى فأعجبت بموضوعه وأسلوب مؤلفه ، وكان أول رد فعل له فى نفسى أننى تمنيت أن يكتب أحد المهتمين بالدراسات الفرعونية كتابا يتناول فيـه حضارة الدولة القديمة المصرية بأسلوب مماثل كما تمنيت أيضا أن ينقل هذا الكتاب بالذات الى اللغة العربية ليستفيد منه أكبر عدد ممكن من أبناء الشرق العربى وعلى الأخص الذين يعنون منهم بدراسة التاريخ القـديم .

ومضت شهور ، وفى يوم من الأيام سألنى صديقى الأستاذ حسن جلال العروسى مستشار عام مؤسسة فرانكلين عن رأيى فى هذا الكتاب فصارحته بالأمنيتين فأجابنى بأن أولاهما لا شأن له بها وبشرنى بتحقيق ثانية الأمنيتين ، وبشرنى أيضا بأن الأستاذ طه باقر قبل ترجمته الى العربية فكان لذلك أحسن الوقع فى نفسى . وأخذت منذ تلك اللحظة أعلل النفس بقرب ظهور الترجمة العربية لتكون فى متناول أيدى طلبة كلية الآداب بجامعة القاهرة الذين يدرسون معى تاريخ الشرق القديم ، وفى مقدمة منهج دراستهم تاريخ بلاد الرافدين .

ومضت شهور أخرى واذا بالأستاذ العروسى يبشرنى مرة ثانيـة بوصول ترجمة الكتاب ويطلب منى كتابة مقدمة له فقبلت راضيا سعيد

النفس ، فانى أدرك تماما قيمة موضوع الكتاب وأعرف كلا من مؤلفه ومترجمه وكلاهما عالم مدقق قدم أجل الخدمات فى هذه الدراسات .

عرفت بحوث الأستاذ طه باقر منذ زمن بعيد ثم قابلته فى عام ١٩٤٧ فى المؤتمر الأول للآثار الذى دعت اليه جامعة الدول العربية فى دمشق فأحببته وزملاءه من أبناء العراق الذين مثلوا بلادهم فى هذا المؤتمر خير تمثيل وقدموا عددا من بحوثهم القيمة . قابلت طه باقر فلم أجد فيه العالم المحقق الذى طالما تمتعت بقراءة بحوثه فحسب ، بل عرفت فيه أيضا الصديق الهادىء الطبع ذا النفس المطمئنـــة الذى يؤمن بتاريخ بلاده ويتحمس له ، عن علم ويقين . ومرت السنوات وكنت كلما قرأت بحثا له أو رأيت اشارة الى أحد مؤلفاته أو جاء ذكر اسمه على لسان أحـــد أصدقائه أو المعجبين به من اخوانه العراقيين أو زملائه الغربيين كلما أحسست أننى أراه أمامى يتحدث معى بلهجته العراقية الجميلة وعباراته الهادئة المنتقاة .

وقد لازمتنى هذه الصورة طيلة الوقت الذى قضيته فى قراءة الترجمة العربية التى بين أيدينا اليوم والتى وفق فيها كل التوفيق ويستحق عليها كل التهنئة اذ حرص فيها على أسلوب صاحب الكتاب وروحه ولم يضن علينا فى الوقت ذاته ببعض التعليقات الهامة .

وانى على تمام الثقة بأن هذه الترجمة العربية ستسد فراغا فى مكتبتنا العربية ، ولن يقتصر نفع هذا الكتاب على أبناء العراق بل سينتفع به الى أبعد الحدود أبناء الشرق جميعا الذين يعتزون بمدنية بلادهم . فقد مضى العهد الذى كان يظن فيه الناس أنه يمكن دراسة تاريخ مصر أو تاريخ العراق أو تاريخ ايران أو سوريا أو الأناضول أو فلسطين على

حدة ، لقد مضى ذلك العهد الى غير رجعة اذ يتحتم على من يريد دراسة تاريخ أى بلد من هذه البلاد أن يبدأ بدراسة تاريخ بلاد الشرق القديم كلها ويعرف صلة حضاراته ببعضها ، ويعرف أثر كل منها على الآخر ثم يتخصص بعد ذلك فى تاريخ البلد الذى يختاره .

لقد نشأت وازدهرت فى كثير من بلاد الشرق حضارات ومدنيات ، ولم تكن تلك الحضارات بمعزل عن بعضها ، بل اتصلت ، وأخـذت وأعطت ، وكان من أهم تلك الحضارات حضارتا مصر وبلاد الرافدين ، اذ نشأ فى كل منهما حضارة أصبحت منارا ومعينا لما جاورها من الأقطار، ولكل من الحضارتين قصة طويلة عن أصـلها ومولدها ثم تطـورها وازدهارها ، وفى كتاب « من ألواح سومر » شىء غير قليل عن أقدم ما نعرفه عن السـومريين الذين وفدوا الى بلاد الرافدين ونشـأ عن اتصالهم بمن كان فى البلاد من السكان الأصليين تلك الحضارة التى نرى منها الشىء الكثير بين صفحات هذا الكتاب . ولكن ما هو الزمن الذى ازدهرت فيه تلك الحضارة والى أى مدى تقدمت الحضارات الأخرى التى كانت فى غير بلاد الرافدين ؟

ان التاريخ المحدد لبداية المملكة السـامية الأكدية هو منتصف القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد (حوالى عام ٢٣٥٠ ق.م.) أى ان العصر السومرى القديم يقع قبل هذا التاريخ ويمتد حتى بداية التاريخ السومرى ، ويكاد يجمع علماء الدراسات المصرية والدراسات السومرية على أن عصر جمدة نصر فى بلاد الرافدين يوافق عصر قبيل الأسرات وبداية الأسرة الأولى فى مصر ، فلو وضعنا فى أذهاننا أن الوقت الذى تم فيه تشييد الهرم الأكبر بالجيزة والذى بلغت فيه مصر أوج تفوقها فى فن العمارة كان حوالى عام ٢٦٥٠ ق . م . وأن عام ٢٣٥٠ ق . م يقع فى

منتصف أيام الأسرة السادسة المصرية أى فى أواخر أيام الدولة القديمة لأمكننا أن نحدد بسهولة أن ازدهار العصر السومرى القديم يوافق أيام الدولة القديمة فى مصر وهو الوقت الذى بلغت فيه حضارة وادى النيل فى بعض نواحيها الى درجة لم تستطع مصر أن تتعداه أو تصل اليه فيما بعد ، وبخاصة فى العمارة والنحت . أما حياة الشعب فنحن نعلم عنها الكثير لحسن الحظ وقد عثر على مئات الآلاف من القطع الأثرية المختلفة فى مقابر ومعابد هذه الفترة من تاريخ مصر ، وهى محفوظة الآن فى مختلف متاحف العالم ومخازن مصلحة الآثار المصرية . كما عنى المصريون القدماء بتزيين جدران مقابرهم المنحوتة فى الصخر أو المشيدة بالأحجار ورسموا على جدرانها مناظر الحياة اليومية ، يراها الزائر ماثلة أمام عينيه عند زيارته لمقابر سقارة أو الجيزة أو عشرات المناطق الأثرية الأخرى التى تحتوى على مقابر مزخرفة من هذا العصر . نرى الفنان المصرى وقد أبدع فى رسمه ونحته للمناظر التى تمثل صاحب القبر وقد وقف يشرف على عماله . فهنا مناظر نساء ورجال يعملن فى الحرث أو فى جمع المحصول أو فى حصاده وتحميله الى الأهراء ، والى جانبهم عمال آخرون يجمعون نبات البردى من المستنقعات ويصنعون منه الحبال أو الحصير ، وعلى مقربة منهم عمال يصنعون السفن نراهم منهمكين فى أعمالهم يستخدمون الأدوات الخاصة بعملهم ، وهناك أيضا النجارون وصانعو الأوانى ، وصانعو الحلى ، كما نرى صاحب القبر فى مناظر الصيد الذى كان من أحب الأشياء الى قلوب المصريين القدماء ، وفى مناظر حفلاته التى كان يقيمها للأصدقاء وكان يحييها الموسيقيون والمغنون ، أو نرى الكهنة يقومون بطقوسهم الدينية . نرى هذه المناظر وعشرات غيرها على جدران تلك المقابر فنرى أمامنا القدماء بملابسهم وحليهم وأدواتهم وأوانيهم

وأثاث منازلهم وأدوات موسيقاهم كما نرى طيورهم وأسماكهم وما عرفوه من حيوانات ، ونكاد نحس بأننا نعيش معهم أو على الأقل نرى معرضا لصور حياتهم ، أما عن الكتابة فقد كانوا قد اخترعوها منذ قرابة أربعمائة عام قبل تشييد الأهرام وخلفوا لنا ثروة كبيرة من النقوش .

وسوف لا نحاول فى هذه المقدمة عقد بعض المقارنات بين حضارتى سومر ومصر فى الدولة القديمة ولكنى سأحاول فقط توضيح بعض النقط الهامة وهى الصلة التى كانت بين الحضارتين وأثرهما على بعضها وأيهما أقدم عهدا من الأخرى ، اذ أن هذه بالذات هى التى يتساءل عنها الطلبة دائما . فأما عن الصلة بين مصر وبلاد الرافدين فقد ثبت ثبوتا قاطعا أنه كانت هناك صلة بين مصر والعراق فى العصر السابق مباشرة للأسرة الأولى المصرية وأوائل أيام الأسرة الأولى وأن كثيرا من مصنوعات وفنون بلاد الرافدين وصلت الى مصر ووجدت من المصريين اقبالا عليها وعلى الاقتباس منها ، كما ثبت أيضا أن بعض السفن العراقية الأصل والتى تمتاز بارتفاع مقدمتها ومؤخرتها ارتفاعا يكاد يكون عموديا قد وصل الى مصر وانتشر رسمها على الآثار المصرية . وأقبل المصريون على بعض تلك الأساليب فى مستهل أيامهم ولكنها سرعان ما اختفى أكثرها لأنه لم يتلاءم مع ما ارتضاه المصريون لأنفسهم ، واقتبسوا البعض الآخر ومصروه واستخدموه . كان تيار الصلة فى عصر جمدة نصر فى بلاد العراق وقبيل عصر الأسرات فى مصر آتيا من بلاد الرافدين الى مصر ولكن فى أيام الأسرة الثالثة المصرية كان هناك تيار حضارى آخر بين البلدين وسار فى هذه المرة من مصر الى بلاد الرافدين ، ووجدت بعض السلع المصرية والفنون المصرية طريقها الى العراق بل يذهب بعض الباحثين فى السومريات مثل الأستاذ پارو الى القول بأن أصل الزقورة مقتبس من الهرم المدرج .

ومهما كان رأينا فى مدى الأثر الذى تركته كل من الحضارتين فى الأخرى فانه لا يمكننا أن ننكر وجود تلك الصلة وأثرها فى كل من البلدين ، وتصل الآن الى الجزء الثالث من السؤال وهو أيتهما أقدم من الأخرى . والجواب على ذلك أن الحضارة نشأت مستقلة فى كل من البلدين فى الألف الخامس قبل الميلاد وتطورت تطورا محليا فيها خلال الألف الرابع قبل الميلاد . وفى أواخر الألف الرابع وأوائل الألف الثالث كانت الحضارة فى بلاد سومر قد تقدمت فى بعض نواحيها الى درجة فاقت فيها الحضارة فى مصر ، ولكن فيما تلا ذلك من قرون تقدمت الحضارة المصرية تقدما كبيرا بعد أن حققت وحدة البلاد وأصبحت كلها من شاطىء البحر الأبيض حتى الشلال الأول على الأقل بلدا واحدا يحكمه ملك واحد وتطبق عليه أنظمة واحدة . وقد ساعدته الطبيعة فجعلته فى شبه مأمن من الغزوات الخارجية وهو الأمر الذى لم يتيسر بسهولة فى العراق لطبيعته الجغرافية التى قضت بنشأة دويلات المدن التى كانت ينافس بعضها بعضا وتقضى احداها على الأخرى ، وما قضت به الطبيعة الجغرافية أيضا من سهولة وصول الشعوب المهاجرة الى بلاد الرافدين سواء من الشمال أو من الهضبة الايرانية من الشرق أو من شبه الجزيرة العربية والصحراء السورية من الغرب ، وهذا هو السبب المباشر فى التقدم المطرد للحضارة المصرية وما يظهر فيها من وحدة فى اللغة والدين والعادات ومظاهر الفن على مرّ العصور ، على حين اختلف الأمر عن ذلك فى بلاد الرافدين .

ومهما أجملنا فى موضوع الصلة بين حضارتى بلاد الرافدين ومصر فان موضوع الكتابة يحتاج الى شىء من الايضاح . فلا شك فى أن سكان بلاد الرافدين قد توصلوا الى اختراع الكتابة منذ زمن بعيد لا يقل عن

أواخر الألف الرابع قبل الميلاد ولا شك أيضا أنهم لم يتعلموا ذلك من غيرهم . وقد سبقت الاشارة الى أن مصر قد تأثرت بحضارة العراق فى ذلك الوقت وانها أدخلت فى فنها بعض مظاهر فن العراق ، وقد أراد بعض الباحثين وبخاصة فرانكفورت أن يجعل الكتابة أيضا من بين الموضوعات التى يحتمل أن يكون المصريون قد اقتبسوها من سكان بلاد الرافدين ولكن البحث الجدى يظهر خطأ هذا الظن . والمقبول من جمهرة العلماء فى الوقت الحاضر أن الكتابة ظهرت فى كل من الحضارتين فى وقت واحد تقريبا ظهورا مستقلا وأن كلا منهما تطور تطورا محليا لا شأن له بالبلد الآخر أو ما كان يجرى فيه [1] .

وقد ساعدت الكتابة كثيرا فى تقدم المدنية فى كل من البلدين ولولا اختراعها فى وقت مبكر فى بلاد الرافدين لما كان فى استطاعتنا اليوم أن نقرأ كتاب « من ألواح سومر » ونستمتع بما حواه ، وندرك مدى ما قدمه السومريون لحضارة العالم من خدمات ومدى أثرهم على حضارات غيرهم من الشعوب .

لن تقتصر فائدة كتاب « من ألواح سومر » على القراء من أبناء العراق بل سيستفيد منه كل مثقف فى بلاد الشرق العربى وسيعتز به ، ولن يقبل عليه طلبة العراق وحدهم بل سيشاركهم فى ذلك اخوانهم طلبة المدارس والجامعات فى مصر وفى غيرها من بلاد العالم العربى الذين يدرسون تاريخ الشرق القديم ويتشوقون الى الالمام بحضارة سومر .

(١) يمكن الرجوع الى بعض تفاصيل موضوع أصل الكتابة وموضوع الصله بين حضارتى مصر والعراق بوجه عام فى مقالى الذى كتبته منذ سبع سنوات تحت عنوان : « الاتجاهات الحديثة فى المباحث التاريخية والأثرية الخاصة بالشرق القديم » فى المجلة التاريخية المصريه (المجلد الثالث ــ العدد الثانى) أكتوبر سنة ١٩٥٠ ص ١ ــ ٢٥ وعلى الأخص ص ٦ــ١٠، كما اشرت اليه ايضا فى كتابى « مصر الفرعونية » (١٩٥٧) ص ٢٣ ــ ٢٤ .

سيجد أولئك وهؤلاء الشيء الكثير فى هذا الكتاب وسيقدر كل قارىء له ما بذله كل من مؤلفه ومترجمه من مجهود .

وانى أؤكد لزميلى وصديقى الأستاذ طه باقر أن هذه اليد الجديدة التى قدمها لدراسات تاريخ الشرق القديم عامة والعراق خاصة سوف تبقى له على الدوام وستضاف الى أعمـــاله الكثيرة وبحوثه الوفيرة ومؤلفاته المتسمة بالعمق والاحاطة فله كل شكر وثناء .

أحمد فخرى

القاهرة فى ١٩٥٧/٩/٢٤ .

الفصل الأول

« التربيـة والتعليم »

أول مدارس

كان نشوء المدرسة السومرية نتيجة مباشرة لاختراع طريقة الكتابة المسمارية وتطورها ، ذلك الاختراع الذى يعـد أبرز ما ساهمت به بلاد سومر فى تقدم الحضارة . وقد كشف عن أول وثائق مكتـوبة فى مدينة سومرية اسمها « ارك »[١] وتتألف هذه الوثائق من أكثر من ألف لوح صغير من الطين منقوش بالكتابة الصورية ، أكثرها يحتوى على أجزاء من مذكرات اقتصادية أو ادارية ، ولكن وجدت من بينها جملة ألواح تشتمل على (جداول) بكلمات دونت لغرض الدرس والتمرين . أى ان بعض الكتبة فى زمن موغل فى القدم ، حوالى (٣٠٠٠) ق. م ، كانوا يفكرون بعقلية وطرق التعليم والتدريس . ولكن ما حصل من تقدم فى القرون التى أعقبت ذلك التاريخ كان بطيئا ، ولكن ما حل منتصف الألف الثالث ق . م حتى ظهر عدد من المدارس فى جميع بلاد سومر حيث صارت الكتابة تدرس تدريسا منتظما . وفى مدينة « شروباك »[٢]،

(١) سيتكرر ورود اسم هذه المدينة كثيرا فى الفصول الآتية . و « ارك » اسم المدينة الوارد فى التوراة وتعرف خرائبها ـ وهى الآن قريبة من مدينة السماوة الحديثة ـ باسم « الوركاء » ؛ واسمها السومرى القديم « أوروك » أو « أونوج » . ولقد نقبت فيها الجمعية العلمية الألمانيـة عـددا كبيرا من السنين منذ عام ١٩٢٨ الى الآن ، وكشفت عن نتـائج خطيرة فى تاريخ العراق القديم . (المترجم)

(٢) وتعرف خرائبها الآن باسم « فارة » وهى قريبة من الوركاء . (المترجم)

موطن « نوح » السومرى ، وجد فى التنقيبات التى أجريت هناك فى عام ١٩٠٢ — ١٩٠٣ عدد كبير من الألواح المدرسية التى كان يدرس فيها تلاميذ المدارس ، ويرجع تاريخها الى عام ٢٥٠٠ ق . م . على وجه التقريب .

ومهما كان الأمر فان النصف الأخـير من الألف الثالث ق . م هو الوقت الذى بلغ فيه نظام المدرسة السومرية طور النضج والازدهار . فقد كشف فى التنقيبات عن عشرات الألوف من ألواح الطين من ذلك العهد ، وليس هناك أدنى شك فى أن مئات ألوف أخرى لا تزال مدفونة فى باطن الأرض تنتظر المنقبين فى المستقبل . والغالبية العظمى من هذه الألواح التى تم استخراجها ذات طابع ادارى وتشمل جميع أوجه الحياة الاقتصادية عند السومريين . ونعلم منها أن عدد « الكتبة » الذين كانوا يمارسون مهنة الكتابة كان يبلغ الألوف ، وأن أولئـك الكتبة على أصـناف ودرجات ، منهم « الكتبة » الصـغار المبتدئون ، والكتبة « المتقدمون » والكتبة الملكيون ، وكتبة المعـابد ، وكتبة من ذوى التخصص العالى فى بعض نواح خاصـة بالشئون الادارية . وكتبة أصبحوا من كبار موظفى الحكومة . وفى حقيقة الأمر هناك من الأسباب المعقولة ما يحمل المرء على الاعتقاد بأن عددا من المدارس الكبيرة ذات الأهمية التى كانت تعد الكتبة ، كانت مزدهرة فى جميع أرجاء البلاد .

على أنه ليس من بين تلك الألواح القديمة العهد ما يبين لنا بطريقة مباشرة كيف كان نظام المدرسة السومرية وادارتها والطريقة التى كانت تسير عليها فى ذلك العهد ، ولكى نلم بمثل هـذه الحقائق يجب علينا أن نوجه بحثنا الى النصف الأول من الألف الثانى ق . م فنستقى منه ما ننشده . فقد كشفت لنا التنقيبات من هذا العهد عن مئات من الألواح

المنقوشة بمختلف أنواع التمارين المدرسية التى كانت تهيأ فى واقع الحال من جانب الطلاب أنفسهم كجزء من أعمالهم اليومية المدرسية . وتختلف خطوط هذه الألواح من حيث الدقة والمهارة فبعضها مدوّن بخط رديء بعيد عن الاتقان مما كان يكتبه المبتدئون ، وبعضها مكتوب بخطوط منتظمة مليحة مما كان يكتبه الطالب المتقدم الذى كان على وشك الانتهاء من دراسته . ويمكننا أن نستنتج من هذه « التمارين » المدرسية القديمة أشياء غير قليلة عن طرق التدريس التى كانت متبعة فى المدرسة السومرية وطبيعة مناهج التدريس فيها . ومن حسن الحظ أن المدرسين السومريين القدامى أنفسهم كان يطيب لهم أن يكتبوا عن الحياة المدرسية ، وقد خلفوا لنا عددا من مقالاتهم فى هذا الموضوع وان كانت قد وصلت الينا غير كاملة ، وأصبح فى وسعنا أن نحصل من كل هذه المصادر على صورة لا بأس بها عن المدرسة السومرية — عن أغراضها وأهدافها ، عن طلابها وهيئة تدريسها ، عن مناهجها وأساليب التدريس فيها ؛ وهذا لعمرى أمر فريد فى بابه بالنسبة الى مثل هذا العهد المبكر من تاريخ الانسان .

كان الهدف الأساسى للمدرسة السومرية ما يصح أن نسميه بالتخصص أو التدريب المهنى ، أى انها أسست لغرض تدريب الكتبة الذين كانوا يحتاجون اليهم لسد المتطلبات والحاجات الاقتصادية والادارية الخاصة بالبلاد ولاسيما ما يختص بالمعبد وبالقصر ، وقد استمر هذا الغرض هدفا أساسيا للمدرسة السومرية فى جميع عهود وجودها . وعلى أى حال فقد أصبحت المدرسة ، خلال نموها وتطورها ، وتتيجة للازدياد المستمر فى التوسع فى مناهجها ، مركز العلم والثقافة فى بلاد سومر ؛ فقد عاش وازدهر بين جدرانها العالم الباحث ، ذلك

الرجـل الذى كان يتزود بجميـع فروع المعـرفة المعروفة فى زمانه ، كاللاهوت والمعـارف الخاصة بالنبات والحيوان والمعادن والمعـارف الجغرافية والرياضة والنحو واللغة . وكان فى بعض الأحايين يساهم فى الاضافة الى تلك العلوم . أضف الى ذلك أن المدرسة السومرية كانت على خلاف مؤسسات التعليم الآن ، مركزا أيضا لما يمكن تسميته بالتأليف الابداعى . فهنا كانت المؤلفات الأدبية المنحدرة من الماضى تدرس وتستنسخ . وفيها أيضا كانت توضع مؤلفات أدبية جديدة . ومع أن معظم المتخرجين من المدارس الســومرية كانوا فى الواقع يلتحقــون فى وظائف الكتبة فى خدمة المعبد والقصر وفى خدمة الأغنيـاء وذوى النفوذ فى البلاد ، الا أنه كان من بينهم من خصصوا حياتهم للتدريس وتحصيل العلم . وكان الكثير من هؤلاء العلماء الأقدمين ، مثل أساتذة الجامعات الآن ، يعتمدون فى عيشهم على الرواتب التى كانوا يتقاضونها وكانوا يخصصون أنفسهم للبحث والكتابة فى أوقات فراغهم . وأصبحت المدرسة السومرية ، التى بدأت حياتها على ما يرجح ملحقة بالمعبد ، مؤسسة دنيوية مع مرور الزمن ، كما أن منهج تدريسها قد تطور أيضا فأصبح ذا صبغة دنيوية عالية . أما المدرسون فان مرتباتهم كانت على مايبدو تدفع من أجور التدريس التى كانت تجمع من الطلاب .

على أن التعليم لم يكن عاما ولا الزاميا . فكان معظم الطلاب من الأسر الغنية . أما الفقراء فكان من الصعب عليهم توفير المال والوقت اللذين يتطلبهما التعليم الطـويل الأمد . والى زمن قريب كان هـذا هو الرأى المفترض بالبداهة عن التعليم عند السومريين بدون أن يسنده دليل مباشر ، ولكن حـدث فى عام ١٩٤٦ أن أحـد الباحثين الألمان المختصين بالمسماريات ، وهو نيقولاس شنايدر (Nikolaus Schneider)

استطاع أن يبرهن عليه من المصادر القديمة نفسها . فمن بين آلاف الوثائق المنشورة الخاصة بالشئون الاقتصادية والادارية ، التى يرجع تاريخها الى حوالى عام (٢٠٠٠) ق . م وجد أن خمسمائة شخص دونوا أسماءهم فيها على أنهم من الكتبة ، ولزيادة الايضاح أضاف الكثير منهم أسماء آبائهم ومهنهم . جمع « شنايدر » ثبتا بهذه الحقائق فوجد أن آباء الكتبة — أى آباء خريجى المدارس — كانوا من طبقة الحكام ، ومن « وجهاء المدينة » ، ومن السفراء ومن المشرفين على ادارة المعابد ، وضباط الجيش ، والضباط البحريين ، ومن كبار موظفى الضرائب ومن طبقات الكهنة المختلفة ومن رؤساء الأعمال والمشرفين ، ومن رؤساء العمال ، ومن الكتبة الموكلين بادارة دور السجلات ، ومن المحاسبين . وخلاصة القول كان آباء أولئك الكتبة من المواطنين الأغنياء ، من سكان المدن . والجدير بالملاحظة انه لم يرد فى تلك الوثائق أى اسم لامرأة كاتبة ، فيؤخذ من هذا على مايرجح أن قوام طلاب المدرسة السومرية كان من الذكور فقط .

كان رئيس المدرسة السومرية يدعى « أومّيا » (Ummia) أى « الخبير » أو « الأستاذ » وكان يلقب أيضا بلقب « أبو المدرسة » . أما التلميذ فكان يسمى « ابن المدرسة » وسموا « الأستاذ المساعد » باسم « الأخ الكبير » وكان من بين واجباته كتابة الألواح الجديدة لينسخ منها الطلاب ، وفحص النسخ التى يعدها الطلاب والاستماع اليهم وهم يستظهرون دروسهم من الذاكرة . ونذكر من أعضاء هيئة التدريس الآخرين المدرس « المشرف على الرسم » والمدرس « المشرف على اللغة السومرية » . كما كان من هيئة المدرسة « العرفاء » أو المرشدون المنوط بهم أمر المواظبة على الحضور . ثم « الرجل الموكل

بالسوط » الذى كان مسئولا عن حفظ النظام . ونحن لا نعلم شيئا عن درجات موظفى هيئة المدرسة بالنسبة الى بعضهم البعض اللهم الا أن مدير المدرسة كان يدعى « أبا المدرسة » كما لا نعرف شيئا عن مصادر دخلهم ولعل « أبا المدرسة » هو الذى كان يدفع أجورهم مما كان يحصل عليه من أجور الدراسة من الطلاب .

أما عن منهج الدراسة فى المدرسة السومرية ففى متناول أيدينا مادة غزيرة جاءتنا من المدارس السومرية نفسها ، وهـذا فى الواقع شىء عجيب فى تاريخ الانسان القديم . وفى هـذا الموضوع بالذات لا نحتاج الى أن نعتمـد على أقوال القـدماء أو على الاستنتاجات المستخلصة من الأخبار المشتتة . اذ لدينا فى واقع الحال ما أنتجه طلاب المدارس وكتبـوه بأنفسهم ابتداء من المحاولات الأولى للمبتدىء ، الى النسخ التى كتبها الطالب المتقدم الذى أعد عمله اعدادا متقنا الى درجة يصعب معها تمييزه من كتابة الأستاذ نفسه . ومن هذا الانتاج المدرسى المـدون نستطيع أن ندرك أن منهـج الدراسة فى المدرسة السومرية كان مكونا من قسمين رئيسين : القسم الأول يمكن وصفه بأنه شبيه بالعلمى وقائم على أساس البحث . والثانى خاص بالابداع والانتاج الأدبى .

فاذا نظرنا أولا فى القسم الأول أى المنهج الشبيه بالعلمى وجب علينا أن نوضح أن موضوعات الدراسة لم تكن منبعثة عما يمكن تسميته بالدافع العلمى المحض — أى البحث عن الحقيقة من أجل الحقيقة نفسها . بل الأحرى والأصح أن يقال انها نشأت وترعرعت من هدف المدرسة الأساسى نفسه ، ألا وهو تعليم الكاتب كيف يكتب اللغة السومرية . ولكى تتحقق هذه الحاجة فى فن التعليم أوجد معلمو الكتبة السومريون

طريقة فى التعليم كانت تقـوم أولا وبالذات على التصنيف اللغوى ؛ أى انهم صنفوا وبوبوا اللغـة السومرية الى مجموعات من الكلمات والعبـارات ذات صلة ببعضها ، وكان على الطـلاب أن يستظهروها ويستنسخوها حتى يتمكنوا من استعادتها بيسر وسهولة . وفى الألف الثالث ق . م أصبحت مثل هذه « الكتب المدرسية » متكاملة تامة ، وصارت بالتدريج قياسية مطردة فى هيآتها ومحتوياتها وتستعمل فى جميع المدارس فى بلاد سومر . ونجد من بينها أثباتا مطولة بأسماء الأشجار والأقصاب وبأسماء أنواع كثيرة من الحيوانات ، ومن بينها الحشرات والطيور . وأثباتا بأسماء الأقطار والمـدن والقرى وأخرى بأسـماء الأحجار والمعادن . وتكشف لنا هذه الأثبات المدونة عن معرفة كبيرة بما يمكن تسميته بالمعارف العامة عن النبات والحيـوان والجغرافيـة والمعدنيات — وهى حقيقة بدأ يدرك أهميتها الآن مؤرخو العلوم .

وهيأ رجال المدرسة السومرية أيضا جداول رياضية متنوعة وكثيرا من المسائل الرياضية المطولة مع حلولها . أما فى حقل علم اللغة فكانت دراسة نحو اللغة السومرية تحتل مكانة بارزة فى مؤلفات ألواح الطين المدرسية . فان عددا من هذه قد نقش بأثبات مطولة بالأسماء وتوابعها والأفعال وصيغها ، مما يدل على طريقة حاذقة متقدمة فى الدراسات النحوية . أضف الى ذلك أنه كان من أثر غزو السومريين التدريجى من جانب « الأكديين » الساميين ، فى الربع الأخير من الألف الثالث ق . م ، أن « الأساتذة » السومريين هيأوا أقدم « المعاجم » اللغوية المعروفة فى تاريخ الانسان . ولم يقتصر الفاتحون الساميون على اقتباس الخط السومرى بل كانوا يقدرون التآليف الأدبية السومرية تقديرا عاليا ، فتدارسوها وقلدوها حتى من بعد مضى عهد طويل على اندثار اللغة

السومرية كلغة يتحدث بها الناس . ومن هنا نشأت الحاجة التعليمية الى « المعاجم » التى ترجمت فيها الكلمات والعبارات السومرية الى اللغة الأكدية (السامية) .

أما عن المنهج الخاص بالابداع والانتاج الأدبى فى مناهج المدرسة السومرية فقد كان يعتمد أساسيا وبالدرجة الأولى على الدرس والاستنساخ وتقليد مجموعة كبيرة مختلفة الموضوعات من التآليف الأدبية التى ينبغى أن تكون قد نشأت ونمت فى النصف الأخير من الألف الثالث ق . م . ان هذه التآليف القديمة ، التى تبلغ المئآت ، كانت غالبيتها العظمى شعرية فى تراكيبها . وهى تتراوح فى مقادير أطوالها من قطعة قوامها أقل من خمسين سطرا الى قطعة مطولة تكاد تصل الى ألف سطر . ويشتمل ما تم الكشف عنه حتى الآن على الأبواب الآتية :

الأساطير وقصص الملاحم على هيئة قصائد قصصية تشيد بأعمال آلهة السومريين وبمآثر أبطالهم ؛ والتراتيل الدينية لتمجيد الآلهة والملوك ، والمراثى فى ندب الدمار والتريب الذى حل بالمدن السومرية ، ومجموعات الحكمة والأمثال والأساطير والقصص المروية على ألسنة الحيوانات ، والمقالات والرسائل . ومن بين آلاف الألواح الأدبية العديدة التى كشف عنها فى خرائب بلاد « سومر » يوجد عدد غير مدون بخط بعض الطلبة السومريين القدماء الذين لم يتم تعليمهم .

ولسنا نعرف حتى الآن الا النزر اليسير عن طرق التدريس والوسائل التى كانت تتبع فى المدرسة السومرية . فعندما يصل الطالب الى المدرسة فى الصباح كان عليه أن يدرس اللوح الذى أعده فى اليوم السابق ، ثم يهيىء « الأخ الكبير » أى « الأستاذ المساعد » لوحا جديدا

يشرع الطالب فى استنساخه ودرسه . وكان كل من « أبى المدرسة » و « الأخ الكبـير » على ما يرجح يفحصان استنساخه ليتأكدوا من صحته . ومما لا مراء فيه أن الاستظهار كان يقوم بدور كبير جدا فى سير درس الطالب ، كما أن المدرسين ومساعديهم كانوا يشفعون تلك الأثبات والجداول المجردة والنصوص الأدبية ، التى كان على الطالب أن يستنسخها ويدرسها ، بتفسيرات شفهية وتوضيحات ، ولكن الذى يؤسف له أن مثل هـذه « المحاضرات » التى كانت تساعدنا مساعدة لا تقدر فى فهم التفكير العلمى والدينى والأدبى عند السومريين لم تكن تدون على ما يرجح ، وبذلك فقدناها الى الأبد .

وهناك حقيقـة بارزة يجـدر ذكرها عن نظام التعليم فى المدرسة السومرية وهى أن هذه المدرسة لم تكن على شىء مما يمكن تسميته بالتعليم الحر التقدمى . فللمحافظة على النظام كان لابد من « العصا » . ومع أن المدرسـين على ما يرجـح كانوا يشـجعون طلابهم ليحسن عملهم عن طريق المديح والاطراء ، الا أن جل اعتمادهم فى تقويم أخطاء طلابهم عند تقصيرهم هو التجاؤهم الى « العصا » . ولم تكن حيـاة الطالب فى المدرسة بالأمر السهل اليسير . فكان عليه أن يواظب على دروسه فى المدرسة يوميا من شروق الشمس الى غروبها . ولاشـك أنه كانت هناك عطلة للطالب فى أثناء السنة الدراسية بيد أننا لا نعرف عن هذا الأمر شيئا . وكان يخصص سنين كثيرة للدراسة فكان الطالب ملازما للمدرسة من صباه الى أن يصبح رجلا شابا . هذا وكم يكون طريفا لو عرفنا متى يبدأ الطلاب تخصصهم بدرسهم موضوعا أو موضوعات معينة ، والى أى مدى يكون ذلك التخصص . ولكن المصادر التى وصلت الينا تخيب آمالنا فى هذا الأمر وفى أمور أخرى كثيرة عن أوجه النشاط فى المدرسة .

ولو تساءلنا كيف كانت هيئة بناية المدرسة السومرية القديمة لكان جوابنا أنه ظهرت بطريق التنقيبات التى أجريت فى بلاد مابين النهرين (العراق) جملة مبانى قيل عنها انها ربما كانت « البيوت » الخاصة بالمدرسة . فقد وجد واحد منها فى مدينة « نفر » (Nippur) وعثر على آخر فى مدينة « سبار » (Sippar) [1] وثالث فى مدينة « أور » (Ur) ، ولكنه لم يكن فيها كلها الا القليل مما يميزها عن حجرات بيوت السكنى الاعتيادية ، باستثناء ما وجد فى تلك الحجرات من المقادير الكثيرة من ألواح الطين . وعلى هذا فقد يكون القول بأنها أبنية للمدارس أمرا خاطئا . على أن الفرنسيين الذين حفروا فى « مارى » التى تقع على مسافة كبيرة الى الغرب من « نفر » [2] وجدوا فى شتاء عام ١٩٣٤ — ١٩٣٥ حجرتين يظهر على هيئتهما ومظهرهما أنهما دون أى شك حجرتان فيهما كل ما يميز حجرات المدرسة لاسيما وانهما تشتملان على عدة صفوف من مقاعد للجلوس بهيئة « مصاطب » مشيدة بالآجر ، بحيث يستطيع أن يجلس على الواحد منها طالب أو طالبان أو أربعة طلاب . ولكن الأمر الذى يدعو حقا الى الدهشة انه لم يعثر على ألواح طين مكتوبة فى تلك الحجرات ولذلك فينبغى أن يظل أمر تحديد ماهيتها غير مقطوع به الى حد ما .

ولكن كيف كان شعور الطلاب أنفسهم ازاء ذلك النظام من التعليم ؟

---

(١) وتسمى خرائبها الآن باسم « أبو حبة » القريبة من بغداد ومدينة المحمودية الحديثة .
(المترجم)

(٢) « مارى » وتعرف خرائبها الآن باسم « تل الحريرى » على الفرات ، داخل الحدود السورية الحالية — وكانت من مراكز الحضارة السومرية الشهيرة فى الألف الثالث ق.م وقامت فيها من بعد ذلك فى الألف الثانى ق.م سلالات حاكمة من الساميين ، من الاموريين بوجه خاص . (حول نتائج التنقيبات الفرنسية فيها انظر .

André Parrot, *Archéologie Mésopotamienne*.
(المترجم)

الفصل الثانى

« أيام الدراسة »

أول حالة فى « التملق »

من أشد الوثائق التاريخية مساسا بالناحية الانسانية، مما تم الكشف عنه فى الشرق الأدنى ، تلك الرسالة أو المقالة السومرية عن النشاط اليومى لتلميذ فى مدرسة سومرية . وتبين لنا هذه الرسالة التى ألفها مدرس مجهول الاسم عاش فى حدود عام ٢٠٠٠ ق . م . بكلماتها وعباراتها الواضحة البسيطة كيف أن الطبيعة الانسانية باقية كما هى ولم تتبدل اللهم الا القليل فى خلال الألوف من السنين . نجد فى هذه الرسالة القديمة تلميذا بمدرسة سومرية ، وهو لا يختلف عن مثيله الحديث ، يخشى اذا تأخر عن موعد بدء العمل فى المدرسة « مخافة أن يضربه معلمه بالعصا » . فبعد أن يستيقظ يحث أمه أن تهيىء له طعام الغداء على عجل . وفى المدرسة نجد المعلم ومساعديه « يضربونه بالعصا » كلما أساء السلوك . ونحن واثقون من تلك الحقيقة لأن العلامة المسمارية التى تؤدى معنى الجلد مركبة من رمزى شيئين — وهما « العصا » و « اللحم » أو « الجلد » . أما عن حال المعلم فان ما كان يحصل عليه من جعالة (مرتب) كان على مايبدو ضئيل القدر كحال زميله المعلم الحديث الآن ، وعلى ذلك فكان يسعده كثيرا اذا حصل على بعض المال الاضافى القليل من آباء الطلاب ليزيد قليلا فى دخله .

وهذا الموضوع الانشائى كان بلاشك من تأليف أحد أساتذة « بيت الألواح » (أى المدرسة) ، ويبدأ بسؤال موجه الى طالب المدرسة نفسه :

« أيها الطالب الى أين كنت تذهب منذ أيامك المبكرة ؟ فيجيب الطالب بقوله « كنت أذهب الى المدرسة » . ثم يسأل المؤلف : « وماذا كنت تفعل فى المدرسة ؟ » ويعقب هذا السؤال جواب الطالب الذى يشغل أكثر من نصف محتويات الوثيقة ، نقتبس منه ما يأتى :

« كنت أستظهر لوحى ، وآكل طعام غدائى وأهيىء لوحى الجديد لأكتبه وأكمله ، ثم يعينون لى درسى الشفهى . وفى العصر يخصصون لى درسى المكتوب . وعندما تنصرف المدرسة أعود الى بيتى فأدخل الدار ، وأجد أبى جالسا هناك فأطلع أبى على درسى المكتوب ثم أستظهر له لوحى . فيسر أبى لذلك ... وعندما أستيقظ فى الصباح الباكر أواجه أمى وأقول لها : اعطينى طعام غدائى لأننى أريد الذهاب الى المدرسة فتزودنى أمى برغيفين وعندئذ أشرع بالمسير الى المدرسة . وفى المدرسة قال لى العريف : « لم أنت متأخر ؟ » ثم دخلت وأنا وجل خافق القلب فى حضرة مدرسى ، وحييته باحترام » .

ولكن سواء قدم ذلك التلميذ تحيته أم لم يقدمها فان يومه ذاك فى المدرسة كان يوما عصيبا . فقد تلقى الضرب بالعصا من أكثر من شخص واحد من أعضاء هيئة التدريس من أجل ما ارتكبه من هفوات كالتكلم والقيام فى الصف والخروج من باب المدرسة ، والأنكى من كل ذلك قول المعلم له : « ان خط يدك فى الاستنساخ ردىء غير مرض » ؛ وضربه بالعصا من أجل ذلك . وهنا نفد صبر الصبى لأنه فوق ما يحتمل ،

فأشار على أبيه ناصحا اياه بأن خير مايفعله فى هذا الشأن أن يدعو المدرس الى بيته ويسترضيه ببعض الهدايا — وهذه أول حالة مدونة عن « التملق »(1) فى تاريخ الانسان . ثم تستمر تلك القطعة الانشائية على النحو الآتى : « لقد استمع الأب الى نصيحة ابنــه التلميذ وجاء المدرس من المدرسة ، وبعد أن دخل البيت أجلسه فى أشرف مكان ، وقام التلميذ على خدمته ، وأخذ يستعيد أمام أبيه كل ما تعلمه من فن كتابة « الألواح » . ثم ان الأب قدم الخمر للمدرس وقدم له الطعام وكساه بحلة جديدة وأهداه هدية ووضع خاتما فى اصبعه . وطابت نفس المعلم من هذا الاكرام وحسن الضيافة فأخذ يطمئن ذلك الناشىء الطامح بتعلم فن الكتابة وقال له فى لغة شعرية كلاما كثيرا ، هاهى ذى مقتطفات منه : « أيها الشاب ، لأنك لم تهمل قولى ولم تنبذ ارشادى ، عساك أن تبلغ القمة فى فن الكاتب ، وعسى أن تتقنه غاية الاتقان . ولعلك تكون القائد بين اخوتك وأن تصبح رئيسا على جميع أصدقائك ، وليتك تبلغ أعلى الرتب بين طلاب المدرسة .. حقا لقد أحسنت فى انجاز أعمال المدرسة كل الاحسان وأصبحت رجل علم ! » .

وهكذا تنتهى هذه الرسالة التى تصف لنا « أيام الدراسة » بهذه الكلمات المشجعة المليئة بالتفاؤل والأمل . كتبها ذلك الأستاذ الذى لم يكن ليحلم بأن قطعته الأدبية التى ألفها فى الحياة المدرسية كما شاهدها فى زمنه ، ستبعث مرة أخرى من بعد أربعة آلاف عام ، ويعيدها الى الحياة « أستاذ » من أهل القرن العشرين فى احدى الجامعات الأمريكية . ان تلك المقالة كانت لحسن الحظ متداولة يحبها النـــاس فى الأزمان القديمة ، يدل على هذا أن ما لا يقل عن احدى وعشرين نسخة قد جاءت

---

(1) الاصـــل الانجليزى apple-polishing وربما كانت اقرب ترجمـــة لمعنـــاها هى التعبير العامى « مسح الجوخ » .

الينا وهى متفاوتة فى حالاتها من حيث الكمال والحفظ . فيوجد منها ثلاث عشرة نسخة فى متحف الجامعة فى فيلادلفيا وسبع نسخ فى متحف الشرق القـديم فى استانبول ونسخة واحـدة فى متحف « اللوڤر » فى باريس .

وكانت قصـة جمع أجزاء هذا النص بعضها الى بعض على الوجه الآتى : منذ وقت طويل يرجع الى عام ١٩٠٩ (للميلاد) كان أول جزء من نصوص « أيام الدراسة » قد استنسخه ونشره باحث مبتدىء فى المسماريات هو « هوجو راداو » وكان ما استنسخه « راداو » جزءا من منتصف النص ، ولم يكن فى وسعه آنذاك أن يعرف فحوى ذلك النص أو مدلوله . وفى الأعوام الخمسة والعشرين التالية نشرت أجزاء اضافية أخرى ، نشرها بعض المستشرقين المشهورين ، الذين توفوا الآن وهم « ستيفن لنجـدون » (Stephen Langdon) و « ادوارد كييرا » (Edward Chiera) و «هنرى دى جنوياك » (Henri de Genouillac) ولكن بالرغم من ذلك كانت المـادة المتيسرة لهـم حتى ذلك الوقت لا تزال غير وافية لادراك الأهمية الحقة للنص . وفى عام ١٩٣٨ وفقت فى أثناء اقامتى الطويلة فى استنابول الى تعيين ماهية خمس قطع أخرى وعرفت أنها أجزاء من هذه الوثيقة التى يعنينا أمرها ، كانت احداها لوحا على حال سليمة وهو منقوش بأربعة حقول (أو أعمدة) كانت فى الأصل تتضمن نص ذلك التأليف بكامله ، فمكننى ذلك اللوح من وضع القطع الأخرى فى مواضعها الصحيحة . ثم استطعت منذ ذلك الوقت أن أتعرف على أجزاء أخرى فى متحف الجامعة فى فيلادلفيا تتباين فى مقاديرها من لوح يتضمن أربعة حقول الى مجرد كسر صغيرة لا تحتوى على أكثر من بضعة أسطر مهشمة ناقصة ، فأمكن من ذلك جمع أجزاء النص واستعادته بكامله تقريبا باستثناء بضع علامات مسمارية ناقصة .

بيد أن هذا العمل لم يكن سوى التغلب على العقبة الأولى فى عملية البحث العلمى لوضع تلك الوثيقة القديمة فى متناول يد الجميع ؛ فان الترجمة الموثوق بها أهم وأصعب من كل ذلك . وقد ترجم بضعة أجزاء من هذه الوثيقة ترجمة ناجحة كل من العالمين المختصين بالمباحث السومرية « ثوركلد ياكوبسن » Thorkild Jacobsen من المعهد الشرقى لجامعة شيكاغو و « آدم فلكنشتاين » Adam Falkenstein من جامعة هيدلبرج فأفدت من هاتين الترجمتين ومن عدة ارشادات قدمها الى « بنو لاند زبرجر » Benno Landsberger الأستاذ سابقا فى جامعتى « لايبزج »وأنقرة ، والأستاذ فى المعهد الشرقى بجامعة شيكاغو الآن . واستعنت بكل ما تقدم من بحوث فى اعداد أول ترجمة للوثيقة بكاملها ونشرت هذه الترجمة فى عام ١٩٤٩ فى مجلة « الجمعية الشرقية الأمريكية »[1] وهى مجلة لا تنشر الا بحوثا للمتخصصين . هذا وأرانى فى غنى عن القول ان عددا ليس بالقليل من الكلمات والعبارات السومرية من تلك الرسالة لا يزال مشكوكا فيه وغير محقق .

وانى على ثقة تامة بأن أحد الأساتذة الباحثين سيوفق فى المستقبل الى ترجمة أدق وأضبط .

ولكن الذى يسير شئون العالم ليس الأساتذة والشعراء ، على الرغم من أنهم قد لا يحلو لهم التسليم بذلك ؛ بل يسيرها رجال الدولة ومحترفو السياسة والعسكريون ولهذا فسيكون القسم التالى من « أوائل » الأشياء الذى سنذكره فى الفصل الثالث يدور حول « سياسة القوة » ، وحول حاكم سومرى عاش قبل خمسة آلاف عام ، استطاع أن يستغل « الحوادث » أو الطوارىء السياسية استغلالا ناجحا .

---

(١) Journal of the American Oriental Society

الفصل الثالث

« الشئون الدولية »

أول حرب للأعصاب

في الموضع الذى يتشعب فيه بحر مرمرة الى فرع « القرن الذهبى » الشبيه بالخليج والى فرع « البسفور » الشبيه بالنهر يقع جزء من استانبول يعرف باسم « سراى بورنو » (أى واجهة أو جبهة السراى)[1]. وهنا فى ملجأ مكون من الأسوار الشاهقة المنيعة بنى محمد الثانى فاتح استانبول قصره ومقر ملكه قبل نحو خمسمائة عام . وفى القرون المتعاقبة أضاف السلاطين ، سلطانا اثر سلطان ، الى تلك المجموعة من القصور ، بانين الأكشاك والجوامع الجديدة ، ومقيمين « الشذروانات » والحدائق الجديدة . وفى الساحات القوراء الزاهية التبليط والحدائق الغناء المدرجة كانت نساء « حريم » القصر ووصيفاتهن وتوابعهن ، والأمراء وخدمهم ، يطوفون متنزهين ، ولم يكن ليؤذن الا للقلائل بالدخول الى أجزاء القصر ومرافقه ، وأقل من هذا من كان يتاح له مشاهدة الحياة الداخلية فيه .

ولكن ولت أيام السلاطين فاتخذ موضع « جبهة السراى » هيئة أخرى ، اذ انهارت معظم الجدران العالية ذات القلاع والأبراج ، وحولت تلك الحدائق الخاصة الى حدائق عامة لأهل استانبول يجدون فيها الظل

---

(١) ومعناها الحرفى « انف السراى » . (المترجم)

والراحة فى أيام الصيف الحارة . أما الأبنية نفسها — القصور المحرمة والأكشاك السرية — فقد تحول معظمها الى متاحف . لقد زالت سطوة السلاطين القاهرة وأصبحت تركيا جمهورية .

وفى حجرة كثيرة الشبابيك فى أحد هذه المتاحف ، وهو المتحف الخاص بالشرق القديم هأنذا أجلس وأمامى نضد مستطيل كبير وفى الجدار المواجه لى تتدلى صورة كبيرة تمثل « أتاتورك » ، بوجهه العريض وعينيه الحزينتين ، صورة المؤسس المحبوب للجمهورية التركية الحديثة وبطلها . ولا يزال هناك الشيء الكثير مما يمكن قوله وكتابته عن هذا الرجل الفذ ، الذى يعد من وجوه كثيرة من أعظم وأهم الشخصيات السياسية فى قرننا الراهن ، ولكن لا يعنينى أمر « الأبطال » المحدثين مهما تميزت أعمالهم بخطرها فى صنع حقب التاريخ ، فأنا « باحث سومرى » وشغلى الشاغل انما هم أولئك الأبطال الذين نسيهم الناس منذ زمن طويل ، أولئك الذين عاشوا فى ذلك الماضى الواغل فى القدم .

وعلى النضد الذى أمامى لوح من الطين نقشه كاتب عاش قبل أربعة آلاف عام بوجه التقريب . ان خط الكتابة هو ما يسمى بالخط المسمارى ، أما لغته فهى اللغة السومرية . أما هيئة اللوح فمربع الشكل نحو (٩×٩ أنجا) (الانج ٥ر٢ سنتيمتر تقريبا = بوصة) فيكون فى مساحته أقل من صفحة «كاغد» الطباعة المألوفة . ومع صغر اللوح استطاع الكاتب الذى دونه أن يقسمه الى اثنى عشر حقلا ، واستطاع باستعماله خطا دقيقا أن يدون فى هذا المقدار الصغير أكثر من ستمائة سطرا من قصيدة سومرية فى أعمال البطولة ، فى وسعنا أن نعنونها باسم « اينمركار » وسيد « أرتا » [1] . ومع ان أشخاصها وحوادثها ترجع

(١) Enmerkar and the lord of Aratta

فى عهدها الى ما قبل خمسة آلاف عام تقريبا ولكنها ذات وقع مألوف فى آذاننا الحديثة . لأن هذه القصيدة تدون لنا حادثة سياسية تنطوى على استعمال الأساليب السياسية من أجل الغلبة والقوة ، التى يتبعها أهل عصرنا ويومنا الراهن .

تروى لنا هذه القصيدة أنه فى قديم الأزمان ، قبل أن يولد ذلك الكاتب الذى دونها ، كان يعيش بطل سومرى مشهور اسمه « اينمركار » ويحكم فى مدينة « ارك » وهى « دولة — مدينة » city-state وتترجم أحيانا دويلة فى جنوبى بلاد ما بين النهرين بين نهرى دجلة والفرات . والى الشرق من « ارك » بمسافات بعيدة ، فى بلاد فارس ، كانت تقع « دولة — مدينة » أخرى هى « أرتّا » التى يفصلها عن « ارك » (الوركاء) سبع سلاسل من الجبال ، وهى فوق قمة جبل شاهق يصعب ادراكها وبلوغها . زد على ذلك أن « أرتا » كانت مدينة مزدهرة غنية بالمعادن والأحجار ، وهى المواد التى تفتقر اليها تمام الافتقار تلك البقاع الواطئة المستوية حيث تقع « ارك » مدينة « اينمركار » ، فلا عجب اذا ما وجه « اينمركار » أنظاره الطامعة الى « أرتا » و « ثرواتها » ، مصمما على جعل أهلها وحاكمها تابعين له . وشرع لتحقيق ذلك يشن « حرب الأعصاب » على سيد « أرتا » وعلى أهلها فأفلح فى كسر روحهم المعنوية وتثبيط هممهم حتى وصل بهم الأمر الى الرضا بأن يتخلوا عن استقلالهم ويصيروا أتباعا لمدينة « ارك » (الوركاء) .

كل هذا ترويه لنا القصيدة بأسلوب مطنب مجازى (غير صريح) مما يميز شعر الملاحم فى جميع العالم . تبدأ قصيدتنا بديباجة تتغنى وتشيد بعظمة « ارك » و « كلاب » ، (وهو موضع ضمن « ارك » أو قريب ملاصق لها) منذ بدأ الزمن وتطنب فى عظمة « ارك » وتفوقها على « أرتا » لأن الالهة « انانا » هى التى فضلتها . ثم تبدأ حوادث القصة بعبارة « كان ما كان فى قديم الزمان » .

يقص علينا الشاعر كيف ان « اينمركار » ، ابن الاله « أوتو » (Uto) اله الشمس ، بعد أن صمم على ضم « أرتا » الى سلطانه أخذ يتضرع الى أختـه الالهة « انانا » (Inanna) ، وهى الهـة الحرب والحب السومرية ، أن تحمل أهل « أرتا » على أن يأتوا اليه بالفضة والذهب وحجر اللازورد والأحجار الكريمة الأخرى ، وتجعلهم يبنون له المزارات والمعابد المختلفة ، لا سيما معبد الـ « أبزو » — وهو معبد البحر الخاص بالاله « أنكى » اله الماء السومرى ، الذى كان موضع عبادته الرئيسى فى مدينة « أريدو » (١) القريبة من خليج فارس .



شكل ١٧ — « اينمركار وسيد أرتا » نسخة يدوية من لوح ذى اثنى عشر حقلا من الكتابة موجود فى استانبول ، فى متحف الشرق .

---

(١) وتعرف خرائبها الآن باسم « أبو شهرين » القريبة من مدينة « اور » القديمة قرب مدينة الناصرية الحديثة (حول نتائج التنقيبات التى أجرتها مديرية الآثار القديمة العامه فى اريدو ، أنظر مجلة سومر ١٩٤٧ ، ١٩٤٨) .

(المترجم)

وبعد أن استجابت « انانا » الى التماس « اينمركار » نصحته بأن يختار من لدنه رسولا لائقا ليعبر جبال « أنشان » [1] الشامخة المهيبة (وهى الجبال التى تفصل ما بين « ارك » وبين « أرتا ») وضمنت له ان أهل « أرتا » سيذعنون له وينجزون ما يريده منهم من أعمال البناء . فاختار « اينمركار » رسوله الخاص وبعث به الى سيد « أرتا » ، محملا اياه بلاغا أو انذارا هو التهديد بتخريب المدينة اذا لم يقدم له هو ورعاياه الفضة والذهب ويبنوا ويزينوا معبدالاله «انكى». ولكى يكون وقع التأثير شديدا على سيد « أرتا » أوصى « اينمركار » رسوله أن يعيد عليه تلاوة سحر تعويذة خاصة بـ « أنكى » ، تلك التعويذة التى تبين كيف أنهى الاله « أنكى » عصر الانسان الذهبى الذى ساد فيه سلطان الاله « أنليل » على الأرض وأهلها .

وصل الرسول الى « أرتا » بعد أن عبر سبعة جبال فأعاد على حاكمها كلام سيده وطلب منه الاجابة . ولكن هذا أبى الاذعان الى « اينمركار » مدعيا بأنه هو الذى خصته « انانا » بحمايتها وانها هى التى نصبته حاكما على « أرتا » وعندئذ أبلغه الرسول بأن « انانا » التى هى ملكة « اى — أنا » [2] فى مدينة « ارك » هى التى قطعت الوعد لاينمركار باذعان مدينة « أرتا » له .

فصعق سيد « أرتا » لهذا النبأ وأعد جوابا للرسول ليبلغه الى ملكه حذر فيه « اينمركار » من أن يلتجىء الى استخدام السلاح ، وقال له انه يفضل « المبارزة » (أى أن يتحارب بطلان يختار كل منهما واحدا) .

---

(1) اسم المعبد الشهير فى الوركاء ، واسم حارة أيضا من تلك المدينة .
(المترجم)

(2) موضع قديم فى بلاد عيلام (اى خوزستان الآن) .
(المترجم)

وأردف الى ذلك قوله أيضا انه لما أصبحت « اناتا » عدوة له فانه مستعد للاذعان الى « اينمركار » بشرط أن يرسل اليه مقادير كبيرة من الغلة. فعاد الرسول الى « ارك » مسرعا وبلغ الرسالة الى « اينمركار » فى قاعة الاجتماع .

وقبل أن يخطو « اينمركار » خطوته التالية أنجز جملة أعمال كانت على ما يبدو ذات صبغة تعبدية طقسية ، فنراه أولا يستشير « نِدابا » ، (Nidaba) ، الآلهة السومرية الخاصة بالحكمة ، ثم يحمل الغلة على الحيوانات ، حيث يسير بها الى « أرتا » رسول أوصى بأن يبلغ سيدها رسالة تنطوى على الاشادة بصفات صولجان « اينمركار » ويأمر فيها حاكم «أرتا» بأن يرسل اليه حجر العقيق واللازورد. ولما أن وصل الرسول الى المدينة أفرغ حمولة الغلة وكدسها فيها ، وبلغ رسالته . وحين شاهد الناس الغلة سروا بها وقبلوا بأن يهدوا « اينمركار » ما يرغب فيه من حجر العقيق (لم يذكر شىء على ما يظهر عن حجر اللازورد) وأن يقوم شيوخ البلد بتشييد « بيته الطاهر » له . ولكن سيد « أرتا » ، الذى فقد أعصابه ، أخذ يشيد بفضل صولجانه هو ، وأصر بكلام مطابق لما قاله « اينمركار » بأن على هذا الأخير أن يرسل اليه حجر العقيق واللازورد .

ولما عاد الرسول الى مدينة « ارك » التجأ « اينمركار » الى الفأل يستخيره فى الأمر . واستعمل ضربا خاصا من الفأل يدور على نوع من القصب اسمه « سوشيما » ، أخذ ينقله ويحوله من « الضوء الى الظل » « ومن الظل الى الضوء » ثم قطعه أخيرا الى قطع بعد مضى خمس سنين وعشر سنين . وبعد ذلك بعث بالرسول كرة أخرى الى « أرتّا » مستصحبا معه هذه

المرة « الصولجان » واضعا اياه بيده بدون رسالة من سيده ، فولد مجرد النظر الى الصولجان الرعب فى قلب سـيد « أرتّا » ، فالتفت (شاتامو) هذا الى حاشيته ، وبعد أن سرد بكلام مر محزن الشرور التى أصابت مدينته بسبب غضب الالهة « انّانا » ، أخـذ يبدى الطاعة الى « اينمركار » ، ولكنه طلب من « اينمركار » فى هذه المرة أن يختار من محاربيه بديلا عنه ليبارز محاربا يمثل سيد « أرتّا » وعندئذ سيظهر من هو القوى الغالب . لقد طلب فى تحديه ، الذى وضعه بهيئة لغز ، أنّ من يختـاره للنزال ينبغى ألا يكون أسـود ولا أبيض ولا أسمر ولا أصفر مرقطا — وهى صفات تبدو كلها لا معنى لها عند الحديث عن انسان .

وعند عودة الرسـول الى « ارك » وهـو يحمـل هـذا التحدى الجـديد يأمره « اينمركار » بأن يعـود الى « أرتّا » وحمله رسالة تتضمن ثلاثة مطالب : —١— ان « اينمركار » يقبل تحدى سيد « أرتا » وهو على استعداد لأن يرسل اليه أحد أتباعه ليبارز البطل الذى سيختاره سيد « أرتا » —٢— طلب من سيد « أرتا » أن يقدم الى الآلهة « انانا » فى ارك الذهب والفضة والأحجار الكريمة —٣— أنذر مدينة «أرتا» مرة أخرى بالتدمير الشامل اذا لم يقدم سيدها وأهلها « أحجار الجبل » ويبنوا له معبد مدينة « أريدو » ويزينوه .

وتفسر لنا الكلمات الأولى من رسالة « اينمركار » لغز سيد « أرتا » فى صفة لون المبارز الذى سيختاره « اينمركار » فانه يذكر كلمة « رداء » بدلا من كلمة محارب فيكون المقصـود من ذلك أن اللون المشروط انما كان لـون الرداء الذى يلبسه البطل المبـارز وليس لون جسمه .

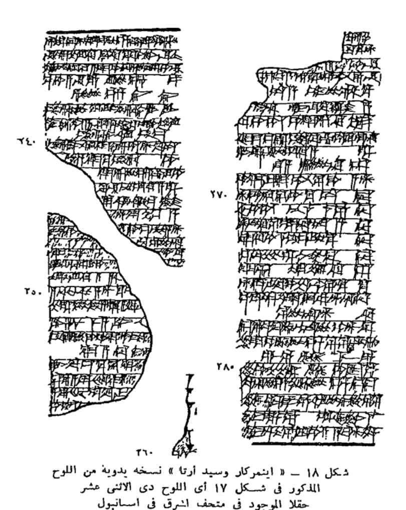
ثم يعقب ذلك جملة عجيبة فى الملحمة اذا صح تفسيرها الذى ارتأيناه فهى تخبرنا بأن « اينمركار » سيد « كلاب » (١) كان فى رأى ناظم القصيدة أول من كتب فى ألواح الطين . وانه انما فعل ذلك لأن رسوله كان ثقيل الكلام ولا يقوى على تبليغ الرسالة الشفوية بنصها (لعله بسبب طولها) . فسلم ذلك الرسول « اللوح المكتوب » الى سيد « أرتا » ، وأخذ ينتظر الجواب . ولكنه حدث فى غضون ذلك ان جاء الى سيد « أرتا » العون من مصدر لم يكن متوقعا . ان الاله « اشكُر (Ishkur) الآله السومرى الخاص بالمطر والزوابع جلب الى « أرتا » الحنطة والفول ، مما ينبت بهيئة برية ، وكدسها أمام سيد « أرتا » فتشجع هذا لمرأى الحنطة . ولما ان استعاد الثقة بنفسه بلغ رسول « اينمركار » بأن الآلهة « انانا » لم تتخل عن مدينة « أرتا » أبدا ولا عن « معبدها » و « مخدعها » فى « أرتا » .

يصبح النص من بعد هذه الفقرة ناقصا مما يتعذر معه متابعة سياق القصة باستثناء ما ورد فيه من أن أهل « أرتا » قدموا الذهب واللازورد الى مدينة « أرك » وكدسوها الى الآلهة « انانا » فى ساحة معبدها « أى ــ أنا » هناك .

وعلى هذا الوجه تنتهى أطول قصة من قصص الملاحم السومرية . مما كشف عنها الى الآن ، وهى الأولى من نوعها فى الآداب العالمية . لقد أكمل النص من عشرين لوحا وكسرة من لوح أهمها اللوح المتضمن اثنى عشر حقلا والمحفوظ فى متحف الشرق القديم فى استانبول وكنت استنسخته فى عام ١٩٤٦ وأوجزته فيما مر بنا من الفقرات السابقة .

---

(١) كلاب Kullab قسم مهم من دولة مدينة « ارك » . (المترجم)



شكل ١٨ — « اينمركار وسيد أرتا » نسخه يدوية من اللوح
المذكور فى شكل ١٧ أى اللوح ذى الاثنى عشر
حقلا الموجود فى متحف الشرق فى اسانبول

أما دراسة القصيدة دراسة علمية وافية ونشرها للمختصين مع ايراد النص السومرى والترجمة والتعليق فقد ظهرت كاحدى نشرات « متحف الجامعة » لعام ١٩٥٢ . وسيجد حتى غير المختصين فى البحوث السومرية ان هذا النموذج القديم من شعر الملاحم يتميز بالأهمية والطرافة . وفيما يلى أقدم ترجمة حرفية للمواطن السالمة من النصف الأول من القصيدة مما سيوضح ميزة القصيدة وروحها وفحواها . ستتضمن الفقرات التماس « اينمركار » من الهته « الحامية » « انانا » ، ونصيحة « انانا » له ، ووصايا « اينمركار » لرسوله ثم تبليغ هذه الوصايا والرسائل من

جانب هذا الرسول ، ورفض سيد « أرتا » لها بسخط وغضب ، ثم محاجّة الرسول بأن « انانا » هى بجانب « اينمركار » ، وأثر وقع ذلك فى تثبيط همة سيد « ارتا » (لاحظ هنا ان النقطتين والثلاث والأربع النقط فيما ستصادفه فى نص الترجمة تشير الى المواطن الناقصة المحذوفة المكونة من كلمة أو كلمتين أو أكثر من كلمتين) :

« فى سالف الأزمان (كان) السيد الذى اصطفته « انانّا » فى قلبها المقدس ،

« الذى اختارته « انانّا » من بلاد « شوبا » فى قلبها المقدس »
« انه « اينمركار » ابن الاله « أوتو » ،
« من أخته ملكة الخير .... ،
« التمس من « انانّا » المقدسة (مخاطبا اياها)
« يا أختاه « انانا » من أجل « ارك » ،
« دعى أهل « أرتا » يصوغون الذهب والفضة ،
« دعيهم يأتون بحجر اللازورد النقى من الصفاح [1] ،
« اجعليهم يجلبون الأحجار الكريمة وحجر اللازورد النقى
« ولارك البلد المقدس .... ،
« ولبيت « أنشان » حيث تقومين هنالك ،
« دعيهم يبنون .... ،
« وفى الـ « جيپار » [2] المقدس حيث أقمت مسكنك ،
« عسى أن يزين أهل « أرتا » داخله ،
« وأنا سأقدم الصلوات .. فى وسطه ،

---

(١) Slabs اى صفحات الحجر . (المترجم)

(٢) يلفظ الجيم كما نوهنا بذلك فيما سبق كافا فارسية والـ « جيبار » Gipar جزء مقدس من المعبد القديم لا يعلم تشخيصه بوجه التاكيد .

(المترجم)

« دعى « أرتا » تذعن (لسيادة) « ارك » ،
« ودعى أهل « أرتا » ،
بعد أن يأتوا بأحجار الجبل من جبلهم ،
« يبنون لى المعبد الكبير ويقيمون لى المزار الجليل ،
« واجعلى المزار العظيم ، مزار الآلهة ، يظهر لى ،
« أنجزى لى نواميسى (شرائعى) المقدسة فى « كُلاّب » [1] ،
« وأقيمى لى معبد الـ « ابزو » [2] واجعليه متساميا كالجبل المقدس ،
« طهرى لى « اريدو » (وصيريها) كالجبل ،
« واجعلى مزار معبد الـ « آبزو » المقدس يظهر لى كالكهف ،
« وأنا عندما أردد التراتيل من الـ « آبزو » ،
« ولما أن آتى بالنواميس المقدسة من اريدو ،
« وأجعل منصب « الكهنوتية » الطاهر يزدهر ويتسامى مثل .. ،
« ولما أن أضع التاج على رأسى فى « ارك » وفى « كلاب » ،
« عسى أن يؤتى بـ .. الخاص بالمزار الكبير الى الـ « جيبار » ،
« وعسى أن يؤتى به .. الخاص بالـ « جيبار » الى المزار العظيم » ،
« وعسى أن ينظر الناس بعين الاعجاب والاستحسان ،
« وعسى أن تنظر عين الاله « أوتو » بنظرة الفرح والابتهاج » ،

---

(١) لقد سبقت الاشارة الى هذا الموضع حيث قلنا انه كان جزءا مهما من دولة مدينة « ارك » .

(المترجم)

(٢) معبد الـ « ابزو » Abzu معبد الآله « انكى » فى اريدو ومعناه بيت مياه العمق.

(المترجم)

« انها هى .. بهجة الاله « آن » المقدس ، الملكة التى ترمق الجبال بنظرها ،

« السيدة التى تكتحل بـ « أماشم جال أنا » [1] ،

« انانا » ملكة جميع البلدان ،

« خاطبت « اينمركار » ابن الاله « أوتو » (وقالت له) : —

« هلم يا « اينمركار » سأقدم لك النصح فاعمل بنصحى وارشادى » ،

« سأكلمك بكلمة فاستمع لكلامى !

« اختر لك رسولا حكيم المنطق من .. ،

« ودع الكلمات العظمى التى فاهت بها « انانا » الحكيمة تبلغ اليه فى ..

« دعه يتسلق الجبال .. ،

« ودعه يهبط الجبال .. ،

« وأمام .. الخاص بـ « أنشان » ،

« فليتمدد على الأرض (أى يسجد) مثل المغنى الحدث ،

« الذى يتملكه الخوف من الجبال الشاهقة ،

« دعه يتجول ويطوف وهو فى التراب ،

« ان « أرتا » ستذعن الى « ارك » ،

« وان أهل « أرتا » بعد أن يأتوا بأحجار الجبال من بلادهم ،

« سيبنون لك المزار العظيم ويقيمون لك المعبد الجليل » ،

« وسيظهرون لك المزار العظيم مزار الآلهة ،

« وسينفذون لك النواميس المقدسة فى « كُلاّب » ،

---

(1) Amaushumgalanna

« ويقام لك الـ « آبزو » كالجبل المقدس ،
« ويطهرون لك « اريدو » كأنها الجبل » ،
« ويقام لك المزار المقدس فى الـ « ابزو » كأنه الكهف ،
« وأنت حين ترتل التراتيل من الـ « ابزو » ،
« وتأتى بالنواميس المقدسة من « اريدو » ،
« وتجعل منصب الكهنوتية يسمو ويزدهر مثل ..
« ولما أن تضع على رأسك التاج فى أرك وفى « كلاب » ،
« فسيؤتى بـ .. الخاص بالمزار الكبير الى الـ « جيپار » ،
« ويجلب الـ .. الخاص بالـ « جيپار » الى المزار العظيم ،
« وسينظر الناس بنظر العجب والاستحسان ،
« وسينظر الاله « أوتو » بعين الغبطة والرضا ،
« وان أهل « أرتا » ،
.... (أربعة أسطر محذوفة)
« سيركعون لك مثل خراف البلاد الجبلية ،
« يا صدر البيت المقدس الذى يشبه ظهوره الشمس ،
« أنت المحبوب الذى يزوّده ،
« يا « اينمركار » .. ، يا ابن الاله « أوتو » ، لك التبجيل » ،
« لقد أصغى السيد الى كلام « انانا » المقدسة ،
« فاختار رسولا حكيم الكلام من .. ،
« وأعاد عليه الكلمات العظمى التى فاهت بها « انانا » الحكيمة فى .. .
« ارتق الجبال ..
« واهبط الجبال ..
« وأمام الـ .. فى أنشان ،

« اسجد كالمغنى الحدث »

« طف وتجول وأنت معفر بالتراب »

« يتملكك الخوف من الجبال العظيمة »

« أيها الرسول بلغ سيد « أرتا » وقل له :

« سأجعل أهل تلك المدينة يولون الأدبار مثل الطير .. من الشجر »

« سأجعلهم يفرون كما يطير الطير ، الى العش المجاور له »

« سأجعلها (أى « أرتا ») خرابا بلقعا كموضع ... »

« سأجعلها تحتوى على التراب كمدينة حل فيها الخراب الشامل »

« أرتا » ، ذلك الموطن الذى لعنه الاله « أنكى » »

« لأدمرن ذلك المكان وأجعله موضع خرائب .

« برزت « انانا » بالسلاح وراءه »

« لقد أنزلت « الكلمة » ، لقد أرجعتها .

« كأنقاض التراب المتراكم لأطمرنها بالتراب »

« بعد أن صنع ... الذهب فى خامه »

« وطرق .. الفضة فى ترابها »

« لقد صاغ الفضة ... »

« وأحكم الأقفاص (الأسفاط) على حمير الجبال

« وبيت انليل .. صغير بلاد سومر »

« الذى اصطفاه الاله « نودمود » [1] فى قلبه الطاهر »

« ليتم أهل الجبال بناءه لى بموجب النواميس الالهية المقدسة »

« وليكن مزدهرا من أجلى كشجرة البقس »

---

(1) نودمود Nudimmud من اسماء او القاب الاله « أنكى » اله الماء والحكمة والمعرفة . ومن أسمائه أيضا « ايا » . (المترجم)

« وليجعلوه لى منيرا مثل « أوتو » [1] لما يشرق من الـ «جانن»[2]،
« ويزينوا عتباته لى » .
.... (سبعة وعشرون سطرا محذوفة) .
« لقد أصغى الرسول الى كلام ملكه .
« وشرع يحث السير على هدى النجم فى الليل ،
« وفى النهار كان يسير مع « أوتو » السماوى ،
« ان كلمات « اانانا » العظمى .. أحضرت له فى .. ،
« صار يرقى الجبال .. ،
« ويهبط الجبال .. ،
« وأمام الـ .. الخاص بأنشان ،
« سجد مثل المغنى الحدث ،
« ومن رهبة الجبال العظيمة وأهوالها ،
« صار يتجول وهو معفر بالتراب ،
« عبر خمسة جبال وستة جبال وسبعة جبال ،
« رفع عينيه وشارف مدينة « أرتا » ،
« وفى ساحة « أرتا » ألقى عصا الترحال وهو فرح ،
« وأعلن علو شأن ملكه ومجده ،
« وتكلم عما يهواه قلبه باجلال واحترام .
« قال الرسول لسيد « أرتا » :
« ان أباك ومليكى قد أرسلنى اليك ،

---

(١) « أوتو » Uto هنا الاله الشمس .
(المترجم)

(٢) تلفظ الجسم كانا فارسيا ولا يعلم معنى هذه الكلمة السومرية .
(المترجم)

« بعث بى اليك سيد « ارك » وسيد « كلاب » ،
« ماذا تكلم ملكك وماذا قال » ؟
« هذا هو ما تكلم به ملكى ، وهذا ما قاله . —
« ان ملكى الخليق بالتاج منذ أن ولد ،
« ان سيد « ارك » (الوركاء) ثعبان بلاد سومر المقدم على الجميع
الذى .. يشبه .. ،
« انه الكبش المنعم بقوة الامارة فى البلاد الجبلية المسورة ،
« الراعى الذى .... ،
« الذى ولدته البقرة الأمينة فى قلب الجبال ،
« اينمركار » ابن الاله « أوتو » قد أرسلنى اليك ،
« وهذا ما يقوله لك ملكى :
« سأجعل أهل مدينته يفرون مثل الطير من الشجرة ..
« سأجعلهم يفرون كما يفر طير .. ، الى عشه الثانى ،
« سأجعلها خرابا كموضع ... ،
« سأدعها ركاما كالمدينة التى حل فيها الدمار الشامل ،
« ان « أرتا » ذلك الموطن الذى لعنه الاله « أنكى » ،
لأدمرن ذلك الموضع وأجعله خرابا بلقعا ،
« لقد شهرت « انانا » السلاح من ورائه ،
« لقد أنزلت الكلمة وأرجعتها ،
« كأنقاض التراب المتراكم ، لأطمرنها بالتراب ،
« وبعد أن يضع ... الذهب فى خامه .
« وتطرق . الفضة فى ترابها وتصاغ الفضة .
« أحكمت الأسفاط (الأقفاص) على حمير الجبال .

« وبيت « أنليل » ، صغير بلاد سومر ،
« الذى اصطفاه الرب « انكى » فى قلبه المقدس ،
« ليبنى أهل الجبال لى البيت ذا النواميس المقدسة ،
ويجعلوه مزدهرا لى كشجر البقس ،
« ويجعلوه منيرا مثل « اوتو » لما يظهر من الـ « جانن » ،
« ويزينوا عتباته لى » ،
« ... (سطران محذوفان) ،
« نفذ ما سأقوله عن هذا الأمر .
« الى ذلك المقدس الملتحى بلحية طويلة من اللازورد [1] .
« والى من أبقاره القوية .. البلد ذو النواميس الآلهية الطاهرة ،
« الى من ارتضع اللبن فى حظيرة البقرة الصادقة ،
« الى من هو خليق بسـيادة « كلاب » ، أرض جميع النواميس المقدسة ،
« الى « اينمركار » ، ابن الآله « أوتو » ،
« سأقول تلك الكلمة ، الكلمة الطيبة فى معبد « اى ــ أنا » ،
« وفى الـ « جيپار » الذى يحمل الأثمار كالنبات الطرى .. ،
« سأبلغها الى ملكى ، سيد « كلاب » ،
« ثم كلمه هكذا قائلا له :
« أيها الرسول بلغ ملكك سيد « كلاب » وقل له :
« اننى أنا السيد الخليق باليد الطاهرة ،

---

(١) الاشارة هنا الى « اينمركار » ، ولا يعلم المقصود منها بالضبط ولكن بعض التماثيل التى جاءتنا عن السومريين قد تلقى ضوءا على ذلك حيث نجد لحاها مصنوعة من حجر اللازورد الازرق .

(المترجم)

« وان ربة كل النواميس المقدسة « انانا » المقدسة ،
« هى التى جاءت بى الى « أرتا » ، أرض النواميس المقدسة .
« وجعلتنى أسد « وجه البلاد الجبلية » كالباب العظيم ،
« فكيف اذن ستذعن « أرتا » لسيادة « ارك » ؟
« ان « أرتا » لن تذعن الى « ارك » — قل له ذلك » .
« وبعد أن كلمه هكذا ،
« أجاب الرسول مخاطبا سيد « أرتا » ،
« ان ملكة السماء العظيمة ، التى بيدها زمام النواميس الرهيبة الالهيــة ،
« التى تسكن فى جبال الأرض المرتفعة « شوبا » ،
« لأن سيدى الملك الذى هو عبدها ،
« قد جعلها ملكة « أى — أنا » ،
« ان سيد « أرتا » سيذعن ويخضع .
« وهذا هو ما قاله فى بيوت « كلاب » .
« فاكتأب سيد أرتا وحل به الحزن والأسى ،
« انه لم يحر جوابا . لقد ظل يبحث عن جواب ،
« لقد أطرق بعينين حزينتين وخفضهما نحــو قدميه . انه يجد الجواب ..

* * *

لم يكن حكام بلاد « ســومر » الأقدمون مهما عظم شأنهم فى الفتح والغزو ، طغاة لا ضابط أو رادع لهم ، ولم يكونوا ملوكا مطلقى

السلطان . فقد كانوا فى شئون الدولة الخطيرة ، ولا سيما فى شئون الحرب والسلم ، يشاورون مواطنيهم من ذوى المراتب العليا وهم مجتمعون فى مجمع وقور . ان مثل هذه المجامع للشورى قد انعقدت فى مطلع التاريخ السومرى ، منذ خمسة آلاف عام ؛ على الرغم من انها جاءتنا وهى مدونة فى قصيدة من قصائد شعر الملاحم من زمن متأخر . وسيكون هذا الشىء « الأول » فى التاريخ السياسى موضوع الفصل الرابع الآتى .

الفصل الرابع

« الحكومة »

أول برلمان ذى مجلسين

ان نمو الانسان الاجتماعى والروحى لهو فى الغالب بطىء ، منحرف ، ويصعب تتبعه وتقصيه . وقد تكون الشجرة المتكاملة النمو منفصلة بعيدة عن بذرتها الأصلية بألوف الأميال والسنين . خذ مثلا أسلوب الحياة المعروف باسم « الديموقراطية » ، ومؤسستها أو نظامها الأساسى وهو المجلس السياسى . ففى ظاهر الحال يبدو هذا النظام وكأنه قاصر على حضارتنا الغربية ، أو احتكار لها ، وأنه ثمرة من ثمرات القرون الحديثة ، اذ منذا الذى يتصور أن برلمانات سياسية كانت فى الوجود قبل ألوف كثيرة من السنين ، وفى جهات من العالم ليست لها صلة بالمؤسسات الديموقراطية الا فيما ندر ؟ ولكن الأثرى الصبور ينقب ويتعمق فى الحفر ويوسع فيه ، ولا يعلم مطلقا ماذا سيجده ويعثر عليه . وبفضل جهود فرقة « الرفش والمعول » أصبح فى وسعنا الآن أن نقرأ سجل مجلس سياسى انعقد قبل نحو خمسة آلاف عام — فى الشرق الأدنى قبل أى مكان آخر .

أجل ان أول « برلمان » سياسى معروف فى تاريخ الانسان المدون قد التأم فى جلسة خطيرة فى حدود ٣٠٠٠ ق . م . ولقد كان مثل « برلماننا » مؤلفا من مجلسين : من مجلس الأعيان أى مجلس الشيوخ

ومن مجلس العموم (النواب) ، المؤلف من المواطنين الذكور القادرين على حمل السلاح . وكان « برلمان حرب » ، دعى للانعقاد ليتخذ قرارا فى أمر خطير يخص الحرب والسلم . لقد كان عليه أن يختار بين « السلم بأى ثمن كان ، وبين الحرب مع الاستقلال » فأما مجلس الأعيان الذى كان مؤلفا من الشيوخ المحافظين فانه أعلن قراره انه بجانب السلم مهما كان الثمن . ولكن الملك اعترض على هذا القرار ، ثم عرض الأمر بعد ذلك على مجلس العموم فأعلن هذا المجلس الحرب من أجل الحرية وصادق الملك على قراره .

ففى أى جزء من العالم انعقد أول « برلمان » معروف لدى الانسان ؟ لم يكن موضع انعقاده فى الغرب ، فى قارة أوروبا ، كما قد تظن ، (فان المجالس السياسية فى بلاد الاغريق الديموقراطية وفى رومة الجمهورية جاءت بعد ذلك بزمن طويل) ، بل ان مما يثير الغرابة والدهشة أن يكون ذلك البرلمان العتيق قد عقد جلساته فى ذلك الجزء من آسيا الذى اصطلح الناس على تسميته باسم الشرق الأدنى ، موطن الطغاة والمستبدين المأثور ، وهو جزء من العالم كان يظن عنه أن المجالس السياسية لم تكن معروفة فيه .

أجل انه فى تلك البلاد المعروفة قديما باسم « سومر » ، الواقعة شمال خليج فارس ، بين نهرى دجلة والفرات ، تم انعقاد أقدم مجلس سياسى معروف . فمتى اجتمع هذا البرلمان ؟ انه اجتمع فى الألف الثالث ق . م . فلقد كان يقطن بلاد « سومر » (وهى تطابق القسم الجنوبى من العراق الحديث) شعب أنشأ ونمى ما يرجح أن تكون أرقى حضارة فى العالم المعروف آنئذاك .

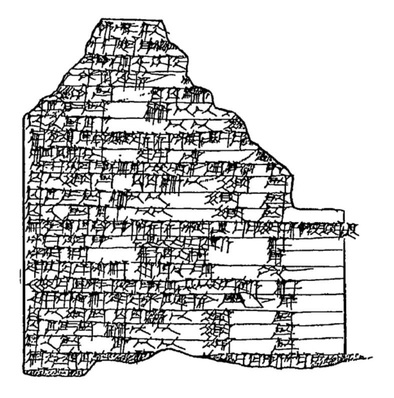
كانت بلاد سومر قبل نحو أربعة الى خمسة آلاف عام تفخر وتتباهى

بمدن كبيرة عديدة ، تتركز حول مبان عامة كبيرة وذات شهرة ذائعة . وكان تجارها العاملون النشطون يزاولون التجارة الواسعة فى البر والبحر مع الأقطار المجاورة . واستطاع مفكروها والمشتغلون بالعلوم العقلية أن يخلقوا وينموا مجموعة من الأفكار والآراء الدينية تقبلها البشر ككتاب مقدس ، ليس فى بلاد « سومر » فحسب وانما فى معظم أجزاء الشرق الأدنى . وتغنى شعراؤها الموهوبون بهيام وحرارة بأمجاد آلهتها وأبطالها وملوكها . أما خير ما فعله السومريون فهو أنهم أنشأوا وطوروا بالتدريج طريقة للكتابة بقلم القصب وعلى الطين ، مكنت الانسان لأول مرة فى التاريخ من أن يدون ويخلد أعماله ، وأفكاره ، وآماله ، ورغباته ، وأحكامه ، ومعتقداته . وعلى هذا فليس من المستغرب اذا كان السومريون قد أحرزوا فى حقل السياسة أيضا تقدما مهما . وانهم بوجه خاص ساروا فى الخطوات الأولى نحو الحكومة الديموقراطية ، بالهيمنة على سلطات الملوك والاعتراف بحقوق المجالس السياسية .

أما الأوضاع السياسية التى استوجبت انعقاد أقدم « برلمان » فى التاريخ مدونة أخباره فيمكن وصفها على الوجه الآتى : كانت بلاد سومر فى غضون الألف الثالث ق . م ، مثل بلاد الاغريق فى زمن متأخر جدا ، مؤلفة من عدد من دول — المدن المتنافسة المتنازعة فيما بينها على كسب السلطة والسيطرة على جميع البلاد . وكانت دولة « كيش » من أهم هذه الدويلات ، وهى المدينة التى تسلمت « الملوكية » ، كما جاء فى الأساطير السومرية ، من السماء بعد الطوفان فورا . ولكن كان هناك من هذه الدويلات « دولة — مدينة » أخرى هى دولة « ارك » الواقعة بمسافة بعيدة الى الجنوب من « كيش » . وكانت تتعاظم فى

السلطان والنفوذ السياسى ، حتى بلغ بها الحال أن أخذت تهدد سلطان دولة « كيش » على بلاد « سومر » . فأدرك ملك « كيش » عندئذ مبلغ الخطر ، وهدد أهل « ارك » بشن الحرب عليهم اذا أبوا الاعتراف به سيدا عليهم . وفى هذه الأزمة العصيبة التأم مجلسا « ارك » — أى مجلس الشيوخ ومجلس الذكور القادرين على حمل السلاح ليبتا فى أى السبيلين يختاران : الخضوع والاذعان الى سلطان « كيش » والتمتع بالسلم ، أو اشهار السلاح والحرب من أجل المحافظة على الاستقلال .

روبت قصة النزاع بين « ارك » وبين « كيش » بقصيدة سومرية



شكل ١٩ — « جلجامش وأجا » نسخة يدوية لوجه لوح من الألواح الأحد عشر التى وجدت فى « نفر » واستعملت فى استكمال العقيدة الخاصة بتلك الملحمة

من نوع شعر الملاحم ، وكانت شخصياتها أو أبطالها البارزون «أجا»[1]، آخر حاكم فى سلالة (أو أسرة) « كيش » الأولى و « جلجامش » ملك « ارك » وسيد « كلاب » . وتبدأ تلك القصيدة بذكر وصول الرسل الذين أرسلهم « أجا » الى مدينة « ارك » وهم يحملون انذارا نهائيا الى ملكها « جلجامش » . ولكن قبل أن يجيب « جلجامش » ذلك الوفد نراه يقصـد مجلس « شيوخ مدينته المنعقد » ويحث أعضاءه على ألا يخضعوا لمطالب « كيش » ، وأن يشهروا السـلاح ويحاربوا من أجل النصر . بيد أن هؤلاء « الأعيان » كانوا على رأى يختلف عما ارتآه « جلجامش » ، اذ اختاروا الاذعان والخضوع لمدينة « كيش » مفضلين التمتع بالسلم على الحرب . لقد أغاظ قرارهم ذاك « جلجامش » وأغضبه . فقصد « مجلس الرجال المحاربين » من أهل مدينته وكرر عليهم طلبه ، فقرر أعضاء هذا المجلس الحرب دون الخضوع لمدينة « كيش » ، فسر لذلك « جلجامش » ، اذ كان واثقا مطمئنا من نتيجة الصراع المرتقب . ثم حدث ، كما جاء فى قول ناظم القصيدة ، بعد زمن وجيز « لم يطل أكثر من خمسة أيام ولم يطل عشرة أيام » أن جاء « أجا » وحاصر مدينة « ارك » ، فأسقط فى أيدى أهل « ارك » وحل بهم الهلع . ان معنى باقى القصيدة غير واضح تمام الوضوح ولكن الذى يبدو أن « جلجامش » نجح فى مصالحة « أجا » واحراز الصداقة معه ورفع الحصار عن مدينة « ارك » بدون قتال . وها هو ذا نص كلام الشاعر السومرى القديم مما يتعلق ببرلمان مدينة « ارك » . ان الترجمة ترجمة حرفية مطابقة للأصل ، الا انه حذف منها عـدد من السطور الغامضة فى معناها :

---

(۱) يلفظ الجيم كافا فارسية .

« ان مبعوثى (رسل) « أجا » بن « اينميبراجِّيسى » [1] ،
« شرعوا بالسفر من « كيش ؟ الى جلجامش فى « ارك »
« فعرض السيد « جلجامش » الأمر على مجلس شيوخ مدينته ،
« وقال لهم :
« علينا ألا نذعن لبيت « كيش » ولنحارب بالسلاح ،
« ولكن مجلس شيوخ المدينة المنعقد أجاب « جلجامش » :
« لنذعن الى بيت « كيش » ولا نحارب بالسلاح .
(أما) « جلجامش » سيد « كلاب » ،
« الذى حقق أعمال البطولة من أجل الآلهة « انانا » ،
« فلم يسر لكلمات شيوخ مدينته .
« ان « جلجامش » ، سيد « كلاب » ، مرة أخرى ،
« عرض الأمر على مجلس « محاربى مدينته » وطلب اقرار كلمته :
« لا تذعنوا لبيت« كيش » لنضربه بالسلاح ،
« فأجاب مجلس المحاربين « جلجامش » (قائلين له) :
« لا نذعن الى بيت « كيش » ولنضربه بالسلاح .
« وعندئذ سر « جلجامش » سيد « كلاب » ،
« لكلام محاربى مدينته وابتهجت روحه .

ان شاعرنا هذا قد أوجز فى الخبر . فهو يقتصر فى روايته على ذكر « برلمان » مدينة « ارك » ومجلسيه ، وأغفل أن يخبرنا عن تفصيلات أخرى . فكم يسرنا لو عرفنا مثلا كم كان عدد أعضاء كل من المجلسين ، وكيف كان ينتخب أعضاء مجلس العموم (النواب) وأعضاء مجلس الأعيان (الشيوخ) ، وهل كان فى وسع أى عضو أن يدلى برأيه

(١) يلفظ الجيم فى جميع الاعلام السومرية الواردة بهيئة كاف فارسية .

فيستمع اليه ؟ . ثم كيف كان يتم الحصول على نتيجة رأى المجلس النهائى ؟ . وهل كانوا يتبعون أسلوبا فى التصويت يضاهى الأسلوب المتبع فى عصرنا الراهن ؟ . ومن المرجح جدا أنه كان هناك « رئيس » للمجلس يشرف على النقاش ، ويخاطب الملك بالنيابة عن المجلس . ثم اننا ، مع لغة الشاعر العالية المنمقة ، نستطيع أن نستشف (من وراء السطور) وجود قدر كبير من الألاعيب السياسية والتكتلات السياسية بين أعضاء المجلسين . ويبدو أن دولة مدينة « ارك » قد انقسمت على نفسها الى حزبين متعارضين حزب الحرب وحزب السلم ، كما يحتمل أن أكثر من شخص واحد كانوا يحرضون أعضاء المجلس من وراء الستار قبل أن يدلى زعماء كل من المجلسين بقراراتهم النهائية ، والتى أصدروها بالاجماع على ما يظهر .

ولكننا لن نستطيع على الأرجح أن نقف على أى خبر أو أثر لمثل تلك الخصومات والمماكحات والتسويات السياسية . فليس هنـاك الا أضعف الاحتمالات فى اننا سنعثر يوما ما على أى سجلات مدونة من زمن « أجا » و « جلجامش » ، ذلك لأن الكتابة فى زمنهما اما أنها لم تكن معروفة مطلقا ، أو أنها كانت فى أولى أطوار اختراعها ، أى انها كانت فى مرحلتها الصورية . أما عن هذه القصيدة من شعر الملاحم فيجدر بنا أن نبين أنها نقشت فى ألواح الطين بعد قرون عديدة مضت على زمن وقوع الحوادث التى ترويها ولعل ذلك كان بعد ألف عام من تاريخ انعقاد « برلمان » ارك وفضه .

يوجد الآن أحد عشر لوحا وكسرة من لوح دونت فيها هذه القصيدة التى روت لنا خبر ذلك « المجلس السياسى » . وان أربع قطع من هذه الألواح الأحد عشر قد استنسخت ونشرت قبل نحو أربعين عـاما ،

الا انه لم تدرك دلالتها وأهمية مضامينها فى تأريخ الفكر السياسى. الا فى عام ١٩٤٣ ، حين نشر « ثوركلد ياكبسون » من المعهد الشرقى. فى جامعة شيكاغو دراسة عنها بعنوان « الديموقراطية البدائية » (١) . ثم واتانى الحظ من بعد ذلك فاستطعت أن أعين وأستنسخ الألواح السبعة الباقية فى استانبول وفيلادلفيا . وبنتيجة ذلك أصبحت القصيدة المؤلفة من (١١٥) سطرا كاملة الآن . وظهرت عنها فى عام ١٩٤٩ نشرة. علمية تتضمن النص وترجمة منقحة فى مجلة « الآثار الأمريكية » (٢) .

ان الحادثتين السياسيتين اللتين قدمنا خبرهما هنا فى هذا الفصل وفى. الفصل الثالث حدثتا حوالى عام (٣٠٠٠) ق . م . ولم نعرفهما من وثائق تاريخية معاصرة لزمن حدوثهما وانما عرفناهما من قصائد الملاحم لا تشتمل الا على بذرة الحقيقة التاريخية ، ولم يتسن الا بعد نحو ستة قرون أننا نجد ، من بين الوثائق التى جاءت الينا ، عددا من. الكتابات التى دونت الوقائع الاجتماعية والسياسـية (المعاصرة) وفسرتها بأسلوب من الكتابة والعرض يؤهلها لأن تعد « أول » محاولة للانسان فى تدوين التاريخ .

سيأتى وصف احدى هذه الوثائق فى الفصل الخامس ، مع شرح. وتعليق على تلك القيود العقلية والنفسية مما كان يتصف به « أول المؤرخين » . انها تدور على وصف حرب أهلية قاسية وقعت بين دولتين. من دول المدن السومرية وانتهت بتسوية وقتية غير مستقرة ، كان المنتصر الحقيقى فيها الموت والدمار .

---

(١) Thorkild Jacobsen, «Primitive Democracy in Ancient Mesopotamia,» Journal of Near Eastern Studies, 1945

(٢) American Journal of Archaeology

الفصل الخامس

« حرب أهلية فى بلاد سومر »

أول مؤرخ

انه أضمن للحقيقة أن يقال ان السومريين لم ينتجوا طرق تدوين التاريخ بالمعنى المقبول لهذا المصطلح [1] . فالمؤكد انه ما من أحد من أهل الأدب السومريين قد كتب التاريخ كما يفهمه المؤرخون المحدثون أى بموجب أساليب موضحة كاشفة ، ومبادىء وقواعد أساسية . لقد كان المفكر السومرى ، وهو مقيد بوجهة نظره الخاصة الى العالم ، يرى الأحداث التاريخية وكأنها وقعت وهى جاهزة الصنع ، وهيئت سابقا ، وهى كاملة النمو والنضج فى مشهد العالم ، وليس على انها نتاج متدرج بطىء ، جاء نتيجة لتفاعل الانسان مع بيئته . خذ مثلا فى بلاده التى عرفها . وهى بلاد كانت ذات مدن وقرى عامرة ومزارع زاهرة ، وازدهرت فيها ضروب ناضجة النمو من النظم والمؤسسات السياسية والدينية والاقتصادية . انه كان يعتقد فيها انها كانت هناك على الدوام ، وهى نفسها لم تتبدل وتتغير منذ بدء العصور — أى منذ اللحظة التى نظمها فيها الآلهة وأرادوها أن تكون بالحال التى صارت اليها ، من بعد خلق الكون . والمحتمل أنه لم يدر بخلد حتى أعلم حكماء السومريين والمتضلعين من المعرفة منهم ان بلاد « سومر » كانت فيما مضى أهوارا غامرة ، لم يكن

---

(١) Historiography

فيها سوى مواطن قليلة مبعثرة من مستوطنات الانسان ، وانها لم تصر الى حالتها التى بلغتها الا بالتطور التدريجى ، وبعد أجيال كثيرة من الكفاح والصراع والجهود المتميزة بارادة الانسان وعزمه ، وبخطط الانسان وأعماله وتجاربه واكتشافاته واختراعاته المختلفة .

ثم ان الأساليب والطرق « السايكولوجية » (النفسية) من تعريف وتعميم الى غير ذلك مما هو مألوف ومسلم به لدى المؤرخ المحدث ، لم تكن على ما يبدو معروفة لدى المفكر السومرى والمعلم السومرى ، أو على أقل الاحتمالات ، لم تكن بهيئة قواعد واضحة مفهومة ومقررة . فمثلا فى الحقل اللغوى جاءنا منهم عدد لا بأس به من الأثبات النحوية السومرية التى تدل عـلى معرفتهم بالأنواع المتعددة من التصنيف النحوى والأبواب النحوية ، بيد أننا لا نجد البتة فى جميع ما بين أيدينا من الوثائق أى تعريف نحوى أو قاعدة نحوية . ولدينا عن الرياضيات جداول رياضية كثيرة متنوعة ، وقضايا رياضية وحلولها . ولكننا لا نجد أى تقرير لمبادىء أو قواعد عامة أو بديهيات ونظريات . أما بالنسبة لما يمكن تسميته بالعلوم الطبيعية فقد جمع المدرسون السومريون أثباتا مطولة بالأشجار والنباتات والحيوان والأحجار . ولكن السبب الذى من أجله قاموا بتنظيم تلك الأشياء وترتيبها فى تلك الأثبات لا يزال غامضا غير معروف لدينا . على انه مهما كان الأمر فالمؤكد انهم لم يتبعوا ما كان يستند الى فهم أساسى أو مقارب الى مبادىء وقوانين فى علم النبات والحيوان والمعدنيات . وصنف السومريون عدة مجموعات من القوانين والشرائع التى لا شك فى انها حوت بحالها الأصلية مئات من مواد الأحكام القانونية ، ولكنه لا يوجد بينها أى نص فى النظريات أو المبادىء القانونية . أما فى التاريخ فان الموكلين بحفظ الوثائق الخاصة

بالمعابد والقصور قد لاحظوا ودونوا شتى أنواع الحوادث المهمة فى الحقل السياسى والعسكرى والدينى . ولكن كل ذلك لم يوصلهم الى كتابة تاريخ منسق ، مترابط ، مفهوم . وبما ان الكاتب السومرى كان مفتقرا الى المبدأ المكتشف حديثا من أن التأريخ عملية متغيرة على الدوام ، وكان جاهلا بأسلوب التعميم الشـامل المتبع فى التاريخ ، فلم يكن بمقدوره أن يسير فى طريقة كتابة التاريخ بمقتضى وجهة النظر الحديثة الخاصة بمصطلح التاريخ .

ومع انه ليس غريبا اذا أخفق الكتبة السومريون فى انتاج الطراز « الحديث » فى طرق تدوين التاريخ الا انه يبدو من الغرابة بمكان اذا علمنا انه حتى أنواع الكتابات التاريخية التى شاعت لدى العبرانيين واليونان كانت غير معروفة فى بلاد « سومر » . فما من أحد من الكتبة السومريين ، على ما نعلم حتى الآن ، من بذل المسعى الواعى لكتابة تاريخ ثقافى أو سياسى لبلاد « سومر » ، أو لأية دويلة من الدويلات المكونة منها . ناهيك بتاريخ للعالم المعروف آنذاك . نعم ان أرباب الأدب والكتبة السومريين خلقوا ثم طوروا عددا من أبواب الأدب — كالأساطير وقصص الملاحم ، والتراتيل الدينية ، والمراثى ، والأمثال السائرة ، والرسائل ، والمقالات — ، وان عدة أبواب من هذه الكتابات والتصانيف الأدبية ، ولا سيما الملاحم والمراثى ، قد استعملت المادة التاريخية ولو بحدود ضيقة . أما أن يُهيأ ويصنف تاريخ مترابط مفهوم ، اما بدافع حب التعلم أو حتى بدافع أغراض الدعاية ، فهى فكرة يبدو أنها لم تدر بخلد المدرسين والكتبة السومريين مطلقا . ولعـل أقرب الوثائق الى ما يمكن تسميته بالتـاريخ ما يعرف بالكتـابات النذرية المنقوشة على التماثيل والمسلات والمخروطات الطينية والأساطين والأوعية

وألواح الطين . الا أن الحوادث التاريخية الواردة فيها انما ذكرت على انها نتاج عرضى بالنسبة الى الغرض الأساسى من كتاباتها ، ذلك هو التماس رضا الآلهة والحظوة لديها . وفوق ذلك فان مثل هذه النقوش الكتابية انما تدون فى الأغلب حوادث معاصرة ومنفردة ذكرت فى غاية الايجاز والاختصار . ولكن مع ذلك فهناك عدد من تلك الوثائق يروى لنا حوادث وأحوالا سابقة على زمن كتابتها ، فتكشف لنا مثل هـذه الوثائق عن ادراك لتفصيل الحوادث التاريخية ، وتكون بالنظر الى زمنها المتقادم العهد فى حدود ٢٤٠٠ ق . م . لا نظير لها فى الآداب العالمية .

ان جميع هؤلاء المؤرخين الأقدمين كانوا ، بحسب ما تشير اليه مصادرنا المتيسرة ، يعيشون فى مدينة « لجش » ، وهى مدينة فى جنوبى بلاد « سومر » اشتهرت بأنها قامت بدور سياسى وعسكرى بارز طوال قرن من الزمان ، من حدود ٢٥٠٠ ق . م ، وكانت عاصمة سلالة قوية نشيطة من حكام وأمراء ، أسسها « أور — نانشه » . وتشمل تلك الأسرة أو السلالة حفيد « أور — نانشه » وهو « اياناتم » ، الفاتح الذى نجح فى زمن قصير فى مد حكمه وسلطانه على جميع بلاد « سومر » تقريبا ، وكان من مشهورى حكامها أيضا أخو «اياناتم» المسمى «اناناتم» وابنه «اينتمينا» . ولم يأفل نجم دولة «لجش» الا فى عهد «أوروكاجينا» ، ثامن حاكم من سلالة « أور — نانشه » . وقد غلب « أوركاجينا » على أمره « لوجال زاجيزى » ، حاكم مدينة « أوما » الذى تغلب عليه أيضا « سرجون » ، الفاتح العظيم ، صاحب مدينة « أكد » . هذا وان التاريخ السياسى لهذه الحقبة الممتـدة من زمن « أور — نانشه » الى عهـد « أوروكاجينا » نعرفه من مجموعات مختلفة من السجلات المعاصرة التى أعدها مؤرخون نجهل أسماءهم ، ويرجح أنهم كانوا من الموكلين

بسجلات المعابد والقصور ، ممن كانت فى متناول أيديهم أخبار أصلية عن الحوادث التى وصفوها .

ونخص بالذكر من بين هذه الوثائق وثيقة بارزة الأهمية لما تتميز به من وصفها المفصل ، ووضوح المعنى فيها . وقد دونها أحد الموكلين بالسجلات التابعين الى « اينتيمنا » ، خامس حاكم من سـلالة حكام « لجش » ، ابتداء من « أورنانشه » ، وكان الغرض الأساسى من تدوينها تسجيل اعادة حفر « خندق » الحدود بين « لجش » وبين « أومّا » ، الذى كان قد دمر فى أثناء النزاع والحرب بين المدينتين . ولكى يوضع ذلك الحدث فى اطار تاريخى لائق لتوضيحه ، رأى ذلك المسجل السومرى أن يصف المقدمات التاريخية (التى سبقته) . فأعاد رواية أهم الأمور والحوادث فى النزاع بين « لجش » و « أوما » ، منذ الأزمان التى استطاعت أن تصل الى حوادثها السجلات المتيسرة له — أى منذ أيام الملك المسمى « ميسلم » ، عاهل بلاد « سومر » و « اكد » فى حدود ٢٦٠٠ ق . م ، الا انه فى روايته هذه لم يستعمل طريقة سرد الحقائق وسوقها مساق الرواية التاريخية على ما هو متبع لدى المؤرخين . انه بدلا من ذلك سعى الى وضع الحوادث التاريخية فى الاطار المقبول المسلم به وفق وجهة النظر «الثيوقراطية» (١) الخاصة بعالمه ، وبذلك ولد أسلوب أدبى فذ يحبك دوما بين أعمال البشر وأعمال الآلهة ، وكثيرا ما أخفق فى التمييز ما بينهما ، مما نجم عنه أن لا تكون الوقائع التاريخية الحقيقية واضحة جلية بالاقتصار على نص الوثيقة بل ينبغى استخلاصها بجهـد ومشقة ، وتكميل معناها تكميلا حصيفا بالاستعانة بالمعلومات الخاصة الأخرى المستخلصة من المصادر السومرية الأخرى . واذا ما جردت هذه

---

(١) اى حكومة الآلهة للكون وشئون الحياة . (المترجم)

الوثيقة من ردائها اللاهوتى وتعابيرها المستندة الى فكرة الشرك (تعدد الآلهة) ، فاننا نجدها تسجل لنا ما سنذكره من سلسلة الحوادث السياسية فى تاريخ بلاد « سومر » . وبالامكان التحقق من سير هذه الحوادث بالرجوع الى المصادر السومرية الأخرى المتيسرة :

فى الأزمان التى كان فيها « ميْسِلِمْ » ملكا على كيش وسيدا على بلاد سومر من الناحية الاسمية على الأقل ، نشأ نزاع على الحدود بين « لجش » وبين « أوما » ، وهما دولتان من دول المدن السومرية كانتا تعترفان بسلطان « ميسلم » وسيادته عليهما . فتولى هذا الملك أمر التحكيم فى ذلك النزاع بأن ثبت خط الحدود بين دولتى المدينتين وكان ذلك بموجب ما ذكر فى نص الوثيقة من انه أمر قضى به وحى من « ستَرَان » (Sataran) ، وهى الهة مختصة بتسوية الخصومات . فأقام نصبا (لوحة) منقوشة لتحديد موضع الحدود والحيلولة دون النزاع فى المستقبل .

ومهما كان الأمر فان قرار التحكيم هذا الذى قبله الطرفان المتخاصمان كان على ما يبدو فى صالح « لجش » دون « أوما » ، فلم يمض زمن طويل على تلك التسوية حتى عمد « أوش » ، حاكم « أوما » الى نقض التحكيم . وان زمن ذلك لم يحدد فى الوثيقة ولكن هناك أدلة أخرى تشير الى أن نقض التسوية قد وقع فى زمن لا يبعد كثيرا عن تأسيس « أور — نانشه » لسلالته فى لجش . وحطم « أوش » النصب الذى أقامه « ميسلم » ، مشيرا بذلك الى انه لم يعد مقيدا ببنودها . ثم عبر الحدود واحتل تخوم مدينة « لجش » الشمالية ، وهى شقة الأرض التى عرفت فى المصادر المسمارية باسم « جوادنّا » [1] .

---

(1) تلفظ الجيم كافا فارسية . ومعنى « جو ادنّا » بالسومرية حد السهل أو حافة السهل . والمقصود بهذا السهل الأرض الزراعية العائدة الى « لجش » . (المترجم)

ظلت هـذه الأرض فى أيدى أهـل « أومـا » الى أيام حفيـد « أور — نانشه » المسمى « اياناتم » الذى كان قائدا عسكريا بلغ بفتوحه قدرا من القوة والسلطان بحيث انه اجترأ على اتخاذ لقب « ملك كيش » ، وان كان ذلك أمدا قصيرا ، وبذلك ادعى السيادة على جميع « بلاد سومر » . وكان « اياناتم » ، على ما جاء فى نص هذه الوثيقة ، هو الذى شن الحرب على أهل « أوما » ودحرهم وأبرم معاهدة حدود جديدة مع حاكم « أوما » المسمى « ايناكلى » (Enakalli) وحفر خندقا على طوال خط الحـدود الجديدة (لتثبيتها) ولضـمان زرع أرض الـ « جوادنّا » المتقدمة الذكر . ولغرض حفظ سجل هذه الحوادث أعاد نصب لوحة الملك « ميسلم » ، كما أقام جملة أنصاب خاصة به ، وشيد عددا من الأبنية والمعابد الخاصة بجملة آلهة سومرية مهمة . ولكى يضمن قطع أى نزاع محتمل فى المستقبل بين مدينتى « أوما » و « لجش » خصص شقة من الأرض « البور » فى الجانب العائد الى « أوما » لتكون رفوضاً «شقة حياد» بين المدينتين . ثم سمح « اياناتم » لأهل «أوما» بزرع الحقول الواقعة ضمن أرض الـ « جوادنّا » فى الأرض الواقعة أبعد من ذلك الى الجنوب ، ولعل ذلك كان محاولة منه للتخفيف من وطأة شروط التسوية الجديدة على أهل « أوما » اذ كان يروم التفرغ لمد فتوحه الى جهات أخرى . ولكنه لم يسمح لأهل « أوما » بما تقدم الا بشرط أن يدفعوا الى حكام « لجش » حصة من غلة الأرض التى سـمح لهم بزرعها ، فضمن بذلك لنفسه ولخلفائه موارد جسيمة من الدخل .

الى هذا الحد من سير الحوادث يكون « مسجل » « اينتيمنا » قد شغل برواية الوقائع الماضية من أخبار النزاع بين « أوما » وبين «لجش». ثم نراه من بعد ذلك ينتقل الى أحدث مراحل النزاع بين المدينتين ، حيث

يكون بالنسبة لها شاهد عيان معاصر على ما يرجح ، فيذكر خبر الحرب التى وقعت بين حاكم « أوما » المسمى « أور — لومئًا » Ur-Lumma وهو ابن « ايناكلى » التعس الذى اضطر الى قبول شروط الصلح المشينة التى فرضها عليه « اياناتم » ، وبين حاكم « لجش » « اينتيمنا » ابن « اناناتم » وابن أخى « اياناتم » .

وبالرغم من النصر العظيم الّذى أحرزه « اياناتم » ، فان أهل « أوما » استطاعوا بعد مضى ما يقارب الجيل الواحد من أن يستعيدوا ثقتهم بأنفسهم ان لم يكن سابق قوتهم أيضـا . فنقض « أور — لوما » الاتفاقية المشينة مع « لجش » ورفض دفع الجزية المفروضة على « أوما » الى « اناناتم » ، بل انه فعل أكثر من ذلك وأقدم على تجفيف خنادق الحدود وحطم نصب « ميسلم » والأنصاب الخاصة بـ « اياناتم » وألقاها فى النار مع نقوشها وكتاباتها المشينة ، ودمر الأبنية والمعابد التى أقامها « اياناتم » على طوال خندق الحدود حيث قصد من اقامتها تحذير أهل « أوما » لئلا ينتهكوا حدود « لجش » . ثم هيأ نفسه لعبور الحدود والدخول الى أرض الـ « جوادنّا » . ولكى يضمن النصر لنفسه سعى وراء المساعدة العسكرية فحصل عليها من حاكم أجنبى الى الشمال من بلاد « سومر » .

التقى الجمعان فى موضع من الـ « جوادنا » يعرف باسم « جانا — أو جيجّا » [1] Gana-ugigga لا يبعد كثيرا الى الجنوب من خط الحدود . وكان أهل « أوما » وحلفاؤهم تحت قيادة « أور — لوما » نفسه . أما أهل لجش فكان يقودهم « اينتيمنا » لأن أباه « اناناتم »

(١) لاحظ لفظ الجيم بهيئة كاف فارسية .

كان طاعنا فى السن آنئذاك . وكانت نتيجة المعركة أن انتصر جمع « لجش » وانهزم « أور — لوما » ولاحقه مع فلوله « اينتيمنا » وقتل الكثير منهم .

ولكن ظهر ان الانتصار الذى أحرزه « اينتيمنا » انما كان انتصارا وقتيا . فبعد اندحار « أور — لوما » ، وموته على ما يرجح ، ظهر فى مشهد الحوادث عدو جديد . أما هذا العدو الجديد ، وهو المسمى « ال » (IL) فقد كان رئيس معبد فى مدينة مجاورة اسمها « زبلام » [1] (Zabalam) لا تبعد كثيرا الى شمال مدينة « أوما » وقد برهن « ال » هذا على أنه كثير الحنكة واسع الحيلة ؛ اذ ظل يتربص الفرص يوم كان « اينتيمنا » و « أور — لوما » يصطرعان من أجل احراز النصر أحدهما على الآخر . فما ان انتهت الحرب حتى هجم على المنتصر «أى على اينتيمنا»، فأحرز النجاح فى مبدأ الأمر وأوغل فى اقليم « لجش » مسافات بعيدة ومع أنه لم يستطع الاحتفاظ بما حصل عليه من الأراضى جنوب الحد بين « أوما » و « لجش » ، الا انه نجح فى جعل نفسه حاكما على « أوما » نفسها .

ثم أخذ « ال » هذا يبدى ازدراءه بما كانت تدعيه « لجش » من حقوق وامتيازات كما فعل سلفه من قبل ، وحرم خنادق الحدود من الماء الضرورى لارواء الحقول والمزارع القريبة ، ورفض دفع الجزية المفروضة على « أوما » بموجب معاهدة « اياناتم » القديمة ، ولم يدفع منها الا جزءا ضئيلا . ولما أن بعث « اينتيمنا » الرسل الى « ال » طالبا منه

---

(١) لقد ثبت تعيين موضع هذه المدينة القديمة بالخرائب التى تدعى الآن « ابزيخ » بدلالة الآجر المختوم المدون باسم المدينة من عهد حمورابى . وقد التقط المترجم احدى هذه الآجرات فى زيارة له للموضع عام ١٩٥٣ .

(المترجم)

تفسير ما ارتكبه من أعمال عدائية أجابه جوابا غليظا متعاليا وقال بأن جميع ال « جوادنّا » من أملاكه وتحت سلطانه .

ولم يسو ذلك الحادث بين « ال » وبين « اينتيمنا » بالحرب . بل يبدو أن تسوية فرضت عليهما من جانب طرف ثالث ، يحتمل ان يكون أحد الحكام من غير السومريين الى الشمال من بلاد « سومر » ، ممن كان يدعى السيادة على جميع بلاد « سومر » . وبوجه عام كان قرار التسوية فى صالح دويلة « لجش » ، الى حد كبير اذ حوفظ بموجبه على الحدود القديمة من عهد « ميسلم » ومن عهد « اياناتم » وصار خط الحدود الثابت بين « اوما » و « لجش » . غير أنه لم يرد فى هذه التسوية الجديدة أى شىء عن التعويضات التى كان يلزم على أهل « أوما » دفعها كتعويض عن الضريبة التى امتنعوا من ادائها . ويبدو أيضا أنهم لم يلزموا بضمان مورد المياه الى ال « جوادنا » وانما كان على أهل « لجش » أن يدبروا أمر ذلك بأنفسهم .

ان تلك الحوادث التاريخية المنطوية على النزاع بين « لجش » و « أوما » لا تبدو واضحة من أول درس لنص الوثيقة التى بين ايدينا ، ولا يمكن استخلاص الكثير من التاريخ الحقيقى الا من قراءة ما بين السطور . وما سنقدمه من الترجمة الحرفية لذلك النص بكامله ستساعد على ايضاح ما أشرنا اليه من ذلك النوع من الاستنتاج ، وفى الوقت نفسه سيحصل منها القارىء على فكرة ما عن طريقة تدوين التاريخ غير العادية التى كان يتبعها الكتبة والأدباء السومريون .

« انليل » (وهو رأس الآلهة السومرية) [1] ، ملك جميع البلدان ،

---

(١) العبارات المحصورة بين الاقواس ليست من أصل النص وانما هى شروح اضافها المؤلف للايضاح . (المترجم)

وأبو جميع الآلهـة ، حدد الحدود بكلمته الثابتـة (العـادلة) بين « نِـنجِرسو » [1] (اله لجش الحامى) وبين « شَاره » (الهة مدينة أوما الحامية) . وعين « ميسلم » ملك « كيش » خط الحدود بالقياس بموجب أمر (الهته) « ستران » . وأقام نصبا هناك (فى خط الحدود)، (ولكن) « أوش » حاكم « أوما » نقض ارادة الآلهة (وكذلك) الاتفاق (بين البشر) وحطم النصب (المقام فى خط الحدود) ودخـل فى سهل « لجش » .

وعندئذ (عمد) الاله « ننجرسو » بطل « أنليل » المعلم ، الى شن الحرب على « أوما » بأمر (أنليل) العادل . وبكلمة أنليل (أمره) ألقى بالشبكة العظمى عليهم (على أهل أوما) ، وكدس هياكلهم وجمعها أكداسا فى السهل فى مواضعها المختلفة . وتنيجة لذلك عمد «اياناتم» ، حاكم « لجش » ، وعم « اينتيمنا » ، حاكم « لجش » ، على تعليم الحدود مع « ايناكلى » ، حاكم « أوما » ، وأجرى الخندق « الخاص بالحدود » من نهر « اد — نُن » الى « جوادنَّا » ، وأقام انصابا منقوشة على طوال ذلك الخندق ، وأعاد نصب « ميسلم » الى موضعه السابق ، (الا أنه) لم يدخل فى سهل « أوما » وشيد هناك « امْـدُبَّا » الخاص (بالاله) « ننجرسو » وبنى « نامنِـنْـدا — كيَجرّا » ، (كما) شيد مزار (الاله) « أنليل » ، ومزار « نِـنخُرساج » (الالهة — الام السومرية)، ومزار « ننجرسو » ومزار « أوتو » (الاله الشمس) . (وفوق ذلك ، بموجب اتفاقية الحدود) سمح لأهل « أوما » بأن يأكلوا من شعير « نانشه » (الهة حامية أخرى خاصـة بمدينة لجش) ، ومن شعير

(1) آله مدينة لجش ، واسمه صفة يعنى « سيد جرسو » . و « جرسو » من اقسام دولة مدينة لجش . (المترجم)

« ننجرسو » بفائض قدره « كارو » [1] واحد (لكل فرد من أهل أوما). وكذلك فرض « أى اياناتم » اتاوة عليهم فاستطاع أن يحصل لنفسه على وارد مقداره (١٤٤٠٠٠) « كارو » بالمقياس الكبير .

ولأن هذه الغلة من الشعير ظلت غير مدفوعة (علاوة على ان) «أور — لوما » ، حاكم « أوما » ، قطع المـاء عن خنـدق الحـدود الخاص بـ « ننجرسو » ، وعن خندق الحدود العائد الى « نانشه » ، وحطم الانصاب المقامة عليها ، ورماها فى النار ، وخرب مزارات الآلهة الموقوفة (على عباداتهم) التى بنيت فيما مضى فى موضع « نامنندا — كيجرا » ، وحصل (على عون) البلاد المعادية . (وفى نهاية الأمر) عبر خندق حدود « ننجرسو » — (من أجل ذلك) حاربه «اناناتم» فى (الموضع المسمى) « جانا — أوجيجا » (وهو موضع) حقول ومزارع « ننجرسو » ، ودحره. « اينتيمنا »، ابن « اناناتم » المحبوب . فانهزم « أور — لوما »(فى حين) أن « اينتيمنا » وضـع السيف فى رقاب جيش « أوما » ولاحقـهم حتى الى داخل مدينة «أوما» . (والى ذلك) فانه افنى (؟) رجال جيشه (أى جيش « أور — لوما ») المختارين وعددهم ٦٠ [2] رجلا فى شاطىء الجدول (المسمى) « لومـّا — جِرِنـْنـْتـَا » . أما رجال « أوما » المحاربون فقد ترك « اينتيمنا » اشلاءهم فى السـهل (لتنهش لحمهم الجوارح والكواسر) وكدس هياكلهم (؟) وكومها فى خمسة مواضع .

(ولكن) فى ذلك الوقت أخذ « الْ » رئيس معبد مدينة « زبلام » ينهب البلاد ويدمرها من « جرسو » [3] الى « أوما » . واغتصب «ال»

---

(١) كيل للحبوب مقداره زهاء ٣٠٠ « سيلا » أى نحو ١٢١ لترا أو ٧٢٧ لترا فى العهود المتـأخرة . (المترجم)

(٢) لعل فى تقدير القيمة العددية للرقم خطأ ، اذ يمكن قراءة العلامة المسمارية نفسها بمقدار (٣٦٠٠) . (المترجم)

(٣) لقد سبق ان ذكرنا أن « جرسو » جزء مهم من أجزاء دولة « لجش » . (المترجم)

لنفسه حاكمية « أوما » ، وقطع المـاء عن خندق الحدود العائد الى « ننجرسو » وعن خندق الحدود الخاص بـ « نانشه » (وحرم المـاء أيضا عن) « امْ — دُبّا » الخاصة بـ «ننجرسو» ، تلك الأرض الزراعية العائدة الى « جرسو » والواقعة الى جبهة دجلة ، وعن « نامنُنْدا — كيَجرّا » العائد الى « ننخرســاج » ، ولم يدفع أكثر من (٣٦٠٠) « كارو » من غلة الشعير (المستحقة عليه) الى « لجش » . وعند ذاك بعث « اينتيمنا » ، حاكم « لجش » ، برسله مرة بعد أخرى الى « الْ » من أجل (التفاوض على) ذلك الخندق (الخاص بالحدود) . ولكن « الْ » ، ناهب الحقول والمزارع ، الناطق بالشر ، قال (لهم) : ان خندق حـدود « ننجرسو » وخندق حدود « نانشه » عائدان لى . (وتعدى ذلك) الى القول : سوف أمد سيطرتى من موضع « أنتَا — سُرّا » الى المعبد (المسمى) « دِمْ جال — آبزو » . ولكن « أنليل » و « ننليل » لم يأذنا له بتحقيق ذلك .

« ان « اينتيمنا » ، حاكم لجش ، الذى نطق باسمه « ننجرسو » ، حفر خندق الحدود هذا من دجلة الى (نهر) « ادْنُن » بموجب كلمة « انليل » العادلة ، وكلمة «ننجرسو » العادلة ، وكلمة « نانشه » العادلة ، وأعاده الى ملكه المحبوب « ننجرسو » ، ومن أجل ملكته المحبوبة « نانشه » ، من بعد أن شيد بالآجر أسس الـ « نامننداــ كيِجَرّا » . فعسى « شولوتولا » ، اله « اينتيمنا » ، حاكم لجش ، الذى أعطاه « أنليل » الصولجان ، وحباه بالحكمة « أنكى » (اله الحكمة السومرى) والذى اصطفته « نانشه » فى قلبها ، الايشاكو (١) العظيم التابع الى

(١) اى الحاكم او الامير واصل معنى الكلمة السومرية وكيل الأرض او المستأجر من الآله . (المترجم)

« تنجرسو » ، الرجل الذى تسلم أوامر الآلهة — (عسى شولوتولا) يتقــدم (بالصلاة) من أجل حيــاة « اينتيمنا » أمام « ننجرسو » و « نانشه » الى قابل الأيام البعيدة !!

« أما من سيعبر خندق الحدود العائد الى « ننجرسو » من أهل « أوما » ، وخندق حدود « نانشه » ، ليحصل لنفسه بالقوة على الحقول والمزارع ، سواء أكان من أهل « أوما » أم أجنبيا — فعسى أن يدمره « أنليل » ، وعسى « ننجرسو » ، بعد أن يلقى شبكته العظيمة عليه ، أن يضع عليه يده العليا وقدمه السامية ، وعسى أن يضربه أهل مدينته بعد أن يثوروا عليه فى داخل مدينته » .

وجدت نصوص هذا النقش التاريخى الفريد مدونة على اسطوانتين من الطين متطابقتين تقريبا فى نصوصهما اللغوية . وقد عثر على احدى هاتين الاسطوانتين فى خرائب مدينة « لجش » فى عام ١٨٩٥ . وقد استنسخها وترجمها المرحوم «فرانسوا تورو — دانجان» الباحث الشهير الذى برز فى الدراسات المسمارية طوال نحو نصف قرن من الزمان . أما الأسطوانة الثانية فهى موجودة ضمن مجموعة الألواح البابلية فى جامعة « ييل » حيث حصل عليها من أحد تجار الآثار ، ونشرها « نيس » و « كايزر » عام ١٩٢٠ فى كتابهما الموسوم « نصوص تاريخية ودينية واقتصادية » [1] . وظهرت عن هــذه الوثيقة فى عام ١٩٢٦ دراســة قيمة مفصلة تتناول أسلوب لغتها ومحتويات نصوصها فيما نشره الباحث السومرى الشهير « أرنوپوبل » ، والى هذه الدراسة تستند ترجمتى وتحليلى لتلك الوثيقة .

ولكن لحسن الحظ لم يقتصر « المؤرخون » السومريون القدامى

---

(١) *Nies and Keiser Historical Religious and Economic Texts*

فى كتاباتهم « النذرية » [1] على ذكر الحروب والمعارك فحسب ، بل تناولوا الى ذلك الحوادث الاجتماعية والاقتصادية الخطيرة . وسنجد فى الفصل السادس التالى خبر وثيقة تعد من أثمن الوثائق القديمة فى تاريخ التطور السياسى . انها سجل معاصر خاص بالاصلاح الاجتماعى يتضمن أمرا يحسدون عليه وهو تخفيض الضرائب الذى بدأوا به بعد موت « اينتيمنا » حاكم « لجش » بنحو ثلاثين عاما . ان هذه الوثيقة تستعمل كلمة « الحرية » (وبالسومرية أمارجى) [2] لأول مرة فى كل التاريخ البشرى .

---

(١) Votive

(٢) تلفظ الجيم كافا فارسية . وتكتب بالمقاطع المسمارية Ama - ar - gi (المترجم)

الفصل السادس

« فى الإصلاح الاجتماعى »

أول حالة فى تخفيض الضرائب

أول اصلاح اجتماعى مدون هو الذى حدث فى دولة المدينة السومرية « لجش » فى القرن الرابع والعشرين ق . م . وقد كان ذلك الاصلاح موجها للقضاء على مساوىء « الأزمان القديمة » التى ارتكبتها طبقة ممقوتة من الموظفين « البيروقراطيين » كانت متغلغلة فى جميع شئون الناس فى مساوئها ، كفرض الضرائب الباهظة الكثيرة الأنواع ، واستملاك أملاك المعبد بوضع اليد عليها . وقد شعر أهل « لجش » فى حقيقة الأمر بالحيف الواقع عليهم وبوطأة الظلم الفادح فأطاحوا بسلالة « أور — نانشه » القديمة واختاروا حاكما عليهم من سلالة أخرى . فكان هذا الأمير أو الحاكم الجديد المسمى « أوروكاجينا » هو الذى أعاد القانون والنظام فى دولة المدينة « ومكن حرية مواطنيها » . كل هذا ترويه وثيقة ألفها ودونها « الموكلون بالسجلات » من موظفى « أوروكاجينا » تخليدا لذكرى فتح نهر جديد . ولكى نفهم ونقدر نص هذا النقش الفريد حق الفهم والتقدير ، نسوق هنا موجزا ليكون مقدمة أو أساسا لما كانت عليه شئون دولة المدينة السومرية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

كانت دولة « لجش » فى الألف الثالث ق . م . تتألف من مجموعة صغيرة من مدن مزدهرة تتجمع كل منها حول المعبد . ومن الوجهة

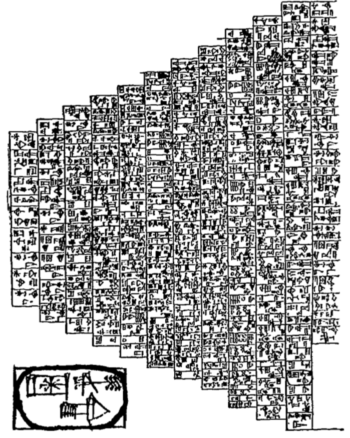
الاسمية كانت مدينة « لجش » ، مثل دول المدن السومرية الأخرى ، تحت سيادة ملك بلاد سومر كلها ، ولكن الواقع كان حاكمها الزمنى الفعلى هو الـ « ايشاكو » ، الذى كان يحكم المدينة ممثلا ونائبا عن الاله الحامى الذى خصصت له المدينة ، من بعد الخليفة ، بموجب وجهة النظر السومرية ، أما كيف حصل مثل هؤلاء الحكام ، أى الـ «ايشاكو» على السلطة فأمر غير معروف بوجه التأكيد ، فلعلهم انتخبوا من جانب المواطنين الأحرار فى المدينة الذين كانت تقوم فيهم طبقة مديرى المعابد (المسمى كل منهم « سَنْجا ») بدور سياسى بارز فى شئون المدينة ولكن مهما كان الأمر فان وظيفة الـ « ايشاكو » صارت وراثية بمرور الزمن ، وكان الحكام الناجحون الطموحون منهم يعملون على مد سلطتهم وانماء ثرواتهم على حساب « المعبد » ، فأدى هذا فى بعض الأحايين الى النزاع من أجل احراز السلطة بين المعبد وبين القصر .

وكان القسم الأغلب من سكان « لجش » من الفلاحين وأصحاب الماشية والملاحين والصيادين والتجار والصناع . وكان النظام الاقتصادى فيها خليطا ، ففى بعض أوجهه كان من النوع الاشتراكى وتحت سيطرة الدولة . وفى نواح أخرى كان من النوع الحر الرأسمالى الى حد ما . وكانت الأرض من الوجهة النظرية ملكا للاله ، أى لمعبده الذى كان يهيمن عليها بهيئة أمانة أو وديعة لجميع المواطنين . ولكن فى التعامل الواقعى كان قسم كبير من الأرض ملكا خاصا للمواطنين الأفراد على الرغم من أن المعبد كان يملك الأراضى الكثيرة التى كان يؤجرها الى الناس مقابل حصة معينة من حاصل الغلة . والواقع انه حتى الفقراء كانوا يملكون المزارع والبساتين والبيوت والماشية ، أضف الى ذلك انه كان من جراء مناخ « لجش » الحار العديم المطر أن الاشراف على

شئون مشروعات الرى والمياه بوجه عام ، التى كانت أساس حياة المجتمع ورفاهيته ، كانت من الأمور العامة التى تدار لمصلحة الجميع (من جانب الدولة) ولكن فيما عدا ذلك كان النظام الاقتصادى حرا نسبيا لا يعرقله شيء . فكان الغنى والفقر والفلاح والاخفاق كله الى درجة ما نتيجة ما يقوم به الأشخاص من مشروعات ونتيجة الجهــود الفردية ، وكان باستطاعة الصناع وأهل الحرف المنتجين أن يبيعوا نتاج صناعاتهم اليدوية فى سوق المدينة الحر . كما أن التجار المتنقلين كانوا يمارسون تجارة مزدهرة رابحة فى البر والبحر مع الدول المجاورة ، ومن الجائز جدا أن يكون بعض هؤلاء التجار كانوا يشتغلون لحسابهم الخاص ولم يكونوا وكلاء عن المعبــد . وكان المواطنون فى « لجش » مدركين ومقدرين لحقوقهم المدنية ، حذرين من أى عمل حكومى يؤدى الى الانقاص من حريتهم الاقتصادية والشخصية التى كانوا يعتزون بها باعتبارها تراثا وحقا ضروريا لأسلوب حياتهم . وهذه هى « الحرية » التى فقدها أهل « لجش » فى الأزمان التى سبقت عهد « أوروكاجينا » ، بموجب ما ورد فى تلك الوثيقة القديمة الخاصة بالاصلاح ، فأعادها اليهم عندما جاء الى الحكم .

أما الأحداث أو الأسباب التى نجمت عنها تلك الحالة من الاضطهاد وتعطيل القانون فلا يوجد عنها أية اشارة فى تلك الوثيقة ، بيد أنه فى وسعنا أن نخمن انها كانت نتيجة مباشرة عن انحلال القوى السياسية والاقتصادية وفسادها بدوافع الاستحواذ على المزيد من السلطة مما كان يميز عهد حكم السلالة الحاكمة ، التى أسسها « أور — نانشه » فى حدود ٢٥٠٠ ق . م . فان بعض أولئك الحكام ، وقد انتفخوا بطموح التعاظم لأنفسهم ولدولتهم ، عمدوا لتحقيق مثل هذه المطامح الى حروب

الفتح و « الاستعمار » الدموية المدمرة ، وأصابوا نجاحا كبيرا فى بعض الحالات . فقد نجح أحدهم مدى فترة وجيزة فى مد سلطان « لجش » على بلاد « سومر » جميعها بل وحتى على جملة دول مجاورة . ولكن تلك الانتصارات الماضية ظهرت على انها وقتية زائلة ، اذ آل أمر «لجش» الى رجوعها بعد أقل من قرن واحد الى حدودها القديمة ووضعها السابق . وحين جاء « أوروكاجينا » الى الحكم كان الضعف والوهن قد حـل بلجش الى درجة جعلت منها فريسة سهلة لعدوها الذى لا يلين ، وهو دولة مدينة « أوما » التى تقع الى الشمال من « لجش » .



شكل ٢٣ ـ « فى الاصـلاح الاجتماعى » و « الحرية » : نسخة النص المنقوش فى مخروط من الطين وجد فى أثناء التنقيبات الفرنسية فى « تلو » ، موضع مدينة « لجش » القديمة .

وخلال أيام تلك الحرب المريرة وفى عقبى مآسيها ، وجـد أهل « لجش » أنفسهم وقد سلبوا حريتهم السياسية والاقتصادية . فلكى تجمع الجيوش وتجهز بالسلاح والمؤن وجد حكام « لجش » أنه لابد من الافتيات على حقوق الفرد المواطن ، وفرض الضرائب على ثروته وممتلكاته الى أبعد الحدود ، والاستحواذ على أملاك المعبد . ولم يلق هؤلاء الحكام سوى الا القليل من المعارضة بسبب أحوال الحرب . ولما أن تمكنت أيدى « جماعة » القصر من الهيمنـة والسيطرة على شئون الناس الخاصة لم يعد من السهل على أفراد تلك « الطغمة » أن تتخلى عن تلك السيطرة حتى فى أيام السلم . ذلك لأن تلك السيطرة قد درت عليهم أجزل المنـافع . والواقع ان أفـراد تلك الطبقـات « البيروقراطية » صاروا يتفننون فى ابتداع أنواع الموارد المختلفة من الضرائب والجبايات التى فرضوها الى درجة يحسدهم عليها نظراؤهم المحدثون .

لكن لنـدع ذلك المؤرخ الذى عاش فى « لجش » قبـل نحـو (٤٥٠٠) عام ، فيكون على ذلك شاهد عيان معاصر لتلك الحوادث ، هو الذى يروى لنا الحقيقة ويقصها علينا بعباراته تقريبا : « وضع ناظر السفن يده على السفن وقبض ناظر الماشية على الماشية صغيرها وكبيرها واستحوذ ناظر صيد السمك على مصائد الأسماك ومواضع صيدها . وصار الفرد المواطن من لجش اذا جاء بغنمه الى القصر لجز الصوف عليه أن يؤدى خمسة « شيقلات » (١) اذا كان الصوف أبيض اللون . واذا طلق رجل امرأته كان الـ « ايشاكو » يأخذ منه خمسة « شيقلات »

---

(١) الشيقل وزن بابلى يعادل $\frac{1}{60}$ من « المنا » . والمنا زهاء نصف كيلوغرام وصار بمثابة نقد فى وزن الفضة . (المترجم)

ويقبض وزيره «شيقلا واحدا» . واذا هيأ صاحب العطر نوعا من الدهان حصل الـ «ايشاكو» على خمسة «شيقلات» والوزير على «شيقل» واحد ، وأخذ ناظر القصر « شيقلا » آخر . أما عن المعبد وأملاكه فقد استحوذ عليها الايشاكو على انه ملك له ، أو كما جاء بعبارة ذلك الراوى القديم استعملت ثيران الالهة فى حرث أرض الـ « ايشاكو » المخصصة لزرع البصل ، كما خصصت أحسن حقول الاله لزرع البصل والخيار العائد الى الـ « ايشاكو » . وفوق ذلك فان موظفى المعبد البارزين ولا سيما طبقة الـ « سنجا » اغتصبت حميرهم وثيرانهم والكثير من غلاتهم .

وحتى الموت نفسه لم يخلص الناس من الضرائب والجبايات . فحين كان يؤتى بالميت الى المقبرة للدفن يتجمع عدد من الموظفين والطفيليين الذين كان ديدنهم الاستحواذ من أهل الميت على مقادير من الشعير والخبز والجعة الى غير ذلك من المؤن والتجهيزات المختلفة . وكان مؤرخنا يشاهد (تلك الأوضاع) من أقصى المملكة الى أقصاها فيعلق بمرارة « ان جباة الضرائب منتشرون فى كل مكان » . فلا عجب اذا ما تضخمت ثروات القصر بحيث أصبحت أراضيه وأملاكه تؤلف عقارا واسعا متصلا . وبتعبير المؤرخ السومرى : « بيوت الايشاكو وحقول الايشاكو وبيوت حرم (أى سيدات) القصر وحقول حرم القصر وبيوت أطفال القصر وحقول أطفال القصر كان يتاخم أحدها الآخر بعضها الى جانب بعض » .

فى هذه الفترة العصيبة من تدهور شئون « لجش » السياسية والاجتماعية جاء الى الحكم ، على ما يخبرنا مؤرخنا السومرى ، حاكم صالح يخاف الآلهة هو « أوروكاجينا » ، الذى أعاد العدل وأرجع « حرية المواطنين الذين قاسوا المظالم الكثيرة » فأزال ناظر الملاحين من الاشراف على السفن . وأزال ناظر الماشية من الاشراف

على الماشية الكبيرة والصغيرة . وأبطل وظيفة ناظر صيد السمك وأزال جابى الفضة التى كان دفعها مفروضا على جز صوف الغنم الأبيض . واذا ما طلق رجل امرأته لم يحق للايشاكو ولا لوزيره الحصول على أى رسم . واذا هيأ صاحب العطر (العطار) نوعا من الدهان فلا يحق للايشاكو ولا لوزيره ولا لناظر القصر أن يحصلوا على أى رسم منه . أما اذا أريد دفن ميت فى المقبرة فان المال الذى صار يتسلمه الموظفون من أهل الميت أصبح أقل مما كانوا يتقاضونه منهم فى السابق ، والى أقل من النصف فى بعض الحالات . وأصبحت أملاك المعبد مصونة وموضع احترام كبير . وموجز القول كما قال ذلك المؤرخ شاهد العيان « لم يعد هناك جاب للضرائب » من أقصى طرف من البلاد الى الطرف الآخر . فان « أوروكاجينا » مكن « حرية المواطنين » فى « لجش » . ولكن ابطال وظائف جباة الضرائب المتغلغلين فىجميع شئون الناس والموظفين الطفيليين لم يكن كل ما فعله « أوروكاجينا » فى سبيل الاصلاح ، بل انه أزال المظالم والاستغلال مما كان يقع على الفقراء من جانب الأغنياء . فاذا حدث مثلا أن : « بيت الرجل الوضيع كان بجوار بيت الثرى الكبير » وقال « الرجل الكبير » له « أريد أن أبتاعه منك » واذا أصر الرجل الكبير على شرائه وأجابه الرجل الوضيع : ادفع لى الثمن الذى أراه مناسبا ولكن لم يوافق على شرائه « الرجل الكبير » فلا يحق لذلك الرجل الكبير أن يتملك على بيت الوضيع .

وطهر « أوروكاجينا » المدينة من المرابين واللصوص والقتلة فمثلا : « اذا هيأ ابن الفقير بركة للصيد فلا يجرؤ أحد على أن يسرق سمكها » . ولم يعــد باستطاعة الموظف الثرى أن يعتــدى على بستان أم الفقير فيقتطع أشجارها ويحمل الثمرات كما كان يحدث فيما مضى . ثم نجد

« أوروكاجينا » وقد أخذ على نفسه ميثاقا وعهدا أمام « ننجرسو » ، اله مدينة لجش « بأنه لن يسمح بأن يقع اليتامى والأرامل فريسة لظلم الأقوياء » .

ولكن الى أى مدى كانت هذه الاصلاحات مفيدة ومساعدة فى ذلك الصراع بين « لجش » و « أوما » من أجل السلطة ؟ والجواب على هذا التساؤل أن لجش أخفقت ويا للأسف فى احراز القوة والنصر المرتقبين ، اذ سرعان ما ذهب « أوروكاجينا » هو واصلاحاته أدراج الريح . انه كغيره من المصلحين الآخرين جاء متأخرا بعد فوات الأوان فلم يستطع أن يعمل سوى الشىء القليل ، فان حكمه لم يدم الا أقل من عشر سنين ، وسرعان ما سقط هو ومدينته على يد « لوجال زاجيزى » ، وهو الحاكم القوى الطموح فى المدينة المجاورة « أوما » الذى نجح فى جعل نفسه ملكا على بلاد « سومر » ، وعلى البلدان المجاورة ، وان كان ذلك لم يدم سوى فترة قصيرة .

لقد أحدثت اصلاحات « أوروكاجينا » وأهدافها الاجتماعية أثرا عميقا فى « المؤرخين » القدامى ، فقد خلفوا لنا نص تلك الوثيقة منقوشا فى أربع نسخ مختلف بعضها عن بعض فى بعض الوجوه ، فى ثلاثة مخاريط من الطين ، وفى لوح بيضى الشكل . وقد كشف عن جميع هذه النسخ فى تنقيبات الفرنسيين فى خرائب « لجش » فى عام ١٨٧٨ ، واستنسخها وترجمها لأول مرة « فرانسوا تورو—دانجان » ، وهو نفس العالم الدقيق فى المباحث المسمارية الذى قام بدراســة الوثيقة التاريخية التى قدمنا وصفها فى الفصل الخامس . ولكن التفسير والتعليق اللذين اتبعتهما فى هذا الكتاب حول اصلاحات « أوروكاجينا » انما يستندان قبل كل شىء

الى ترجمـــة للوثيقة لم تنشر بعـــد سبق أن هيأها « أرنوپوبل » ، أبرز الباحثين فى السومريات فى عصرنا الراهن .

وعلى هذا فيتضح مما بيناه ان فكرة « الحرية فى حدود القانون » لم تكن شيئا غير معروف لدى السومريين من أهل الألف الثالث ق . م . ولكن لا يزال غير معروف بوجه التأكيد ما اذا كانت القوانين فى عهـــد « أوروكاجينا » تدون وتصدر بهيئة مجموعة من القوانين اذ لم يكشف عن أى قانون مدون من ذلك العهد . ولكن ليس لمثل هذا الموضوع أهمية كبرى ، اذ كان المعروف منذ زمن طويل أن أقدم شريعة مدونة هى تلك الشريعة التى ترجع فى عهدها الى حدود ١٧٥٠ ق . م . [١] . ولكن تم الكشف حديثا عن ثلاث شرائع أخرى أقدم عهدا . وأقدم هذه الشرائع الجديدة شريعة الحاكم السومرى « أور — نَمّو » التى ترقى فى عهدها الى نهاية الألف الثالث ق . م . وقد عثر عليها فى التنقيبات التى أجريت فى خرائب « نفر » فى عامى ١٨٨٩ — ١٩٠٠ ولكنها لم تعين وتعرف ماهيتها وتترجم الا فى عام ١٩٥٢ وحتى ذلك لم يتم الا بطريق الصدفة .

راجع الفصل السابع حول شريعة « أور — نَمّو » .

---

(١) يقصد بهذه الشريعة شريعة « حمورابى » الشهيرة . (المترجم)

الفصل السابع

« الشرائع والقوانين »

أول مشرع

ان أقدم شريعة ظهرت الى الوجود حتى عام ١٩٤٧ هى الشريعة التى أصدرها « حمورابى » ، الملك السامى ذو الشهرة التى طبقت الآفاق ، والذى بدأ حكمه فى حدود ١٧٥٠ ق . م . دونت تلك الشريعة بالخط المسمارى وباللغة السامية المعروفة باسم اللغة البابلية وتشتمل على نحو ثلثمائة مادة تتوسط بين ديباجة (مقدمة) تنطوى على التفاخر وتعداد المآثر ، وبين خاتمة ملأى باللعنات . وتقوم مسلة حجر « الديوريت » المدونة فيها تلك الشريعة الآن فى متحف « اللوفر » فى جلال ومهابة . ثم اذا اعتبرنا وضعها من ناحية كثرة أحكامها وتفصيلها ومن ناحية الحال السليمة التى عليها فهى لا تزال أعظم وثيقة قانونية كشف عنها حتى الآن — ولكن ليس من ناحية الزمن والقدم ، فلقد كشف فى عام ١٩٤٧ عن شريعة قوانين أصدرها الملك « لپت — عِشتار » الذى سبق حمورابى فى الزمن بنيف ومائة وخمسين عاما .

ان شريعة « لپت — عشتار » (Lipit-Ishtar) كما تسمى الآن بين الجميع ، لم تأتنا منقوشة فى مسلة (مثل شريعة حمورابى) وانما فى لوح طين مجفف بالشمس . انها مدونة بالخط المسمارى ، ولكن باللغة السومرية وهى ليست من اللغات السامية .

لقد وجد هذا اللوح من بعد بداية هذا القرن بزمن قصير ولكن محتوياته ظلت لعدة أسباب غير معروفة وغير منشورة . وبعد أن أتم جمعها وترجمتها « فرنسيس ستيل » Francis Steele ، الذى كان مساعد أمين متحف فى جامعة بنسلفانيا وكنت قمت بمساعدته ، ظهر انها تشتمل على مقدمة وخاتمة وعلى عدد من مواد الأحكام لا يعلم عددها بالأصل ، اذ لم يسلم منها سوى سبع وثلاثين مادة بعضها كامل وبعضها تنقص منه أجزاء .

على أن أحقية « لبت — عشتار » بشهرة كونه أول مشرع فى التاريخ لم تدم زمنا طويلا . ففى عام ١٩٤٨ كان السيد طه باقر أمين المتحف العراقى فى بغداد يجرى التنقيب فى تل صغير يدعى « حرمل » [1] فأعلن خبر اكتشاف لوحين مدونين بشريعة أخرى أقدم (من شريعة لبت — عشتار) . وقد دون هذان اللوحان ، مثل شريعة حمورابى ، باللغة السامية البابلية . ولقد استنسخهما وترجمهما فى ذلك العام الباحث المسمارى المعروف « البرشت جوتزه »(Albrecht Goetze) من جامعة « ييل » . وجاء فى المقدمة القصيرة التى تسبق مواد الأحكام ذكر ملك يسمى « بلالاما » (Bilalama) الذى يرجح أنه عاش قبل « لبت عشتار » بزهاء سبعين عـاما . وهـذه الشريعة المدونة باللغة السامية والمنسوبة الى « بلالاما » ظلت محتفظة بأحقيـة القـدم والأسبقية الى عام ١٩٥٢

(١) حول نتائج التنقيبات التى قام بهـا مترجم هذا الكتاب انظر مجـلة « سومر » التى تصدرها دائرة الآثار العراقية . أما نسبة هذه الشريعة الجديدة الى الملك « بلالاما » فكان امرا مشكوكا فيه منذ البداية على الرغم من تسميته بهذا الاسم من جانب الأستاذ « جوتزة » (انظر سومر مجلد ١٩٤٨) اذ نراه فى نشرة له حديثة عن هذه الشريعة يعدل عن تلك النسـبة فيسميها شريعة « اشنونا » نسبة الى المملكة التى كان موضع تل حرمل يقع ضمنها . انظر : A, Goetze, The Eshnunna Law

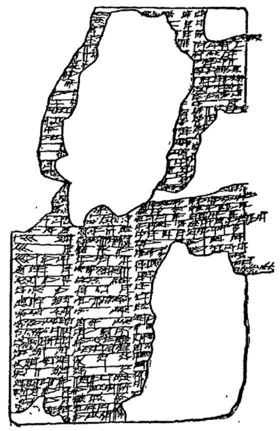
(المترجم)

عندما حظيت باستنساخ وترجمة لوح منقوش بأجزاء من الشريعة التى أصدرها الملك السومرى المسمى « أور — نمو » . ذلك الحاكم الذى أسس السلالة الشهيرة المعروفة باسم سلالة « أور » الثالثة والذى بدأ حكمه فى حدود (٢٠٥٠) ق . م . على أقل تقدير وبموجب أوطأ التقديرات الزمنية المخصصة لتسلسل أدوار التاريخ القديم أى بنحو ثلثمائة عام قبل الملك البابلى « حمورابى » . أما هذا اللوح المدون بجزء من شريعة « أور — نمو » فهو واحد من مئات الألواح السومرية الأدبية الموجودة بين مجموعات متحف الشرق القديم فى استانبول حيث أمضيت عام ١٩٥٢ — ١٩٥٣ بصفتى أستاذا باحثا فى مشروع « فلبرايت » .

والواقع انه لولا الرسالة التى تسلمتها من الأستاذ « كروس » Kraus ، الذى هو الآن أستاذ الدراسات المسمارية فى جامعة « ليدن » فى هولندة ، لكان هناك احتمال كبير فى اضاعة فرصة العثور على لوح « أور — نمو » . فقد سبق لى أن التقيت « بكروس » قبل عدة سنوات أثناء اقامتى فى متحف الشرق القديم فى استانبول لغرض مواصلة بحوثى السومرية هناك ، عندما كان أحد أمناء المتحف فى ذلك الوقت . ولما أن بلغه خبر وجودى فى استانبول مرة أخرى بعث الى برسالة منوها فيها بذكريات اشتغالنا سوية ، وبعض الأخبار الأخرى وذكر لى فيها انه يوم كان يعمل فى متحف استانبول بصفته أمينا فيه وجد من بين مجموعاته كسرتين من لوح منقوش بقوانين سومرية ، وانه استطاع آنئذاك أن يجمع بين الكسرتين فيجعلهما قطعة واحدة سجلها فى سجلات المتحف تحت الرقم (٣١٩١) من مجموعات ألواح « نفر » وقال فى رسالته انه ربما كان ذلك يهمنى ولعلنى أريد درس مضمونه واستنساخه .

ولما كانت الألواح المدونة بالقوانين السومرية نادرة الوجود جدا

فاننى أسرعت فى طلب الرقم (٣١٩١) ولما أن جاءوا به الى وجدته لوحا مجففا بالشمس ذا لون أسمر خفيف وأبعاده (٢٠ × ١٠ سم) ، وقد تحطم منه أكثر من نصف كتابته ، أما ما بقى منه سالما محفوظا فظهر لى بادىء ذى بدء انه لا أمل فى فهمه . ولكن بعد أن أمضيت عدة أيام فى البحث المركز أخذت محتوياته تتضح لى شيئا فشيئا وأدركت ، وأنا على شىء غير قليل من الحماسة والتأثر ، أن ما بين يدى انما هو نسخة من أقدم شريعة معروفة لدى الانسان .



شكل ٢٥ — « قانون أور — نمو » : نسخة يدوية لمقدمة القانون من لوح موجود فى متحف الشرق فى استانبول .

لقد قسم الناسخ القديم هذا اللوح الى ثمانية حقول : أربعة منها فى الوجه وأربعة فى القفا ، ويحتوى كل حقل على نحو (٤٥) « خانة »

مقسمة بالمسطرة ولكن المفهوم منها أقل من النصف . أما وجه اللوح فيتضمن مقدمة مطولة غير معروفة الا جزئيا بسبب الخروم المتعددة فى النص ويمكن ايجازها على الوجه الآتى :

بعد أن خلق العالم ، وبعد أن تقرر مصير بلاد « سومر » ومصير مدينة « أور » (وهى المذكورة فى التوراة باسم أور الكلدانيين) عين الالهان « آن » و « أنليل » (وهما أبرز الهين فى مجموعة الآلهة السومرية) الاله القمر « ننا » ملكا على مدينة « أور » . ثم اختار هذا الاله بدوره « أور — نمو » ليحكم بلاد سومر ومدينة « أور » بصفته نائبا عنه يمثله فى الأرض ، وكانت باكورة أعمال هذا الحاكم الجديد ضمان سلامة « أور » وبلاد « سومر » فى النواحى السياسية والعسكرية . فقد شن الحرب على دولة المدينة المجاورة « لجش » التى كانت توسع فى رقعة سلطانها على حساب « أور » فدحر حاكمها المسمى « نمخانى » (Namhani) وقتله . ثم استطاع « بقوة الاله « ننا » ، « ملك المدينة » ، أن يعيد حدود دولة أور السابقة .

ومن ثم التفت الى الشئون الداخلية وقام بالاصلاحات الاجتماعية والأخلاقية فقضى على الغشاشين وعلى المرتشين ، أو كما عبرت عنهم شريعته على « ناهبى أبقار المواطنين وأغنامهم وحميرهم » ، ثم أوجد نظاما مضبوطا للأوزان والمكاييل ، ومنع « أن يقع اليتيم فريسة للثرى والأرملة ضحية للقوى ، ولا يكون مالك « الشيقل » الواحد ضحية مالك « المنا » (والمناستون شيقلا) . » وعلى الرغم من ان العبارة الخاصة بالغرض من وضع الشريعة مهشمة فى النص الا انه مما لا شك فيه أن يكون الدافع على اصدار مواد الأحكام التى تعقب تلك المقدمة انما هو ضمان العدل فى البلاد والعمل على اصلاح أحوال رعاياه .

أما مواد الأحكام الخاصة بهذه الشريعة فانها تبدأ على ما يرجح فى قفا اللوح . ولكن الكتابة المتضمنة لها فى حـال رديئة من التشويه والنقصان بحيث لا يمكن الا استعادة خمس مواد بدرجة ما من الصحة والاطمئنان . فواحدة من هذه المواد تتعلق على ما يبدو باظهار البينة عن طريق الامتحان بالالقاء فى ماء النهر (١) ، ومادة أخرى تتضمن تسليم العبد الآبق الى سـيده . ولكن المواد الثلاث الأخرى رغم انخرامها ونقصانها فهى على قدر كبير من الأهمية فى تاريخ نمو الانسان الاجتماعى والروحى لأنها تبين لنا بوضوح ان قانون « العين بالعين والسن بالسن » ، وهى الأحكام السائدة الشائعة فى شريعة التوراة المتأخرة العهد (٢) ، قد حل محله حتى قبل عام (٢٠٠٠) ق . م . قانون أكثر انسانية عوض بموجبه دفع الدية بالمال بدلامنعقوبة القصاص . وبالنظر الى الأهمية التاريخية لهذه المواد الثلاث نقدمها هنا وهى مقتبسة بنص لغتها السومرية (منقولة بالحروف اللاتينية) مع ترجمتها الحرفية :

« ١ »

Tukum - bi lu - lu - ra - gish - ta...) - a - ni gir in - kud 10 -gin - ku - babbar i - la - e

---

(١) طريقة اظهار البينة بامتحان الماء كانت تمارس فى العصور القديمة وبوجه خاص فى الاتهامات الخاصة بالسحر والسحرة . ولعل احسن ما يوضح لنا هذا النوع من البينة المادة الثانية من شريعة حمورابى الخاصة بوجوب القاء متهم بالسحر فى النهر لم يستطع متهمه اثبات ذلك . حول توضيح هذه الطريقة وشرح مادة قانون حمورابى راجع احسن واوسع ما كتب فى موضوع القوانين البابلية :

G. D. Driver and John C. Miles, The Babylonian Laws. Vol. I (1952). Vol. II 1955.

ولا سيما المجلد الثانى ص ٦١ — ٦٢ . (المترجم)

(٢) وقانون القصاص (العين بالعين والسن بالسن) هو المعمول به ايضا فى شريعة حمورابى . (المترجم)

« اذا رجل ضـــد رجل .. بآلة ... قطع القــدم فعليه أن يؤدى (١٠) « شيقلات » من الفضة .

« ٢ »

Tukum - bi lu - lu - lu ra gish - tukul - ta gir - pad - du al
mu - ra - ni in - zi - ir
I - ma - na ku - babbari - la - e

« اذا كسر رجل عظام رجل آخر بالسلاح فسوف يؤدى « منا » واحدا من الفضة ».

« ٣ »

Tukum - bi lu - lu ra gishpu - ta ka - ... in - kud 2/3 -
me - na - ku babbar i - la - e

« اذا قطــع رجل أنف رجل بآلة — « جيشپو » فسوف يؤدى $\frac{٢}{٣}$ المنا من الفضة » .

* * *

كم سيظل « أور — نَمّو » محتفظا بمكانته على انه أول مشرع فى العالم ؟ المرجح انه لن يظل زمنا طويلا . فهناك أمارات وأدلة على انه عاش فى بلاد « سومر » مشرعون قبل أن يولد « أور — نمو » بأزمان طويلة . وســواء كان عاجلا أم آجلا فان المنقب المحظوظ سيعثر على نسخة من شريعة تسبق شريعة « أور — نمو » بقرن أو بأكثر من قرن من الزمان .

هذا ولقد كان القانون والعدالة من الأفكار الأساســية فى بلاد « سومر » القديمة فى كلتا الناحيتين النظرية وناحية الممارسة العملية

بحيث انهما كانا متغلغلين فى حياة السومريين الاجتماعية والاقتصادية . فلقد عثر المنقبون الآثاريون فى غضون القرن الماضى على ألوف من ألواح الطين المدونة بشتى أصناف الوثائق القانونية السومرية — كالعقـود والوصايا والصكوك الخاصة بالاتفاقيات ، وصكوك الديون (كمبيالات) والوصولات وقرارات المحاكم . وكان الطالب المتقدم فى بلاد سومر يخصص شطرا كبيرا من مدة دراسته فى حقل القانون ، فكان يمارس على الدوام ضبط العبارات والمصطلحات القانونية وكذلك استنساخ نصوص القوانين وقرارات المحـاكم التى اكتسبت صـفة السوابق القضائية .

ولقد نشر نص كامل لقرار من هذه القرارات القضائية فى عام ١٩٥٠ . ان هـذه الوثيقة التى يمكن أن نعنونها بعنوان « الزوجة الساكتة » (عن الأخبار بالجريمة) سنناقشها فى الفصل الثامن .

الفصل الثامن

« العـــدالة »

أول سـابقة قانونيــــة

ارتكبت جريمة قتل فى بلاد « سومر » فى حدود (١٨٥٠) ق . م . وملخص الحادث أن ثلاثة رجال وهم : حلاق وبستانى وشخص ثالث لم تذكر مهنته — قتلوا أحـد موظفى المعابد اسمه « لو — اننـّا » (Lu-Inanna، ولأسباب غيرمعروفة ، أخبرهؤلاء القتلة زوجة القتيل المسماة « نن — دادا » Nin-Dada بمقتل زوجهـا . ولكن الغريب فى الأمر أن الزوجة احتفظت بسر القتلة ولم تبلغ السلطات الرسمية بالأمر ، بيد أن يد العدالة كانت ، حتى فى تلك الأزمان الموغلة فى القدم ، مهيمنة مكينة وبخاصة فى بلاد « سومر » المتمدنة . فبلغ خبر الجريمة علم الملك « أور — ننورتا » (Ur-ninurta) وهو فى عاصمته فى مدينة « ايسن » فأحال القضية للنظر فيها الى « مجمع المواطنين » فى مدينة « نفر » ، وهو المجمع الذى كان محكمة للفصل فى القضايا .

وفى ذلك « المجمع » نهض تسعة رجال ليقاضوا المتهمين ، وأبدى هؤلاء فى نقاش القضية انالجريمة لا تقتصر على الرجال الثلاثة وهم القتلة الفاعلون ، بل يلزم أيضا مقاضاة الزوجة بسبب بقائها « ساكتة » ، كاتمة للأمر بعد أن علمت بالجريمة ، الأمر الذى يجعلها شريكة فى الجريمة .

ثم انبرى فى المحكمة رجلان للدفاع عن المرأة فدافعا بأن المرأة

لم تشترك فى قتل زوجها ولذلك ينبغى تبرئتها فلا ينالها العقاب . فأقر أعضاء المحكمة حجج الدفاع مبررين قرارهم ذاك بأن تلك المرأة كان لها من المبررات ما حملها على «السكوت» لأن زوجها لم يكن قائما باعالتها . وختم أعضاء المحكمة قرارهم بالقول « ان العقوبة ينبغى ألا تشمل سوى القتلة الفاعلين » وبموجب ذلك لم تحكم محكمة « نفر » الا على الرجال الثلاثة لينفذ فيهم حكم الاعدام .

وقد وجد محضر هذه المحاكمة الخاصة بجريمة القتل منقوشا باللغة السومرية فى لوح من الطين كشف عنه فى عام ١٩٥٠ فى أثناء التنقيبات التى أجرتها البعثة الأثرية المشتركة من المعهد الشرقى لجامعة شيكاغو ومتحف جامعة بنسلفانيا . وقد اشتركت مع « ثوركلد ياكوبسن » فى دراسة تلك الوثيقة وترجمتها . ومع ان ترجمة بعض الكلمات والعبارات السومرية فى ذلك اللوح لاتزال مشكوكا فيها الا أن المعنى الأساسى مفهوم وموثوق منه بدرجة لا بأس بها . وقد كسرت احدى حافات اللوح ولكن أمكن اكمال الأسطر المفقودة بالاستعانة بكسرة صغيرة من نسخة أخرى من الوثيقة نفسها ، وجدت فى أثناء التنقيبات التى أجرتها فى خرائب « نفر » بعثة قديمة سابقة أوفدها متحف جامعة بنسلفانيا . وان حقيقة وجود نسختين من سجل واحد لتدل على ان قرار محكمة « نفر » الخاص بما سميناه قضية «الزوجة الساكتة» قد اشتهر فى جميع الأوساط القانونية فى بلاد « سومر » بكونه سابقة قضائية مشهورة ، وهو بذلك لا يختلف عن أى قرار من قرارات المحكمة العليا الأمريكية (واليك ترجمة تلك الوثيقة) :

« ان « ننَّا — سنج »[1]، بن « لو — سين » . و «كو — أنليل»

(١) نكرر ما سبق ان ذكرناه من ان لفظ الجيم فى جميع اسماء الاعلام السومرية يكون بهيئة كاف فارسية . (المترجم)

الحلاق ، ابن « كو — ننا » و « أنليل — اينام » البستانى عبد « أدا — كلا » قتلوا « لو — انانا » بن « لوجال—آپندو » الموظف (من الصنف المسمى) « نِشِكو » .

« وبعد أن قتلوا « لو — انانا » بن « لوجال—آپندو » أخبروا « نن— دادا » ابنة « لو — ننورتا » وزوجة « لو — انانا » بأن زوجها قد قتل .

« (ولكن) « نن — دادا » ابنة « لو — ننورتا » ظلت صامته لم تفه بشىء .

« ثم بلغت قضيتهم بعد ذلك الى مدينة « ايسن » أمام الملك . فأمر الملك « أور — ننورتا » بأن تحـال قضيتهم الى محكمة مدينـة « نفر » .

(وفى المحكمة) نهض كل من « أور — جولا » بن « لوجال — ... » و « دودو » صياد الطيور و » أبى — ايلاتى » الخادم و « بوزو » بن « لو — سين » و « ايلوتى » بن « ... — ايا » و « شيش — كلا» الحاجب (؟) و « لوجال — كان » البستانى و « لوجال — ازيدا » بن « سين — آندل » و « شيش — كلا » بن « شاره — ... » هؤلاء نهضو وواجهوا المحكمة وقالوا :

« ان الذين قتلوا الرجل لا يستحقون الحياة . ان أولئك الرجال الثلاثة وتلك المرأة يجب قتلهم أمام كرسى « لو — انانا » بن « لوجال — آپندو » موظف الـ « نشكو » .

« ثم واجه المحكمة كل من « شو — .. ليلوم » الموظف التابع للاله « ننورتا » و « أوبار — سين » البستانى وقالوا :

« مع الاعتراف بأن زوج « نن — دادا » ابنة « لو — نتورتا » قد قتل ولكن ماذا فعلت المرأة حتى تستحق القتل ؟ » .

ثم التفت اليهم أعضاء محكمة « نفر » وقالوا :

« ان زوجة لم يقم زوجها باعالتها (؟) مع الافتراض بأنها كانت تعرف أعداء زوجها وأنها بعد أن قتل زوجها علمت بمقتله — فعلام لا تظل ساكتة عنه ؟ هل هى التى قتلت زوجها ؟ ينبغى قصر العقوبة على أولئك الذين ارتكبوا القتل فعلا » .

« وبموجب قرار « محكمة » نفر سلم كل من « ننتاسج » بن « لو — سين » و « كو - أنليل » الحلاق بن « كو . ننا » و « أنليل — اينام » الفلاح عبد « أدا — كلا » (الى الجلادين)[1] ليقتلوا .

«ان هذه القضية نظرت فى محكمة « نفر » .

وبعد أن أتممنا ترجمة الوثيقة رأينا من المناسب أن نقارن بين قرار الحكم الوارد فيها وبين ما يمكن أن يكون عليه الحكم فى العصور الحديثة فى قضية مماثلة مضاهية . ولذلك أرسلنا الترجمة الى المرحوم « أوين . ج . روبرتس » (Owen. J. Roberts) عميد كلية الحقوق فى جامعة بنسلفانيا (وعضو المحكمة العليا للولايات المتحدة فى عام ١٩٣٠ / ١٩٤٥) واستفتيناه رأيه القانونى . فكان جوابه ذا أهمية خاصة ، اذا أبان أن القضاة المحدثين يتفقون مع القضاة السومريين القدامى ،

(١) ان كلمة الجلادين يبدو انها لم ترد فى الأصل وانما اضافها المؤلف . على ان موضوع كيفية تنفيذ احكام الاعدام قتلا ولاسيما الجهة التى تقوم بذلك مجهولة لدينا لعدم ورود نصوص صريحة فى الموضوع انظر بحث الموضوع فى
Miles & Driver, The Babylonian Laws (1952, 1955)
(المترجم)

ويحكمون بالحكم نفسه . واليك رأى القاضى « روبرتس » بالنص : « ان تلك الزوجة لا يمكن أن تعد شريكة فى الجريمة بموجب أحكام قوانينا . فان من ينبغى أن يعد شريكا فى الجرم ليس من علم بارتكاب الجريمة فقط بل يجب أن يكون قد آوى المجرم القاتل أو أسعفه أو زين له أو ساعده » .

ولكن الشرائع والقوانين لم تكن الميدان الوحيد الذى كشفت عنه الوثائق السومرية المهمة حديثا . ففى عام ١٩٥٤ نشرت تقريرا تمهيديا فى وصف وثيقة طبيــة منقوشة بأول صفة صيدلية فى تاريخ الانسان . وقد تضمن التقرير أيضا ترجمة لأوضح أجزاء الوثيقة ، والواقع من الأمر أن مهنة الأطباء كانت معروفة فى بلاد « سومر » فى خلال الألف الثالث ق . م .

فنعرف مثلا أن طبيبا اسمه « لولو » كان يمارس الطب فى مدينة « أور » (أور الكلدانيين فى التوراة) فى زمن متقادم العهد فى حدود ٢٧٠٠ ق . م ولكن جميع النصوص الطبية التى وجدت فى بلاد ما بين النهرين وتم نشرها حتى عام ١٩٥٤ انما ترجع فى أزمانها الى الألف الأول ق . م ، والغالب فى مثل هــذه النصوص أن تكون ملأى بالتعاويذ ورقى السحر أكثر من العلاجات الطبية الحقيقية .

أما اللوح المترجم حديثا فهو بالمقارنة مع النصوص المكتشفة سابقا يرقى فى تاريخه الى الربع الأخير من الألف الثالث ق . م ولا تتضمن الوصفات الطبية الواردة فيه أى أثر من السحر أو الرقى . وسيكون هذا اللوح ، الذى هو أقدم وثيقة طبية ، موضوع بحث الفصل التاسع .

الفصل التاسع

« الطب »

أول دستور أدوية (١)

لقد ارتأى طبيب سومرى اسمه غير معروف ، وعاش فى نهاية الألف الثالث ق . م . أن يجمع ويدون أثمن وصفاته الطبية لغرض استعمال زملائه من الأطباء ، ولفائدة طلابه . فهيأ لوحا طريا من الطين قياسه (٣ $\frac{٣}{٤}$ × ٦ $\frac{١}{٤}$ أنجا) (٢) وبرى قلما من القصب ، جاعلا نهايته (مثلثة) كالأسفين ونقش بالخط المسمارى المستعمل فى زمانه أكثر من اثنتى عشرة وصفة طبية من وصفات الأدوية المفضلة عنده . ان هذه الوثيقة الطينية ، التى هى أقدم « كتاب موجز » فى الطب معروف لدى الانسان ، بقيت مطمورة فى خرائب مدينة « نفر » طوال أكثر من أربعة آلاف عام الى أن أظهرتها الى الوجود بعثة تنقيبات أمريكية جاءت بها الى متحف الجامعة فى فيلادلفيا .

كانت أول معرفتى بوجود هذا اللوح مما نشره عنه سلفى فى متحف الجامعة الدكتور « ليون ليجران » (Leon Legrain) أمين القسم البابلى فى ذلك المتحف سابقا . ففى مقالة ظهرت فى نشرة متحف الجامعة

---

(١) Pharmacopoeia

(٢) الانج أو (البوصة inch) طولها ٢ر٥٤ سم تقريبا فتكون أبعاد هذا اللوح ٩ر٥ × ١٥ر٩ سم .

فى عام ١٩٤٠ بعنوان « صيدلية نفر القديمة » قام بمحاولة جريئة لترجمة جزء من محتويات تلك الوثيقة . ولكن من الواضح ان فهم محتوياتها عبء لا يمكن أن يضطلع به الباحث المسمارى وحـده . فان تعابير الوصفات الطبية الواردة فيها تعابير فنية اصطلاحية وعلى مستوى عال من التخصص ، الأمر الذى يقتضى اشتراك مختص بتاريخ العلم ، وبوجه خاص أحد المتضلعين فى الكيمياء . وبعد أن أصبحت أمينا لمجموعات الألواح فى متحف الجامعة أخذت أكثر من التردد بشوق ملح على الخزانة المودع فيها ذلك اللوح حيث أخرجه وأحضره الى منضدتى للدرس ، وساقتنى الرغبة أكثر من مرة الى أن أقوم بمجهود آخر فى ترجمـة محتوياته ، ولكنى لحسن الحظ لم أستجب لهذه الرغبة فأعدته الى مستودعه منتظرا الفرصة الملائمة .

وجاءت تلك الفرصة فى صباح أحد أيام السبت فى ربيع عام ١٩٥٣ يوم جاء الى مكتبى شاب وقدم نفسه باسم مارتن ليفى Martin Levey وهو كيموى من جامعة فيلادلفيا ، وقد نال حديثا شهادة الدكتوراه فى « تاريخ العلوم » . لقد سألنى ان كنت أعرف بعض الألواح الموجودة فى متحف الجامعة لعله يساعدنى فى درسها من وجهة موضوع تاريخ العلوم والأساليب التقنية (التكنولوجية) . فكانت الفرصة التى كنت أترقبها . أحضرت اللوح من خزانته ولكنه لم يعد الى محله فى هذه المرة حتى تمت ترجمته ترجمة أولية وقتية على الأقل . لقد صرفت أنا و « ليفى » عدة أسابيع فى الاشتغال على نصوصه . أما عملى أنا فقد انحصر بالدرجة الأولى فى قراءة العلامات السومرية وتحليل التراكيب اللغوية النحوية . ولكن « مارتن ليفى » ، بمعرفته بالطرق الكيموية والأساليب التقنية ، هو الذى أعاد الى الحياة الأجزاء المفهومة من أول دستور للأدوية (اقرباذين) فى تاريخ الانسان .

ان ذلك الطبيب السومرى ، على ما يؤخذ من هذه الوثيقة ، كان يلتجىء مثل زميله الطبيب المحدث الى المصادر النباتية والحيوانية والمعدنية فى تهيئة عقاقيره الطبية . وكان من بين المعدنيات المفضلة لديه « كلوريد الصوديوم » (ملح الطعام) و « نترات البوتاسيوم » (ملح البارود) . ومن المملكة الحيوانية استعمل اللبن وجلد الحية وصدفة السلحفاة . ولكن مصدر معظم مفرداته الطبية كان من عالم النبات : من نباتات مثل « القاسيا »[1] (القثاء الهندى) والآس ، والحلتيت[2] ، والزعتر [3] ومن جملة أشجار مثل الصفصاف والكمثرى والشربين (الشوح) [4] والتين والتمر . وكانت مثل هذه العقاقير تهيأ اما من البذور أو الجذور أو الفروع أو اللحاء أو الصموغ . وكان يحتفظ بها اما على هيئة مادة صلدة أو على هيئة مسحوق .

أما الأدوية التى ذكر وصفاتها ذلك الطبيب فكانت على ضربين : اما أنها تستعمل بهيئة مراهم أو بهيئة مقطرات . وتستعمل اما استعمالا خارجيا أو استعمالا داخليا بهيئة سوائل . وكانت الطرق المألوفة المعتادة فى تركيب المراهم هى أن يدق ويسحق عقار ، أو أكثر من عقار واحد ، ثم ينقع المسحوق فى نوع من النبيذ المسمى « كوشما » ثم يضاف زيت الشجر الاعتيادى وزيت شجر الأرز الى المخلوط . وفى احدى الوصفات ، التى كان « طين » النهر المسحوق أحد العقاقير الداخلة فيها ، جعل المسحوق يعجن بالماء والعسل ، وكان الزيت المستعمل هو الزيت الذى ذكر باسم « زيت البحر » بدلا من زيت الشجر .

---

(١) Cassia

(٢) Asafoetida ويعرف اليوم عند العطارين فى العراق باسم « الجزيفة » وهو صمغ ذو رائحة كريهة ومن هنا منشأ التسمية العامية .

(٣) Thyme

(٤) Fir

وكانت الوصفات المهيأة بطريقة التقطير أكثر تعقيدا وذكرت معها ارشادات فى كيفية استعمالها للتداوى . وفى ثلاث وصفات (وهنا يكون النص السومرى مؤكد المعنى) استعملت طريقة استخلاص الدواء بالغليان . فلكى يحصل على الدواء المطلوب كانت الأجزاء المخلوطة تغلى فى الماء ، وتضاف اليها الأملاح والقلى ، ولعل ذلك كان لاستخلاص أكبر مقدار من الدواء . ولفصل المواد العضوية كانت طريقة الترشيح تستعمل بلا شك فى الخليط السائل ، على الرغم من ان طريقة الترشيح لم ينص عليها نصا صريحا فى أية وصفة وردت فى تلك الوثيقة .

وكان العضو العليل من الجسم يعالج بالدواء المقطر اما بطريقة الرش أو الغسل . ويعقب ذلك دلكه بالزيت ، ثم يوضع عقار أو جملة عقاقير أخرى .

وفى تلك الأدوية التى تستعمل استعمالا داخليا كانت الجعة الواسطة المفضلة لجعلها سائغة المذاق لدى المريض . فان العقاقير المتعددة كانت تطحن لتكون مسحوقا ثم تذاب فى الجعة مكونة شرابا لاستعمال المريض . ولكن فى حالة واحدة ، حيث كانت الجعة واللبن يستخدمان عادة كمادة لنقعها ، استخدموا لهذا الغرض نوعا من الزيت ، غير معروف ، ورد باسم « زيت النهر » .

فيتضح لنا حتى لو اقتصر الأمر على هذا اللوح بمفرده — وهو النص الطبى الوحيد الذى كشف عنه حتى الآن من الألف الثالث ق . م . أن طرق تركيب الأدوية السومرية ودساتيرها قد بلغت مرحلة كبيرة من التقدم . اذ يكشف لنا هذا اللوح ، وان كان بوجه غير مباشر ، عن معرفة واسعة بجملة طرق كيموية متقنة نوعا ما . ففى عدة وصفات ذكرت معها الارشادات بلزوم « تنقية » المادة الداخلة فى الدواء قبل

« السحق » ، وهى خطوة كانت تتطلب على ما ينبغى جملة عمليات كيموية . وفى مثال آخر نجد أن « القلوى » المسحوق المستعمل دواء فى احدى الوصفات هو على ما يرجح الرماد القلوى المستخرج من حرق نبات من فصيلة النباتات « الرمرامية » [1] (وعلى أكثر الاحتمالات نبات الـ « حمض » [2] وهى النباتات الغنية بالصودا) . وكان رماد الصودا المستخرج على هذ الوجه يستعمل فى القرن السابع ق . م . وفى العصور الوسطى لصنع الزجاج . والجدير بالملاحظة من الناحية الكيموية ان الوصفتين الواردتين فى لوح الطين المتقدم الذكر الداخل فى تركيبهما « القلى » قد استعمل فيهما القلى مع مواد تحتوى على كميات كبيرة من الشحم الطبيعى ، الأمر الذى ينتج عنه « صابون » يستعمل استعمالا خارجيا .

وتوجد مادة أخرى ورد ذكرها فى وصفات « طبيبنا » السومرى جديرة بالتنويه لأنه لا يمكن الحصول عليها الا بمعرفة كيموية وهى « نترات البوتاسيوم » أى (ملح البارود) . وبالقياس الى معرفتنا المستقاة من العهود الاشورية المتأخرة ، فلا يكون بعيدا عن الاحتمال اذا افترضنا ان السومريين كانوا يفحصون السطوح الظاهرة لمجارى المياه المستعملة لتصريف بعض الفضلات النتروجينية كالبول فيأخذون كل ما يجدونه من فضلات متبلورة لتنقيتها . أما قضية فصل العناصر والأجزاء المركبة التى كانت تحتوى بلا شك على كلوريد الصوديوم وعلى أملاح أخرى للصوديوم والبوتاسيوم وعلى فضلات من المواد النتروجينية أيضا ، فقد حلوا تلك القضية على ما يحتمل بالطريقة

---

(١) وتسمى بعض انواعه باسم رجل الأوز و « فساء » الكلب . Chenopodiaceae

(٢) ويسمى « غول » و « ابو ساق » ، وهو نبات قلوى . Salicornia fruticosa

(المترجم)

الكيموية المعروفة باسم « التبلور الجزئى » [1] . وفى الهند ومصر لا تزال الطريقة القديمة شائعة الاستعمال وهى الطريقة التى تدور على خلط الجير ، أو الملاط (الجص) العتيق المستعمل ، مع بعض المواد النتروجينية المساعدة على الفك والتحليل لاستخراج نترات الكالسيوم التى تفصل وتنقى بغسلها مع بعض المواد المذيبة ، حيث تغلى مع رماد الحطب المحتوى على كربونات البوتاسيوم ، وبتبخير المرشح ينتج النطرون .

على أن نص هذه الوثيقة التى بين أيدينا يخيب آمالنا كثيرا فى أمر واحد : هو انه لا يسمى لنا الأمراض التى وضعت من أجلها تلك الوصفات ، ولذلك لا نستطيع أن نحكم على قيمتها العلاجية . ومهما كانت الحال فالمرجح أن تكون تلك الأدوية ذات قيمة زهيدة لأن الطبيب السومرى على ما يبدو لم يركن الى التجربة والتحقيق . على أن اختيار كثير من العقاقير يعكس لنا بلا شك عن ثقة القدماء المتطاولة العهد بتلك الخصائص العطرية للنباتات . ونجد أن بعض الوصفات وهى ذات فوائد صالحة مثل فائدة صنع المطهرات ، وتكون بعض المواد كالملح وملح البارود مفيدة فى هذا الباب . فالأول معقم والثانى قابض .

وهناك نقص آخر يعتور وصفات الأدوية السومرية . ذلك هو اغفالها تعيين المقادير المراد استعمالها فى تركيب المواد البسيطة وتهيئتها مما يدخل فى أدوية تلك الوصفات ، واغفال ذكر المقدار المستعمل من الأدوية وعدد المرات التى تستعمل فيها . ولعل منشأ ذلك الاغفال من « التكتم المهنى أو الغيرة المهنية » ، اذ يرجح أن يكون الطبيب السومرى قد أخفى قصدا تفاصيل المقادير حفظا وصونا لأسراره من أن يتطفل عليها

(١) Fractional Crystallization

أحد من غير أهل المهن الطبية ولعله أخفاها حتى من زملائه الأطباء . والمحتمل كثيرا أيضا أن التفاصيل الكمية لم تبد ذات أهمية كبيرة لدى مدون الوصفات السومرى ، اذ كان بالمستطاع معرفة مقاديرها أثناء التجربة عند تهيئة الأدوية واستعمالها .

ولكن الأمر الجدير بالملاحظة هو ان الطبيب الذى دون هذه الوثيقة الطبية لم يعتمد على التعاويذ والرقى السحرية . فلم يرد فيها ذكر لأى اله أو شيطان فى جميع نصوصها . بيد أن هذا لا يعنى أن استعمال الرقى والتعاويذ فى علاج الأمراض لم يكن شائعا فى بلاد سومر فى الألف الثالث ق . م . اذ العكس هو الواقع المعروف ، كما هو واضح من محتويات عدد كبير من الألواح الصغيرة المنقوشة بالتعاويذ وقد عنونها مدونو نصوصها على انها تعاويذ . فكان السومريون ، مثل البابليين فى العهود المتأخرة عنهم ، يعزون الكثير من الأمراض الى وجود الشياطين المضرة فى جسم المريض . وقد ذكرت أسماء ستة شياطين فى ترتيلة سومرية خصصت للآلهة الحامية للفن والطب ، وهى الآلهة التى عرفت بجملة أسماء منها « باو » و « نِنسو » و « جولا » ، وكانوا ينعتونها بقولهم الطبيبة العظمى لذوى « الرؤوس السود » (أى السومريين) . ومع ذلك فلا تزال الحقيقة التى تدعو الى الدهشة قائمة وهى أن وثيقتنا ، وهى أقدم « صفحة » من كتاب طبى عثر عليه حتى الآن ، قد خلت خلوا تاما من الأمور السحرية الغامضة الخارجة عن نطاق المعقولات .

ان اكتشاف « لوح طبى » يرقى عهده الى نهاية الألف الثالث ق . م . قد أدهش حتى المختصين بالمسماريات . اذ المتوقع أن يكون أول « كتاب موجز » يكشف عنه ، انما ينبغى أن يتعلق بشئون الزراعة وليس فى

الطب . فقد كانت الزراعة أساس الحياة الاقتصادية عند السومريين ، والمعين الأساسى للثروة والازدهار . وقد بلغت الأساليب والطرق الزراعية عندهم مرحلة عالية من التقدم والتطور قبل الألف الثالث ق . م . ولكن مع ذلك فان « كتاب الفلاحة » الوحيد الذى كشف عنه حتى الآن انما يرجع فى عهده الى أوائل الألف الثانى ق . م . وسيكون موضوع بحث الفصل العاشر .

الفصل العاشر

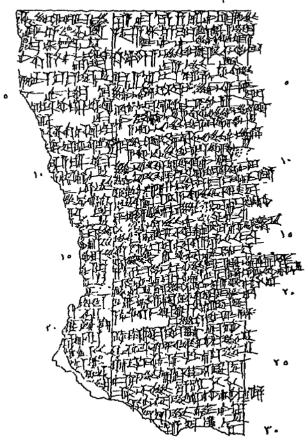
«الزراعـــة»

أول تقويم زراعى

ان لوحا صغيرا كشفت عنه بعثة تنقيبات أثريه أمريكية فى العراق هو الذى مكننا من استعادة واكمال نص وثيقة ترجع فى تاريخها الى ما قبل ٣٥٠٠ سنة ، وتعد على قدر كبير من الأهمية فى تاريخ الزراعة وأساليبها . ففى أثناء التنقيبات التى أجرتها فى عام ١٩٤٩ — ١٩٥٠ البعثة المؤلفة من المعهد الشرقى لجامعة شيكاغو ومتحف جامعة بنسلفانيا فى خرائب المدينة السومرية القديمة « نفر » ، عثر على لوح صغير يقيس (٣×٤ أنجـا = ٦ر٧ × ٤ر١١ سم) ، وكان بحـال سـيئة من الحفظ ، ولكن بعد طبخه وتنظيفه واصلاحه فى مختبر (معمل) متحف الجامعة أصبح نصه واضحا بكامله تقريبا . وقبل أن يكشف عن هذا اللوح فى « نفر » كنا نعرف وجود ثمانية ألواح وكسر من ألواح منقوشة بأجزاء مختلفة من هذا الكتاب الخاص بـ « مبادىء الزراعة » . ولكن كان يتعذر استعادة نص كامل منها الى أن ظهر للعيان لوح « نفر » المتضمن (٣٥) سطرا تأتى فى منتصف النص .

تتألف هذه الوثيقة الجديدة بعد استكمالها من (١٠٨) سطرا تشتمل على جملة نصائح وارشادات موجهة من فلاح لابنه ، بغية ارشاده فى شئون زراعته السنوية ، ابتداء من سقى الحقول بالماء فى « ايار — حزيران » ، (مايو — يونيه) ، وتنتهى فى عملية تنقية وتذرية الحاصل

المحصـــود فى « نيسان – أيار (ابريل – مايو) القادمين . والجدير بالذكر بهذا الصدد أنه قبل الاكتشاف الذى حصل فى مدينة « نفر » كنا نعرف رسالتين فى مبادىء الفلح والزراعة كانتا معروفتين من الأزمان القديمة ، أولهما الأراجيز الشعرية الزراعية الشهيرة التى نظمها « فرچيل » وسماها فلاحة الأرض ، والمؤلف الثانى هو مؤلف « هزيود » المشهور بعنوان « العمل والأيام » (١) ، وهو أقدم من الأثر الأول ، ولعله كتب فى القرن الثامن ق . م . ولكن اذا قارناه بالنص السومرى المكتشف حديثا فى نفر الذى دون فى حدود ١٧٠٠ ق. م. فانا نرى أنه يسبق تأليف « هزيود » بنحو ألف عام .



شكل ٣٢ – « تقويم الفلاح » : نسخة يدوية غير منشورة من لوح ذى أربعة حقول من الكتابة وجد فى تنقيبات « نفر » عام ١٩٤٩ – ١٩٥٠ .

(١) Hesoid, Work and Days.

يبدأ كتاب « مبادىء الزراعة » السومرى بالسطر القائل : « فى الأزمان القديمة زود فلاح ابنه بهذه الارشادات » . وتدور الارشادات التى تعقب هذا السطر على الأعمال الزراعية اليومية المهمة التى ينبغى على الفلاح أن يقوم بها ليضمن محصولا وفيرا . ولما كان رى الأرض من الأمور الضرورية لتربة بلاد سومر العطشى فتبدأ تلك الارشادات بالنصائح المتعلقة بأعمال الرى كبذل العناية لئلا يرتفع الماء ارتفاعا كبيرا فوق الحقل ، والمحافظة على الأرض المسقية من دوس البقر وغير ذلك بعد أن يفيض الماء . ثم ينبغى تطهير الحقل من الحشائش وجذور النباتات المتروكة من موسم الحصاد السابق ، كما يلزم احاطة الحقل بالسياج . ثم يأتى ارشاد الفلاح بأن يجعل أفراد أسرته والمساعدين الأجراء يهيئون مقدما الآلات والأدوات الضرورية والسلال والأوعية ، الى غير ذلك . ونصح أن يكون لديه ثور اضافى للمحراث ، ثم قبل أن يبدأ بالحرث يجب عليه أن يعزق الأرض ويكسرها بالفأس مرة وبالرفش مرة ثانية ، ويجب استعمال المدق اذا اقتضى الأمر لسحق كسر المدر . كما أرشده أيضا بأن يشرف على عماله الأجراء ليضمن عدم تهاونهم فى انجاز عملهم .

وكانت عمليتا الحرث والبذر تجريان معا فى آن واحد بواسطة آلة لبذر البذور ، اذ كان ذلك يتم باستعمال محراث تتصل به آلة على هيئة القمع تنتشر منه البذور من وعاء خاص الى الأخاديد التى يحدثها المحراث . وأرشد الفلاح أيضا بأن يحرث ثمانية خطوط أو أخاديد فى كل شقة مقدارها عشرون قدما تقريبا ، كما نصح بأن يجعل البذور تنزل فى خطوط الحرث الى أعماق متساوية . وبنص العبارة الواردة فى ذلك « الدليل الزراعى » : « راقب من يبذر بذور الشعير بحيث يجعل البذور (تتخلل الحرث) بعمق اصبعين بوجه منتظم » . واذا لم يتغلغل البذر فى الأرض على الوجه الصحيح فدعه يبدل « سكة المحراث » أو كما ورد فى النص : « لسان المحراث » . وكانت هناك جملة أنواع

من خطوط الحرث أو أخاديده بموجب ما ذكره كاتب « الدليـــل » الزراعى الذى يسوق ارشاده على الوجه الآتى :

« اذا ما انتهيت من حرث الخطوط المستقيمة فاحرث بعدئذ خطوطا مائلة واذا أتممت حرث هذه الخطوط المائلة فاحرث خطوطا مستقيمة » . وبعد بذر الحبوب ينبغى ازالة المدر (حجارة الطين الصلبة) من خطوط الحرث لئلا يعوق وجودها انبات الشعير . ويستمر « الدليل » الزراعى السومرى فى ارشاداته على الوجه الآتى : فى اليــوم الذى تشق فيه البذور الأرض يلزم الفلاح أن يقدم الصلاة الى الالهة « نِنْ — كِـلِمْ » الخاصة بجرذان الحقل وحشراته وديدانه ، لئلا تضر هذه الحشرات الغلة النامية . كما ينبغى عليه أن يخيف الطيور . ومتى نما الشعير نموا كافيا بحيث يملأ خطوط الحرث فيجب على الفلاح أن يرويه . واذا تكاثف الزرع فى نموه وملأ الحقل وصار بهيئة « الحصير فى وسط السفينة » فعليه أن يسقيه مرة أخرى ، ومرة ثالثة يلزم أن تسقى الغلة « الملكية » . وان لاحظ احمرارا فى الزرع المسقى فان ذلك أمارة على وجود الآفة الزراعية المخيفة ، التى وردت باسم « سَمَّانا » المهلكة للزرع والغلة . واذا تحسن حال الزرع فعليه أن يرويه مرة رابعة وبذلك يضمن الحصول على زيادة فى الانتاج بمقدار عشرة بالمائة .

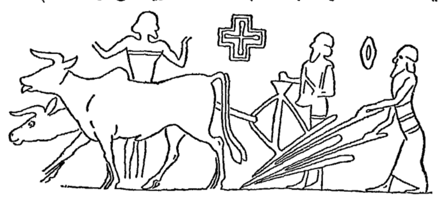
« واذا حان موعد الحصاد فيلزم على الفلاح ألا ينتظر حتى ينحنى الشعير ويميل من جراء ثقله ، بل ينبغى « قطعه وهو فى ابان قوته » — أى فى اللحظة الملائمة للحصاد . وقد ورد ذكر ثلاثة من العمال الذين كانوا يؤلفون جماعة تعمل معا فى الحصاد وهم — الحاصد والحزّام وعامل ثالث وظيفته غير معروفة بوضوح .

أما عملية « الدراسة » (أو الدريس) التى تعقب الحصاد فورا فكانت تنجز بواسطة مزلج أو زحافة يجر الى الأمام والى الخلف فوق

حزم سيقان الغلة المكدسة . وتستغرق هذه العملية زهاء خمسة أيام . ثم « تفتح » الغلة بـ « مفتاح » تجره الثيران . وعندما تتسخ الحبوب من جراء تلامسها بالتراب فيلزم ، بعد القيام بنوع خاص من الصلاة ، أن تذرى بالمذارى ، ثم توضع على عيدان مصفوفة فتصبح عندئذ نقية من الأوساخ والتراب .

وتنتهى هذه الوثيقة بالقول ان المبادىء الزراعية الواردة فيها ليست من عند الفلاح وانما هى مبادىء الاله « ننورتا » (Ninurta) ، الفلاح الحقيقى ، وابن كبير الآلهة السومرية « أنليل » .

ولكى يقف القارىء بنفسه على فحوى ذلك « الكتاب » ، الذى يعد أول دليل فى مبادىء الفلاحة فى تاريخ الانسان ، نقدم ترجمة حرفية للأسطر الثمانية عشر الأولى من النص . والجدير بملاحظة القارىء أن يأخذ بنظر الاعتبار أن الترجمة فى بعض المواطن ترجمة تمهيدية لأن النص مملوء بالمصطلحات الغامضة المحيرة . وقد أعـدت هذه الترجمة اعدادا وليا من جانب « بنو لاندز برجر » و « ثور كلد باكوبسن » — وهما من مشهورى الباحثين فى المسماريات فى المعهد الشرقى لجامعة شيكاغو ومن مؤلف هذا الكتاب . (والذى لا شك فيه ان تحسينات كثيرة ستطرأ عليها كلما نمت معرفتنا باللغة وبالثقافة السومرية على مر السنين) :



شكل ٣٣ — « مشهد حرث » : استعادة مشهد حرث مأخوذ من طبعة ختم اسطوانى وجد فى لوح من الواح « نفر » فى متحف الجامعة . لاحظ القمع المتصل بالمحراث لبذر البذور .

« فى قديم الأزمان زود فلاح ابنه بهذه الارشادات :

« اذا قارب الوقت الذى تبتدىء فيه بزرع حقلك فاحذر اذا فتحت أنهر السقى ألا تجعل مياهها ترتفع عاليا فيه (فى الحقل) . وحين «تبزل» (أى تصفيه) الماء من الحقل فلاحظ أن تبقى أرضه مستوية ولا تدع ثورا شاردا يطؤه . اطرد المتجولين والحيوانات السائمة واجعله كالأرض المأهولة . نظفه بعشر فئوس حادة (بحيث لا تزن) احداها أكثر من ⅔ الرطل . ويتحتم عليك أن تقلع أعقاب النباتات القديمة فيه باليد ، واحزمها حزما . كما ينبغى ازالة الحفر والثقوب الضيقة بالمسلفة ، على أن تسيج جوانب الحقل الأربعة . ولما أن يكون الحقل مشتعلا (بحرارة شمس الصيف) فاعمل على تقسيمه الى أجزاء متساوية ، ودع آلاتك مشغولة بالعمل (؟) وعليك أن تثبت عارضة النير ، وتثبت المسامير فى سوطك الجديد ، أما مقبض سوطك القـديم فعلى أبنـاء الأجراء أن يصلحوه » .

هذا ولم تقتصر مصادر الثروة الاقتصادية فى بلاد « سومر » على مزارع الحبوب بل على حدائق الخضراوات وأحراش الأشجار المثمرة أيضا . وكان من أساليب فن البستنة المتبعة فى بلاد « سومر » من أقدم الأزمان أسلوب الغرس فى ظلال الأشجار — أى غرس أشجار ذات ظلال منتشرة لحماية نباتات البستان من الشمس والرياح . وسوف ندرس هذا الأسلوب فى باب« البستنة » فى الفصل الحادى عشر ، على ضوء ما جاءنا فى قصيدة سومرية .

الفصل الحادى عشر

« فن البستنة [1] »

أول تجربة فى الغرس تحت ظلال الأشجار

كنت سافرت فى عام ١٩٤٦ الى استانبول وبغداد بصفتى أستاذا موفدا من جمعيـــة « المدارس الأمريكية للمبـــاحث الشرقية » [2] وممثلا لمتحف جامعة بنسلفانيا ، فمكثت فى استانبول زهاء أربعة أشهر استنسخت فى غضونها نيفا ومائة لوح طين منقوشة بالملاحم والأساطير السومرية . وكان القسم الأعظم من هذه الألواح كسرا صغيرة وبعضها متوسطة الأحجام . ولكن توجد من بينها ألواح تحتوى على نصوص مطولة ، نذكر منها اللوح المؤلف من اثنى عشر حقلا والمتضمن قصة « حرب الأعصاب » (الذى مر بنا فى الفصل الثالث) ولوحا آخر مقسما الى ثمانية حقول تتضمن مناظرة أو مفاخرة طريفة بين « الشتاء والصيف » (أنظر الفصل السادس عشر) ، والقطعة المؤلفة من ستة حقول والمدونة فيها أسطورة لم تكن معروفة سابقا وقد عنونتها بعنوان « اتّانـا وشو كَلّيتودا : خطيئة البستانى المهلكة » .

ان هذه الوثيقة المذكورة ينبغى أن تكون فى أصلها وهى سالمة ذات مقاس يبلغ نحو (٦ × $\frac{1}{4}$ ٧ انجا = ١٥٫٢٤ × ١٨٫٣١ سم) .

---

(١) Horticulture.

(٢) American Schools of Oriental Research.

ولكنها لا تقيس فى حالها الراهنة سوى ($\frac{1}{4}$ ٤ × ٧ انجا = ٨ر١٠ × ٨ر١٧ سم) كما ان الحقلين الأول والثانى منها ناقصان بكاملهما تقريبا . بيد أن الحقول الأربعة الباقية تمكننا من اكمال واستعادة ما يناهز مائتى سطر من النص الذى بقى أكثر من نصفه سالما كاملا . ولما اتضحت محتويات الأسطورة تدريجيا صار جليا ان هذه الأسطورة لا يقتصر الأمر فيها على كون فكرتها غير مألوفة ، بل انها زيادة على ذلك على قدر كبير من الأهمية من وجهين : فأولا نجدها تصور لنا حادثة حولت فيها احدى الآلهات جميع مياه البلاد بأكملها الى دماء بسبب خطيئة ارتكبها ازاءها أحد البشر الفانين . والمثال الوحيد المماثل لفكرة « بلاء الدم » ، فى جميع الآداب القديمة ، هى القصة المذكورة فى التوراة الخاصة بحوادث الخروج (خروج بنى اسرائيل من مصر) حيث حول الاله « يهـوا » ميـاه مصر الى دماء ، لما أبى فرعـون مصر اطلاق سراح الاسرائليين المستعبدين لكى يخدموه . والوجه الثانى من أوجه أهميتها أن مؤلف الأسطورة القديم يفسر لنا أصل طريقة الغرس فى ظلال الأشجار . فيكشف لنا أن مبدأ البستنة المتبع فى الغرس والزرع تحت ظلال الشجر فى البساتين لحماية النباتات والأشجار من الشمس والرياح كان معروفا ويمارس قبل آلاف السنين . ونلخص حوادث الرواية على الوجه الآتى :

كان يعيش فى قديم الزمان بستانى اسمه شوكليتودا (Shukallituda) لم ينل سوى الاخفاق فى جميع جهوده ومثابرته فى البستنة ، فهو رغم عنايته الزائدة بارواء جميع أخاديد وأجزاء البستان كان يحل بغرسه اليبس والموت . وكانت الرياح السافية الهوج تلطم وجهه « بغبار الجبال » وكل ما كان يرعاه ويعنى به يتحول قفرا خرابا . وعندئذ رفع

عينيه شرقا وغربا الى السماء ذات النجوم الكثيرة ، ودرس نذر الآلهة وار اداتها . وعندما نال الحكمة الجديدة من تطلعه الى السماء غرس شجرة الـ « سربتو » (۱) فى بستانه ، وهى شجرة يبقى ظلها الوارف من مطلع الشمس الى مغربها . وبنتيجة هذه التجربة الناجحة فى فن البستنة ازدهر بستان « شوكليتودا » بجميع أنواع النباتات الخضراء اللون .

وحدث ذات يوم أن « انانا » ، (الالهة السومرية المضاهية لافروديت الاغريقية وفينوس الرومانية) ، كانت قد عبرت السماء والأرض فاضطجعت قرب بستان « شوكليتودا » لتريح جسمها المنهوك من التعب . راقبها ذلك البستانى من حافة بستانه وانتهز فرصة انهيار قواها من التعب فجامعها . ولما ان طلع الصباح وأشرقت الشمس نظرت « انانا » حواليها فى دهشة وذعر وآلت الا أن تجد ذلك الانسان الفانى الذى انتهك عرضها وجللها بالعار فسلطت من أجل ذلك على بلاد سومر ثلاثة أنواع من الأوبئة : (۱) ملأت جميع آبار البلاد بالدم بحيث أصبحت جميع أحراش النخيل والكروم ملأى بالدماء (۲) سلطت رياحا وعواصف مدمرة على البلاد (۳) أما البلاء أو الوباء الثالث فطبيعته مجهولة لأن الأسطر الخاصة به محطمة وناقصة .

ومع تسليط هذه الأوبئة أو البلايا الثلاث فان « انانا » لم تستطع أن تعثر على من انتهكها ، اذ أن « شوكليتودا » كان يذهب بعد حلول كل بلاء الى بيت والده ويبلغه بالخطر المحدق به . فكان الأب ينصح ابنه أن يقصد اخوته وهم « ذوو الرءوس السود » (السومريون) ، وأن يلازم المراكز والمواطن الحضرية . فاتبع « شوكليتودا » نصيحة

(۱) لعلها شجرة « الغرب » المعروفة فى العراق الآن حيث يكثر وجودها على ضفاف الأنهار .
(المترجم)

أبيه ولهذا لم تستطع « انانا » أن تجده ، ولذلك عزمت على الذهاب الى مدينة « أريدو » الى بيت « أنكى » ، وهو الاله السومرى الخاص بالحكمة ، لتسأله النصح والعون ، بعد أن أدركت بمرارة انها لم تستطع أن تثأر للاساءة التى ارتكبت ازاءها . ولكن مع الأسف يكون النص فى هذا الموضع ناقصا مخروما ، الأمر الذى يجعل نهاية القصة مجهولة .

ونقدم فيما يأتى ترجمة أولية لأوضح أجزاء القصة وأهمها :

« شوكليتودا » ....

« حين يجرى الماء فى السواقى ،

« وحين يحفر الآبار فى جانب أجزاء ....

« كان يتعثر فى جذورها فتجرحه ،

« ان الرياح العاصفة بما كانت تحمله معها ،

« وبتراب الجبال كانت تلطم وجهه ،

« وفى وجهه .. ويديه ..

« لقد كانت تقتلعه ولم يعرف ..

« ثم رفع عينيه الى الأقاليم السفلى ،

« وتطلع الى النجوم فى المشرق ،

« ورفع عينيه الى الأقاليم العليا ،

« وتطلع الى النجوم التى فى المغرب ،

« راقب الطوالع السعيدة المرقومة فى صفحة السماء ،

« وعرف من السماء المرقومة علامات النذر ،

« فرأى هناك كيف سينفذ النواميس الالهية ،

« لقد درس ارادات الآلهة .

« وفى البستان فى خمسة الى عشرة مواضع حريزة منيعة ،

« غرس فى تلك المواضع شجرة لتكون غطاء واقيا ،
« ان تلك الشجرة الواقية بظلها هى شجرة الـ « سربتو » ذات الظل العريض ،
« ان ظلها الذى تنشره تحتها لا يزول ، لا فى الفجر ولا فى الظهيرة ولا فى الغسق ،
« وذات يوم ، بعد أن عبرت ملكتى السماء وعبرت الأرض ،
« انانا بعد أن عبرت السماء ، وعبرت الأرض ،
« بعد أن قطعت بلاد « عيلام » وبلاد « شوبر » [1] ،
« بعد أن عبرت .. ،
« اقتربت البغى المقدسة « انانا » الى البستان ، من أثر وعثاء السفر ، وغطت فى النوم ،
« فرآها « شوكليتودا » من حافة بستانه ، ..
« ضاجعها وقبلها وعاد الى حافة بستانه .
« طلع الفجر وأشرقت الشمس ،
« فنظرت المرأة حولها جزعة ،
« نظرت « انانا » حولها وجلة فزعة .
« فتأمل ! ما أعظم الضرر الذى أحدثته المرأة من أجل عورتها ،
« انانا » من أجل عورتها ماذا صنعت !
« لقد ملأت جميع آبار البلاد بالدم ،
« فامتلأت جميع الأحراش والبساتين فى البلاد بالدماء .
« لقد صار العبيد حين يذهبون للاحتطاب لا يشربون الا الدم ،
« والاماء اذا ما جئن للتزود بالماء لا يملأن (جرارهن) الا بالدم .

---

(١) انظر الملحق الأول حول تعيين هذا الموضع . (المترجم)

« لقد قالت « لأجدن من جامعنى فى جميع أرجاء البلاد ،

« ولكنها لم تجد الذى جامعها ،

« لأن « شوكليتودا » الشاب قصد بيت أبيه وقال لأبيه :

« حين أجرى الماء فى السواقى ،

« وحين أحفر الآبار فى أجزاء ...

« كنت أتعثر بجذورها فتجرحنى ،

« والرياح العاصفة بما كانت تحمله معها ،

« وبتراب الجبال كانت تلطم وجهى ،

« فى وجهى .. وفى اليدين ..

« كانت تقذف به فى الهواء ، ولم أعرف ..

« ثم رفعت عينى الى الأقاليم السفلى ،

« وتطلعت الى النجوم التى تشرق فى المشرق ،

« وتطلعت الى النجوم التى فى المغرب ،

« وراقبت الطوالع السعيدة المرقومة فى السماء ،

« وعرفت من السماء المرقومة علامات النذر ،

« رأيت هناك كيف سأنفذ النواميس الالهية ،

« ودرست ارادات الآلهة .

« وفى البستان فى خمسة الى عشرة مواضع حريزة منيعة ،

« فى تلك المواضع غرست شجرة واحدة لتكون غطاء واقيا ،

« الشجرة الواقية بظلها — هى شجرة الـ « سربتو » ذات الظل الواسـع ،

« ظلها المنتشر تحتها لا يزول لا فى الفجر ولا فى الظهيرة ولا فى الغسق ،

« وذات يوم ، بعد أن عبرت « مليكتى » السماء ، وعبرت الأرض ،
« انانا » بعد أن عبرت السماء وعبرت الأرض ،
« بعد أن قطعت بلاد « عيلام » وبلاد « شوبر » ،
« اقتربت البغى المقدسة « انانا » الى البستان ومن أثر وعثاء السفر غطت فى النوم ،
« فرأيتها من حافة بستانى ،
« وجامعتها وقبلتها وعدت الى حافة بستانى ،
طلع الفجر وأشرقت الشمس ،
« فنظرت المرأة حواليها جزعة ،
« جالت « انانا » بنظرها وجلة فزعة ،
« فتأمل ! ما أعظم الضرر الذى أحدثته المرأة من أجل عورتها ،
« انانا » من أجل عورتها ماذا صنعت !
« لقد ملأت جميع آبار البلاد بالدم ،
« فامتلأت جميع الأحراش والبساتين فى البلاد بالدماء ،
« لقد صار العبيد حين يذهبون للاحتطاب لا يشربون الا الدم ،
« والاماء اذا ما جئن للتزود بالماء لا يملأن جرارهن الا بالدم .
« لقد قالت : لأجدن من جامعنى فى جميع أرجاء البلاد ،
« ولكنها لم تجد الذى جامعها ،
« لأن الأب أجاب ابنه « شوكليتودا » قائلا :
« أقم يا بنى قريبا من مدن اخوانك ،
« شد الرحال واذهب الى اخوانك « ذوى الرءوس السود » ،
« فان المرأة « انانا » لن تجدك وأنت وسط البلدان ،
« فأقام (أى « شوكليتودا ») فى مدن اخوانه ،

الفصل الثاني عشر

« الفلسفة »

أول آراء للإنسان فى أصل الكون وفلسفة الكائنات (١)

ان السومريين قصّروا فى أن يخلقوا لأنفسهم فلسفة منظمة بالمعنى المعروف لهذه الكلمة فلم يدر بخلدهم أن يثيروا التساؤل عن الطبيعة الأساسية للحقيقة والمعرفة ، ولذلك لم يصلوا الى أى شىء تقريبا يماثل ذلك الفرع من الفلسفة الذى يعرف الآن باسم « فلسفة المعرفة » (٢) . ولكنهم مع ذلك نراهم قد تأملوا فى طبيعة الكون وبوجه خاص فى أصل الكون ونظامه وما يجرى فيه . ولدينا من الأسباب المعقولة ما يحملنا على الاستنتاج انه ظهر فى غضون الألف الثالث ق . م . طائفة من المفكرين والمعلمين السومريين حاولوا أن يصلوا الى اجابات مرضية عن المسائل التى أثارتها تأملاتهم فى الكون وأصل الأشياء فكونوا آراء وعقائد فى أصل الكون والالهيات اتسمت بقدر عظيم من الاقناع العقلى ، وأصبحت آراؤهم ومعتقداتهم فيما بعد عقائد ومبادىء أساسية لكثير من شعوب الشرق الأدنى القديم .

ولكن مثل هذه الآراء المتعلقة بأصل الأشياء ونظام الكون ، والتأملات الالهية ، لم توضع بوجه صريح واضح منظم ، على هيئة

---

(١) Cosmogony and Cosmology

(٢) Epistemology

مبادىء ، أو دساتير فلسفية ، وتعابير منطقية منظمة مضبوطة . فمثلا نجد الفلاسفة السومريين قد أخفقوا فى أن يكتشفوا تلك الآلة العقلية العظيمة القدر التى هى عندنا من الأمور المسلم بها ، ألا وهو المنهج العلمى الذى يدور على التعريف والتعميم ولولاه لما وصل علمنا الحديث الى مكانته البارزة التى عليها الآن . فاذا أخذنا مثلا مبدأ بسيطا مثل مبدأ « العلة والمعلول » ، وجدنا أن المفكر السومرى ، مع أنه كان يعرف الأمثلة المادية الكثيرة لفعل ذلك المبدأ وأثره ، الا انه لم تعن له مطلقا فكرة وضعه وصياغته على هيئة دستور عام شامل . وان جميع ما نعرفه تقريبا عن الفلسفة السومرية وما وصلوا اليه فى الالهيات وفلسفة الكائنات وأصل الكون ، ينبغى أن يستقى ويستنتج مما جاء فى القطع الأدبية السومرية ولا سيما الأساطير وقصص الملاحم والتراتيل الدينية .

فما هى تلك المعلومات أو الحقائق « العلمية » التى كانت متيسرة لديهم وعملت على « تثبيت » أو تجميد افتراضاتهم وآرائهم ، وأدت الى تضييق تأملاتهم الفلسفية فجعلتها عقائد لا هوتية يقينية ؟ . ان أهم العناصر والأجزاء التى كانت تؤلف الكون ، فى رأى المعلمين والحكماء السومريين ، هى « السماء » و « الأرض » ، بحيث صار المصطلح الذى أطلقوه على الكون هو « آن — كى » ، وهى كلمة مركبة تعنى « السماء والأرض » . ورأوا الأرض وهى على هيئة « قرص » منبسط ، وان السماء فراغ مغطى من الأعلى ومن الأسفل بسطح صلب على هيئة عقد . ولكن لا يعرف بوجه التأكيد مادة ذلك الجسم السماوى الصلد . واذا جاز لنا أن نقيس على حقيقة أن المصطلح السومرى لمعدن القصدير يعنى « معدن السماء » فيحتمل أن يكون ذلك الجسم الصلد الذى تصوروه قصديرا . وميزوا عنصرا بين السماء والأرض دعوه

« لِيل » وهى كلمة أقرب معانيها « الهواء » (الهواء ، النفس ، الروح) . وأبرز ما عرفوا فى مادة الهواء من الخصائص هى الحركة والامتداد ، ولذلك فان تلك الكلمة تضاهى بوجه التقريب كلمة « الجو » التى نستعملها . واعتقدوا فى الشمس والقمر والكواكب والنجوم انها مكونة من نفس مادة « الجو » ولكنها تتميز علاوة على ذلك بصفة الاشراق والاضاءة . ويحيط بالكون أى « السماء — و — الأرض » من جميع الجوانب ومن الأعلى والأسفل البحر اللامتناهى ، الذى يكون فيه الكون ثابتا وغير قابل للحركة نوعا ما .

من هذه الآراء والافتراضات الأساسية المتعلقة بتركيب الكون وتأليفه ، والتى كانت تبدو للمفكرين السومريين حقائق واضحة لا نزاع ولا شك فيهـا ، كونوا آراء مطابقـة فى أصـل الوجود والأشياء . فأولا استنتجوا وجود ما يمكن تسميته « بالبحر الأول » . وهناك من الدلائل المستنتجة ما يشير الى انهم رأوا فى ذلك « البحر الأول » على انه « السبب الأول » و « المحرك الأول » فلم يسائلوا أنفسهم أى شىء كان فى الوجود قبل « البحر » فى الزمان والمكان . وفى هذا « البحر الأول » تولد الكون بوجه ما أى « السماء — و — الأرض » ، المكون من قبة السماء الموضوعة فوق الأرض المنبسطة والمتصلة بها . وكان يتخلل ما بين السماء والأرض ويفصل ما بينهما « الجو » المتحرك المتمدد وتولدت من « الجو » الأجرام النيرة — القمر والشمس والكواكب والنجوم . وأعقب انفصال السماء عن الأرض وخلق الأجرام النيرة أن جاءت الى الوجود الحياة النباتية والحيوانية والبشرية .

فمن خلق هذا الكون وجعله يجرى على مر الأيام والسنين وعلى مر العصور والدهور ؟ والجواب على ذلك أن أهل اللاهوت السومريين ،

منذ أقدم ما تصل اليه سجلاتنا المدونة ، افترضوا افتراضا مسلما بحقيقته وهو وجود مجموعة من الآلهة قوامها كائنات حية شبيهة فى هيآتها بالانسان ولكنها فوق الانسان وخالدة . وهى ، وان كانت لا يمكن رؤيتها بعين الانسان الفانى ، تسير الوجود وتسيطر عليه بموجب خطط مضبوطة ونواميس معينة مقررة . واعتقدوا أن كل واحد من هذه الكائنات ، الشبيهة بالانسان ولكنها تتميز عنه بخلودها وأنها فوق الانسان فى القدرة ، موكل بجزء خاص من هذا الكون ليسير شئونه بموجب قواعد ونواميس مقدرة . فكان أحد تلك الكائنات مسئولا عن كل جزء هام من هذا الكون مثل السماء والأرض والبحر والهواء ، أو مجموعة الأجرام السماوية الرئيسية والشمس والقمر والكواكب وقوى الجو وعناصره كالرياح والزوابع والعواصف . وفى دائرة الأرض الظواهر الطبيعية كالأنهار والجبال والسهول ، ومقومات الحضارة والعمران ، كالمدن والدولة والسدود والجداول والحقول والمزارع وحتى الآلات والأدوات مثل الفأس وقالب الآجر والمحراث .

ومما لا شك فيه أنه يكمن وراء هذا الافتراض البديهى الذى افترضه أهل اللاهوت السومريون عن الآلهة استنتاج منطقى : هو انه ، لما كانوا لم يروا أيا من هذه الكائنات الشبيهة بالانسان بأعينهم ، فانهم اشتقوا صورتهم الأولى التى تصوروا بها تلك الكائنات من المجتمع البشرى كما عرفوه ، فاستدلوا من المعلوم على المجهول . لقد لاحظوا مثلا أن البلدان والمدن والقصور والمعابد والحقول والمزارع — وبوجه الاجمال جميع المؤسسات والأنظمة والمشروعات الممكن تصورها — انما يرعى شئونها ويشرف عليها كائنات حية من البشر لولاهم لأصبحت البلاد والمدن خرابا ، ولانهارت المعابد والقصور وتحولت الحقول

والمزارع الى صحارى وفياف بلاقع . فاتضح لهم ان جميع ما فى الكون وجميع ظواهره المتنوعة ينبغى أيضا أن يسيرها ويدبر شئونها كائنات على هيئة البشر . ولكن لما كان النظام الكونى أعظم جدا من جميع مواطن البشر كلها فينبغى أن تكون تلك الكائنات أقوى وأعظم قدرة من البشر العاديين . ويلزم قبل كل شيء أن يكونوا خالدين ، والا فان النظام الكونى يئول الى فوضى واضطراب عند موتهم فتكون نهاية العالم ، مما لم يشاهده الالهيون السومريون فلم يدر بخلدهم . وقد أطلق السومريون كلمة « دنجر » ، التى تترجم بكلمة اله ، على كل واحد من تلك الكائنات غير المرئية الشبيهة بالانسان ولكنها خالدة وفوق الانسان .

واذا ما تساءلنا كيف كانت هذه المجموعة من الآلهة تقوم بوظائفها فيكون الجواب على ذلك أولا انه كان يبدو معقولا فى رأى السومريين أن يفترضوا ان الآلهة المكونة منهم تلك المجموعة الالهية لم يكونوا متساوين فى الأهمية والمنزلة . فالاله الموكل بالفأس وقالب الآجر لا يمكن أن يضاهى بأى حال من الأحوال الاله الموكل بالشمس . كما لا يتوقع أن يكون الاله الموكل بشئون الجسور والجداول والخنادق مساويا فى المرتبة للاله الموكل بالأرض بكاملها . ثم بالقياس على التنظيم السياسى للدولة البشرية ، كان من الطبيعى أن يفترضوا أن رأس المجموعة الالهية انما هو اله اعترفت به الآلهة الأخرى بكونه ملكا وحاكما عليها . وعلى هذا تصور السومريون بأن المجموعة الالهية تقوم بوظائفها وتعمل على هيئة مجتمع أو « مجمع » يقوم على رأسه ملك . وان أهم أفراده مجموعة قوامها سبعة آلهة هم الذين « يقدرون المصائر » . ثم مجموعة مؤلفة من خمسين الها سموا « بالآلهة العظام » . ولكن أهم تقسيم

وضعه أهل اللاهوت السومريون للمجموعة الالهية هو التمييز بين صنف الآلهة « الخالقة » وبين الآلهة « غير الخالقة » ، وهو تصور وصلوا اليه نتيجة لآرائهم المتعلقة بنظام الكون وأصل الأشياء . فبموجب هـذه الآراء كانت العناصر الأساسية التى يتألف منها النظام الكونى هى السماء والأرض والبحر والجو . وان كل ظاهرة أخـرى من ظواهر الكون لا يمكن أن توجد الا ضمن أحد هذه العناصر الأساسية المؤلفة للكون . فكان من المعقول أن يستنتجوا أن الآلهة الأربعة المسيطرة على السماء والأرض والبحر والهواء ، كانت هى الآلهة الخالقة التى خلقت كل ظاهرة كونية بموجب خطط ونواميس وجدت ونشأت مع تلك الآلهـة الأربعة .

أما عن أساليب الخلق التى اتبعتها تلك الآلهة الخالقة فقد وضـع الفلاسفة السومريون مبدأ صار عقيدة سائدة فى جميع الشرق الأدنى — وهو مبدأ القوة الخالقة « للكلمة » الالهية . فبموجب هذا المبدأ كان كل ما ينبغى للاله الخالق أن يفعله هو أن يصمم الخطط ويقول «الكلمة» وينطق بالاسم (اسم الشىء المراد خلقه) . والمرجح أن تكون هـذه الفكرة الخاصة بالقوة الخالقة للكلمة الالهية استنتاجا قياسيا مأخوذا من مشاهدة المجتمع البشرى أيضا . فاذا استطاع مثلا الملك البشرى أن ينجز كل ما يريده تقريبا باصدار أوامره — أى لا شىء غير الكلمات الصادرة من فمه — فمن باب أولى يكون بمقدور الآلهـة الخالدة ، التى تسمو على البشر والموكلة بأجزاء الكون الأربعة الأساسية ، أن تنجز أعظم من ذلك . بيد أن هذا الحل السهل لتلك القضايا المتعلقة بأصل الوجود والأشياء ، حيث « الفكر » و « الكلمة » وحدهما أهم شىء ، انما هو صورة تعكس لنا ذلك الحافز البشرى فى تحقيق الأشياء بالركون

الى مجرد الرغبة فى التحقيق ، مما يميز جميع البشر تقريبا ابان الحاجة والشـــدائد .

وبطريقة مماثلة وصل أصحاب اللاهوت السومريون الى استنتاج ، كان يبدو لهم مقنعا مرضيا فى تعليل أمور ما وراء الطبيعة ، لتفسير ذلك السبب الذى يجعل الظواهر الكونية وظواهر الحضارة والعمران وهى تسير سيرها منــذ أن خلقت باستمرار وانسجام ، وبدون تضارب ولا اضطراب . وقد أطلقوا على ذلك السبب أو المبدأ الكلمة السومرية « مى » (me) التى لا يزال معناها المضبوط غير معروف ، ولكنها تعنى بوجه عام مجموعة من القواعد والنواميس المنظمة المخصصة لكل ظاهرة أو ماهية كونية وكل ظاهرة عمرانية ، من أجل أن تجعلها تسير وتعمل الى الأبد بمقتضى الخطط التى وضعها الآلهة الذين أوجدوا تلك الظواهر . وهنا نجد جوابا آخر وهو ، رغم كونه جوابا سطحيا ، الا أنه لا يخلو بالمرة من الاقناع فى حل قضية مستعصية من قضايا الخلق وأصل الأشياء ، وهو حل اقتصر على مجرد اخفاء المشكلات الأساسية تحت كلمات وتعابير أكثرها لا معنى لها .

ان الأدباء السومريين لم يجعلوا من تصوراتهم وآرائهم الفلسفية وعقائدهم الكونية واللاهوتية بابا من أبواب الأدب يمكن مضــاهاته بالرسالة أو المقالة المنظمة المنسقة . ولهذا يصبح الباحث المحدث مضطرا الى « التنقيب » عن هذه الآراء والعقائد فى جملة أساطير متنوعة مختلفة ، مما كشف عنه الى الآن اما بحال كاملة سالمة أو جزئية ناقصة . على أن هذا ليس بالأمر السهل اليسير ، لأنه ينبغى ألا نخلط بين مبتدعى الأساطير ومدونيها وبين أهــل ما وراء الطبيعة واللاهوتيين . فمن النــاحية السيكولوجية والمزاجية نجد كلا من هذين الصنفين على النقيض من

الآخر ، على الرغم من انه غالبا ما يندمج الصنفان فى الشخص الواحد نفسه .

فأهل الأساطير كانوا كتبة وشعراء شغلهم الشاغل تمجيد الآلهة وتعظيمهم والاشادة بأعمالهم ومآثرهم . وهم ، بخلاف الفلاسفة ، لم يهتموا باكتشاف الحقائق المتعلقة بأصل الأشياء والكون والالهيات . بل انهم سلموا بالمعتقدات والآراء الشائعة فى مجتمعهم ولم يشغلوا بالهم فى البحث عن أصلها ونشوئها . كان هدف صانعى الأساطير أن ينظموا قصيدة قصصية ترمى الى تفسير الآراء والمعتقدات والشعائر الدينية بطريقة جذابة وملهمة ، مسلية . انهم لم يهتموا بسوق الدلائل والحجج المقنعة للعقل والفهم ، بل كان همهم الأول أن يرووا قصة تؤثر فى العواطف . ولذلك فان عدتهم الأدبية الأساسية لم تكن المنطق والعقل ، بل الخيال والوهم . ولم يتحرج هؤلاء الشعراء عند سرد قصتهم من اختراع الحوافز والحوادث التى تدور على أفعال بشرية لا يمكن أن يكون لها أى أساس فى التفكير المتأمل المعقول . كما انهم لم يترددوا فى اتخاذ الأفكار المأخوذة من الأساطير والدوافع الشعبية التى لا صلة لها بالبحث والتحرى المعقول فى أصول الأشياء ولا الاستنتاجات المبينة على ذلك التحرى .

ان اغفال التمييز بين مؤلف الأسطورة السومرى وبين الفيلسوف قد شوش الأمر على بعض الباحثين فى التفكير الشرقى فى العصور القديمة ، ولا سيما أولئك المندفعين وراء تحقيق المطالب الرائجة الرامية الى « الانقاذ » دون العثور على « الحقيقة » ، فأدى بهم ذلك الى التقليل من قيمة أفكار القدماء والاعلاء من شأنها فى الوقت ذاته . فمن ناحية قالوا بأن القدماء كانوا غير قادرين من الوجهة العقلية على التفكير تفكيرا

منطقيا مفهوما فى القضايا الخاصة بأصل الوجود والأشياء . ومن الجهة الأخرى قالوا ان أولئك الأقدمين قد حبوا بنعمة عقل « صانع للأساطير » وفطرى لم يفسد فى قدرة فهمه وادراكه . فكان عقلا عميقا ملهما فى وسعه الغوص الى أعماق الحقائق الكونية فيخرج وهو أبعد نظرا وتصويرا من العقل الحديث بأسلوبه التحليلى العقلى . ولكن معظم هذه الآراء ليس الا من باب السخف والهذيان . اذ الواقع ان المفكر السومرى الكثير التأمل كانت له القدرة العقلية على أن يفكر تفكيرا منطقيا مترابطا ومفهوما فى أى قضايا فكرية ، بما فى ذلك قضايا أصل الكون ونظام سيره . ولكن العقبة التى كانت تقوم حجر عثرة فى سبيله هى انه كانت تعوزه الحقائق العلمية المتيسرة لديه . وزيادة على ذلك كان ينقصه أيضا الوسائل العقلية الأساسية كالتعريف والتعميم ؛ ثم انه لم يكن يدرك مطلقا عمليات النمو والتطور ، لأن مبدأ النشوء والتطور الذى هو من البديهيات الآن كان غير معروف لديه بالمرة .

والذى لا شك فيه انه ، فى يوم ما فى المستقبل ، ستبدو نقائص علماء عصرنا وفلاسفته ، والقيود التى تقيدهم واضحة جلية ، وذلك بعد تجمع المعلومات والحقائق الجديدة واكتشاف آلات ووسائل عقلية ووجهات نظر لم يحلموا بها . ولكن مع صحة هذه المقارنة يوجد فرق مهم بين المفكرين المحدثين والمفكرين السومريين ، ذلك هو أن المفكر الحديث مستعد للاقرار بأن معرفته واستنتاجاته ان هى الا نسبية وانه متشكك فى أى جواب أو حل مطلق . ولكن المفكر السومرى لم يكن كذلك . انه كان على يقين من ان آراءه كانت مطلقة الصحة ، وانه كان يعلم علم اليقين كيف خلق الكون وكيف يسير ويعمل .

فأية دلالة لدينا عن المعتقدات السومرية الخاصة بخلق الكون ؟ ان

مصدرنا المهم فى هذا الموضوع هو تلك المقدمة التى وردت فى قصيدة سومرية عنونتها تحت عنوان « جلجامش وانكيدو والعالم الآخر » ، وسيأتى ايجاز حوادث هذه القصيدة فى الفصل الواحد والعشرين . أما ما يجدر ذكره هنا فليس تلك القصيدة بكاملها وانما يعنينا منها مقدمتها . فقد اعتاد الشعراء السومريون أن يبدأوا أساطيرهم أو اشعار ملاحمهم بمقدمات عن أصل الكون والأشياء مما لا علاقة له علاقة مباشرة بالقطعة الأدبية بوجه عام . ان جزءا من مقدمة تلك القصيدة ، التى سبق أن عنوناها « جلجامش وانكيدو والعالم الآخـــر » ، يتألف من الأسطر الخمسة الآتية :

« بعد أن أبعدت السماء عن الأرض ،

« وبعد أن فصلت الأرض عن السماء ،

« وبعد أن عين اسم الانسان (خلق الانسان) ،

« وبعد أن أخذ السماء « آن » (اله السماء) ،

« وبعد أن أخذ الأرض « انليل » (اله الهواء) .

وعند اعداد ترجمة هـــذه الأسطر حللتها فاستنتجت انها تتضمن التصورات الآتية عن خالق الكون :

١ — فى زمن ما كانت السماء والأرض متحدتين .

٢ — كان بعض الآلهة موجودا قبل انفصال السماء من الأرض .

٣ — وبعد انفصال السماء عن الأرض كان الاله « آن » (اله السماء) هو الذى أخذ السماء والاله « أنليل » هو الذى أخذ الأرض .

ولكن هناك أمورا خطيرة لم تذكر ضمنا ولم يشر اليها فى تلك العبارة ، وهى القضايا الآتية :

١ — هل تصوروا السماء والأرض بأنهما خلقتا ، واذا كان الأمر كذلك فمن خلقهما ؟

٢ — ماذا كانت هيئة السماء والأرض كما تصورها السومريون ؟

٣ — من فصل السماء عن الأرض ؟

لقد تحريت ونقبت بين النصوص السومرية التى فى متناول أيدينا فعثرت على أجوبة تلك الأسئلة الثلاثة على الوجه الآتى :

١ — فى لوح يعدد الآلهــة السـومرية وصفت الالهــة المسماة « نَمّو » ، التى يكتب اسمها بالعلامة الصورية التى تعبر عن كلمــة « البحر الأول » ، بأنها « الأم التى ولدت السماء والأرض » وبموجب ذلك تصور السومريون السماء والأرض على انهما من خلق « البحر الأول » .

٢ — ان الأسطورة المعنونة « الماشية والغلة » ، التى تصف الالهين الموكلين بالماشية والغلة اللذين أرسلا من السماء ليحلا البركة والرفاهية بين البشر (أنظر الفصل الثالث عشر) ، تبدأ بالسطرين الآتيين :

« فى جبل السماء والأرض ،

« ولد الاله « آن » (اله السماء) آلهة « الانوناكى » [1] .

٣ — توجد قصيدة تصف خلق « الفأس » و « تدشين » تلك الآلة الزراعية الثمينة جاء فى مقدمتها النص الآتى :

« ان الرب من أجل أن يحدث كل شىء نافع ،

« الرب الذى لا تبدل ارادته ،

(١) اسم عام او اسم جنس يطلق على جميع الالهة وبوجه خاص آلهة السماء ، ولكن سبعة آلهة منهم صاروا قضاة فى العالم الأسفل . (المترجم)

« أنليل الذى أخرج بذور « البلاد » من الأرض ،
« أراد أن يبعد السماء عن الأرض ،
« وأراد أن يبعد الأرض عن السماء .. » .

واذا رجعنا الى السطر الأول من أسطورة « الماشية والغلة » فانا نرى انه ليس بعيدا عن المعقول أن نفترض أن القوم قد تصوروا الأرض والسماء المتحدتين على هيئة « جبل » قاعدته قعر الأرض وقمته أعلى السماء . وتجيبنا القصيدة الخاصـــة بخلق « الفأس » عن السؤال الخاص بمن فصل السماء عن الأرض . فان الذى فصلها بموجب تلك القصيدة هو الاله « أنليل » .

وبعد أن أدتنى تحرياتى فى النصوص الأدبية المتيسرة الى هـــذه الاستنتاجات صار بامكانى أن ألخص المعتقدات والتصورات التى كونها السومريون لأنفسهم عن الخلق وأصل الأشياء . فقد فسرت معتقداتهم أصل الكون على الوجه الآتى :

١ — فى البدء كان « البحر الأول » ، ولكن لم يذكر أى شيء عن أصله أو مولده وليس من المستبعد إن السومريين قد تصوروه على انه وجد منذ الأزل .

٢ — ان هذا « البحر الأول » ولد « الجبل الكونى » المؤلف من السماء والأرض متحدتين .

٣ — وبمقتضى تصورهم للآلهة على هيئة البشر ، كان الاله « آن » (أى السماء) مذكرا ، والالهة « كى » (أى الأرض) كانت الأنثى ، ومن اتحاد هذين الالهين ولد الاله الهواء « أنليل » .

٤ — فصل الاله الهواء « أنليل » السماء عن الأرض . واذ كان أبوه الاله «آن» قد اختص بالسماء . فان « أنليل » أخذ أمه الأرض . وهيأ اتحاد « أنليل » بأمه الأرض المسرح لتنظيم الكون — أى خلق الانسان والحيوان والنبات وتأسيس المدنية .

أما عن أصل الأجرام النيرة وطبيعتها — كالقمر والشمس والكواكب والنجوم — فلا يوجد تفسير مباشر . ولكن يؤخذ من المعتقدات السومرية ، منذ أقدم الأزمان التى ترقى اليها مصادرنا المدونة ، انهم اعتبروا الاله القمر المعروف بالاسمين « سين » و « نَنّا » ابن الاله الهواء «أنليل » . وتسوغ لنا هذه الحقيقة أن نستنتج استنتاجا لا يبعد عن الصواب ، انهم تصوروا القمر ، وهو الجرم المشرق الشبيه بالهواء ، قد تكون بطريقة ما من الجو . وبما ان الاله الشمس المسمى « أوتو » ، والالهة الزهرة « انانا » يشار اليهما فى النصوص على الدوام بكونهما ولدى الاله القمر ، فيحتمل انهم تصوروا هذين الجرمين النيرين بأنهما خلقا أيضا من القمر بعد أن صنع هذا الجرم بدوره من الجو . ويصدق هذا أيضا على بقية الكواكب والنجوم التى توصف وصفا شعريا بأنها « الكبار الذين يسيرون حول القمر كالثيران الوحشية » و « الصغار المنتشرون حول القمر كالحبوب » .

وعن ولادة الاله القمر « سين » جاءتنا أسطورة طريفة وذات طبيعة بشرية ، وقد وضعت على ما يبدو لتفسير ولادة الاله القمر وولادة ثلاثة من الآلهة حكم عليهم أن يقضوا حياتهم فى العالم الآخر (الأسفل) بدلا من السماء الشرقية ، حيث يعيش الآلهة الأسعد حظا . ولقد نشرت المحاولة الأولى التى قمت بها فى جمع وترجمة هذه الأسطورة فى كتابى

المسمى « الميثولوجيا الســومرية » (عام ١٩٤٤) [1] ولكن جاء فى تفسير حوادث الأسطورة جملة أخطاء خطيرة كان بعضها نتيجة للاغفال والبعض الآخر نتيجة للتورط فى الرأى . بيد ان النقائص والأخطاء صوبها ووضحها « ثوركلد ياكوبسن » فى نقده القيم الموجه لكتابى ذاك ، ذلك النقد الذى نشره فى عام ١٩٤٦ فى المجلد الخامس من « مجلة دراسات الشرق الأدنى » [2] . أضف الى ذلك انه فى عام ١٩٥٢ كانت بعثــة التنقيبات الآثارية فى « نفر » ، المشتركة بين المعهد الشرقى (لجامعة شيكاغو) وبين متحف جامعة بنسلفانيا ، اهتدت الى العثور على لوح محفوظ حفظا جيدا أمكن به ملء بعض المواطن الناقصة من القسم الأول من القصيدة ، الأمر الذى وضحها توضيحا كبيرا . أما فكرة الأسطورة وملخص حوادثها حسب الاقتراحات التى أوردها « ياكوبسن » وعلى ضوء محتويات القطعة المكتشفة حديثا فى نفر يمكننا أن نوجزها على الوجه الآتى :

« فى الوقت الذى لم يكن فيه الانسان قد خلق بعد ، ويوم كانت مدينة « نفر » مأهولة بالآلهة فقط ، كان فتاها (أى فتى نفر) هو الاله « أنليل » ، وكانت عذراؤها هى الالهة «ننليل» . والمرأة العجوز فيها هى أم « ننليل » المسماة « ننبارشيجونو » (Nunbarshegunu) وبعد أن اعتزمت هذه الالهة العجوز تزويج ابنتها « ننليل » من « أنليل » أوصت ابنتها ذات يوم وأرشدتها على الوجه الآتى :

« فى المجرى الصافى أيتها المرأة ، اغتسلى فى المجرى الصافى ،

« تمشى يا « ننليل » على شاطىء نهر الـ « نِـنْـبِـردو » ،

(١) S. N. Kramer, Sumerian Mythology (1944)

(٢) Journal of Near Eastern Studies, v (1946).

« فان ذا العينين المشرقتين ، ان السيد ذا العينين النيرتين ،
« الجبل العظيم » ، الأب « أنليل » ذا العينين الجميلتين سيراك ،
« أن الراعي ... الذي يقدر المصائر ، ذا العينين الجميلتين سيراك ،
« وسيعانقك (؟) ويقبلك » .

* * *

فاتبعت « ننليل » نصائح أمها مغتبطة مسرورة :
« في المجرى الصافي ، اغتسلت المرأة في المجرى الصافي ،
« ننليل تمشت على شاطىء نهر الـ « ننبردو » ،
« ذو العينين الجميلتين ، السيد ذو العينين المشرقتين ،
« الجبل العظيم » ، الأب « أنليل » ، ذو العينين الجميلتين رآها ،
« الراعي ... الذي يقدر المصائر ، ذو العينين الجميلتين أبصرها ،
« كلمها السيد من أجل الاتصال بها (؟) ولكنها لم تكن راغبة ،
« أنليل كلمها وأراد الاتصال بها (؟) ولكنها صدت عنه :
« ان مهبلي صغير لا يعرف الجماع ،
« وشفتي صغيرتان لا تعرفان التقبيل » .

* * *

وعند ذاك يدعو « أنليل » وزيره المسمى « نسكو » ، ويطلعه على شوقه وهيامه بـ « ننليل » ، فيهيء « نسكو » قاربا ويغتصب «أنليل» الالهة « ننليل » في أثناء سير القارب في النهر فتحمل هذه الالهة بالاله القمر « سين » . وعندها فزع الآلهة وغضبوا لتلك الفعلة المنافية للأخلاق فمسكوا بالاله « أنليل » ونفوه من المدينة الى العالم الأسفل على الرغم من انه كان ملك الآلهة .

* * *

وها هو ذا نص بعض فقرات فى القصيدة وهى التى تلقى بعض الضوء على كيفية تنظيم مجموعة الآلهة وطريقة عملها ، نورد ترجمته :

« كان « أنليل » يتمشى فى « كى — أور » (وهو معبد ننليل الخاص بها) ،

« وبينما كان « أنليل » يتمشى فى « كى — أور » ،

« (عمد) الآلهة العظام بمجموعتهم الخمسين ،

« والآلهة الذين بيدهم تقدير المصائر ، سبعتهم ،

« أن قبضوا على « أنليل » فى الـ « كى — أور » (وقالوا له) :

« يا « أنليل » ! أيها الفاسق ، اخرج من المدينة ،

« أخرج يا « نونامنير » [1] ، يا أيها الخليع ، من المدينة »

وهكذا يضطر « أنليل » ، وهو منصاع الى المصير الذى أراده له الآلهة ، الى الرحيل الى الجحيم السومرى . ولكن « ننليل » ، وهى حبلى ، لم تشأ أن تظل وحدها من بعد ارتحال « أنليل » فتبعته وهو فى طريقه الى منفاه القسرى فى العالم الأسفل . ولكن قرارها هذا أحزن « أنليل » لأن معنى ذلك ان ابنه « سين » الذى ستلده ، والذى قدر له أن يكون موكلا بأعظم جرم سماوى نير وهو القمر ، سيسكن فى العالم الأسفل المظلم الكئيب بدلا من اتخاذ مسكنه فى السماء . ولكى يمنع وقوع ذلك دبر خطة يضلل بها « ننليل » . ففى طريق ارتحاله من مدينة « نفر » الى العالم الأسفل (الجحيم Hades) نجده يلتقى بثلاثة أشخاص يرجح أن يكونوا من الآلهة الصغار ، وهم البواب الموكل بمداخل العالم الأسفل ، والموكل بنهر العالم الأسفل ، وصاحب « المعبر »

(1) « نونامنر » (Nunamnir) من ألقاب الاله « انليل » .

(وهو المماثل لكارون charon) عند اليونان ، الذى ينقل الموتى بقاربه الى العالم الأسفل) فماذا فعل أنليل ؟ انه يتخذ هيئة كل من هؤلاء الثلاثة بالتتالى (أى يتقمص أشكالهم وهذا أول مثال معروف عن التحول) ويتصل بالالهة « ننليل » فتحمل منه بثلاثة من آلهة العالم الأسفل وصارت هذه الآلهة بدلا من أخيها الكبير الاله « سين » ، الذى يصبح نتيجة لذلك حرا ويصعد الى السماء .

ونقدم فيما يأتى العبارات المهمة الخاصة بالموضوع (على أنه ينبغى لنا أن نؤكد بهذا الصدد ان المعنى الحقيقى المؤكد لجملة أسطر منها لا يزال غير واضح ، ومن الجائز أن مغزى هذا الجزء من الأسطورة سيحور فى آخر الأمر) :

« أنليل ، بناء على ما قدر عليه ،
« نونامِنر » بموجب ما قدر عليه .
« أتى أنليل وتبعته « ننليل » على الأثر ،
« جاء نونامنر » ودخلت فى أثره « ننليل » ،
« قال أنليل للحارس الموكل بالباب :
« يا أيها الحارس ، يا صاحب القفل ،
« يا صاحب « المزلاج » يا صاحب « قفل الفضة » ،
« لقد جاءت مليكتك ،
« فاذا سألت عنى فلا تدلها أين أنا ،
« قالت « ننليل » لحارس الباب :
« يا حارس الباب يا صاحب « القفل » ،
« يا صاحب المزلاج ، يا صاحب « قفل الفضة » ،
« أين سيدك « أنليل » ... ؟

« فأجاب « أنليل » عن حارس الباب (وهو متقمص هيئة حارس الباب) :

« ان سيدى لم ... يا أجمل (؟)

« ان أنليل لم ... يا أجمل (؟)

« انه .. فى استى ... فى فمى

« انه قلبى الصادق البعيد ...

« هكذا أمرنى « أنليل ، سيد جميع البلدان » .

« حقا ان « أنليل » هو سيدك ولكننى أنا سيدتك أيضا » ،

« اذا كنت سيدتى حقا فدعى يدى تلمس وجنتك (؟) » ،

« ان نطفة « سين » ، الذرية الزاهرة فى رحمى » ،

« ان بذرة « سين » ، الذرية الزاهرة فى رحمى » ،

« فدعى اذن ذرية سيدى تصعد الى السماء فى الأعلى ،

« ولتذهب ذريتى الى الأرض السفلى ،

« لتذهب ذريتى بدلا من ذرية سيدى الى الأرض التى فى أسفل ،

« فاضطجع معها أنليل فى الفراش (وهو متقمص) شخصية حارس الباب .

« فجامعها وقبلها .

« وبعد أن جامعها وقبلها

« زرع فى رحمها بذرة « ميلامتايا » (١) .

* * *

ثم يتجه انليل ويقصد « نهر العالم الأسفل » (وهو يقابل « ستايكس Styx » عند اليونان) فتبعته « ننليل » وجرت هناك نفس المحاورة بين « انليل » والرجل الموكل بنهر العالم الأسفل وبين

(١) Melamtaea هو لقب الاله « نرجال » ، اله العالم الأسفل. (المترجم)

« ننليل » . وهنا يتقمص انليل شخص الموكل بنهر العالم الأسفل فيتصل بـ « ننليل » ويودع فيها جنين اله آخر من آلهة العالم الأسفل عرف باسم « ننازو » . ومن ثم يذهب « انليل » وتتبعه « ننليل » الى حيث « كارون » « السومرى » (أى ملاح العالم الأسفل) فيتكرر المشهد مرة ثالثة حيث يتقمص انليل شخص صاحب المعبر ويجعل « ننليل » تحمل ببذرة اله ثالث (اسمه مكسور فى النص ولكن لا يشك فى انه كان أحد الآلهة ممن حكم عليهم بسكنى العالم الأسفل) . وتنتهى الأسطورة بأغنية موجزة فى تمجيد « أنليل » بصفته اله الخير العميم والرخاء والازدهار ، وهو الذى لا ترد كلمته وأمره .

هذه الأسطورة تصور لنا تصويرا جليا الصفة البشرية أو صفة التشبيه التى صورت بها الآلهة السومرية . فقد كان حتى أقوى الآلهة وأعلمها وأحكمها يعد بشرا فى هيئته وأفكاره وأعماله . وكان الآلهة كالبشر يريدون ويدبرون ويعملون ويأكلون ويشربون ويتزاوجون ويؤسسون الأسر ويعولون الأسر الكثيرة العدد ، وكانوا يحسون بالأحاسيس والعواطف البشرية وفيهم أيضا صفات الضعف البشرى . وبالرغم من أنهم كانوا يفضلون الصدق والعدل على الكذب والظلم ، الا أن البواعث التى تسيرهم فى أعمالهم لم تكن واضحة للبشر على الدوام ، وكثيرا ما تاه ادراك الانسان فى فهمها . كان الناس يعتقدون فى أولئك الآلهة انهم يعيشون فوق « جبل السماء والأرض ، الموضع الذى تشرق الشمس منه » . انهم كانوا على الأقل يسكنون فى ذلك الموضع ، فى تلك الأوقات التى لا يستلزم وجودهم فى الأجزاء الكونية الأخرى الموكل بها كل واحد منهم . أما كيف كان الآلهة يسيرون من موضع الى موضع فلا يعلم أحد ذلك بوجه التأكيد . ولكن فى وسعنا أن نستنتج من المعلومات

المتيسرة لدينا أن اله القمر كان يسافر فى « قارب » ، واله الشمس فى « عربة » ، أو على قدميه فى رواية أخرى ، واله الزوابع يسير فوق « السحاب » . ولكن يبدو أن المفكرين السومريين لم يقلقوا أنفسهم كثيرا فى مثل هذه المسائل العملية ، ولذلك نراهم أغفلوا أن يخبرونا كيف كان الآلهة يصلون الى معابدهم ومزاراتهم المختلفة فى بلاد سومر ، ولا كيف كانوا تؤدون أفعالهم الآدمية الأخرى كالأكل والشرب . والمفترض أن الكهنة لم يروا سوى تماثيل الآلهة التى كانوا يعتنون بشئونها أكبر العناية ، أما كيف كانوا يتصورون مثل تلك الأشياء المصنوعة من الخشب والحجر والمعدن وكأن لها العظام والعضلات ونفس الحياة ، فتلك مسألة لم تدر بخلد المفكرين السومريين ، كما لا يبدو انهم اكترثوا للتناقض الجوهرى بين صفة الخلود وبين صفة التشبيه . فانهم على الرغم من اعتقادهم بخلود الآلهة الا انهم كانوا مع ذلك يرون ضرورة حصولهم على الغذاء ومقومات الحياة المادية الأخرى ، وكانوا معرضين للمرض والاشراف على الموت ، كما انهم كانوا يخوضون الحروب فيصيبون ويقتلون ، وكانوا أنفسهم يصابون ويقتلون .

ومما لا مراء فيه أن الحكماء والمفكرين السومريين وضعوا جملة آراء لاهوتية فى محاولتهم العقيمة للتوفيق بين تلك المفارقات والمتناقضات الملازمة لطبيعة الديانة المتعددة الآلهة. ولكن يؤخذ من الحقائق المتيسرة لدينا أن أولئك المفكرين لم يدونوا تلك الآراء بوجه منتظم . وعلى ذلك فلن يكون فى وسعنا أن نعرف الشىء الكثير عنها . ومهما كان الحال فلا يحتمل انهم وفقوا الى حل كثير من تلك المتناقضات . ولكن لا مراء فى أن الذى خلصهم وأنقذهم من الخيبة الروحية والعقلية هو أن كثيرا من المسائل ، التى نحسبها بمقتضى أساليب تفكيرنا قد أقلقت عقولهم ، لم تدر بخلدهم أبدا .

لقد كان للسومريين من أهل الألف الثالث ق . م . مئات من الآلهة ، كان البعض منها مجرد أسماء . ونحن نعرف أسماء الكثيرين من أولئك الآلهة ، ليس من الجداول (الأثبات) التى كانوا يملونها فى مدارسهم وحسب بل هناك أيضا أثبات القرابين المدونة فى ألواح الطين التى كشف عنها فى غضون القرن الماضى ، كما نعرف أسماء آلهة أخرى من تلك الآلهة التى تدخل فى تركيب أسماء أعلام الأشخاص . اذ نجد أسماء مثل : « الاله الفلانى راع » و « الاله كذا ذو قلب كبير » و « من مثل الاله الفلانى » و «عبد الاله الفلانى » و « رجل الاله كذا » و « محبوب الاله الفلانى » و « الاله الفلانى أعطانى » .. الخ . وان كثيرا من هذه الآلهة هى من طبقات الآلهة الصغرى . فهى مثلا اما أن تكون أزواجا أو أبناء أو خدما للآلهة الكبيرة ، على مقتضى ما هو معروف بين البشر . ويحتمل أن يكون بعضها أسماء أخرى أو صفات وكنى لآلهة مشهورة ولكن لم تتمكن من التعرف على أصحابها حتى الآن . على ان عددا كبيرا من الآلهة كان فى الواقع يعبد خلال العام كله ، يقدمون لهم القرابين والصلوات ، والعبادة ، ولكن كان أعظم وأهم الآلهة من بين هذه المئات أربعة كانوا على رأس مجموعة الآلهة وهؤلاء هم اله السماء المسمى « آن » واله الهواء « انليل » واله الماء « أنكى » والالهة — الأم العظمى « ننخرساج » . ويذكر هؤلاء الآلهة فى أول الأثبات الخاصة بالآلهة ، حيث غالبا ما يأتى ذكرهم بهيئة مجموعة تعمل معا أعمالا خطيرة وكان لها مكان الصدارة فى مجالس الآلهة المقدسة وعلى موائدها .

وهناك من الأسباب الوجيهة ما يحملنا على الاعتقاد بأن الاله « آن » اله السماء ، كان يعتبره السومريون الحاكم الأعلى فى مجموعة الآلهة على الرغم من أن اله الهواء « أنليل » هو الذى يترأس تلك المجموعة ،

على ما يؤخذ من المصادر المتيسرة التى يرجع تاريخها الى حدود ٢٥٠٠ ق . م . وكانت دولة المدينة التى اتخذ فيها الاله « آن » موطنه الرئيسى تدعى باسم « أوروك » أو « ارك » وهى الصيغة التى وردت بها فى التوراة [١] وقد كان لهذه المدينة دور سياسى بارز فى تاريخ بلاد سومر (وقد عثرت فى خرائب ارك (الوركاء) بعثة التنقيبات الألمانية قبيل الحرب العالمية الثانية على مئات من ألواح الطين الصغيرة ، وهى منقوشة بعلامات شبيهة بالصور وترقى فى تأريخها الى حدود ٣٠٠٠ ق . م . أى الى زمن لا يبعد كثيرا عن عهد اختراع طريقة الكتابة لأول مرة) . واستمرت عبادة الاله « آن » فى بلاد سومر طوال ألوف السنين ، الا انه فقد الشىء الكثير من مكانته البارزة ، فقد صار مجرد صورة مبهمة فى مجموعة الآلهة ، وأصبح من النادر أن يذكر فى ترانيل الأزمان المتأخرة وفى أساطيرها حيث ان معظم سلطاته انتقلت الى الاله « أنليل » .

ولكن اله الهواء المسمى « أنليل » كان أهم اله فى مجموعة الآلهة السومرية حيث كان له الدور البارز السائد فى جميع الشعائر والأساطير والصلوات . أما الأسباب التى جعلته على رأس مجموعة الآلهة السومرية فغير معروفة . ولكن أنليل كنى فى أقدم السجلات المدونة ، بكنية « أبى الآلهة » ، ولقب بلقب « ملك السماء والأرض » وبلقب « ملك جميع البلدان » . وكان الملوك والحكام يتباهون ويفخرون بأن الاله « أنليل » هو الذى منحهم « ملوكية البلاد » وجعل البلاد مزدهرة من أجلهم وهو الذى أعطاهم جميع البلدان وقدر لهم أن يفتحوها بقوتهم ، وكان الاله « أنليل » هو الذى يعلن اسم الملك ويعطيه « صولجانه » وينظر اليه بعين الرضا .

---

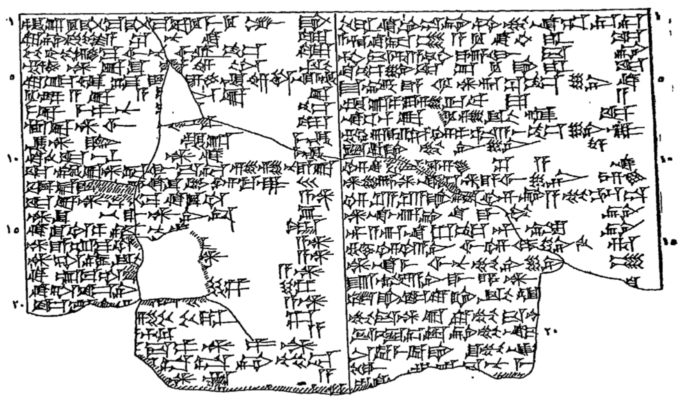
(١) وتعرف الآن باسم الوركاء وهكذا جاءت فى بعض المصادر العربية (وقد تكتب الورقاء) . (المترجم)

ونعرف من الأساطير والتراتيل المتأخرة فى أزمانها أن « أنليل » كان يعد الها محسنا رحيما ويعزى اليه تدبير وخلق أهم العناصر المنتجة فى الكون . فكان هو الاله الذى يخرج النهار ، وهو الذى يحبو البشر بشفقته وعطفه ، وهو الذى أخرج جميع البذور والنباتات والأشجار من الأرض . وكان هو الذى يحمل الخير والبركة الى البلاد ، وانه صنع المحراث والفأس لتكون نمـاذج أولى للآلات الزراعيـة التى ينبغى للانسان استعمالها .

لقد أسهبت القول فى تأكيد صفة الخير والاحسان فى طبيعة الاله « أنليل » لأصحح وهما تسرب الى جميع الكتب الموجزة ودوائر المعارف عند معالجتها للديانة والحضارة السومرية — وأعنى بذلك الوهم وصف « أنليل » بكونه اله العواصف الشديدة المدمرة ، الذى لم تجلب أوامره وأفعاله سوى الشر تقريبا . وكما يحدث كثيرا ، فان الجزء الأكبر من سوء الفهم راجع الى الاكتشافات الأثرية . فيوجد بين أقدم التصانيف السومرية المنشورة عدد كبير من القطع الأدبية التى نطلق عليها اسم « المراثى » ونرى فيها الاله « أنليل » يقوم بذلك العمل البغيض وهو القيام بأحداث الدمار وتنفيذ الكوارث والبلايا التى كانت تأمر بها الآلهـة لسبب من الأسباب . وهذا هو السبب فى وصم « أنليل » بأنه اله شرس مدمر فى كتابات الباحثين القدماء فى الشئون السومرية وحتى من جانب المحدثين منهم . ولكن الحقيقة هى اننا لو حللنا التراتيل والأساطير ، ولا سيما ما نشر منها منذ عام ١٩٣٠ ، لألفينا الاله « أنليل » وقد مجدوه بصفته الها رحيما ، يتحلى بالحنو الأبوى ، ويعنى بسلامة جميع البشر وخيرهم ، ولا سيما أهل « بلاد سومر » .

ان أهم ترتيلة من التراتيل الخاصة بالاله « أنليل » ترتيلة جمعت

فى عام ١٩٥٣ من بين عدد من الألواح وكسر الألواح . وعندما كنت أشتغل فى متحف الشرق القديم فى استانبول عام ١٩٥١/١٩٥٢ أسعدنى الحظ بالعثور على النصف الأسفل من لوح مؤلف من أربعة حقول من الكتابة، نصفه الأعلى موجود فى متحف الجامعة فى فيلادلفيا وقد تم نشره منذ زمن طويل فى عام ١٩١٩ على يد الباحث فى المسماريات المرحوم « ستيفن لنجدون » . وفى عام ١٩٥٢ وفقت بعثة التنقيبات الآثارية فى « نفر » ، تلك البعثة المشتركة بين المعهد الشرقى وبين متحف الجامعة ، الى العثور



شكل ٤١ ــ « ترتيلة الى الاله « انليل » : النصف الأسفل من لوح ذى أربعة حقول من الكتابة وجد فى « نفر » ومحفوظ الآن فى متحف الشرق باستانبول .

على كسرة أخرى كبيرة من تلك « الترتيلة » . ولكن النص لا يزال غير كامل وترجمته صعبة . انه يبدأ بنشيد نصر فى تمجيد الاله « أنليل »

نفسه ولا سيما بصفته الاله الذى يعاقب الأشرار . ثم تمجيد معبده العظيم فى مدينة « نفر » المعروف باسم « ايكور » (أى البيت الجلبى) . وتنتهى بموجز شعرى لذلك الدين الذى تدين به المدينة له . وندرج فيما يأتى بعض المواطن الواضحة من تلك الترتيلة المؤلفة من (١٧٠) سطرا :

« أنليل » ذو الأمر الواسع المدى الذى « كلمته » مقدسة ،
« الرب الذى لا يبدل « كلامه » ، الذى يقدر المصائر الى الأبد .
« الذى تبصر عيناه المتفرستان جميع الأقاليم ،
« الذى يتغلغل نوره المتعالى فى دخائل (قلب) جميع البلدان ،
« أنليل » الذى يجلس مالئا « المنصة » البيضاء ، الذى يتبوأ المنصة السامية ،
« الذى يحكم ارادات القوة والسيادة والامارة ،
« آلهة الأرض تسجد له خشية ورهبة ،
« وتتذلل آلهة السماء أمامه .
« مدينة « نفر » ذات مظهر يبعث الخوف والرعب ..
« والضالون والأشرار والظالمون .... والنمامون ،
« والمتجبرون والناكثون للعهد ، كل أولئك لا يقر شرهم فى المدينة ،
« والشبكة العظمى .... لايدع الأشرار والظالمين يفلتون من شراكها ،

. . . . . .

« نفر — هى المزار حيث يسكن « الأب » ، « الجبل العظيم » ،
« منصة البركة والخير فى معبد « ايكور » ، الذى يعلو ... ،
« الطود الشامخ ، الموضع المطهر ،

« أميره « الجبل العظيم » ، الأب « أنليل » ،
« قد أقام مجلسه على منصة « ايكور » ، المزار السامى ،
« المعبد الذى لا ترد ولا تبدل نواميسه المقدسة مثل السماء ،
« شعائره ومناسكه المطهرة مثل الأرض لا يمكن محوها ،
« ان نواميسه المقدسة كنواميس « العمق » [1] ، ما من أحد يستطيع ادراكها ،
« وقلبه (قلب المعبد) كالمزار القاصى ، وسر خفى كسمت السماء ...
« كلماته (أى كلمات المعبد) صلوات ،
« مناسكه ثمينة غالية ،
« أعياده يجرى فيها السمن واللبن ، وهى غنية بالخير العميم ،
« مخازنه تجلب السعادة والأفراح ،
« بيت « أنليل » ، انه جبل الخير العميم ...

« الـ « ايكور » بيت حجر اللازورد ، المسكن السامى ، الذى يبعث الرعب فى القلوب ،
« ان رهبته وخشيته لتضاهيان السماء ،
« وظله منتشر على جميع الأقاليم ،
« وتساميه يبلغ قلب السماء ،
« الأسياد والأمراء كلهم يأخذون الى هناك الهدايا والقرابين المقدسة ،
« ويقيمون الصلاة هناك ، ويتلون الدعوات والتضرعات .

« يا أنليل ! ان الراعى الذى شملته بعين رضاك ،

---

(1) أى مياه العمق المقدسة (المترجم)

« ودعوته ورفعت شأنه ومقامه فى البلاد ...
« هو الذى يقهر البلاد الأجنبية ويطرحها أرضا متى أزمع القتال ،
« فيجلب القرابين من كل موضع ، والأضاحى ،
« والقرابين من الغنائم الكثيرة ،
« وفى المخزن (مخزن المعبد) ،
« وفى الأبهاء المرتفعة يأتى بقرابينه .
« أنليل » ، الراعى الجليل ، الدائم الحركة .
« هو الراعى القائد لكل حى (الملك) ،
« لقد أوجد امارته ، ووضع التاج المقدس على رأسه .

« فى السماء هو أميرها الأول ، وفى الأرض هو عظيمها وكبيرها .
« وبين « الأنوناكى » (1) هو ربها العظيم ،
« وعندما يقدر المصائر وهو فى جلاله ورهبته ،
« فلا يجرؤ اله على أن ينظر اليه .
« بل الى وزيره المبجل فقط ، الى حاجبه « نسكو » ،
« يبلغ أمره ويعلن كلمة قلبه ،
« يكشف عنها ويبلغها ،
« حيث ينيط به تنفيذ أوامره الشاملة لكل شىء ،
انه يأتمنه على جميع الأوامر المقدسة ، وجميع النواميس المقدسة ،

« ولولا « أنليل » ، الجبل العظيم ،
« لما بنيت المدن ولا أقيمت المواطن ،

(1) مجموعة آلهة السماء (المترجم)

« ولما شيدت الزرائب والحظائر ،

« ولما أقيم ملك ، ولا ولد كاهن أعظم ،

« ولما اختير كاهن الـ « ماخ » ، ولا الكاهنة العليا لفأل الغنم [1] ،

« ولغدا العمال وليس عليهم رئيس ولا مشرف ..

« والأنهار ، لولاه ما جلبت مياهها الفيض والارواء ،

« ولولاه ما وضع السمك بيضه في الأهوار (أدغال القصب) ،

« ولما بنت أطيار السماء أعشاشها في الأرض الواسعة ،

« وفى السماء ، لولاه ما جادت بمائها السحب السائرة ،

« ولولاه ما نمت النباتات والأعشاب ، التى يزهو بها السهل .

« وفى الحقل والمرعى ما ازدهرت الغلة الخصبة ،

« ولما أنتجت الأشجار النابتة فى غابة الجبل أثمارها .....

* * *

أما الاله الثالث من تلك الآلهة التى تقوم على رأس مجموعة الآلهة السومرية فهو الاله « انكى » الموكل « بالعمق » أو « مياه العمق » التى تسمى فى السومرية « آبزو » . وكان « انكى » اله الحكمة ، واليه عزى أكثر من أى اله آخر تنظيم الأرض حسب قرارات « أنليل » ، الذى كان يضع الخطط العامة ، أما التفاصيل العملية وتنفيذها فقد ترك ذلك الى الاله « انكى » المدبر الحكيم ، والمجد الماهر . فمثلا نقرأ فى احدى الأساطير ، التى يمكننا أن نعنونها بعنوان « انكى ونظام العالم : تنظيم

---

(1) نوع من العرافة ، أغلب الظن انه الفأل المبنى على فحص كبد الضأن .
(المترجم)

الأرض ومقومات حضارتها » ، وصفا ممتعا لأفعال الاله « انكى » الخالقة فى تنظيم الظواهر الطبيعية والثقافية اللازمة للعمران والحضارة . ان هــذه الأسطورة ، التى أوجزت نصها لأول مرة فى كتابى الموسوم الميثولوجيا السومرية (Sumerian Mythology, p. 95 - 62) يمكن أن تفيدنا أيضا كتوضيح جلى لتلك الآراء السومرية السطحية عن الطبيعة وخفايا أسرارها . اذ لا نجد لهم أية محاولة لتقضى أصول الأشــياء الأساسية ، سواء أكان ذلك بالنسبة الى العناصر الطبيعية أم الحضارية . بل انهم بدلا من ذلك عزوه الى أفعال الاله « انكى » الخالقة ، معبرين عن ذلك بتعابير تقرب من القول « ان انكى هو الذى صنعها » . واذا ما ذكروا طريقة الخلق على الاطلاق فان قوامها « كلمة » الاله و « أمره » ولا أكثر من ذلك .

ان المائة سطر الأولى من هذه القصيدة التى قدمنا ذكرها بعنوان « انكى ونظام العالم » فى حالة غير كاملة بحيث لا نستطيع استعادة محتوياتها . وعندما يصبح نص القصيدة مفهوما من بعد ذلك نجد الاله « انكى » يقدر مصير بلاد سومر على الوجه الآتى :

« يا « سومر » يا أيها البلد العظيم بين جميع بلدان العالم ،

« أنت مغمور بالنور الثابت الراسخ ، الذى ينشر من مطلع الشمس الى مغرب الشمس النواميس الالهية بين جميع الناس .

« ان نواميسك المقدسة نواميس سامية لا يمكن ادراكها ،

« قلبك عميق لا يسبر غوره ،

« المعرفة الصحيحة التى تأتى بها ... كالسماء لا يمكن أن تمس .

« والملك الذى تلده متوج بالتاج الأبدى ،

« والسيد الذى تنجبه يضع التاج على رأسه الى الأبد .

« سيدك سيد مبجل ، وملكك يجلس مع الاله « آن » على المنصة السماوية ،

« ان ملكك هو الجبل العظيم ، هو الأب « أنليل » .... ،

« والأنوناكى » الآلهة العظام ،

« اتخذوا مواطنهم فى وسطك ،

« وفى أحراشك الكبيرة يأكلون طعامهم .

« فيا بيت سومر عسى أن تكثر حظائرك وتتضاعف أبقارك ،

« وعسى أن تكون حظائر أغنامك وفيرة ، وماشيتك لا عد لها ...

« وعسى أن ترفع معابدك الثابتة أيديها الى السماء .

« وعسى أن يقدر الـ « نوناكى » المصائر فى وسطك ،

* * *

ثم يقصد الاله « انكى » الى مدينة « أور » (ولعلها كانت عاصمة بلاد سومر فى الوقت الذى نظمت فيه هذه القصيدة) ويباركها على الوجه الآتى :

« لقد أتى الى « أور » ، الى المزار ،

« انكى ملك « العمق » يقرر مصيرها (قائلا) :

« أيتها المدينة الموفورة الزاد ، العميمة المياه ، القائمة كالثور القوى الثابت ،

أنت منصة خير البلاد ، أنت خضراء كالجبل ،

« أنت غابة الـ « خاشور » ، ذات الظلال الوارفة ، أنت ذات البطولة فيما وراء ... ،

« عسى أن يحسن توجيه نواميسك المقدسة التى اكتملت ،

« لقد أعلن « الجبل العظيم » ، أنليل ، اسمك المتسامى فى السماء والأرض .

« أيتها المدينة التى قدر مصائرها « انكى » ،

« يا « أور » ، أيتها المزار عساك أن ترتفعى الى عنان السماء » .

ثم يذهب « انكى » الى « مَلّوخَا » التى وصفت «بالجبل الأسود» (ومن المحتمل أن تكون هى بلاد اثيوبيا) ، والأمر الذى يدعو الى العجب أن الاله « انكى » يكون كريما فى اسباغ فضله على هذه البلاد مثلما كان كريما تجاه بلاد « سومر » نفسها . فنراه يبارك أشجارها وقصبها وأبقارها وأطيارها وفضتها وذهبها وبرونزها ونحاسها ، وسكانها من البشر . ومن « ملوخا » يتجه « انكى » الى نهرى دجلة والفرات فيملؤهما بالماء النمير الرائق ويوكل على شئونهما الها اسمه « اينبيلولو » (Enbilulu) . ثم يملأ « انكى » الأنهار بالأسماك ويوكل عليها الها ورد اسمه بكنية « ابن كيش » . ثم نراه يقصد الى البحر (خليج فارس) ويقرر نظامه ويعين على شئونه الهة اسمها « سِرارا » (Sirara) .

ثم ينادى « انكى » الرياح ويوكل على شئونها الاله « اشكر » (Ishkur) ، الذى يمتطى العواصف المرعدة . وينظم بعد ذلك أمر المحراث والنير والحقول والمزروعات .

« لقد دبر المحراث والنير ،

« الأمير العظيم « انكى » ... فتح الأخاديد المقدسة ،

« وجعل الغلة تنمو فى الحقول الدائمة (التى تزرع طيلة أيام السنة) ،

« هو السيد ، جوهرة السهل وزينته ،

« الذى استكمل قوته ، فلاح « أنليل » ، «أنكمدو » ، اله القنوات والجداول ،

« عينه انكى » لينظم شئونها .

« لقد نادى السيد على الحقل الدائم وجعله ينتج الغلة الوفيرة (حبوب الـ « جونو ») ،

« جعله « انكى » ينبت « الفول الكبير » و « الفول الصغير » بوفرة ،

« الغلال .... كدسها وملأ بها الأهراء ،

« انكى » ، أكثر الأهراء فى البلاد ،

« ومع « أنليل » كثّر الخيرات العميمة للناس .... ،

« والسيدة التى هى .... منبع قوة البلاد والسند الثابت لذوى الرءوس السود » ،

« أشنان » ، قوة كل شىء ،

« عينها « انكى » لتدبير تلك الشئون .

ونرى « انكى » يلتفت بعدئذ الى الفأس وقالب الآجر ويعين لتنظيم شئونهما اله الآجـر المسمى « كبتا » (Kabta) ثم يدبر آلة البنـاء المسماة « جوجن » ويضع الأسس ويشيد المساكن ويعين على أمورها الها اسمه « مش — دمّا (Mushdamma) ، المنعوت بالبناء العظيم « لانليل » . ثم يملأ السهول بالنبات والأعشاب والحياة الحيوانية ، ويعين على شئونها الها اسمه « سومُجان » (Sumugan) الموصوف بملك الجبل . وأخيرا يشيد « انكى » الحظائر والزرائب ويملؤها باللبن والزبد

ويعين عليها الاله الراعى المسمى « دموزى » (Dumuzi) (بقية النص ناقصة مخرومة فلا يعلم كيف تنتهى القصيدة) .

والاله الرابع من بين الآلهة الخالقة « الالهة — الأم » ، التى عرفت باسم « ننخر ساج » (Niuhursag) وباسم « ننماخ » Ninmah أيضا ، (أى السيدة المعظمة) . وقد بلغت مرتبة هذه الالهة فى أزمان أقدم درجة أكبر من التعظيم ، حتى ان اسمها كثيرا ما ورد قبل اسم الاله « انكى » فى بعض أثبات الآلهة . وهناك من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد بأن اسمها كان فى الأصل « كى » (أى الأرض) ، وانها كانت تعد زوجة للاله « آن » (أى السماء) . وان هذين الالهين كانا أبوى جميع الآلهة . وعرفت أيضا باسم « ننتو » (Nintu) (أى السيدة التى تلد أو السيدة الوالدة) . وكان يحلو للحكام السومريين الأوائل أن يصفوا أنفسهم بكونهم « ربوا بلبن ننخر ساج الطاهر » . وكانوا يرون فيها « أم » جميع الأشياء الحية و « الالهة — الأم » . وفى احدى الأساطير التى تدور على هذه الالهة نجدها وهى تقوم بدور مهم فى خلق الانسان (أنظر الفصل الثالث عشر) . ونراها فى أسطورة أخرى تلد سلسلة من الولادات الالهية ، وتتضمن تلك الأسطورة فكرة « الثمرة » المحرمة (أنظر الفصل السابع عشر) .

وأخيرا ننتقل الى ذكر تلك « النواميس » أو القواعد الالهية التى ذكرت بالمصطلح السومرى « مى » (me) ، والتى رأى فيها الفلاسفة السومريون انها تحكم نظام الكون منذ البداية وانه لا يزال يسير بموجبها . ولدينا عن هذا الأمر الشىء الكثير من الأدلة المباشرة ، ولا سيما سيطرة هذه « النواميس » على شئون الانسان وعلى حضارته . والطريف فى هذا الباب ان أحد الشعراء السومريين القدماء ، عندما ألف

احدى أساطيره ، رأى أن يذكر ثبتا بجميع أنواع تلك « النواميس » أو القواعد الحضارية ، اذ نجده يحلل الحضارة ، كما عرفها ، ويقسمها الى نيف ومائة عنصر من المقومات الحضارية . ولكن لا يعرف من جميع هذه المقومات والعناصر معرفة واضحة سوى ستين عنصرا . وبعض هذه مجرد كلمات لا نعرف عن فحواها الحقيقى سوى تلك الاشارة المقتضبة اذ ينقصنا السياق الذى يوضح المعنى . ومهما كان الحال فان ما بقى منها يكفى ليقفنا على طبيعة أهمية أول محاولة مدونة فى تحليل مقومات الحضارة ، ذلك التحليل الذى نجم عنه ثبت (جدول) مهم بما يعرف الآن بمصطلح « الميزات والمقومات الحضارية » . وتتألف هذه العناصر الثقافية الناتجة من عدد متنوع من الأنظمة والمؤسسات الاجتماعية ، ووظائف الكهانة المختلفة ، ومجموعة من الشعائر والطقوس الدينية ، والميول والاتجاهات العقلية والعاطفية ، والمعتقدات والمذاهب المتنوعة .

ونقدم مع ذلك الثبت هنا تلك العناصر الأكثر وضوحا ، نذكرها بالترتيب الذى نظمه فيها الكاتب السومرى القديم : — (١) السيادة (٢) الالوهية (٣) التاج العظيم الخالد (٤) عرش الملوكية (٥) الصولجان العظيم (٦) الشارات الملوكية (٧) المزار المعظم (٨) الرعاية (٩) الملوكية (١٠) مقام السيادة النسوية الدائم (١١) السيدة المقدسة (وظيفة كهنوتية) (١٢) وظيفة الكاهن المسمى « ايشب » (١٣) وظيفة الكاهن المسمى « لو — ماخ » (١٤) وظيفة الكاهن « جوتج » (١٥) الصدق (١٦) الهبوط الى العالم الأسفل (١٧) القيامة (الصعود) من العالم الأسفل(١٨) طائفة الخصيان المعروفة باسم« كَرجَرّو » و (١٩) الخصيان من نوع « جِرْبَدْرا » و (٢٠) نوع الخصيان « ساجور ساج (٢١) راية

(الحرب) (٢٢) الطوفان (٢٣) السـلاح (؟) (٢٤) الجماع الجنسى (٢٥) البغـاء (٢٦) القـانون (؟) (٢٧) القذف أو الطعن (٢٨) الفن (٢٩) حجرة العبادة (٣٠) « البغى المقدسة » الخاصة بالسماء (٣١) الآلة الموسيقية « جوسِلِم » (٣٢) الموسيقى (٣٣) المشيخة (٣٤) البطولة (٣٥) القوة والسلطة (٣٦) العداوة (٣٧) الاستقامة (٣٨) تدمير المدن (٣٩) الرثـاء (٤٠) أفراح القلب (٤١) الغش (٤٢) البـلاد الثـائرة (٤٣) الصلاح والخير (٤٤) العدالة (٤٥) فن صناعة الخشب (٤٦) فن صناعة المعادن (٤٧) فن الكاتب (٤٨) فن الحدادة (٤٩) فن صناعة الجلود (٥٠) فن البناء (٥١) فن حياكة السلال (٥٢) الحكمة (٥٣) الانتباه والعناية (٥٤) التطهير المقدس (٥٥) الخوف (٥٦) الوجل (٥٧) الخصام (٥٨) السلام (٥٩) التعب (٦٠) النصر (٦١) الشورى (٦٢) همـوم القلب (٦٣) القضاء (٦٤) القرار والحكم (٦٥) الآلة الموسيقية (ليلش) (٦٦) الآلة الموسيقية « أب » (٦٧) الآلة الموسيقية « ميسى » (٦٨) الآلة الموسيقية « آلا » .

ونحن مدينون فى حفظ هذا النوع من المآثر « الأنثروپولوجية » الى حقيقة كونها قد استعملت كأساس أو اطار لأسطورة سومرية تدور حول الالهة السومرية الشهيرة « انانا » . وقد أعيد ذكر ذلك الثبت المتضمن نيفا ومائة عنصر حضارى أربع مرات فى الأسطورة ، وبهذا أمكن اعادة النص وتكميله بأكثر أجزائه ، على الرغم من وجود عدة مواطن ناقصة فى النص . ومنذ وقت بعيد فى عام ١٩١١ نشر دڤيد ميرمان (David D. Myhrman) جزءاً من هذه الأسطورة (موجود فى متحف الجامعة) ونشر بعد ذلك بثلاثة أعوام « أرنو پوبل » لوحا آخر كان محفوظا فى فيلادلفيا ، وهو منقوش بجزء من هذا التأليف . ان هذا اللوح كبير

الحجم ومؤلف من ستة حقول ولكن قسمه الأعلى ناقص ، الا أنني وفقت الى العثور على هذا الجزء المفقود فى عام ١٩٣٧ فى متحف الشرق القديم فى استانبول . ومع ان قسما كبيرا من الأسطورة قد استنسخ فى عام ١٩١٤ الا انه لم يحاول أحد ترجمتها لأن القصة بحالها آنئذاك لم تكن لتؤلف معنى متصل السياق ، وكانت تنقصها الفكرة المفهومة الواضحة . الا أن الجزء المكسور الذى عثرت عليه فى استانبول واستنسخته قد وضع بين أيدينا المفتاح المفقود ، فأمكن بعد ذلك فهم هذه القصة المتعة وتحليلها ، وهى القصة التى تبين لنا الآلهة السومرية بكامل صفاتهم وطبيعتهم البشرية . وكنت أوجزتها وحللتها لأول مرة فى كتابى « الميثولوجيا السومرية » [1] (ص ٦٤ — ٦٨) واليك موجزها :

ان الالهة « اانانا » ، ملكة السماء ، والالهة الحامية لمدينة « ارك » (الوركاء) تاقت الى أن تزيد فى خيرات مدينتها وتضاعف من رفاهيتها ، وتجعلها مركز العمران فى بلاد سومر لتعلو بذلك شهرتها ويسمو اسمها (بين الآلهة) . لذلك اعتزمت شد الرحال الى مدينة « أريدو » ، مركز الحضارة السومرية المأثور ، حيث يسكن الاله « أنكى » ، سيد الحكمة الذى يعرف ما تكنه قلوب الآلهة من أسرار ، والذى يقطن فى مسكنه المائى فى مياه العمق ، أى « الآبزو » . وكان لدى « أنكى » جميع النواميس الالهية التى كانت أسس العمران والحضارة ومقوماتها . فاذا ما استطاعت « اانانا » الحصول عليها سواء أكان ذلك بالطرق المشروعة أم بالحيلة وأتت بها الى مدينتها « ارك » ، فان مجدها ومجد مدينتها سيكونان منقطعى النظير . فلما أن شارفت الـ « آبزو »

(١) S. N. Kramer, Sumerian Mythology, PP. 64 - 68.

فى « اريدو » ، دعا « أنكى » ، وهو مأخوذ بسحر جمالها ، رسوله المسمى « ايسِمُد » وخاطبه على الوجه الآتى :

« هلم يا رسولى « ايسمد » وأصخ السمع لأوامرى ،
« سأقول لك كلمة فانتبه لما أقوله ،
« ان العذراء قد قصدت الـ « آبزو » وهى وحدها ،
« انانا » بمفردها جاءت الى الـ « آبزو » ،
« فاعمل على أن تدخل العذراء الى « آبزو » اريدو ،
« اجعل « انانا » تدخل « آبزو » اريدو ،
« اعطها كعك الشعير مع الزبد لتأكل ،
« صب لها الماء البارد الذى ينعش قلبها ،
« وقدم لها الجعة لتشربها (بكأس) « وجه الأسد » ،
« وعلى المائدة المقدسة ، « مائدة السماء » ،
« اجزل « لأنانا » كلمات الترحيب .

* * *

فيفعل « ايسمد » ما أمر به سيده . ونجد « انانا » و « أنكى » يجلسان للوليمة والمنادمة . وبعد أن انشرح قلباهما بالشراب هتف « أنكى » قائلا :

« وحق اسم سلطانى ، باسم سلطانى وقوتى ،
« لأقدمن النواميس الالهية الى ابنتى « انانا » المقدسة .

* * *

ثم يقدم لها على دفعات نيفا ومائة ناموس من تلك النواميس الالهية التى كانت أسس الحضارة وعماد العمران ، فطغى السرور على « انانا » وقبلت وهى ممتنة تلك الهبات التى حباها بها « انكى » وهو ثمل . ثم تأخذها وتحملها فى « قاربها السماوى » وتشد الرحال للعودة الى

« ارك » ومعهـــا تلك الشـــحنة الثمينـــة . ولكن ما ان زال أثـــر خمر الوليمة من رأس « انكى » حتى يحس بأن « النواميس » الالهية قد أخذت من موضعها الخاص بها ، فيلتفت الى رسوله « ايسمد » مستفسرا عن الأمر فيخبره هذا بأن « انكى » نفسه هو الذى قدمها هدية لابنته « انانا » . وعندئذ يندم « انكى » أشد الندم على ما فرط منه من سخاء وكرم ، وعزم على منع « قارب السماء » من الوصول الى « ارك » مهمـــا كلف الأمر . ويبعث رســـوله « ايســـمد » مستصحبا معـــه عددا من « وحوش » البحر ليتبع أثر « انانا » ويدرك قاربها فى المرحلة الأولى من مراحل الوقوف السبع فى الطريق بين « أبزو » اريدو وبين « ارك » فاذا ما أدركهـــا فان « وحوش البحـــر » تسترجع « قارب السماء » من « انانا » ولكنه أوصاه أن يدع « انانا » تواصل رحلتها الى « ارك » مشيا على الأقدام .

ان القسم المتضمن أوامر « انكى » الى رسوله « ايسمد » ، وحوار « انانا » مع « ايسمد » ، حيث تنحى باللائمة على أبيها لمحاولته استرداد هباته ، درة من درر الشعر فى أسلوبه ، وها هى ذى ترجمته :

« دعا الأمير رسوله « ايسمد » ،
« انكى » ، بلغ كلمته لاسم السماء الطيب (قائلا) :
« يا رسولى « ايسمد » ، يا اسم السماء الطيب » .
« يا مليكى هأنذا قائم بين يديك والمجد لك الى الأبد » .
« الى أين وصل الآن « قارب السماء » ؟
« لقد بلغ مرفأ « ادال » ،
« اذهب ودع وحوش البحر تأخذه منها » .

* * *

فينفذ « ايسمد » ما أمر به سيده ويدرك « قارب السماء » ويخاطب « انانا » قائلا :

« يا مليكتى لقد أرسلنى اليك أبوك ،

« يا « انانا » أرسلنى أبوك اليك ،

« أبوك المجد فى كلامه ،

« انكى » المعظم قوله ،

« ينبغى أن تطاع أوامره العظيمة » ،

« فأجابته « انانا » المقدسة :

« أبى ! ما الذى حدثك به ، ما الذى قاله لك ؟

« ان كلماته العظيمة الواجبة الطاعة أتوسل اليك ما هى ؟ »

« ان مليكى كلمنى ،

« قال لى « انكى » :

« دع « انانا » تذهب الى « ارك » ،

« ولكنك تعيد الى « قارب السماء » ، الىّ « اريدو » ،

فقالت « انانا » المقدسة للرسول « ايسمد » :

« أتوسل اليك لماذا بدل أبى كلمته ؟

لماذا حنث بكلمته الصادقة لى ؟

لماذا دنس كلماته العظمى لى ؟

حقا ان أبى غشنى فى كلماته ، انه خدعنى بأقواله ،

لقد أقسم كذبا باسم « قوته » وباسم الـ « آبزو » ،

وما فاهت بهـذه الكلمات حتى أمسكت وحوش البحر بقارب السماء ،

فقالت « انانا » لرسولها « ننشوبر » :

« هلم الى يا رسول « انانا » الأمين ،
يا من يحمل الكلمات الطيبة ،
ويا حامل كلمتى الصادقة ،
الذى لا تضطرب يده ، ولا تضطرب قدمه ،
انقذ « قارب السماء » ونواميس « انانا » الالهية المهداة لها »

* * *

ففعل « ننشوبر » ذلك ، ولكن « انكى » لا يزال على اصراره ، فيبعث برسوله « ايسمد » مرة أخرى مصحوبا أيضا بأنواع مختلفة من وحوش البحر لتمسك قارب السماء فى كل مرحلة من مراحل الوقوف السبع بين « اريدو » و « ارك » . ولكن « ننشوبر » يأتى لانقاذ « انانا » فى كل مرحلة ، فيخلص القارب من وحوش البحر ، وفى نهاية الأمر تصل « انانا » مع قاربها بسلام الى مدينة « ارك » حيث تفرغ شحنة « النواميس الالهية » واحدا واحدا وسط حفلات الفرح والابتهاج بين سكان المدينة .

ان المفكرين السومريين لم يوجـدوا طرقا فلسفية منظمة كما أنهم لم يخلقوا تعاليم منظمة واضحة فى قواعد الأخلاق والمبادىء . انهم لم ينتجوا بحوثا أصولية فى علم الأخلاق . أما ما عرفناه عن علم الأخلاق وعن قوانين السلوك الأدبى عند السومريين ، فقد عرفناه من البحث عنه واستخلاصه من تآليفهم الأدبية المختلفة المتنوعة . وسنحاول فى الفصل الثالث عشر تحليل جملة آراء ومبادىء سومرية فى الأخلاق ، مع الأدلة الخاصة بذلك .

الفصل الثالث عشر
« علم الأخلاق »

أول مثل عليا فى الأخـــلاق

ان المفكرين السومريين ، وهم منساقون بوجهة نظرهم عن العالم والحياة ، لم يكونوا كثيرى الثقة بالانسان وبمصيره . انهم اعتقدوا اعتقادا جازما بأن الانسان صنع من الطين . وانه خلق من آجل غرض واحد فقط : ذلك هو أن يعبد الآلهة ويخدمها ، بتزويدها بالطعام والشراب والمسكن ، ليتوافر لها وقت الفراغ الكامل لتنقطع الى أعمالها الالهية . واعتقدوا ان الحياة يكتنفها الشك والالتباس . وتحدق بها الأخطار ، لأن الانسان لا يعرف مقدما المصير الذى قدرته له الآلهة ، تلك الآلهة التى لا يمكن التنبؤ بمعرفة ارادتها . عندما يموت الانسان تهبط روحه العاجزة الضعيفة الى عالم الظلام ، الى العالم الأسـفل الرهيب ، حيث الحياة فيه ليست سوى صورة مكروبة بائسة من الحياة الأرضـية .

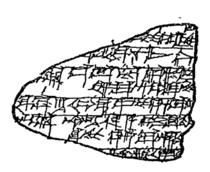
وهناك مسألة أساسية شغلت فلاسفة الغرب ، بيد أنها لم تقلق بال المفكرين السومريين مطلقا — ونعنى بها تلك المسألة الدقيقة ، مسألة حرية الارادة . ولما كان أولئك المفكرون على تمـام الثقة دون حاجة الى أى دليل بأن الآلهة خلقت الانسان من أجل انتفاعها وسرورها ، فانهم قبلوا مسلمين بأن الانسان مسير ومجبر ، مثلما سلموا بذلك الحكم

الالهى الذى جعل الموت هو النصيب المقدر للانسان ، وأن الآلهة وحدهم هم الخالدون . ولقد عزوا الى الآلهة كل الفضل فى وجود تلك الصفات والفضائل الأخلاقية التى لا مراء فى أن السومريين قد طوروها ونشأوها بالتدريج ، بعد صعاب كثيرة من تجاربهم الاجتماعية والحضارية . ان الآلهة هم الذين وضعوا الترتيب اللازم . أما الانسان فليس أمامه سوى الانصياع الى الأوامر الالهية .

لقد تعلق السومريون ، كما يؤخذ مما كتبوه ودونوه ، بحب الخير والصدق ، والقانون والنظام ، والعدالة والحرية ، والصلاح والاستقامة ، والرحمة والرأفة . كما كانوا يمقتون الشر والكذب والزور وعصيان القانون ، والاخلال بالنظام والظلم والاضطهاد وارتكاب المعاصى والضلال والصرامة وتحجر القلب . وكان حكامهم وملوكهم يتباهون دائما بأنهم أقاموا القانون والنظام فى البلاد ، وحموا الضعيف من القوى ، والفقير من الغنى ، ومحوا الشر والظلم والعنف . هذا ولقد سبق لنا أن رأينا فى تلك الوثيقة الفريدة التى حللناها فى الفصل السادس كيف ان حاكم مدينة « لجش » المسمى « أورو — كاجينا » ، الذى عاش فى القرن الرابع والعشرين ق . م . قد دون فى سجلاته مفتخرا معتزا انه أعاد العدل والحرية الى الناس الذين قاسوا كثيرا ، وانه أزال الموظفين الطغاة المتغلغلين فى جميع شئون الناس . وأوقف الظلم والاستغلال ، وكان حامى الأرملة واليتيم . ولم يكد يمضى على هذه الاصلاحات أربعة قرون حتى نجد الملك « أور — نمو » ، مؤسس سلالة « أور » الثالثة ، وقد أصدر شريعة قوانينه (أنظر الفصل السابع) التى تعدد فى ديباجتها بعض أعماله فى مجال الاصلاحات الأخلاقية . فقد قضى على عدد من المظالم السائدة التى كانت ترتكبها طبقة الموظفين « البيروقراطيين » ،

ونظم شئون الأوزان والمكاييل ضمانا للأمانة والاستقامة فى معاملات الأسواق ، وعمل على حماية الأرملة واليتيم والفقير من المظالم والاستغلال. وبعد نحو قرنين من الزمان أصدر « لبت — عشتار » ملك مدينة « ايسن » شريعة جديدة . نراه يفخر فيها بأنه اختير بوجه خاص من لدن الالهين « آن » و « أنليل » لحكم البلاد ، لكى يمكن العدل فى البلاد ، ويزيل الشكوى ويقضى على البغضاء والثورة مع استعمال السلاح ، وليجلب الخير والرفاء الى السومريين والأكديين . كما نرى فى تراتيل عدد من الحكام السومريين انها ملأى بمثل هذه الادعاءات فى السلوك الأخلاقى المتسامى .

وكان الآلهة أيضا ، كما ذكر الحكماء السومريون ، يفضلون ما هو أخلاقى وصالح على الفساد والخروج على مبادىء الأخلاق . ونجد جميع الآلهة العظام تقريبا قد مجدوا فى التراتيل السومرية بصفتهم محبين للخير والعدل وللصدق والاستقامة . والواقع انهم خصوا عدة آلهة بالاشراف على النظام الأخلاقى بكونه وظيفتهم الأساسية ، كالاله الشمس « أوتو » . وذكرت فى النصوص بين حين وآخر الهة خاصة بمدينة « لجش » هى » نانشه « على انها خصصت نفسها لرعاية الصدق والعدل والرحمة . ولكن لم يتسن لنا الا الآن فقط أن ندرك مبلغ الدور المهم الذى كانت تقوم به تلك الالهة فى دائرة السلوك والأخلاق عند البشر . فقد استطعنا فى عام ١٩٥١ أن نجمع ترتيلة سومرية قوامها زهاء (٢٥٠) سطرا من بين (١٩) لوحا وكسرة من لوح ، مما عثر عليه فى التنقيبات التى أجريت فى مدينة « نفر » . فان هذه الترتيلة تحتوى على أهم وأوضح أقوال فى السلوك والأخلاق وردت فى الوثائق السومرية الأخرى . انها تصف الالهة « نانشه » على الوجه الآتى :





شكل ٤٤ ــ « العدالة الاجتماعية » : نسخ كسر من ألواح غير منشورة مدونة بأقسام من ترتيلة خاصة بالآلهة « نانشه » . موجودة فى متحف استانبول

« انها هى التى تعرف اليتيم وتعرف الأرملة ،

« انها هى التى تعرف اضطهاد الانسان للانسان ، وهى أم اليتيم ،

« (الالهة) « نانشه » التى تعنى بالأرملة ،
« التى تنشد العدالة (؟) لأفقر الفقراء (؟) .
« ان الملكة تأوى اللائذين بحضنها وحماها ،
« وهى التى تهيىء المأوى للضعفاء .

* * *

وفى نص ، لا يزال معناه الدقيق غامضا ، صورت الالهة « نانشه » وهى تقوم بحساب البشر فى عيد رأس السنة والى جانبها الالهة « ندابا » (Nidaba) الالهة الخاصة بالكتابة والحسابات ، ومعهما زوج « ندابا » المعروف باسم « خاى » (Haia) مع شهود عديدين . وقد وصف أولئك الأشرار من البشر ممن وقع عليهم سخطها على الوجه الآتى :

« من سلك سبيل العدوان واغتصبت يده ما ليس له ... (؟)
« من تخطى حدود النظم المقررة ونقض العقود والعهود ،
« من نظر نظرة رضا الى مواطن الشر .... ،
« من بدل الوزن الكبير بالوزن الصغير ،
« من بدل الكيل الكبير بالكيل الصغير ،
« من أكل ما ليس له ولم يقل « أكلته » .
« ومن شرب ما ليس له ولم يقل « شربته » .... ،
« من قال لآكلن ما حرم » ،
« ومن قال لأشربن ما حرم » .

* * *

ويتجلى لنا ما تحلت به « نانشه » من ضمير اجتماعى فى الأسطر الآتية :

« تواسى اليتيم ولا تهمل أرملة ،

« تعد الموضع الذى تهلك فيه الأقوياء الطغاة ،

« وتسلم الأقوياء الى الضعفاء .....،

« ان « نانشه » تنفذ الى قلوب الناس » .

* * *

ومع أنهم افترضوا فى آلهتهم العظام بأنهم يسيرون وفق قواعد الأخلاق فى سلوكهم ، الا أن الحقيقة ان هؤلاء الآلهة أنفسهم ، بمقتضى وجهة النظر السومرية ، هم الذين (خلقوا) الشر والكذب والجور والظلم — أى جميع أنواع السلوك المنافى للأخلاق الكريمة عند البشر ، منذ أن أقاموا العمران البشري . فمثلا نرى أن ذلك الثبت المتضمن جميع النواميس التى أوجدها الآلهة لتسيير الكون وتنظيم شئونه ، لا يقتصر على كونه يشتمل على « الصدق » و « السلام » و « الخير » و « العدالة » ، بل احتــوى أيضا على « الكذب » و « الخصام » و « الرثاء » و «الخوف » . فلماذا رأى الآلهة انه من الضرورى خلق الشر والاثم والألم والمصائب ؟ (وقد يقول لسان حال المتشائم السومرى « لم يولد لأم طفل بلا خطيئة ») . والذى يؤخذ مما بين أيدينا من الأدلة أن الحكماء السومريين ، على فرض انهم أثاروا ذلك السؤال مطلقا ، لم يروا بدا من الاقرار والتسليم بجهلهم فى تلك المسألة . فان مشيئة الآلهة وبواعثها فى أفعالها لا يدرك كنهها فى الغالب . وان السبيل الصحيح الذى كان ينبغى على « أيوب » السومرى أن يسلكه هو ألا يتساءل ولا يحاجج ويتشكى اذا ما حلت به بلايا لا مبرر لها فى الظاهر . فما عليه

ازاء ذلك الا أن يتضرع ويندب ويعترف بخطاياه وذنوبه التى لم يكن منها بد . ولكن هل يستجيب له الآلهة ، وهو العبد الفانى الوحيد العاجز ، اذا ما تضرع واستغاث فى صلاة صادقة منبعثة من القلب ؟ ان هذا غير مضمون كما كان يبدو للحكماء والسومريين ، لأن الآلهة كانوا فى نظرهم مثل الحكام من البشر الفانين فى جميع العالم مشغولين بأمور وشئون ينبغى التفرغ لها ، لأنها أهم وأخطر . وكما هى الحال بالنسبة الى الملوك لزم على الانسان أن يكون له وسيط ليشفع من أجله ، أى شفيع يمكن أن تستجيب الآلهة لشفاعته . فأوجد المفكرون السومريون تبعا لذلك فكرة « الاله الشخصى » الذى كان بمثابة الملاك الصالح الحارس لكل فرد ولكل رأس أسرة ، وتكون علاقته به انه أبوه الالهى الذى ولده . فالى هذا الاله الشخصى كان الفرد المعذب يكشف عن مكنون قلبه فى الصلاة والتضرع وعن طريقه كان يجد الخلاص .

وهناك عقيدة سومرية كانت تطغى على مبادىء السلوك والمثل العليا عند السومريين . تلك هى أن الانسان صنع من الطين ليخدم الآلهة . وان الدلالة الأساسية على هذه العقيدة مستخلصة من أسطورتين : أسطورة خصصت بكليتها الى خلق الانسان ، وتتألف الأسطورة الثانية من حوار أو مناظرة بين الهين من الطبقات الصغرى بين الآلهة . وتتضمن هذه الأسطورة ديباجة أو مقدمة تشرح بعبارات مسهبة الغرض الذى من أجله خلق الانسان .

لقد وجد النص الذى يروى قصة خلق الانسان منقوشا على لوحين مكررين لنص واحد ، جاء أحدهما من مدينة « نفر » وهو فى متحف جامعة پنسلفانيا ، والآخر موجود فى متحف « اللوفر » حيث حصلوا عليه من تجار الآثار . هذا وان لوح « اللوفر » ، والقسم الأكبر من لوح

متحف الجامعة قد استنسخا ونشرا فى عام ١٩٣٤ . ولكن مع ذلك ظلت محتويات النص غير مفهومة بوجه عام . والسبب فى ذلك هو ان لوح متحف الجامعة الذى هو أتم حالا من لوح « اللوفر » قد جيء به الى فيلادلفيا قبل أربعين أو خمسين عاما وهو مكسور الى أربعة أجزاء . وقد سبق فى عام ١٩١٩ ان عرفت قطعتان من هذه القطع وجمعتا الى بعضهما حيث استنسخهما ونشرهما « ستيفن لنجدون » . ونشر « ادورد كييرا » فى عام ١٩٣٤ القطعة الثالثة ولكن لم يدرك انه يمكن وصلها بالقطعتين اللتين سبق أن نشرهما « لنجدون » فى عام ١٩١٩ . لقد أدركت هذه الحقيقة بعد نحو عشر سنين حينما كنت أعمل جاهدا فى جمع نص الأسطورة لادخالها ضمن كتابى « الميثولوجيا السومرية » فاستطعت آنئذاك أن أعين بين مجموعة الألواح الموجودة فى متحف الجامعة القطعة الرابعة التى لم تكن قد نشرت من قبل ولكنها يمكن وصلها فعلا كجزء من القطع الثلاث المنشورة سابقا . وبذلك أمكننى للمرة الأولى أن أرتب محتويات الأسطورة بموجب مواضعها فى النص ، وأن أهيىء ترجمة للأسطورة ، أولية على الأقل ، على الرغم من أن النص ظل على ما كان عليه من صعوبة وغموض ونقصان (انظر « الميثولوجيا السومرية » ص ٦٨ — ٧٢) .

تبدأ القصيدة بما يمكن أن يكون وصفا للمصاعب التى كان يلاقيها الآلهة فى الحصول على قوتهم ، لا سيما بعد أن جاءت الالهات الى الوجود . فكان الآلهة يتذمرون ويتشكون ، ولكن « أنكى » ، اله الماء ، الذى كان المتوقع منه أن يخف لنجدتهم بصفته اله الحكمة ، ظل مضطجعا فى مياه « العمق » غير مكترث لشكاتهم . ثم نجد أن أمه الالهة التى تمثل « البحر الأول » (وهى الأم الأولى التى ولدت جميع الآلهة) تأتى بدموع الآلهة الى « أنكى » وتخاطبه قائلة :

« يا بنى قم من فراشك ومن ... واعمل ما هو حكيم لائق ،
اصنع عبيدا للآلهة ، وعساهم يضاعفون من عددهم (؟) » .

فتدبر الاله « أنكى » الأمر وقاد جميع الصناع المهرة اللائقين . وقال لأمه « نمو » (الهة البحر الأول) :

« يا أماه ان المخلوق الذى نطقت باسمه موجود ،
فاربطى عليه صورة الآلهة (؟) ،
« أعجبنى لب الطين الموجود فوق « مياه العمق » ،
« واجعلى « الصانعين المهرة » يكثفون الطين ،
« وعليك أنت أن توجدى له الأعضاء والجوارح ،
وستعمل « ننماخ » (الأم — الالهة) من فوق يدك ،
وستقوم بجانبك الهة (الولادة) ... فى أثناء صنعك ،
يا أماه قدرى مصيره (أى مصير المولود الجديد) ،
وستربط (ننماخ) عليه صورة الآلهة (؟)
انه الانسان ... » .

* * *

ومن هنا تنتقل القصيدة من خلق الانسان الكامل الى ذكر خلق أنواع ناقصة التكوين من البشر ، لتفسير وجود مثل هذه المخلوقات الشاذة فى الحياة . فتقص علينا تلك الأسطورة كيف ان الاله « انكى » أولم وليمة للآلهة احتفاء بحادثة خلق الانسان على ما يرجح . وفى الوليمة شرب « انكى » و « ننماخ » خمرا كثيرا ، جعلهما مفرطى النشاط والسرور . فأخذت « ننماخ » شيئا من الطين الموجود فى « مياه العمق » وصنعت منه ستة أنواع من البشر الشاذين فى خلقهم . ثم يعمد « أنكى » الى تقرير مصيرها ، ويزودها بالخبز لتأكل . هذا ولا يمكننا من النص

معرفة تلك الأنواع الناقصة اللهم الا النوعين الأخيرين وهما المرأة العقيم والانســان الذى لا يُعرف ان كان ذكرا أم أنثى كما جاء فى الأسطر الآتية :

« لقد صنعت « ننماخ » الـ ... على هيئة امرأة لا تلد .

« ولما أن رأى « أنكى » المرأة التى لا تلد ،

« قدر لها مصيرها فقرر أن توضع فى « بيت المرأة » .

« وضعت « ننماخ » الـ ... على هيئة مخلوق ليس له عضو الذكر ولا عضو الأنثى ،

« ولمــا أن رأى « انكى » المخلوق الذى ليس له عضــو الذكر ولا عضو الأنثى ،

« قرر مصيره أن يقوم « بخدمة الملك » .

* * *

وبعد أن صنعت « ننماخ » هذه الأنواع الستة من الانسان أراد الاله « انكى » أن يخلق بعض الخلق هو أيضا ، ولكن الأسلوب الذى اتبعه فى صنعه غير واضح ، الا انه فى كل ما حاول صنعه كان المخلوق الناتج ناقصا ، اذ يكون ضعيفا عاجزا فى الجسم والروح . فاهتم «انكى» بالأمر والتجأ الى « ننماخ » لتساعد مخلوقه الناقص العاجز . وخاطبها قائلا :

« مثلما عينت مصير ما صنعت يدك ،

« وأعطيته الخبز ليأكل ،

« فاعملى على تقرير مصير ما صنعت يدى ،

« وزوديه بالخبز ليأكل » .

فحاولت « ننماخ » أن تصنع خيرا ازاء ذلك المخلوق ، بيد أنها لم تفلح فى مسعاها . لقد كلمته ولكنه عجز عن الاجابة . وقدمت له الخبز ليأكل ولكنه لم يمد يده لتناوله . وكان عاجزا عن أن يجلس أو يقوم أو يثنى ركبتيه . ويعقب ذلك محادثة طويلة بين « انكى » و « ننماخ » (ولكن الألواح ناقصة فى الأجزاء الخاصة بهذا الموضوع بحيث يتعذر استخلاص معنى واضح منها) . وأخيرا يبدو أن « ننماخ » لعنت « انكى » لأنه صنع ذلك المخلوق الناقص الحياة ، وهى لعنة تقبلها « انكى » على انه مستحق لها .

أما الأسطورة الثانية التى تصور لنا آراء السومريين فى خلق الانسان فيمكن تسميتها « الماشية والغلة » . وهى تمثل لنا بابا من أبواب أدب المناظرة كان شائعا بين الكتاب السومريين . والمتناظران المتخاصمان فى الأسطورة هما الاله الموكل بالماشية المسمى « لهار » Lahar وأخته الهة الغلة المسماة « أشنان » Ashnan . وعلى ما جاء فى الأسطورة خلق هذان الالهان فى « حجرة الخلق » الخاصة بالآلهة لكى يحصل آلهة « الأنوناكى » Anunnaki ، أبناء اله السماء « آن » ، على الطعام والكساء . ولكن « الأنوناكى » لم يجنوا أى فائدة من الماشية والغلة الا بعد أن خلق الانسان . كل ذلك ذكر فى عبارات وردت فى المقدمة على الوجه الآتى :

« بعد أن عمل الاله « آن » ، وهو على جبل السماء والأرض ،
« على ولادة « آلهة الأنوناكى » ، (اتباعه) ،
« ولأن اسم « أشنان » (الهة الغلة) لم يكن قد وجد ، ولم يخلق بعـد ،
« ولأن « أتّو » (الهة اللباس) لم تكن خلقت ،

« ولم يكن شيد للالهة « أنو » معبد وحرم ،
« ولم تكن النعجة فى الوجود ، ولم يولد الحمل ،
« ولم تكن السخلة ، ولم يولد الجدى ،
« ولم تلد النعجة حمليها ،
« ولم تلد السخلة أجداءها الثلاثة .
« ولأن اسم « أشنان » المدبرة واسم « لهار » (اله الماشية) ،
« لم يكونا معروفين لدى « الأنوناكى » ، الآلهة العظام ،
« والغلة (المسماة) « شش » ، ذات الثلاثين يوما ، لم تكن فى الوجــود ،
« ولم توجد غلة الـ « شش » ذات الأربعين يوما ،
« والغلات الصغيرة ، غلة الجبل ، غلة المخلوقات التى تحيا حياة طاهرة ، لم تكن فى الوجود ،
« ولأن « أنو » لم تولد ، والتاج لم يكن قد رفع ،
« ولأن الرب .. لم يولد ،
« ولأن (الاله) « سموجان » ، اله السهل ، لم يجىء الى الوجود ،
« مثل البشر لما خلقوا أول مرة ،
« لم يعرف « الأنوناكى » (أى الآلهة) أكل الخبز ،
« ولم يعرفوا لباس الحلل ،
« كانوا يأكلون النبات بأفواههم كالأغنام ،
« ويشربون الماء من الجداول .
« وفى تلك الأيام فى حجرة الخلق الخاصة بالآلهة ،
« وفى بيتهم (المسمى) « دوكو » خلق « لهار » و « أشنان » ،

« وما أنتجه « لهار » و « أشنان » أكله « أنو ناكى » الـ « دوكو »
ولكنهم لم يشبعوا ،
« ومن حظائرهما الطاهرة شرب الـ « أنو ناكى » لبن « شم » الطيب .
« شرب « أنو ناكى » الـ « دوكو » ولكنهم لم يرتووا ،
« فمن أجل حظائرهما الطاهرة الطيبة ،
« أعطى الانسان نفس (الحياة) .

* * *

ثم تصف لنا العبارات التى تعقب المقدمة نزول الالهين « لهار » و « أشنان » من السماء الى الأرض ، وتعدد المنافع العمرانية التى حبوا بها البشر :

« فى تلك الأزمان قال « انكى » للاله « أنليل » :
« يا أبتى « أنليل » ان « لهار » و « أشنان » ،
« اللذين خلقا فى الـ « دوكو » ،
« لتجعلهما يهبطان من الـ « دوكو » .
« وبكلمة « انكى » و « أنليل » المقدسة ،
« هبط « لهار » و « اشنان » من « دوكو » ،
« لقد « أنشآ » (أى « أنليل » و « انكى ») للاله « لهار » الحظيرة .
« وجعلا له النباتات والأعشاب الوفيرة ،
« وأقاما لـ « أشنان » بيتا
« وقدما لها المحراث والنير ،
« وصار « لهار » يقف فى حظيرته ،
« وهو الراعى الذى أفاض فى خيرات الحظائر .
«وتقف « أشنان » بين غلاتها ،

« وهي العذراء السخية الكريمة ،

« وكل خير عميم يأتي من السماء ،

« كان « لهار » و « أشنان » يظهرانه في الأرض .

« لقد أحلا الخير الوفير في « المجمع » وأحلا في البلاد نفس الحياة ،

« لقد وجها « نوامس » الآلهة ،

« وضاعفا ما في المستودعات ،

« لقد ملآ المخازن حتى اكتملت .

« وفي بيت الفقير الذي يحتضن التراب ،

« دخلا وجلبا الخير والوفرة .

« وحيثما وقف كلاهما ،

« أحلا في البيت الخير الوفير .

« والموضع الذي يقفان فيه يحل فيه الشبع ،والموضع الذي يجلسان فيه يزودانه بالمؤن والزاد .

« لقد طيبا قلب « آن » و « أنليل » .

ولكن بعد هذا نجد « لهار » و « أشنان » قد أخذا يكثران من شرب الخمر وشرعا من جراء ذلك يتخاصمان في المزارع والحقول . وفي المنافرة أو المناظرة التي جرت بينهما أخذ كل اله منهما يعدد الأعمال والمآثر التي أنجزها ويحط من شأن أعمال خصمه . وأخيرا يتدخل « أنليل » و « أنكي » في النزاع ويحكمان للالهة « أشنان » بالنصر والتفوق .

كان الحكماء السومريون يعتقدون ، ويعلمون تلك العقيدة ، وهي أن مصائب الانسان وكل ما يحل به من بلاء انما هو نتيجة ذنوبه وخطاياه وأنه لا يوجد انسان بلا خطيئة . ودللوا على انه لا توجد حالات تكون

فيها المصائب والبلايا التى تقع على البشر غير عادلة وبدون استحقاق . فكان الانسان على الدوام هو الملوم ، وليس الآلهة . ومع رسوخ هذه العقيدة فنحن نتوقع أن يكون أكثر من شخص واحد من بنى البشر ممن حل به البلاء والمصيبة قد تحدى أو اعترض على عدالة الآلهة . وازاء مثل هذه الشكوك ، ولكى يحولوا دون مثل هذا الاستنكار لأعمال الآلهة ، نجد أن أحد حكماء السومريين يؤلف مقالة تهذيبية تعد أقدم مثال على تلك الفكرة التى تضمنتها قصة « أيوب » ، مما سنعرضه فى الفصل الرابع عشر .

الفصل الرابع عشر
« العذاب والتسليم »

أول « أيوب »

كنت ألقيت بحثا فى «جمعية الآداب التوراتية » [1] فى ٢٩ كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٥٤ بعنوان (الانسان وربه : رواية سومرية لفكرة قصة « أيوب ») ، استندت فيه الى مقالة شعرية سومرية تتألف من زهاء (١٣٥) سطرا أمكن جمع نصوصها من ستة ألواح من الطين ، عثرت عليها بعثة التنقيبات الأثرية لجامعة بنسلفانيا فى مدينة « نُفَّر » التى تبعد زهاء مائة ميل الى الجنوب من بغداد الآن . وهناك أربع قطع منها موجودة فى متحف الجامعة فى فيلادلفيا والقطعتان الأخريان فى متحف الشرق القديم فى استانبول .

ولم يكن قد نشر من القطع الست قبل القاء بحثى سوى قطعتين من القطع الأربع التى فى متحف الجامعة . ولذلك بقى نص القصيدة الكامل غير معروف وغير مفهوم بوجه عام . وحينما كنت فى استانبول عام ١٩٥١ — ١٩٥٢ ، بصفة أستاذ باحث منتدب على حساب مشروع « فلبرايت » ، استطعت أن أعين وأستنسخ القطعتين المكملتين للقصيدة والموجودتين فى متحف الشرق . ولما عدت الى فيلادلفيا تعرفت أيضا على كسرتين اضافيتين وجدتهما فى متحف الجامعة بمساعدة « ادموند جوردون » ،

(١) Society of Biblical Literature

وهو باحث مساعد فى القسم الخاص بحضارة وادى الرافدين فى متحف الجامعة . ولما كنا نحقق فى الترجمة التى أعددتها للقصيدة من أجل نشرها أدركنا أن الجزأين الموجودين فى استانبول انما هما جزآن متممان لقطعتين من القطع الأربع الموجودة فى فيلادلفيا — أى انها فى الواقع أجزاء من لوح واحد ولكنها فصلت بعضها عن بعض اما فى الأزمان القديمة أو فى أثناء التنقيبات ، ووصلت الى ذينك المتحفين البعيدين عن بعضهما ، أحدهما على ضفاف بحر مرمرة والثانى على نهر شيلكل (Schuylkill). ولحسن الحظ تمكنت من أن أتحقق من ذلك (أى ان هذه الأجزاء يتصل بعضها ببعض كلوح واحد) فى عام ١٩٥٤ فى زيارة لى لاستانبول كمبعوث من مؤسسة « بولنجين » (Bollingen) . وبهذا التعيين والتحقيق والوصل بين الأجزاء التى باعدت بينها المحيطات ، صار باستطاعتى أن أجمع القسم الأكبر من نصوص تلك القصيدة وأن أترجمها ، فاتضح عندئذ أن هذه أول مقالة مدونة تعالج مسألة عذاب الانسان ، وخضوعه وهو موضوع اشتهر فى الآداب العالمية ، وفى الفكر الدينى ، عن طريق سفر « أيوب » فى التوراة . ومع ان هذه القصيدة السومرية لا يمكن مقارنتها ومضاهاتها بأية حال بقصة « أيوب » فى سعة المدى ، وعمق الفهم ، وجمال التعبير الا أن أهميتها البالغة ناجمة عن حقيقة كونها تمثل لنا أول محاولة مدونة للانسان فى معالجة تلك القضية المتطاولة فى قدمها ولكنها ما زالت تشغل عقل الانسان الحديث ، ونعنى ما يقاسيه البشر من عذاب ، اذ أن جميع الألواح وكسر الألواح المدونة فيها تلك المقالة السومرية تمتد فى عهدها الى أكثر من ألف عام قبل أن يدون سفر « أيوب » .

ان الفكرة الأساسية التى يعرضها ذلك الشاعر السومرى هى انه فى

حالات العـذاب والمصائب ليس للضحية المعذب ، مهما تراءى له انه لا يستحق ما حـل به ، سـوى سـبيل واحـد لائق يسـلكه ، ذلك هو أن يمجد ربه دومـا ويتـابع البكاء والضراعة والاسـتغفار له حتى يستجيب لـه . ويكون الالـه فى هـذه الحـالة الالـه الشخصى الحامى للفـرد الذى حـل به العذاب ، أى الالـه الذى كان بموجب العقيدة السومرية ممثلا لذلك الفرد وشفيعا له فى مجلس الآلهة . ولكى يدلل ذلك الشاعر على رأيه نراه لا يركن الى التأمل الفلسفى ولا الى المناظرة اللاهوتية . انه بدلا من ذلك يستشهد بحالة خاصة ، سالكا الاسلوب العملى الذى اتصف به السومريون . انه يعرض حالة رجل ، لم يذكر اسمه ، كان غنيا موسرا ، حكيما ، وصالحا أو أنه على الأقل كان يبدو كذلك . وانه كان ينعم ببركة صفاء العيش مع الاصدقاء ، وذوى القربى . وفيما هو كذلك أحدقت به ذات يوم المصائب والأسقام . فهل ازدرى بالقضاء الالهى ؟ وهل كفر وجدف ؟ انه لم يفعل ذلك مطلقا بل توجه الى الهه بذلة وخضوع وناح وذرف الدمع وسكب مكنون قلبه فى الصلاة والتضرع . فسر لذلك الهه سرورا عظيما ورضى أن يشمله بالرحمة . انه استجاب الى صلواته فخلصه من بليته ومصائبه وأحال عذابه الى فرح وسرور .

يمكن تقسيم القصيدة من جهة بنائها وتركيبها الى أربعة أقسام : فأولا تأتى مقدمة قصيرة فى حث الانسان على التزام تمجيد ربه وتعظيمه وأنه يبغى مرضاته بالتضرع والاستغفار والتوبة . ثم يقدم لنا الشاعر ذلك الفرد المجهول الاسم، الذى نجده بعد أن أضرّ به السقم وحلت به المصيبة والنكبة ، يخاطب ربه بالبكاء والتضرع . ويعقب ذلك بيان ملتمس ذلك المعذب ومطلبه من الهه ، وهو ما يؤلف القسم الأكبر من القصيدة .

ويبدأ هذا القسم من القصـيدة بوصف ما لاقاه ذلك الفرد من ظلم واساءة على أيدى صحبه البشر — الصديق والعدو منهم على السواء . ثم يستمر فى ندب حظه العاثر ، ويتضمن هذا التماسا بليغ العبارة من ذوى قرباه ومن المغنين المرتلين المحترفين بأن يشاركوه فى النـدب ، ويختتم باعترافه بذنوبه والتماسه العون والخلاص . وفى النهاية تأتى « الخاتمة » السعيدة . اذ يقص علينا ذلك الشاعر أن تضرع ذلك الرجل لم يذهب سدى فان ربه تقبّل ضراعته وأجاب ملتمسه فخلصه من مصائبه وقد حمله ذلك على الاستزادة فى تمجيد ربه .

ولكى نوضح روح القصيدة ومزاجها نقتبس هنـا أهم المواطن وأحسنها فهما ووضوحا . وينبغى للقارىء أن يتذكر على الدوام ما سبق أن نوهنا به من أن معرفتنا باللغة السومرية لا تزال غير كاملة وان بعض المواطن المترجمة سيحور فيها ويحسّن بمرور الزمن . ونقدم فيما يأتى قسما من تضرع ذلك المعذب بنص عباراته :

« اننى رجل عارف ،مدرك ، ولكن الذى يحترمنى لايفلح،

لقد حولت كلمتى الصادقة كذبا ،

لقد اكتنفنى الرجل المخادع بـ « الريح الجنوبية » ، واننى مكره على أن أخدمه ،

ان من لم يوقرنى فقد أخزانى أمامك .

« لقد غمرتنى بالعذاب المستديم المتجدد ،

« أدخل البيت وأنا محمل بالأحزان ،

« وأنا الرجل اذا ما ذهبت الى الشوارع أكون معذب القلب ،

« لقد غضب على « راعِىَّ » العادل الصنديد فهو ينظر الى بنظر الشر والعداء ،

« ان الراعى الموكل بى قد ساق قوى الشر على ، أنا الذى لست عــدوه .
ان صاحبى لا يقول لى كلمة صدق ،
ان خلى يقول عن كلامى الصادق انه كذب وزور ،
لقد تآمر على المخادع المرائى .
وانت ، يا الهى لا تحبط مسعاه ...

أنا الحكيم العاقل . لماذا أقيد مع الأحداث الجهلة ؟
أنا المدرك العاقل لماذا أحسب مع الجهال ؟
الطعام وفير فى كل مكان ، ولكن طعامى الجوع .
فى اليوم الذى قسمت فيه الأنصبة ، كانت حصتى المخصصة لى العذاب والألم ،

يا الهى أريد أن أقف بين يديك ،
أريد أن أكلمك .... وكلمتى أنين وحسرات ،
أريد أن أعرض عليك أمرى وأندب مرارة سبيلى .
أريد أن أندب اضطراب ... ،
« على أمى التى ولدتنى ألا تنقطع عن بث شكاتى اليك .

لتكف أختى عن ترديد الأغنية السعيدة فلا تترنم بها .
لتبك وتنح بمصائبى بين يديك ،
لتصرخ زوجتى بالرثاء لعذابى ،
ليندب المغنى الماهر نصيبى التعس .

« يا الهى ان النهار ليشرق نيرا على البلاد ، ولكن النهار فى عينى أسود مظلم .
ان اليوم مشرق ، اليوم الزاهر ، مثل ... ،
ان الدموع والنواح والجزع والغم ملازمة لى .
يحدق بى العذاب والألم كذلك الذى لم يقدر له سوى الدموع .
يمسكنى الحظ السيىء بقبضته ويسلبنى حتى نفس الحياة .
المرض الخبيث يعمُ جسمى .. ،

« يا الهى ، يا من أنت أبى الذى ولدتنى ، ساعدنى على النهوض ،
كالبقرة البريئة فى حسرة ... الأنين ،
الى متى ستظل مهملا اياى وتتركنى بدون حمايتك ؟
كالثـور .... ،
« الى متى ستتخلى عنى وأبقى بلا هداية ؟

« لقد قالوا — أى الحكماء البارعون — كلمة صدق وحق :
لم يولد لأم طفل بلا خطيئة ،

ان الطفل البرىء لم يكن فى الوجود منذ القدم » .

* * *

ان هذا يكفى عن صلاة ذلك الرجل وتضرعه . أما الخاتمة السعيدة فنصها على الوجه الآتى :

« ان ذلك الرجل — قد استمع الهه الى بكائه ودموعه ،

« ان ذلك الشاب — قد استطاعت شكواه وندبه أن تسترضى قلب الهـه ،

« والكلمات الصادقة ، الكلمات الطاهرة التى تفوه بها تقبلها منه الهـة .

« ان الكلمات التى اعترف بها الرجل فى صلاته ،

« قد أفرحت الـ .... لحم الهه .... فحسب الهه يده من كلمة الشر :

« ما يحزن القلب .... لقد احتضن .. ،

« لقد طرد شيطان المرض الذى أحدق به ونشر عليه جناحيه ،

« والمرض الذى ضربه مثل .... قد أزاله وبدده ،

« وبدل مصير السوء الذى قدر عليه بموجب حكمه ،

« وبدل عذاب الرجل فرحا وحبورا ،

« ووضع الى جانبه الملاك الحارس ليحميه ويحرسه ،

« زوده .. بملائكة ذوى سيماء لطيفة خيرة » .

* * *

وبعد هـذا ننتقل من الشئون الجليلة العاليـة الى شئون الحياة الأرضية من « موعظة يوم الأحـد » الى شئون الحيـاة الاعتيادية

فى يوم الأثنين ، من الصلوات الشعرية الى الأمثال النثرية . فالأمثال هى التى تعبر بها الاقوام عن مشاعرها ، لأن الأمثال تكشف لنا عن الميول والاتجاهات المميزة ، وعن الدوافع الاساسيةوالحوافز الباطنية مما يكمن وراء أعمال الانسان وأفعاله ، مما تميل الى اخفائه وتغطيته أبواب الأدب الشعرية .

ان الأمثال السومرية التى جاءنا منها المئات هى الآن سائرة فى سبيل الاكمال والترجمة ، بجهود « ادموند جوردن » بوجه خاص . وسنعرض بعضا منها فى الفصل الخامس عشر .

الفصل الخامس عشر

« الحكمة »

أول أمثال وأقوال مأثورة

ظل « سفر الأمثال » العبرانى زمنا طويلا وهو يعد أقدم مجموعة من الحكم والأقوال المأثورة فى تاريخ الانسان المدون . ولكن عندما اكتشفت المدنية المصرية وتم توضيح أوجهها فى غضون القرن ونصف القرن الماضيين عثر على مجموعات من الأمثال والوصايا المصرية وهى تسبق فى زمنها « سفر الأمثال » التوراتى بسنين كثيرة . ولكن هذه الأمثال المصرية ليست بأية حال أقدم أمثال وحكم مدونة عند الانسان . فان مجموعات الأمثال السومرية تسبق فى عهدها معظم ما هو معروف من المجموعات المصرية ان لم يكن كلها بعدة قرون .

والى ما قبل نحو عشرين عاما خلت لم يكن يعرف أى أمثال سومرية مدونة باللغة السومرية وحدها [1] . ولكن سبق أن نشر عدد قليل من الأمثال المدونة بلغتين ، أى المدونة بالسومرية مع ترجمتها باللغة الأكدية . وان هذه الأمثال جميعها تقريبا قد كتبت فى ألواح ترجع فى تاريخها الى الألف الأول ق . م . بيد أن « ادورد كبيرا » نشر فى عام ١٩٣٤ جملة ألواح وكسر ألواح من مجموعة « نفر » فى متحف الجامعة وهى تتضمن

---

(١) والمقصود بذلك أن الأمثال الأكدية أى الأمثال المدونة باللغة البابلية السامية كانت معروفة لدى الباحثين وكذلك يقال فى الأمثلة المدونة باللغتين الأكدية والسومرية .

(المترجم)

أمثالا يرجع عهد تدوينها الى القرن الثامن عشر ق . م . وهذا يدل على ان أرباب القلم السومريين جمعوا عددا من مجموعات الأمثال والأقوال المأثورة . ومنذ عام ١٩٣٧ خصصت وقتا كثيرا لدرس هذا الباب من أبواب الأدب ، فاستطعت أن أتعرف على عدد كبير من قطع الألواح المدونة بالأمثال السومرية فى متحف الشرق القديم فى استانبول ؛ وفى متحف الجامعة فى فيلادلفيا ، واستنسخت فى الواقع عددا منها فى كلا المتحفين . ولكن لم يتح لى الا فى عام ١٩٥١ — ١٩٥٢ أن وفقت الى استنساخ الألواح الموجودة فى استانبول عن هذا الموضوع ، جميعها تقريبا ، وهى مؤلفة من نيف وثمانين لوحا وذلك فى أثناء اقامتى فى تركيا بصفتى أستاذا باحثا على مشروع « فلبرايت » .

وعند عودتى الى فيلادلفيا ومتحف الجامعة ، الذى يحتوى على مئات من الكسر المتضمنة أمثالا وحكما ، اتضح لى انه ، بسبب انشغالى فى موضوع الأدب السومرى بوجه عام وضرورة تفرغى له ، لم يكن لدى متسع من الوقت لأخصص الجهود اللازمة لدرس هذه المجموعة الكبيرة من الحكم والأمثال . ولذلك عهدت بالنسخ التى استنسختها من متحف استانبول والمادة العلمية الأخرى التى جمعتها عن الموضوع الى « ادموند جوردن » ، الباحث المساعد فى متحف الجامعة . وبعد أشهر من العمل المتواصل وجد « جوردن » ان مجموعات كثيرة (تربو على اثنتى عشرة مجموعة) من الأمثال السومرية ، المحتوية كل مجموعة منها على عدد كبير من الأمثال قد تبلغ فى بعضها المئات ، يمكن جمعها واكمالها من المادة التى كانت فى متناول يده . وقد سبق له أن هيأ للنشر مجموعتين من هذه الأمثال ، اذ استطاع أن يجمع زهاء ثلثمائة مثل من الأمثال الكاملة تقريبا ، والكثير منها لم يكن معروفا من قبل . وقد انتفعت من

جهوده وأدمجت بعضها فى هذا الفصل . ولكن مهما كان الأمر فينبغى للقارىء أن يضع نصب عينيه أن الأمثال بوجه خاص مما يصعب ترجمتها من جراء لغتها المقتضبة الموجزة . ولعل الدراسة فى المستقبل سترينا أن بعض الأمثال التى أوردناها هنا قد أخطأنا فى معناها كليا أو جزئيا .

ان من أهم ما تتميز به الأمثال بوجه عام هو أن مضموناتها عامة دالة . فاذا كنت فى ريب من الأخوة البشرية والانسانية المشتركة بين جميع الأقوام والاجناس ، فارجع الى أقوالهم السائرة وأمثالهم وحكمهم ووصاياهم ونصائحهم ، فانها أكثر من أى انتاج أدبى آخر تخترق قشرة الاختلافات الحضارية وفروق البيئة وتكشف أمام أعيننا طبيعة البشر الأساسية حيثما وأنّى عاشوا . وقد جمعت الأمثال السومرية ودونت قبل نيف وخمسة وثلاثين قرنا ، والذى لا شك فيه أن كثيرا منها قد تداولته الألسنة بالرواية الشفهية قبل أن يدون بقرون كثيرة ، وهى خاصة بأناس يختلفون عنا فى اللغة وفى البيئة الطبيعية وفى العادات والأخلاق والسياسة والحياة الاقتصادية والديانة . ولكن مع ذلك فان السجية أو الخلق الذى تكشف عنه هذه الأمثال السومرية لتشبه سجايانا شبها عجيبا بحيث اننا لا نجد الا بعض الصعوبة فى التعرف منها على انعكاسات ميولنا ، وحوافزنا ، وبواعثنا ، وعيوبنا ، وحيرتنا ، وما ينتابنا من حيرة نفسانية .

فمثلا نجد فيها ذلك المشتكى الباكى الذى يعزو كل اخفاق له الى القضاء والقدر ويظل يشكو قائلا « لقد ولدت فى يوم نحس » .

ثم هناك أيضا أولئك المحبون دائما للتأويل والشرح الذين يسوقون الحجج الواهية الظاهرية على الرغم من ظهور الدلالة الواضحة على عكس ما يقولون . فمن هؤلاء قال القدماء :

« أيكون حمل بلا جماع !
« وهل تحدث سمنة بلا أكل !

أما ماذا رأى السومريون فى الأفراد الفاشلين فيبينه لنا قولهم المأثور : « لو وضعت فى الماء لفسد الماء » . « ولو وضعت فى البستان لبدأت أثماره تفسد » .

وكما هـو حادث فى زماننا فان الارتباك والاضطراب فى الشئون الاقتصادية يسببان القلق لكثير من الناس . وقد عبر القدماء عن ذلك بقولهم المأثور :

« كتب علينا الموت فلننفق ، » ،
« وما دمنا نعيش عمرا طويلا فلنقتصد » .

وبطريقة أخرى :

(يقولون) ان الشعير المبكر (الهرفى) [1] سيفلح — فمن أدرانا ؟
(وقالوا) ان الشعير المتأخر (الافلى) [2] سيفلح — فمن أدرانا ؟

* * *

وكان لبلاد سومر فقراؤها الدائمون مع همومهم ومتاعبهم الدائمة . وقد أوجز ذلك ايجازا بديعا فى مقارناته :

« خير للفقير أن يموت من أن يعيش ،
« فاذا حصل على الخبز عدم الملح ،
« واذا كان لديه الملح عدم الخبز ،
« واذا كان لديه اللحم فيكون قد فقد الحمل ،
« واذا كان عنده الحمل فيكون قد فقد اللحم » .

---

(١) كلمة الهرفى أى الزرع المبكر مستعملة عند فلاحى العراق وهو فصيح حيث يقال اهرفت النخلة اذا عجلت فى ثمرها . (المترجم)

(٢) و « الأفلى » أيضا يستعمل عند فلاحى العراق للزرع المتأخر . (المترجم)

وكثيرا ما كان يلجأ الفقير الى انفاق ما ادخره . أو كما عبر عن ذلك الكاتب السومرى : « يقضم الفقير فضته » . واذا ما أنفق ما ادخره التجأ الى الاقتراض من المرابين القساة أمثال من يعيش بيننا منهم فى عصرنا الراهن . ومن هنا نشأ عندهم القول المأثور : « يقترض الفقير فتركبه الهموم » وهذا يضاهى مثلنا القائل « النقود المقترضة سرعان ما تجلب الهم والندم » .

ومما لا مراء فيه ان الفقراء السومريين كانوا على العموم خانعين مستسلمين لحالهم اذ ليس لدينا ما يدل على أن الفقراء السومريين قد حاولوا الثورة الواعية على الطبقات المثرية الحاكمة ولكن مهما كان الحال فان مثلهم القائل : « ليس كل عيال الفقراء قانعين مستسلمين على السواء » ، اذا صحت ترجمته ، فانه يشير الى قدر ما من الوعى الطبقى .

وشبيه بالمثل الوارد فى سفر الجامعة [1] (٥ — ١٢) القائل « نوم العامل المجد عذب » وبوجه خاص المثل التلمودى : « من أكثر فى المقتنى أكثر فى المشتكى » المثل السومرى : « من ملك الفضة الكثيرة فقد يكون سعيدا . ومن ملك شعيرا كثيرا فقد يكون سعيدا . ولكن من لا يملك شيئا فى وسعه أن ينام » .

ونجد الفقير فى بعض الأحايين وقد أدرك ان اخفاقه لم يكن عن تقصير منه بل لأنه صاحب قرناء السوء :

« اننى جواد أصيل ؛ ولكننى ربطت مع البغل » ،

« ووقع على أن أجر العربة وأحمل القصب والأكداس » .

ويقول السومريون عن ذلك الصانع الفقير الذى لا يستطيع أن يتماك

---

(1) Ecclesiastes

الأشياء ذاتها التى قام بصنعها « يلبس الوصيف الملابس القذرة دوما » . والجدير بالذكر بهذه المناسبة ان السومريين كانوا يقدرون اللبـاس تقديرا عظيما اذ قالوا « كل فرد يميل الى الشخص الذى يلبس الحلة الفاخرة وينجذب اليه » . ومهما كان الحال فتشير الدلائل الى أن بعض الوصفاء استطاع أن ينال الثقافة أو التعليم المتعارف عليه ، كما يؤخذ من قولهم المـأثور :

« انه الوصيف الذى درس فى واقع الحال اللغة السومرية » .

والواضح انه لم يكن جميع الكتبة القدماء حاذقين ماهرين فى ضبط ما يملى عليهم وهم فى هذا الأمر لم يكونوا مختلفين أو متفوقين على نظرائهم كتاب الاختزال فى الوقت الحاضر . ومن هنا منشأ المثـل السومرى : « إن الكاتب الذى تتحرك يده وفاقا مع الفم (أى بسرعة الكلمات المملاة) لهو الكاتب حقا » .

وكان لدى السومريين نصـيبهم أيضا من أولئـك الكتبة الذين لم يحسنوا التهجئة وضبط الكلمات كما يؤخذ من هذا التساؤل البلاغى « الكاتب الذى لا يعرف السومرية ، أى نوع من الكتاب هو ! » .

ونجد « الجنس الضعيف » ممثلا أيضا فى الأقوال المأثورة السومرية ولكن ليس دائما لمصلحتهن . ومع أن « الباحثات عن الذهب » لم يكن معروفات فى بلاد سومر بيد أن السومريين كان لديهم ما يمكن تسميتهن « بالعذارى الواقعيات » . فقد جاء على لسان امرأة شابة بلغت مرحلة الزواج ، فلما سئمت انتظار الخاطب المثالى كفت عن التفتيش للاختيار حيث قالت :

« من الثابت ومن المحوّل القلّب الذى سأحتفظ له بحبى ؟ » .

أما الزواج عند السومريين فلم يكن بالعبء الخفيف . لقد عبروا عن ذلك بوجه سالب فى المثل القائل : « من لم يعل زوجة أو طفلا فقد سلم أنفه من حمل المقود » (والاشارة هنا الى المقود الذى يربط بأنوف الأسرى) .

وكثيرا ما كان الزوج السومرى يشعر بأنه مهمل (من عائلته) ، كما يؤخذ من القول السومرى المأثور : « زوجتى خرجت الى المعبد (المعبد الذى فى خارج المدينة) وذهبت أمى عند النهر (ربما لتحضر أحد الطقوس الدينية) وأنا هنا أموت جوعا » . وهناك الزوجة القلقة البرمة التى لم تكن تعرف ما خطبها فتلجأ الى الطبيب حتى فى تلك الأزمان القديمة . فهذا ما يمكن أن يؤخذ من المثل الآتى ، اذا صحت ترجمته :

« المرأة البرمة القلقة فى البيت تضيف عذابا الى عذاب » .

فلا عجب اذا ما وجدنا الرجل السومرى يندم على زواجه ، على ما يتضح من المثل القائل « من أجل لذته : الزواج ، واذا ما تدبر الأمر : الطلاق » .

كما أنه لا عجب اذا ألفينا العريس والعروس يدخلان فى الحياة الزوجية وهما فى مزاجين يختلف أحدهما عن الآخر ، كما يؤخذ من المثل القائل :

« القلب الفرح — العروس » ،

« القلب المغتم — العريس » .

أما عن الحماة (أم الزوجة أو الزوج) فيبدو انها كانت أهون شرا من نظيرتها فى العصور الحديثة ، وعلى أى حال فلم تأتنا أى قصص

عن « الحماة » السومرية ، ولكن « الكنة » (زوجة الابن) السومرية هى التى كانت ذات شهرة لا تحسد عليها . ويبدو هذا واضحا من المثل الذى يبين ما هو حسن وما هو ردىء للرجل :

« محل التجارة فى الصحراء هى حياة الرجل ،

« والنعل عين الرجل ،

« والزوجة مستقبل الرجل ،

« والابنة خلاص الرجل ،

« والابن ملجأ الرجل ،

« أما الكنة فشيطان الرجل » .

* * *

وكان السومريون يقدرون الصداقة تقديرا كبيرا . ولكن القرابة كانت ، كما هو الحال عندنا ، أهم منها ، كما جاء فى المثل الانجليزى « الدم أكثف من الماء » وفى المثل السومرى « تدوم الصداقة يوما ولكن القرابة باقية الى الأبد » .

والجدير بالملاحظة من ناحيــة المقارنة بين الحضارات ان السومريين لم ينظروا الى « الكلب » على انه « خير صديق للانسان » بل نظروا اليه بالأحرى على انه غير أمين للانسان ، كما يؤخذ من أقوالهم المأثورة مثل : « الثور يحرث ، والكلب يخرب خطوط الحرث العميقة » ومثل : «الكلب هو الذى لا يعرف بيته » و « لا يستطيع كلب الحداد أن يقلب السندان ولذلك فهو يقلب اناء الماء بدلا منه » .

واذا ما بدت لنا نظرة السومريين الى الكلب انها غريبة عما هو متعارف بيننا فقد عبروا عن جملة خوالج واحساسات نفسية نجدها مطابقة فى الواقع لمشاعرنا وخوالجنا على الرغم من انهم صوروها بتعبيرات مختلفة مثل قولهم : « الملاح يسعى الى الخصام » الذى يضاهى مثلنا

القائل « يقاتل البحار عند سقوط قبعة » . وهناك القول السومرى المأثور : « انه لم يمسك بالثعلب بعد، ولكنه يعد له الحبل الذى سيضعه فى رقبته » وهذا يضاهى مثلنا القائل « لا تعد دجاجك قبل أن تفقس من البيض » ثم خـذ المثل السومرى : « تخلصت من الثور الوحشى فجابهتنى البقرة الوحشية » وهـذا بمثابة القول المأثور « من المقلاة الى النار » .

ومما لا مراء فيه ان الوعظ قد كثر فى الحث على الكد والمثابرة فى جميع الأزمان والأمكنة والمثل السومرى الآتى من خير ما قيل بهذا الصـدد :

« يد الى يد يمكنها أن تتم بناء بيت المرء » ،

« ومعدة الى معدة تخرب بيت المرء » .

واليك هذا القول المأثور عمن يريد ألا يكون أقل من جاره :

« من شيّد كما يشيد السيد ، عاش كالعبد . ومن بنى كما يبنى العبد عاش كالسيد » .

وعن الحرب والسلم وجد السومريون القدماء أنفسهم فى نفس المأزق الذى يحدق بنا . فمن جهة كان أخذ الأهبة والاستعداد للطوارىء لازمين للمحافظة على النفس ، أو كما جاء على لسانهم : « الدولة الضعيفة فى العدة والسلاح لا يمكن أن تطرد العدو من أبوابها » ومن الجهة الأخرى كان عبء الحرب وما تتميز به من مبدأ « الواحدة بواحدة » من الأمور الواضحة فيها . ولذلك جاء فى أمثالهم : « تذهب فتستحوذ على أرض العدو ويأتى العدو فيأخذ أرضك » .

ولكن سـواء أكانت هناك حرب أم سلم فانه يلزم الفرد ألا يغفل

شئونه الخاصة فلا تخدعه المظاهر . وقد عبروا عن ذلك بقولهم المأثور :
« يمكن أن يكون لك سيد ، أو قد يكون لك ملك ، ولكن الرجل الذى يُخشى منه انما هو جابى الضريبة » .

* * *

والجدير بالذكر فى ختام هذا الفصل أن نقول ان مجموعات الأمثال والأقوال السائرة المأثورة لم تكن سوى باب واحد من أبواب أدب الحكمة عند السومريين . فان أرباب الكتابة من السومريين قد أنتجوا أيضا رسائل التهذيب والارشاد وهى رسائل يمكن أن تكون مؤلفة من الوصايا والنصائح مثل « تقويم الفلاح » (الذى وصفناه فى الفصل العاشر) . أو تخصص لوصف الحياة الدراسية (أنظر الفصل الثانى) . ولكن الى جانب هذا أغرم الكتبة السومريون بضرب من أبواب أدب الحكمة . ذلك هو المناظرة أو المحاجة . وهى معركة كلامية بين متنافسين أو متفاخرين ، قد يمثل أحدهما فصلا من الفصول أو حيوانا أو نباتا أو معدنا أو حرفة كما فى قصة « قابيل وهابيل » الموجزة فى الكتب المقدسة ، وسنبحث فى موضوع أول مناظرة أدبية فى التاريخ فى الفصل السادس عشر .

الفصل السادس عشر

« المناظرات الكلامية »

أول مناظرة أدبية

لم يكن المعلمون السومريون وأهل الأدب فلاسفة ذوى آراء منسقة منتظمة ، ولا مفكرين عميقين ، والواقع انه لم يكن فى استطاعتهم أن يكونوا كذلك . ولكنهم كانوا ملاحظين ثاقبى النظر للطبيعة ، ولما كان يحيط بهم من العالم . فان الأثبات المطولة للنباتات والحيوانات والمعادن والأحجار التى جمعها « الأساتذة » السومريون لأغراض تعليمية (انظر الفصل الأول) لتدل على درس دقيق على الأقل لأوضح وأبرز خصائص المواد الطبيعية والأحياء . وعكف السومريون أسلاف «الأنثروپولوچيين» الحديثين الذين يعنون بدراسة الحضارة ، عكفوا بشغف على تحليل عناصر المدنية كما عرفوها وجزأوها الى نيف ومائة نظام وحرفة وصنعة وميول وأساليب عمل .

ومن الظواهر البارزة فى العالم الذى يحيط بنا ، ما نشاهده من تجمع بعض العناصر وترابطها الطبيعى بهيئة أزواج ، كبعض الفصول والحيوانات والنباتات والمعادن والآلات والأدوات بحيث يكون مجرد ذكر أحدها يجعل الثانى يثب الى الذهن . وفى الدائرة الزراعية ، كما يمثلها « المجتمع السومرى » ، كان من الأمثلة على هذه الأزواج الصيف والشتاء ، والماشية والغلة والطير والسمك ، والشجر ، والقصب ، والفضة ، والبرونز ، والفأس ، والمحراث ، والراعى ،

والفــلاح . وكان كل فــرد من هــذه الأزواج من بعض الوجــوه والى حــد ما ضــد الفــرد الآخــر وعكسه ، أما صفتها المشتركة ففى دورهما النافع المهم فى حياة الانسان . ولذلك كان السؤال الذى يتبادر الى الذهن هو أيهما كان أنفع للانسان . فان هذه القضية الخاصة بالتقدير قد ضربت على الوتر الحساس بين المعلمين السومريين فابتدع بعض من كانوا أكثر خلقا واتتاجا بابا فى الأدب خصص لهذا الموضوع ألا وهو المناظرة أو الأخذ والرد ، وأهم مظاهرها المحاجة والمناقشة المتكررة بين متخاصمين يعظم كل منهما بدوره من شأن نفسه ويقلل من شأن غريمه . ودونوا ذلك كله تدوينا شعريا لأن الأدباء السومريين كانوا خلفاء أولئك المنشدين أو الشعراء الأميين ممن عاشوا قبلهم ، وكان الشعر أقرب الى سليقتهم من النثر . والعادة انهم كانوا يمهدون لهذه التآليف الأدبية بمقدمة أسطورية مناسبة ، تبين فى الغالب كيفية خلق المتناظرين ، ثم تختتم بخاتمة لائقة ، ينهى فيها أحد الآلهة البارزين فى مجموعة الآلهة السومرية ذلك النزاع بحكم منه .

ولدينا نصوص سبع قطع من هذه المناظرات الأدبية وهى اما كاملة أو بهيئة جزئية ناقصة . ولكن لم يدرس من هذه القطع دراسة كاملة مفهومة حتى الآن سوى ثلاث مناظرات . احداها المناظرة بين « الماشية والغلة » ، وقد سبق لنا أن تحدثنا عنها بتفصيل فى الفصل الثالث عشر . أما القطعة الثانية فيمكن أن نسميها « الصيف والشتاء : أنليل يفضل الاله الفلاح » . وهى من أطول هذه المناظرات ، ومتى أمكن جمع نصها كله من أجزاء الكتابات المتيسرة لنا فستكون على ما يرجح خير مصدر يبين لنا أساليب الزراعة التى كانت تمارس فى الأزمان القديمة . ويمكننا أن نوجز مضمونها بصورة مبدئية على الوجه الآتى :

عزم « انليل » ، اله الهواء ، على خلق جميع أصناف الأشـجار والحبوب ، وأراد أن يعمم الخير والرفاهية فى البلاد، فخلق لهذا الغرض عنصرين من عناصر الحضارة هما الأخوان « ايمش » (أى الصيف) و « اينتين » (الشتاء) . وعين لكل منهما وظائفه الخاصة به . وتبين لنا الأسطر الآتية كيف تم تنفيذ تلك الأعمال :

« لقد جعل « اينتين » النعجة تلد الحمل ، والعنزة تلد الجدى » ،

وجعل الأبقار والعجول ، يزيد عددها ، وكثّر اللبن والزبد » ،

« وفى السهل أفرح قلب المعز الوحشى والغنم والحمار ،

« وأطيار السماء — جعلها تبنى أعشاشها فى الأرض الواسعة ،

« وجعل سمك البحر يضع بيضه فى أحراش القصب ،

« وفى أحراش النخيل والكروم أكثر الخمور والعسل ،

« وجعل الأشجار تحمل الثمر أينما غرست ،

« والبساتين زينها بالخضرة وجعل نباتها وفيرا ،

« وضاعف من الغلة فى أخاديد الحرث ،

« ومثل « أشنان » (الهة الغلة) ، العذراء الرحيمة ، جعل الغلة تنمو وتطلع بشدة ووفرة ،

« (أما) « ايمش » فانه جاء الى الوجود بالأشجار والحقول ، وأكثر من الاصطبلات وحظائر الغنم .

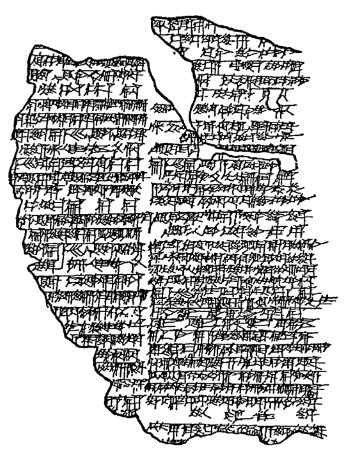
« لقد ضاعف نتاج المزارع وزين الأرض ... ،

« جعل الحصاد الوفير يملأ البيوت وتتكدس به الأهراء ،

« وجعل المدن ومواطن السكنى تشاد ، وتبنى البيوت فى البلاد ،

« وترتفع المعابد كالجبال » .

وبعد أن أتم هذان الاخوان عملهما شدّا الرحال الى مدينة «نُفّر» ، الى « بيت الحياة » ، وجلبا معهما قرابين الشكر والحمد لأبيهما الاله



شكل ٥٦ ـ نسخة يدوية للحقلين من الجهة اليسرى فى وجه اللوح الذى مر ذكره فى اللوح رقم ٥٥

« انليل » . وقدم « ايمش » كهدية منه أنواعا مختلفة من الحيوانات البرية والمدجنة والأطيار والنباتات ، فى حين أن « اينتين » اختار قربانه من المعادن الثمينة والأحجار الكريمة والشجر والسمك . ولكنهما ما ان بلغا باب « بيت الحياة » حتى شرع « اينتين » الحاسد الغيور يخاصم أخاه ، فاشتد الجدل والمناظرة بينهما حتى تحدى « ايمش » دعوى أخيه « اينتين » بكونه « فلاح الآلهة » . فقصدا الى المعبد العظيم

« ايكور » ، المخصص لأنليل وعرض كل منهما قضيته . وبدأ « اينتين » شكواه لأنليل على الوجه الآتى :

« يا أبتى « أنليل » لقد عهدت الى بشئون القنوات فجلبت المياه الوفيرة ،

« وجعلت المزرعة لصق المزرعة ، وكدست الأهراء ،
« وأكثرت الغلة فى خطوط الحرث ،
« ومثل « أشنان » ، العذراء الرحيمة ، جعلتها تنمو بوفرة ،
« ولكن ها هو ذا « ايمش » ... الذى لا يفهم فى عمل الحقول ،
« قد زاحمنى وهو .. ودفع ... بالمرفق .. والمنكب ،
« وفى قصر الملك ... » :

* * *

أما عرض « ايمش » للخصومة ، الذى يبدأ بعبارات الاطراء والتملق الموجه بمكر ودهاء لكسب رضاء « أنليل » ، فانه مقتضب كما انه لا يزال غير مفهوم على الوجه الأكمل . ثم يجيب « أنليل » كلا من « ايمش » و « اينتين » بقوله :

« المياه المنتجة للحياة فى جميع البلاد — « اينتين » هو الموكل بها ،
« انه فلاح الآلهة الذى ينتج كل شىء ،
« فيا بنى « ايمش » كيف ساغ لك أن تقارن نفسك بأخيك « اينتين » !

« تلك هى كلمة « أنليل » السامية ، ذات المغزى العميق ،
« ان حكمه لا يبدل ، فمن ذا الذى يجرؤ على تخطيه ؟ » ،
« (وعندئذ) ثنى « ايمش » ركبتيه أمام « اينتين » وصلى له ،

« وجلب الى بيته الرحيق والنبيذ والجعة ،

« فمتعا نفسيهما بالرحيق المفرح للقلب بالنبيذ والجعة .

« وقدم « ايمش » لـ « اينتين » الذهب والفضة وحجر اللازورد ،

« وسكبا القرابين وهما على أتم ما يكون من الصفاء والمودة والسرور .

« فى الخصومة ما بين « ايمش » و « اينتين » ،

« كان « اينتين » ، فلاح الآلهة الصادق المخلص ، هو المنتصر على « ايمش » ،

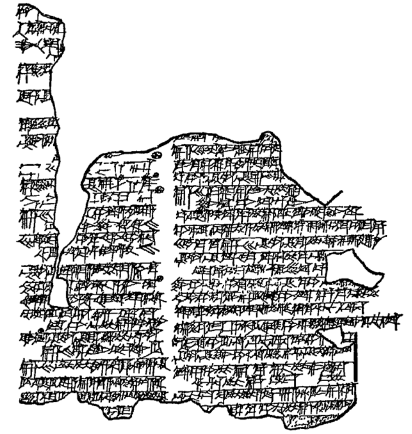
« .... سبحان الأب أنليل والحمد له » .

* * *

أما المناظرة الثالثة فيمكن أن يكون عنوانها «طلب يد انانا» . وهى فى بنائها وتركيبها تختلف عن التآليف المألوفة من الأبواب الأدبية الأخرى . انها ألفت على هيئة تمثيلية صغيرة تتضمن عددا من أشخاص الرواية الذين عين لكل منهم دوره من الكلام فى موضع خاص من الرواية . ولذلك فلا توجد لها مقدمة أسطورية (ميثولوجية) ، وفضلا عن ذلك فان عماد القصيدة لم يوضع بشكل مناظرة بل ان قوامه كلام مطول لا يقاطعه أحد يتفوه به أحد أشخاص الرواية ، وعندما يرى انهم لم يقبلوا ما قاله ويرفضون حججه يأخذ فى تعداد صفاته وميزاته العظيمة . والواقع أننا نجد هذا الشخص نفسه فى موضع آخر من الرواية وهو يذهب ينشد الخصام والعراك مع غريمه ومنافسه . ولكن هذا الغريم كان مسالما حذرا ، وفضل التراضى والمصالحة على الخصومة والعراك .

يوجد أربعة أشخاص فى هذه القصيدة وهم « انانا » وأخوها الاله

الشمس « أوتو » ، والاله الراعي المسمى « دموزي » ، والاله الفلاح « انكمدو » . وبالامكان ايجاز محتوياتها على الوجه الآتي :



شكل ٥٧ ـ نسخة يدوية للحقلين اللذين في الجهة اليمنى في وجه اللوح الذي مر ذكره في اللوح رقم ٥٥

بعد مقدمة قصيرة (وهي ناقصة الى حد كبير) يخاطب الاله « أوتو » أخته الالهة « انانا » ويحثها على أن تصير زوجة الراعي الاله «دموزي» :

« أخوها البطل « أوتو » ، المحارب ،

قال « لأنانا » الطاهرة :

« يا أختاه دعي الراعي يتزوجك ،

« يا « انانا » العذراء علام أنت راغبة عنه ؟

« ان زبده طيب لذيذ ، ولبنه حلو المذاق ،

« وأى شيء مسته يد الراعى صار زاهيا ،

« يا « انانا » دعى الراعى « دموزى » يتزوجك ،

« أنت يا من تتحلين بالجواهر علام عزوفك ؟

« ستشاركينه فى أكل زبده الطيب ،

« فيا حامية الملك لماذا أنت غير راضية ؟ » .

أما جواب « انانا » فقد كان الرفض البات لأنها صممت على أن تتزوج من الفلاح « أنكمدو » :

« أنا ! لن يتزوجنى الراعى .

« وبحلته الجديدة سوف لا يكسونى ،

« وصوفه الناعم سوف لا يغطينى ،

« أنا ، العذراء ، سيتزوجنى الفلاح ،

« الفلاح الذى يجعل النباتات تنمو بوفرة ،

« الفلاح الذى يجعل الغلة تنمو بغزارة .. » .

* * *

وبعد جملة أسطر ناقصة غير مؤكدة المعنى يستمر النص بخطاب مطول يدلى به الراعى ، لعله موجه الى الالهة « انانا » وفيه يعدد صفاته التى تجعله أفضل من الفلاح اذا قورن به .

« الفلاح أفضل منى ! الفلاح أفضل منى ! ماذا عند الفلاح أكثر منى؟

« أنكمدو ؟ صاحب السد والجدول والمحراث ،

« أيكون أفضل منى ؟ فماذا عند الفلاح أكثر منى ؟ ،

« انه اذا ما أعطانى رداءه الأسود أعطيته ، أجل أعطيت الفلاح ، نعجتى السوداء مقابله .

« واذا ما أعطانى رداءه الأبيض ،
« فسوف أعطى الفلاح نعجتى البيضاء بدلا منه ،
« ولو أنه أدار لى جعته المفضلة ،
« لأدرت له ، للفلاح ، لبنى الأصفر بدلا منها ،
« واذا أدار لى جعته الفاخرة ،
« فسأدير له ، للفلاح ، مقابل ذلك لبن الـ « كسم » ،
« واذا أدار جعته المغرية ،
« أدرت له مقابل ذلك لبنى ... ،
« واذا سكب جعته المخففة ،
« أدرت له « لبن النبات » مقابلها ،
« واذا ما أعطانى من أطايبه ،
« فاننى أعطى الفلاح لبنى المسمى « اِتردا » ،
« واذا قدم لى خبزه الطيب ،
« فأعطى الفلاح مقابل ذلك « الجبن الحلو » ،
« واذا قدم لى من فوله الصغير ،
« فأقدم له جبنى الصغير مقابله ،
« وبعد أن آكل وأشرب كفايتى ،
« ففى وسعى أن أترك له الزبد الزائد ،
« الفلاح أفضل منى ؟ ماذا عنده أكثر منى ؟ . » .

ثم نجد الراعى بعد ذلك وهو مبتهج طرب عند شاطىء النهر ، ولعل

سبب ذلك ان حججه أقنعت الالهة « انانا » وجعلتها تغير رأيها ، وهناك يلتقى بالفلاح « انكمدو » ويبدأ بالخصام معه :

« انه ابتهج وطرب . حقا لقد ابتهج على غرين شاطىء النهر ، انه ابتهج ،

« عند شاطىء النهر ، ابتهج الراعى عند الشاطىء ،

« ان الراعى ، فوق هذا ، جاء بغنمه الى شاطىء النهر .

« الى الراعى الذى كان يتمشى جيئة وذهابا عند الشاطىء ،

« اقترب الفلاح ، اقترب الفلاح من الراعى ،

« لقد وصل اليه الفلاح « انكمدو » ،

« دموزى » ... الفلاح رب السدود والجداول ،

« فى سهله ، لقد شرع الراعى فى سهله ، يخاصمه ويعاركه ،

« الراعى دموزى فى سهله بدأ يخاصمه » .

ولكن الفلاح « انكمدو » يأبى أن يدخل معه فى الخصام والعراك ويرضى بأن يدع قطعان « دموزى » ترعى أنىّ شاءت فى أرضه :

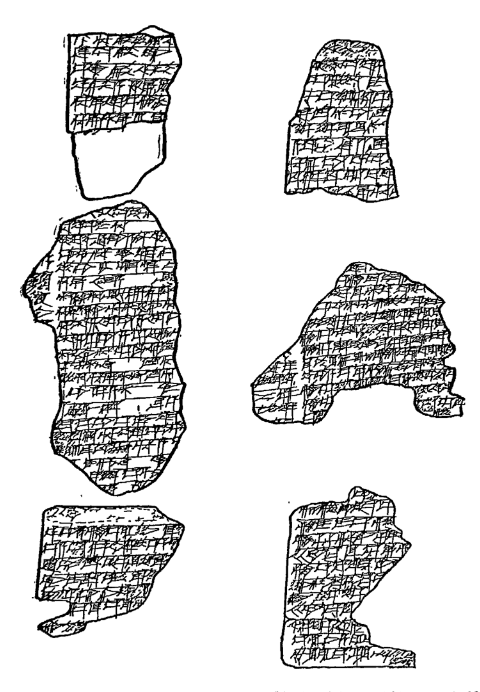
« أيها الراعى تريدنى أن أكون ضدك ، أكون عدوك ، فعلام أسعى للخصومة ؟ ،

« دع غنمك تأكل العشب الذى ينمو على شاطىء النهر ،

« وفى أرضى المزروعة دع غنمك تسرح ،

« وفى حقول « ارك » الخضراء دعها ترعى الغلة ،

« ودع أجداءك وحملانك تشرب الماء من جدولى « أونن » ،



شكل ٥٨ ـ « مناظرة بين « الطير والسمكة » وبين «الشجرة والقصب » : نسخ يدوية غير منشورة لكسر من الألواح الموجودة فى متحف الشرق فى استانبول ، وهى مدونة بمناظرات ومفاخرات بين « الطير والسمكة » وبين « الشجرة والقصب »

وبعد أن تمت ترضية « دموزى » على هذا الوجه ، نجده يدعو الفلاح الى حفل عرسه كصديق من أصدقائه :

« أما فيما يخصنى ، أنا الراعى ، وفى حفل زواجى ،
« عساك تكون أيها الفلاح من بين أصدقائى وخلانى » ،
« أيها الفلاح « انكمدو » عساك تكون صديقا ،
« لعلك تكون خلاً لى أيها الفلاح » .

* * *

وعند ذاك عرض عليه « انكمدو » (الفلاح) انه سيقدم اليه والى « انانا » بعض الطيبات من نتاج مزرعته هدية له بمناسبة عرسه :

« سأقدم لك حنطة . سأعطيك فولا ،
« سأجلب لك عدسا ... ،
« وأنت أيتها العذراء .. مهما أردت ..
« أيتها العذراء « انانا » سأقدم لك ... » :

* * *

ثم يختم الشاعر قصيدته بالجمل الأدبية المعروفة :

« فى الخصومة التى وقعت بين الراعى والفلاح ،
« أيتها العذراء « انانا » ان شكرك خير .
« هى قصيدة .

* * *

والذى لا مراء فيه أن القارىء لابد وقد أحس من قراءته الصحائف المتقدمة بأصوات خافتة لأكثر من صدى واحد لما جاء فى روايات التوراة . فقد مر بنا ذكر « المياه الأولى » (أو البحر الأول) ، والفصل ما بين

السماء والأرض ، وخلق الانسان من الطين ، والأخلاق ، والشرائع والقوانين ، والعذاب والتسليم لمشيئة الآلهة ، وخصام مثل الخصام بين قابيل وهابيل — وكلها تذكرنا ، أو على الأقل تذكرنا الى حد ما بالأفكار والآراء الواردة فى العهد القديم . وننتقل الآن الى قصيدة سومرية تدور على أسطورة الفردوس بما سيعيد الى أذهاننا عدة مواطن وعبارات فى سفر التكوين من التوراة . ومع أن الفردوس المذكور فى هذه القصيدة فردوس الهى وليس فردوسا بشريا ، حيث لا نجد فيه آدم وحواء وهما يستجيبان للاغراء ، ولكن مع ذلك ففى الأسطورة السومرية عدة آراء تضاهى قصة الفردوس التوراتية ، وهى تكاد تقدم لنا توضيحا عجيبا لأصل ومنشأ قصة « الضلع » أى خلق حواء من ضلع آدم .

الفصل السابع عشر

« الفردوس »

أول أوجه مشابهة مع التوراة

ان ما تم من الاكتشافات الأثرية فى مصر وفى الشرق الأدنى فى غضون المائة عام المنصرمة قد فتحت أعيننا على تراث ثقافى وروحى لم تحلم به الأجيال السابقة . فان آفاقنا التاريخية قد اتسعت فى مداها عدة آلاف من السنين بالكشف عن الحضارة المطمورة تحت التراب وبحل رموز اللغات التى كانت ميتة طوال ألوف السنين ، واحياء آداب كانت فقدت ونسى الناس أمرها منذ عهد بعيد . ومن بين أهم النتائج التى حققها ذلك النشاط فى البحوث الأثرية فى « بلاد التوراة » أن ضوءا قويا كاشفا قد سلط على أصل التوراة نفسها ومنشئها . فقد أصبح فى وسعنا الآن أن ندرك ان هـذه المجموعة العظمى من المـآثر الأدبية أى التـوراة لم تظهـر الى الوجـود وهى كاملة النمـو كالأزهـار الاصطناعية النامية فى الفراغ ، وانما تمتد جذورها امتدادا عميقا فى الماضى البعيد ، وتنتشر انتشارا واسع المدى فى البلدان المجاورة . فان أسفار التـوراة فى صيغتها ومضمونها كليهما ليست بالقليلة الشبه بالآداب التى خلقتها وأوجدتها الحضارات القديمة فى الشرق الأدنى . اذا قلنا هذا فلا نقصد من ورائه التقليل بأية حال من أهمية كتابات التوراة أو التقليل من عبقرية الأدباء العبرانيين الذين ألفوا تلك الأسفار . اذ الواقع انه لا يسع المرء

الا أن يعجب ويدهش بما يسمى « المعجزة العبرانية » ، تلك المعجزة التى حولت تلك الأفكار والآراء الســاكنة الجامدة والطرز الأدبية التقليدية عند أسلافهم الى أدب لعله أعظم أدب عرفه الانسان فى حركته ، وأثره ، وقوته الدافعة .

لقد ترك الأدب الذى أوجده السومريون أثره العميق فى العبرانيين ، ومن أكثر الأمور المثيرة فى استعادة الآداب الرفيعة السومرية وترجمتها انما هى فى تقصى أوجه الشبه والمطابقة بين الأفكار والبواعث السومرية والتوراتية . والشىء المؤكد بهذا الصدد أن السومريين ما كان بامكانهم أن يؤثروا فى العبرانيين رأسا وبدون واسطة لأنهم (أى السومريين) كانوا قد زالوا من الوجود قبل أن يظهر العبرانيون فى الوجود . ولكن لا يوجد أدنى ريب فى أن السومريين قد أثروا تأثيرا عميقا فى الكنعانيين الذين سبقوا العبرانيين فى استيطان البلاد التى عرفت بعدئذ باســم « فلسطين » ، وأثروا أيضا فى جيرانهم كالأشوريين والبابليين والحيثيين والحوريين والأراميين. وأوجه الشبه والمضاهاة بين الآداب لدى العبرانيين وبين الأسطورة السومرية المعنونة « أنكى وننخرساج » نرى مثــلا واضحا على أوجه الشبه بين الآداب السومرية وآداب العبرانيين . وقد نشر نص هذه الأسطورة عام ١٩٥١ ولكن محتوياته بقيت غير واضحة الى عام ١٩٥٤ حين نشرت نشرة مفصلة عن النص [١] . ونعرف الآن أن القصيدة السومرية كانت مؤلفة من ٢٧٨ سطرا منقوشة فى لوح مؤلف من ستة حقول ، وهو محفوظ الآن فى متحف جامعة بنسلفانيا ، ويوجد نص صغير مكرر للنص الأول فى متحف « اللوفر » سبق أن تعرف عليه

(١) P. B. Cornwall, "On the Location of Dilmun", in BASOR No. 103 (1946) ; JCS, VI, No. 4 (1952).

« ادوراد كيبرا » ، ويمكن ايجاز موضوع هذه الأسطورة السومرية عن الفردوس ، التى تدور حول الآلهة دون البشر على الوجه الآتى :

كانت بلاد « دلمون »[1] أرضا طاهرة مشرقة ، نظيفة ، أرضا معدة للحياة ، وكانت لا تعرف المرض ولا الموت . ولكن مع هذا كان ينقصها الماء العذب اللازم لحياة الحيوان والنبات . ولذلك نجد اله الماء السومرى العظيم « أنكى » يأمر « أوتو » ، اله الشمس ، أن يملأها بالمياه العذبة النابعة من الأرض . وهكذا تحولت « دلمون » الى حديقة الهية خضراء بالحقول الملآى بالأثمار وبالمروج والرياض . وفى هذا الفردوس الالهى جعلت الآلهة « ننخرساج » ثمانية أنواع من النباتات تنمو وتزدهر . و « ننخرساج » هى (الالهة — الأم) العظمى عند السومريين (ولعلها « الأرض الأم » فى أصلها) ، لم تفلح فى أن تظهر هذه النباتات الى الوجود الا بعد عملية معقدة شملت ثلاثة أجيال من الالهات ولدن كلهن من اله المـــاء . وقد أكدت القصيدة أن ولادتهن قد تمت بدون أدنى ألم عند المخاض . ولكن « انكى » أراد أن يذوق طعم تلك النباتات فأمر رسوله المسمى « ايسمد » وهو الاله الذى يمثل بوجهين[2] ، أن يقتطف له تلك النباتات العجيبة حيث قدمها لسيده الذى أكل كلا منها وأتى عليها كلها بالترتيب . ولما علمت « ننخرساج » بالأمر غضبت ونطقت بلعنة الموت على الاله « انكى » . ولكى لا تغير فى قرارها اختفت من بين الآلهة .

---

(١) رأى المؤلف فى تعيين موضع « دلمون » انها فى الجـزء الشرقى من ســاحل خليج فارس ولكن الأرجح تعيينها بالبحرين على مايرى غير واحد من الباحثين . حول الموضوع انظر البحوث الآتية :

Supplementary study No. 1 of the Bulletin of the American Schools of Oriental Research.

(٢) قارن بهذا الآله الســومرى آله الرومانى « جانوس » آله المداخل والأبواب الذى يسمى باسمه شهر « جنورى » (يناير ـ كانون الثانى) ، حيث يمثل بوجهين أيضا .
(المترجم)

وبدأت صحة « انكى » تتردى ، ومرضت ثمانية من جوارحه . ولما كاد انكى يشرف على الموت اغتم الآلهة العظام وحزنوا وجلسوا فى الرغام . حتى « أنليل » نفسه ، اله الهواء وملك الآلهة السومرية حار فى الأمر ولم يستطع أن يفعل شيئا لانقاذ « انكى » . فانبرى الثعلب وقال للاله « أنليل » انه اذا أحسن مكافأته فسيأتى بالالهة « ننخرساج » من مخبئها . ونجح الثعلب بطريقة ما (ومما يؤسف أن العبارة الخاصة بذلك مكسورة من النص) فى جعل « الالهة — الأم » تعود الى مجمع الآلهة ، وتشفى اله الماء المشرف على الموت . انها أجلسته بجانبها وبعد سؤاله عن الأعضاء الثمانية التى توجعه من جسمه أوجدت ثمانى آلهات شافية خصصت كلا منها بأحد الأعضاء التى حل بها المرض . وهكذا أعيد الاله « انكى » الى الحياة والصحة .

فما وجه المقارنة بين كل هذا مع قصة الفردوس التوراتية ؟ والجواب على ذلك أولا أن هناك من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد بأن نفس فكرة « الفردوس الالهى » هى سومرية المنشأ والأصل . وكان موضع هذا الفردوس السومرى بموجب هذه الأسطورة السومرية فى أرض « دلمون » وهى موضع يرجح انه كان يقع فى الجهة الجنوبية الغربية من بلاد « فارس » (١) . وفى دلمون نفسها كان البابليون ، وهم الساميون الذين غزوا السومريين وأخضعوهم ، قد عينوا موضع « أرض الأحياء » التى كان يعيش فيها الخالدون منهم . وهناك من الدلالة المقنعة أيضا على أن الفردوس المذكور فى التوراة ، والمنعوت فيها بأنه «بستان» غرس فى الناحية الشرقية فى « عدن » ، والموضع الذى تنبع من مياهه أنهار العالم الأربعة التى من ضمنها دجلة والفرات ، يرجح أن يكون مطابقا فى الأصل لموضع « دلمون » ، مكان الفردوس السومرى .

---

(١) انظر تعليق المترجم فى الحاشية رقم (١) فى الصفحة السابقة .

ثم نذكر العبارة الواردة فى قصيدتنا السومرية التى تصف ارواء « دلمون » من جانب الاله الشمس بالماء العذب الذى ينبع من الأرض . وفى هذا ما يشبه ما ورد فى التوراة : « ثم خرج من الأرض ضباب فسقى وجه اليابسة جميعه » (سفر التكوين ٢ — ٦) . وان ولادة الآلهات التى تمت بلا مخاض وألم تلقى لنا ضوءا على أساس اللعنة التى لعنت بها حواء من انه سيكون نصيبها أن تحبل وتلد الذرية بالغم والأسى . ونذكر أيضا أكل الاله « أنكى » من النباتات الثمانية واللعنة التى لعن بها من أجل ذلك الذنب ، حيث يذكرنا ذلك بقصة أكل آدم وحواء من ثمرة شجرة المعرفة واللعنة التى حكم بها على كل منهما من جراء ارتكاب تلك الخطيئة .

ولكن لعل أهم نتيجة توصلنا اليها من تحليلنا المقارن ذلك التفسير الذى تقدمه لنا هذه القصيدة السومرية لتلك الفكرة التوراتية التى تعد من أشد الأمور المحيرة فى قصة الفردوس الواردة فى التوراة . ونعنى بذلك العبارة المشهورة التى تصف خلق حواء « أم جميع البشر » من « ضلع آدم » . فلماذا خلقت من الضلع ؟ وما الذى دفع القصّاص العبرانى أن يختار الضلع دون سائر أعضاء الجسم الأخرى لتخلق منه المرأة ، التى يعنى اسمها «حواء» بحسب تفسير التوراة له « تلك التى تحبى أى تسبب الحياة » ؟ ان سبب ذلك يكون واضحا اذا افترضنا ان أساسا أدبيا سومريا كالذى تقدمه لنا قصيدة « دلمون » هو الذى استندت اليه قصة الفردوس فى التوراة . ففى هذه القصيدة السومرية كان أحد أعضاء الاله « انكى » الذى أصابه المرض هو « الضلع » والكلمة السومرية للضلع هى « تى » (Ti) . ودعيت الالهة التى خلقت من أجل ان تشفى « ضلع » انكى باسم (نن — تى) ، أى « سيدة الضلع » .

ولكن الكلمة السومرية « تى » تعنى أيضا « أحيا » أو « جعله يحيا » . وعلى هذا فيعنى اسم الالهة « نن — تى » السيدة التى تحيى ، أو « سيدة الضلع » . وهكذا صارت « سيدة الضلع » فى الأدب السومرى تعنى أو تطابق بطريق التورية والتلاعب بالألفاظ أيضا « السيدة التى تحيى » . فكانت هذه التورية التى تعد أقدم تورية أدبية من نوعها قد نقلت وخلدت فى قصة الفردوس التوراتية ، على الرغم من أن هذه التورية أو الجناس يفقد صلاحيته فى استعمال التوراة ، لأن الكلمة العبرانية للضلع والكلمة التى تعنى « من يحيى » لا تتشابهان ، أى غير مشتركتين فى اللفظ .

لقد توصلت الى هذا الأساس السومرى المحتمل لتفسير قصة « الضلع » التوراتية بوجه مستقل فى عام ١٩٥٤ . ولكن الفكرة نفسها سبق أن اهتدى اليها قبل ثلاثين عاما الباحث المسمارى الشهير « الأب شايل » (Pére Scheil) على ما أخبرنى المستشرق الأمريكى « وليم أولبرايت » ، الذى أشرف على نشر كتابى ، وهذا مما يعزز ذلك الافتراض ويقربه من الحقيقة .

ولكى أوضح روح تلك القصيدة السومرية سأقدم جملة اقتباسات مهمة من ترجمتها . فان « دلمون » بصفتها أرض الخلود التى لا يوجد فيها مرض أو موت قد وصفت وصفا غير مباشر على الوجه الآتى :

« فى دلمون لا ينعق الغراب الأسود ،
« ولا يصيح طير الـ « اِتدّو » ولا يصرخ ،
« ولا يفترس الأسد ،
« والذئب لا يفترس الحمل ،
« ولم يعرفوا الكلب المتوحش الذى يفترس الجدى ،

« ولم يعرفوا .... الذى يفترس الغلة ،
« ولم توجد الأرملة ،
« والطير فى الأعالى ... ،
« والحمامة لا تحنى رأسها ،
« وما من أرمد يتشكى ويقول « عينى مريضة » ،
« ولا مصدوع يقول « فى رأسى مرض الصداع » ،
« وعجوز « دلمون » لا تقول أنا عجوز » ،
« ولا يقول الشيخ « أنا شيخ طاعن فى السن » ،
« والعذراء لاتستحم . ولا يصب الماء الرائق فى المدينة ،
« ومن عبر نهر (الموت ؟) لا يتفوه ويقول ... ،
« والكهنة النائحون لايحومون حوله .
والمنشد لا يعول بالرثاء ،
« وفى طرف المدينة لا ينوح أو يندب » .

* * *

أما العبارات التى تصف ولادة الالهات تلك الولادة الخالية من الألم والجهد ، والتى تمت بعد حمل تسعة أيام بدلا من تسعة أشهر ، فنترجمها كالآتى :

« خرجت الالهة « ننمو » الى شاطىء النهر ،
« وتطلع « أنكى » فى الأهوار ونظر حواليه ،
« وقال لرسوله « ايسمد » :
« ألا أقبل تلك الفتاة المليحة ؟ ،
« ألا أقبل « ننمو » الفاتنة ،

« فأجابه رسوله « أيسمد » :
« قبّل الفتاة المليحة .. قبّل « ننمو المليحة » .

« ومن أجل مليكى سأثير ريحا شديدة »

« فركب فى القارب وحده ،
« ومرة أخرى قصد الى هناك ... ،
« لقد عانقها وقبّلها « انكى » .
« وأودع « البذرة » فى رحمها ،
« فأخذت البذرة فى رحمها ، أخذت بذرة « انكى » ،
« ومضى يوم واحد فكان شهرها الأول ،
« ومضى يومان كانا بمثابة شهرين من أشهرها ،
« وتسعة أيام صارت أشهرها التسعة ، أشهر « الأمومة » ،
« ومثل الزبد ... كالزبد ... ، كالزبد النقى الفاخر ،
« ننمو ، مثل ... الزبد ... كالزبد ... ، كالزبد النقى الفاخر ،
« ولدت الالهة « نن — كورّا » :

أما أكل النباتات الثمانية فقد وصف فى عبارات تظهر لنا أسلوب الاعادة والتكرار الذى يتميز به الادب السومرى :
« تطلع انكى فى الاحراش والأهوار ونظر حواليه ،
« وقال لرسوله « ايسمد » :
« لأقررن مصير نباتاتهم ، وأعرف قلوبهم ،
« فأرجوك أن تخبرنى أى نبات هذا ؟ وما هذا النبات أيضا ؟ »
« فأجابه رسوله « ايسمد » وقال له « انه نبات الشجر »
« فقطعه له وأكله « انكى » .

« ثم قال له يا مليكى ان هذا النبات هو « نبات العسل » .
« واقتطفه له فأكله ،
« وقال له يا مليكى ان هذا هو نبات الطريق (؟)
« واقتطفه له فأكله ،
« وقال له يا مليكى ان هذا « نبات الماء » ،
« واقتطفه له وأكله ،
« وقال له يا مليكى انه نبات « الشوك » ،
« وقطعه له فأكله ،
« ثم قال له يا مليكى ان هذا نبات « الكَبَر » ،
« وقطعه له فأكله ،
« وقال له يا مليكى انه نبات الـ ... ،
« وقطعه له فأكله ،
« وقال له يا مليكى انه نبات « القاسيا » ،
« وقطعه له فأكله ،
« لقد قرر « انكى » مصير هذه النباتات وعرف « سرها » ؟
« ولما علمت « ننخرساج » لعنت اسم « انكى » وقالت :
« لن أنظر اليه بعين الحياة حتى تحين وفاته » .

* * *

« ثم تختفى « ننخرساج » كما قدمنا . ولكن الثعلب أفلح بطريقة ما فى ارجاعها . فشرعت فى ابراء أعضاء « انكى » الثمانية المعلولة ومن بينها الضلع . وقد حققت شفاءه عن طريق ولادة الالهات الثمانى على الوجه الآتى :

« أجلست « ننخرساج » « انكى » فى حضنها (عند عورتها) .

« ما يؤلمك يا أخى ؟ »

« ان الـ ... هو الذى يؤلمنى » ،

« لقد عملت على ولادة الاله « أبو » من أجلك » ،

— « يا أخى ما علتك التى تؤلمك ؟ » ،

— « ان فكى هو الذى يؤلمنى » ،

— لقد أولدت من أجلك الاله « نن — تثلاّ » ،

— « يا أخى ما يوجعك ؟ » ،

— « ان سنى هى التى توجعنى » ،

— لقد أولدت من أجلك الالهة « نن — سوتو » ،

— « يا أخى ما يؤلمك ؟ » ،

— « انه فمى هو الذى يؤلمنى » ،

« لقد أولدت من أجلك الالهة « نن — كاسى » ،

— « يا أخى ما يؤلمك ؟ » ،

— « ان ... هو الذى يؤلمنى » .

— « لقد أولدت الالهة « نازى » من أجلك » ،

— « يا أخى ما يؤلمك ؟ » ،

— « ان ذراعى هى التى تؤلمنى » ،

— لقد أولدت من أجلك الالهة « آزيموا » ،

— « يا أخى ما يؤلمك ؟ » ،

— « ان « ضلعى » هى التى تؤلمنى » ،

— لقد أولدت من أجلك الالهة « نن — تى » (أى « سيدة الضلع » أو « السيدة التى تحيى ») ،

— « يا أخى ما يؤلمك ؟ » ،

— « انه الـ ... هو الذى يؤلمنى » ،

— « لقد أولدت من أجلك الاله « اين — شاج » .

***

لقد كان الفردوس بحسب تعاليم أهل اللاهوت السومريين وقفا على الآلهة وحدهم دون غيرهم ولا نصيب للانسان الفانى فيه . ولكن انسانا واحدا فقط استطاع بحسب مؤلفى الأساطير السومريين أن يدخل الى ذلك الفردوس الالهى . وهـذا يقودنا الى قصة « نوح » عنـد السومريين وقصة الطوفان . وهى من بين الآداب المدونة بالخطـوط المسمارية التى كشف عنها حتى الآن وهى أهم وأكثر القصص مشابهة لما جاء فى التوراة .

الفصل الثامن عشر

« طوفان »

أول نـــوح

صرنا متأكدين الآن من أن قصة الطوفان التى وردت فى التوراة ، لم تكن فى الأصــل من وضع مدونى أسفار التوراة ، وذلك منذ أن اكتشف « جــورج سمث » الذى كان يشتغل فى المتحف البريطانى ، اللوح الحادى عشر من ملحمة جلجامش ، وحل رموزه . ولكن قصــة الطوفان البابلية بدورها سومرية الأصل [1] . فقد نشر « آرنوپوبل » فى عام ١٩١٤ قطعة هى الثلث الأسفل من لوح سومرى ذى ستة حقول وجده من بين مجمــوعة ألواح « نفر » المحفوظة فى متحف الجامعة . وكانت محتوياتها تتعلق على الأغلب بقصة الطوفان وظلت هذه القطعة حتى الآن وحيدة فريدة لم يعثر على ما يطابقها أو يضاهيها . فانه على الرغم من أن الباحثين ظلوا وهم « كلهم عيــون وآذان » يبحثون عن ألواح جديدة عن الطوفان الا أنهم لم يعثروا ولو على قطعة واحدة أخرى فى أى متحف من المتاحف ، أو بين المجموعات الخاصة أو أثناء التنقيبات. فظلت القطعة التى نشرها « پوبل » مصدرنا الوحيد عن رواية الطوفان عند السومريين كما أن الترجمة التى قدمها « پوبل » لاتزال الأساس المعتبر لدى جميع الباحثين .

---

(١) انظر الفصل الحادى والعشرين .

(المترجم)

ومحتويات هذا اللوح الفريدكبيرة الأهمية لا من أجل حادثة الطوفان وحسب ، بالرغم من أن هذا الموضوع هو موضوعها الأساسى ، بل من أجل العبارات التى تأتى فى مقدمة قصة الطوفان كتمهيد لها . وبالرغم مما فى النص من كسر ونقص ، فان ما ورد فيه من العبارات ذات شأن كبير فى ايضاح العقائد السومرية عن أصل الكون وأصل الآلهة . فهى تتضمن مواطن مهمة تلقى ضوءا كاشفا على خلق الانسان ، وأصل « الملكية » ، ووجود مالا يقل عن خمس مدن فى عصر ما قبل الطوفان . ونقدم هنا كل ما بين أيدينا من نصوص عن أسطورة (الطوفان السومرية) ، على ما فيها من مواطن غامضة مشكوك فيها ومواطن مغرية بالآمال ، وان ذلك ليزودنا بمثال صالح على مبلغ ما يكابده المختص بالمسماريات وما يخبؤه له المستقبل من مفاجآت .

ولما كان القسم الأسفل هو الذى بقى سالما من اللوح فانها تبدأ بعد أن يكون قد مر جزء من القصة كان يملأ ٣٧ سطرا ، وما من سبيل لمعرفة كيف تبدأ الأسطورة . وبعد الكسر نقرأ فى النص كيف يخاطب أحد الآلهة غيره من الآلهة ، ولعله يقول لهم انه سيخلص البشر من الهلاك والدمار ، وان الانسان سيستطيع بعد ذلك أن يبنى المدن ويشيد معابد الآلهة . ويعقب هذا الخطاب ثلاثة أسطر تصعب معرفة علاقتها بسياق النص ، ومن المرجح أنها تصف ما قام به ذلك الاله ليخرج قوله الى حيز العمل . ثم تأتى أربعة أسطر تصف خلق الانسان والحيوانات والنباتات ، واليك نص العبارات بكاملها :

« ان البشر عبادى ، بشرى فى الهلاك المحيق بهم ، سأعمل على .. ،

سأرجع الى « ننتو » .. الخاص بمخلوقاتى ،

سأعيد الناس الى مواطنهم ،

« وسيشيدون فى المدن مواضع الشرائع الالهية ،

« سأجعل ظلالها مريحة مطمئنة ،

« وبيوتنا سيضعون آجرها فى مواضع مطهرة ،

« وسيؤسسون فى أماكن مطهرة ، تلك الأماكن التى نصدر منها ارادتنا » ،

« وسلط الماء الطاهر المطفىء للنار ،

« وأكمل رسوم العبادات والنواميس الالهية ،

« وفى الأرض ... وضع ... هناك .

« وبعد أن خلق « آن » و « أنليل » و « أنكى » و « ننخرساج » ،
القوم ذوى الرءوس السود [1] ،
خرجت المزروعات بوفرة من الأرض ،
وجاءت الى الوجود حيوانات السهل من ذوات الأربع وهى محكمة الصنع والخلق » .

ويعقب العبارات المتقدمة نقص فى النص مقداره نحو ٣٧ سطرا وبعد ذلك تخبرنا الأسطورة أن « الملكية » نزلت من السماء وأسست خمس مدن :

---

(١) سبق تعريف هذا المصطلح بأنه يعنى بوجه خاص السومريين وأحيانا السومريين والاكديين وبوجه عام جميع البشر .

(المترجم)

« بعد أن أنزلت ... الملكية من السماء ،

« وبعد أن أنزل التاج والعرش الخاصان بالملكية من السماء ،

« أكمل رسوم العبادات والنواميس الالهية المقدسة ... ،

« وأسس المدن الخمس فى مواضع مطهرة ... ،

« وسماها بأسمائها وخصصها كمراكز للطقوس والعبادات .

« وأعطى أولى هذه المدن وهى « اريدو » الى « نودِمُّد » [1] القـــائد ،

« والثانية « باد — تبيرا » [2] أعطاها الى .. ،

« والثالثة « لرَك » أعطاها الى « انَدْر بِلخَرْساج » ،

« وأعطى الرابعة « سپار » الى البطل « أوتو » ،

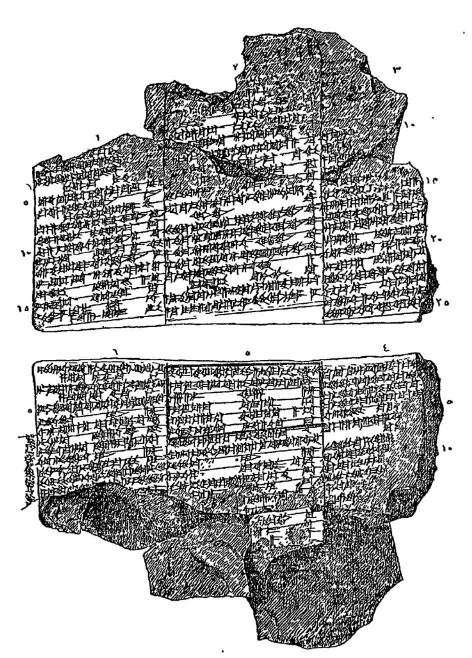
« والخامسة « شروپاك » أعطاها الى « سُدْ » .

ثم يلى كسر آخر مقداره نحو ٣٧ سطرا آخر خصصت لذكر قرار الآلهة باحداث الطوفان وافناء البشر ، وعندما يصبح النص واضحا نجد بعض الآلهة وهم غير راضين وقد أحزنهم ذلك القرار القاسى . ثم يأتى خبر « زيوسدرا » وهو نظير نوح التوراة ، وقد وصف فى الأسطورة بكونه ملكا صالحا ، تقيا ، يخشى الآلهة . وكان يتلهف شوقا الى الاتصال

---

(١) لقب الاله « انكى » وهو آله الحكمة والمعرفة وكان مركز عبادته فى « اريدو » التى ارك تعرف خرائبها الآن باسم « ابو شهرين » . (المترجم)

(٢) موضع سومرى قديم غير معلوم موضعه الآن بوجه التأكيد ، وكذلك يقال انه فى المدينة القديمة ارك . (المترجم)



شكل ٦٠ ـ « الطوفان ، والفلك ، ولوح السمرى » : نسخة يدوية للباحث « أرنوپوبل » للوح الخاص بالطوفان ، وهو موجود فى متحف الجامعة . انه الوثيقة الوحيدة عن قصة الطوفان السومرية

بالوحى الالهى فى الأحلام وفى تلاوة التعاويذ والأدعية ويبدو « زيو سدرا » هذا وقد جلس بجانب حائط يتسمع الى صوت أحد الآلهة وهو يبلغه

بأمر القرار الذى اتخذه الآلهة فى مجمعهم بأن يسلطوا طوفانا « **ليهلكوا** ذرية البشر » . ونورد فيما يأتى أطول الفقرات فى نص الأسطورة : —

« الطوفان ...

. . . .

« هكذا حل بـ ...

« ثم « انتحبت » ننتو وبكت مثل ...

« انانا الطاهرة ناحت من أجل أناسها ،

« فتدبر « انكى » الأمر بنفسه ،

« والآلهة « آن » و « أنليل » و « ننخرساج » ...

« آلهة السماء والأرض نطقت باسم « آن » و « أنليل » ،

« ثم عمد « زيو سدرا » الملك ، الذى هو « پاشيشو » الـ ... ،

« صنع ... ضخما ،

« وبكل خضوع وطاعة وتبجيل صار يتردد دوما الى الـ ... ،

« حاملا معه أخبار جميع أصناف الأحلام ،

« وأخذ ينطق باسم السماء والأرض ...

« ... الآلهة ... حائط ... ،

كان « زيوسدرا » قائما بجانبه وهو يصغى ،

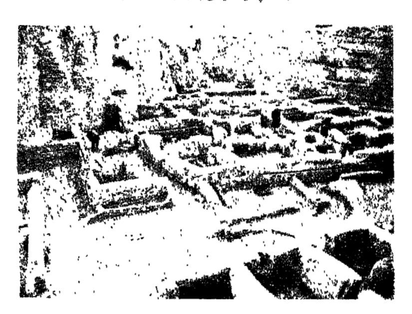
« قف عند الحائط الى جانبى الأيسر ... ،

« وعند الحائط سأبلغك بكلمة ، فخذ بكلمتى ،

« استمع لارشادى ووصاياى :



١ — « حارة الكتبة » فى نفر . صورة من التنقيبات القديمة تبين خرائب البيوت التى وجدت فى الموضع المسمى « تل الألواح » الذى نقبت فيه بعثة جامعة بنسيلفانيا فى ١٨٨٩ — ١٩٠٠



٢ — « حارة الكتبة » فى نفر : صورة من التنقيبات الحديثة حيث تشاهد خرائب البيوت فى « تل الألواح » الذى نقبت فيه البعثة المشتركة بين المعهد الشرقى (جامعة شيكاغو) ومتحف جامعة بنسيلفانيا فى عام ١٩٤٨ — ١٩٥٢



٣ – صورة ترينا ألواح الطين وهى فى مواضعها الأصلية عندما حفرت من الأرض .



٤ — شخص سومري عاش في حدود ٢٥٠٠ ق. م. : تمثال صغير من الرخام وجد في تنقيبات جامعة بنسلفانيا في الموضع المسمى « خفاجي »



٥ — « أسطورة انليل » : اسطوانة من الطين ممسوسة بنص الأسطورة التى دونت فى حدود ٢٤٠٠ ق . م ، وهى موجودة الآن فى متحف جامعة بنسلفانيا



٦ (ا) — أسطورة أخرى خاصة بالإله «انليل» . تحتوى هذه الكسرة التى لم تنشر بعد على قسم من أسطورة انليل فى حدود ٢٤٠٠ ق . م . والكسرة محفوظة الآن فى متحف الشرق فى استانبول .



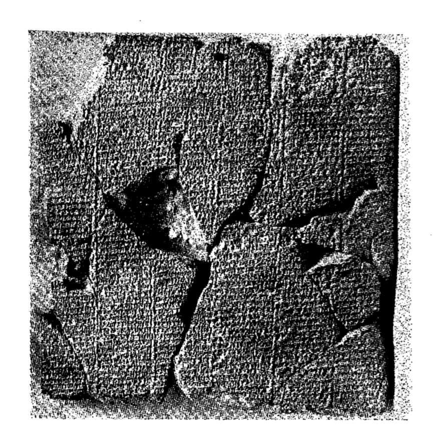
١٢ – أيام الدراسة : خمس كسر من الألواح فى متحف الجامعة استعملت فى استعادة نص الرسالة فى أيام الدراسة .



١٢ — « خط يدك ردىء » : لوح مدرسى من نفر موجود فى متحف الجامعة
ويحتوى على أجزاء مقتبسة من أقدم « معجم » معروف لدى الإنسان .



١٤ – « إينمركار وسيد أرتا » : لوح استانبول . وجه اللوح المكون من اثنى عشر حقلا من الكتابة . وجد في « نفر » وهو محفوظ الآن في متحف الشرق في استانبول .

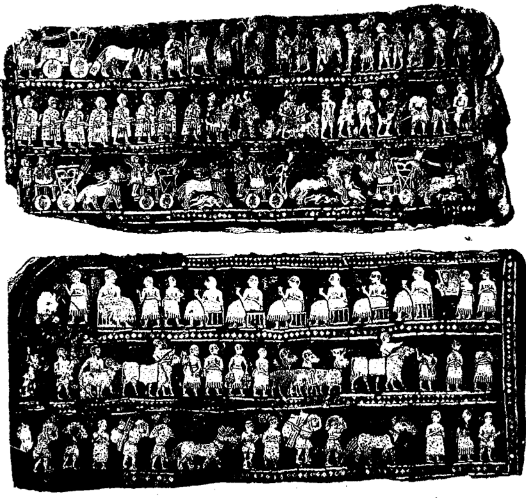


١٥ — ظهر اللوح المبين فى رقم ١٤

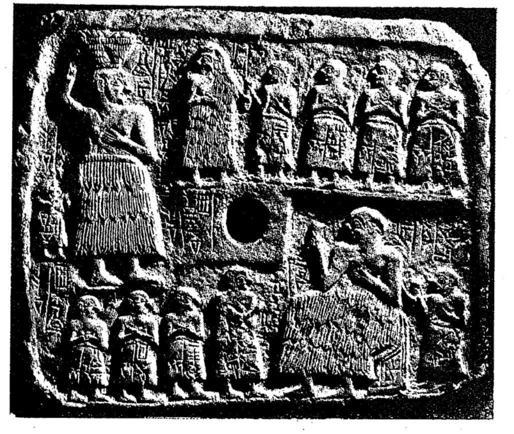




١٦ — « إينمركار وسيد أرتا » : وصلة فيلادلفيا — ان هذه الكسرة الصغيرة الموجودة الآن فى متحف الجامعة هى القسم المفقود من الزاوية السفلى (إلى اليسار) من اللوح الموجود في متحف الشرق في استانبول والمؤلف من اثني عشر حقلا .

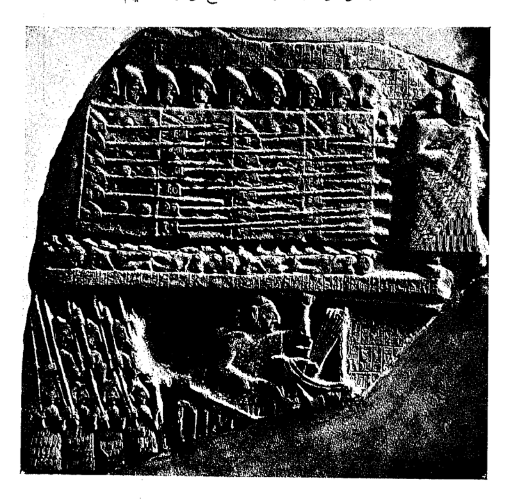


٢٠ – « الحرب والسلم » : « راية » مدينة « أور » : قطعة فنية وجدت فى « أور »
ممثلة فيها مشاهد يرى فيها ملك سومرى وهو فى المعركة ، وفى وليمة الاحتفاء بالنصر .



٢١ — « أور — نانشه » ملك « لجش » : إن هذا اللوح من حجر الكلس . وهو موجود في « اللوفر » ويصور لنا حاكم « لجش » محاطاً بأولاده وحاشية ندمائه .
ويشاهد في الحقل الأسفل وهو جالس يشرب في وليمة .

٢٢ — « مسلة » النسور : مشاهد معركة حربية تصور « ايانا تم » بطل سلالة لجش الغازى الفاتح ، وهو يقود جيش لجش إلى المعركة . وتدون الكتابة المنقوشة انتصاره على أهل « أوما » ومعاهدة الصلح التى فرضت عليهم .



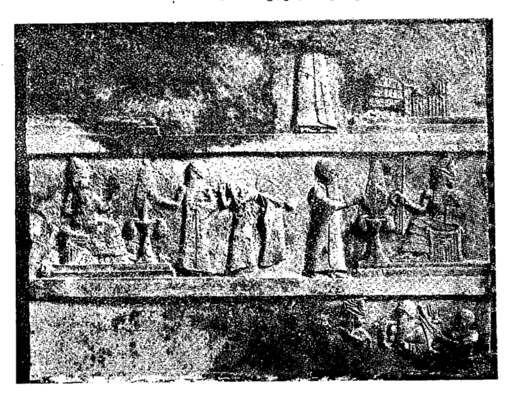
٢٤ – قانون « أور – « نمو » – المقدمة . وجه لوح « نفر » الموجود في متحف الشرق في استانبول وهو مدون بأقدم قانون كشف عنه حتى الآن .

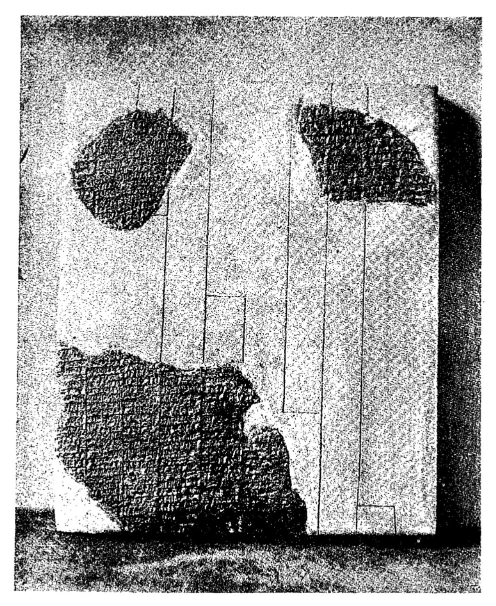




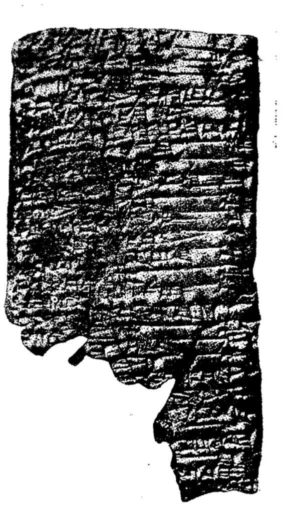
٢٦ – قانون « أور – نمو » – مواد الأحكام . ظهر لوح استانبول السالف الذكر .

٢٧ — « أور — نمو » أول « موسى » (مشرع) : جزء من المسلة التي كشف عنها في « أور » والموجودة الآن في متحف الجامعة .





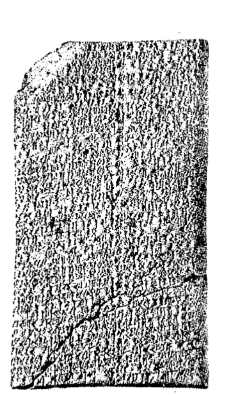
٢٨ – قانون « لبت – عشتار » : ظهر قالب اللوح المؤلف من ثلاث كسر يتضمن أجزاء من أحكام هذه الشريعة .



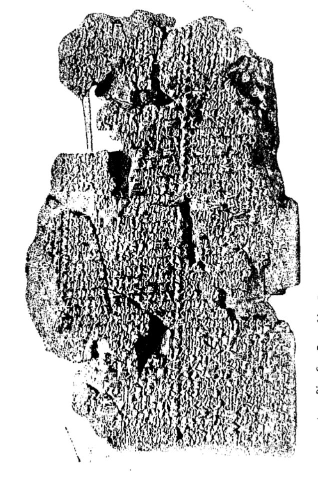
٢٩ — قضية « الزوجة الساكتة »
ظهر اللوح الذى كشف عنه فى تنقيبات البعثة المشتركة بين المعهد الشرقى فى جامعة شيكاجو وبين متحف الجامعة . إنه مدون بقرار المحكمة بعد النظر فى جريمة القتل .



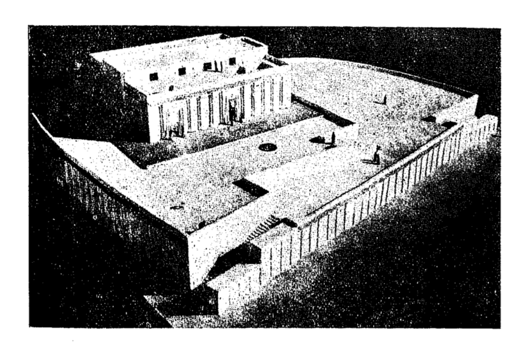
٣٠ — أقدم وصفات طبية عرفها الإنسان : ظهر اللوح الطبى الذى كشف عنه فى نفر وهو موجود فى متحف الجامعة .



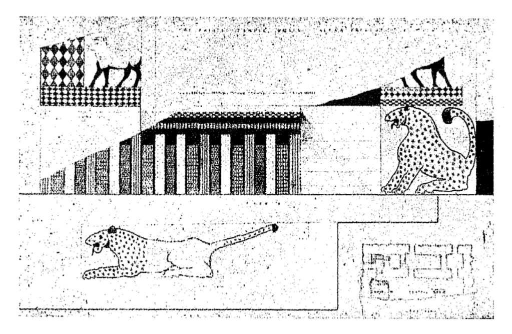
٣١ – ترتيـــلة إلى « الطبيبـة العظيمـة لذوى الرؤوس السود » : صورة ظهر اللوح المؤلف من أربعة حقول والذى وجـد فى نفر ، وهو الآن فى متحف الشرق فى استانبول ، ويرجع فى تاريخه إلى حدود ١٧٥٠ ق . م . إنه مدون بترتيلة إلى الالهة السومرية « نانشه » .



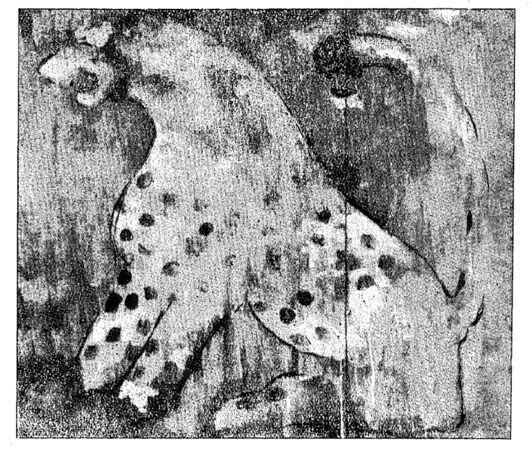
٣٤ – «إنانا» و« شوكليتودا » خطيئة البستانى القاتلة : صورة اللوح المؤلف من ستة حقول من الكتابة والموجود فى متحف الشرق فى استانبول . إنه مدون بأسطورة جاءت فيها رواية « بلاء الدم » .



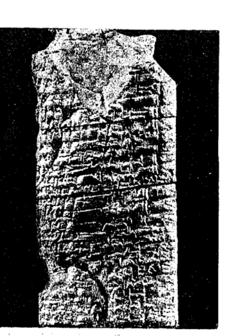
٣٥ — عبادة الآلهة : معبد سومرى « ملون برسوم » : نموذج المعبد الذى كشف عنه
فى تنقيبات دائرة الآثار العراقية فى تل « العقير » فى عام ١٩٤٠ — ١٩٤١



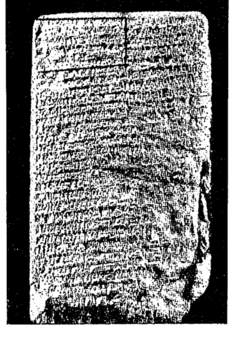
٣٦ — عبادة الآلهة : الأجزاء التى أمكن نقلها من رسوم الجدران
فى هيكل معبد « العقير » المزخرف



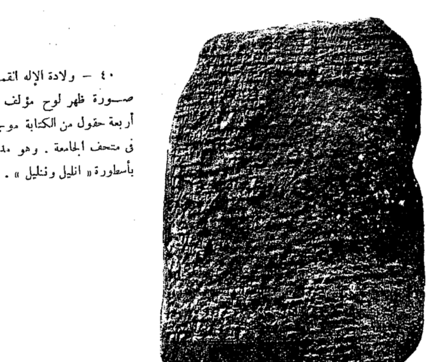
٣٧ – صورة النمر (؟) الذى كان مرسوماً فى هيكل معبد العقير .
نسخة مكبرة لصورة النمر أو الأسد .



٣٨ — « فصل السماء عن الأرض » : لوح من نفر موجود فى متحف الجامعة وهو مدون بجزء من القصيدة المعنونة « جلجامش وانكيدو والعالم الأسفل » .

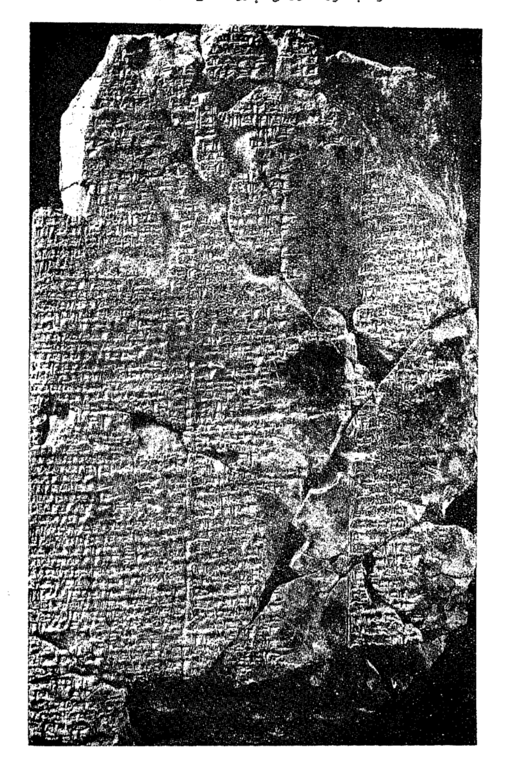


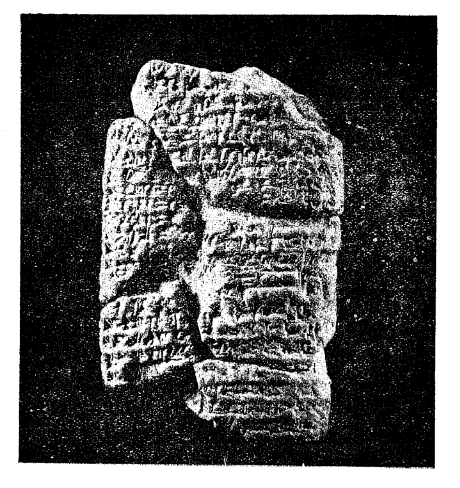
٣٩ — « أنليل » يفصل بين السماء والأرض : لوح من نفر فى متحف الجامعة . وهو مدون بقصيدة « خلق الفأس » .



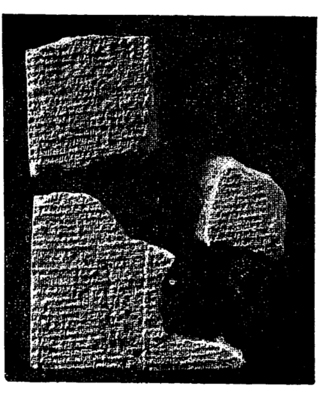
٤٠ – ولادة الإله القمر : صـــورة ظهر لوح مؤلف من أربعة حقول من الكتابة موجود في متحف الجامعة . وهو مدون بأسطورة « انليل وننليل » .

٤١ – « الأنثروبولوچيا » الثقافية : ظهر لوح مؤلف من ستة حقول من الكتابة مدون بأسطورة تدور على الإلهين « أنكى » و« إنانا » .

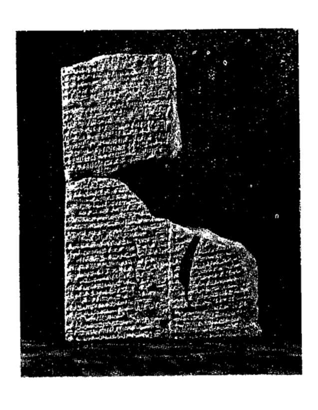


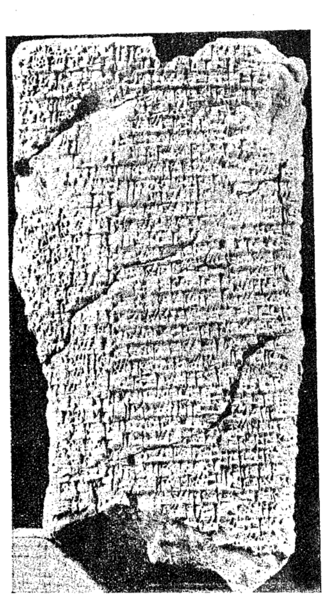


٤٣ — « العدالة الاجتماعية » لوح من نفر موجود فى متحف الجامعة ،
وهو مدون بأجزاء مقتبسة من ترتيلة إلى الالهة .



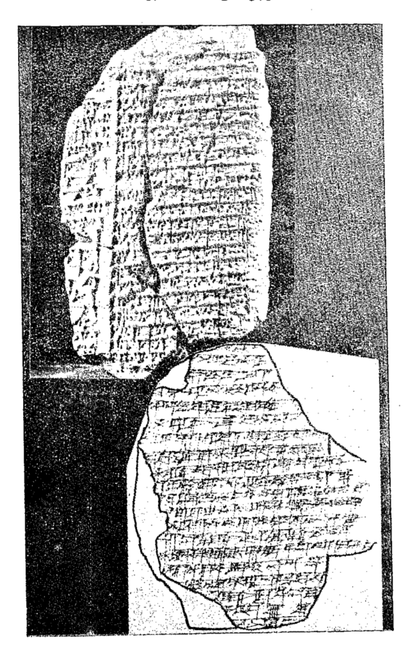
٤٥ و ٤٦ — خلق الإنسان : وجه لوح من نفر فى متحف الجامعة ، وترينا الصورة القطع الزائدة إلى نفس اللوح قبل « الوصل » وبعد « الوصل » فيما بينهما .





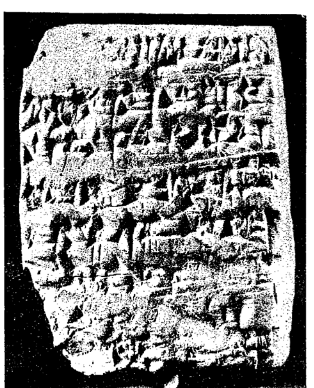
٤٧ — أول « أيوب » لوح من نفر مدون برسالة سومرية شعرية عن « العذاب البشرى » .

٤٨ — أول « أيوب » : طريقة « الوصل » بين كسر الألواح من « المسافات البعيدة » يرينا القسم الأعلى قطعة لوح من نفر فى متحف الجامعة ، والجزء الأسفل قطعة أخرى تعود إلى نفس اللوح موجودة فى متحف استانبول .





٤٩ — « الأمثال » : لوح من نفر فيه مجموعة من الأمثال السومرية المبتدئة بكلمة « رنج » السومرية ، ونشاهد أن كل مثل مفصول بخط عن المثل الذى يليه



٥٠ — الأمثال : أجزاء مقتبسة من مجموعة أمثال « نج » وجه لوح في متحف الجامعة بفيلادلفيا يحتوى على خمسة أمثال من « نج » .



٥١ — الأمثال : جزء من مجموعة أمثال « نج » ظهر اللوح المنشورة صورته فى الصورة رقم ٥٠



٥٢ — الأمثال : مجموعة أمثال « النصيب » لوح من نفر عليه تسعة حقول من الكتابة محفوظ الآن بمتحف الجامعة . وأكثر ما عليه من كتابة يتعلق بأمثال عن النصيب وعن الحيوانات المختلفة .



٥٣ – الماشية والغلة : وجه لوح لم تنشر محتوياته حتى الآن ويوجد فى متحف الجامعة وقد سبق أن عثر عليه فى خرائب مدينة نفر ، وهو يحتوى على جزء من مناظرة أدبية بين إله الماشية « لهار » وإلهة الغلة « أشنان » .



٥٤ – الماشية والغلة : ظهر رقم ٥٣ .

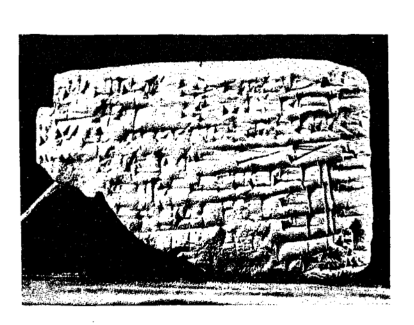


٥٥ — الصيف والشتاء

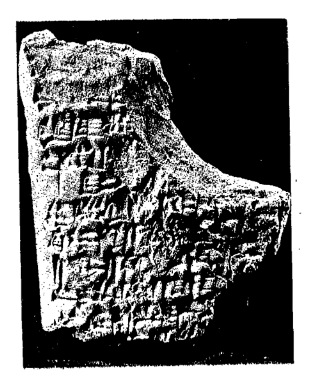
وجد لوح غير منشور يحتوى على ثمانية حقول وقد عثر عليه فى نفر وهو محفوظ الآن فى متحف الشرق القديم باستانبول . ونقرأ فى النص مشادة بين بعض الآلهة الصغار الذين يمثلون الصيف والشتاء (انظر أشكال ٥٦ ، ٥٧ حيث توجد النصوص المكتوبة باليد لما ورد فى هذه الصورة الفوتوغرافية) .



٥٩ — ولادة « سيدة الضلع » ظهر لوح ذى ستة حقول عن أسطورة سومرية خاصة بالجنة .

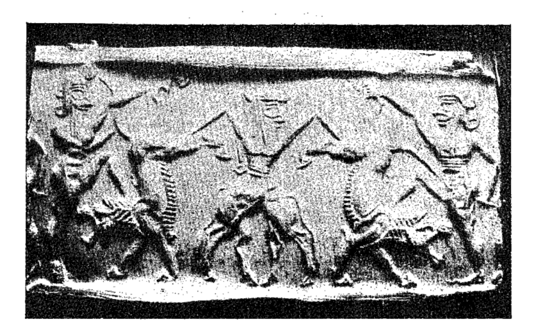


٦١ و ٦٢ – حكمة ما قبل الطوفان – قطعتان من لوح منقوشتان بجزء من موضوع عن « تعاليم شوروپاك إلى ابنه زيوسودرا » .

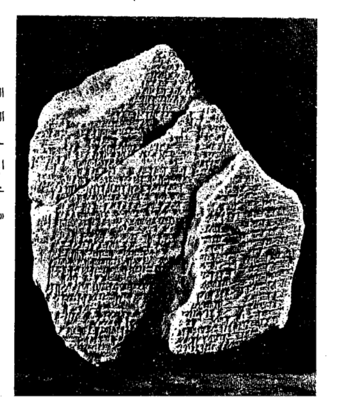




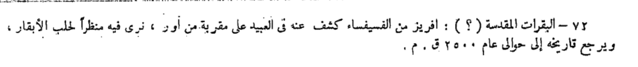
٦٣ — الموت والقيامة : الجزء الأعلى من هذا اللوح الذى عثر عليه فى خرائب نفر ويصف نزول الالهة « إنانا » إلى العالم الأسفل ، محفوظ فى متحف استانبول ، أما الجزء الأسفل ففى متحف الجامعة .



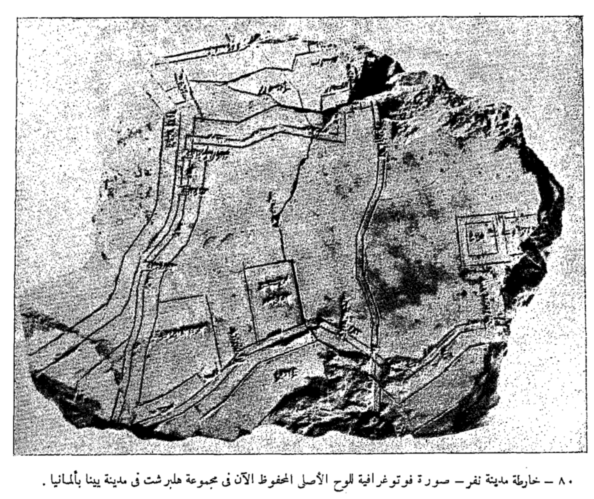
٦٨ — قتل التنين : عثر عليه فى مدينة أور أثناء الحفائر المشتركة بين بعثتى المتحف البريطانى ومتحف الجامعة ونرى فى طبعة هذا الختم الأسطوانى بطلا سومرياً ورفيقاً له أثناء قتلهما التنين .



٦٩ — الأصل السومرى للوح الثانى عشر من قصة جلجامش البابلية — وهو ظهر لوح ذى ستة حقول محفوظ الآن بمتحف الجامعة وقد سبق العثور عليه فى خرائب نفر ومكتوب عليه قصة «جلجامش وأنكيدو والعالم الأسفل»



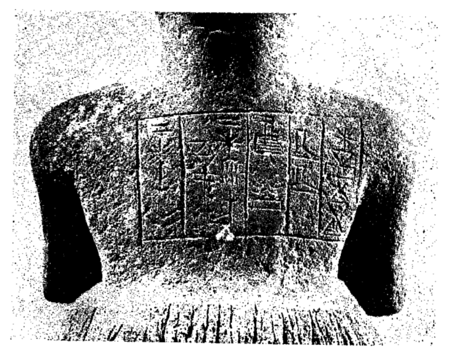
٧٢ – البقرات المقدسة (؟) : افريز من الفسيفساء كشف عنه فى العبيد على مقربة من أور ، نرى فيه منظراً لحلب الأبقار ، ويرجع تاريخه إلى حوالى عام ٢٥٠٠ ق . م .



٨٠ – خارطة مدينة نفر – صورة فوتوغرافية للوح الأصلي المحفوظ الآن في مجموعة هلبرشت في مدينة يينا بألمانيا .



٧ — « دودو » كاتب سومرى عاش فى حدود ٢٣٥٠ ق . م . فى مدينة « لجش » التمثال موجود الآن فى المتحف العراقى فى بغداد .



٨ — « دودو » : النقوش الكتابية فى ظهر التمثال التى تنص على أن مهنة هذا الشخص هى « الكتابة » .



٩ — كتاب مدرسى فى النبات والحيوان : ترينا الصورة ظهر اللوح الذى كشف عنه فى « خرائب تل حرمل » فى ضواحى بغداد (فى المتحف العراقى)



١٠ — تل « حرمل » : مشهد عام يظهر فيه المعبد والقصر والمدرسة (؟) نقبت فيه دائرة الآثار العراقية .

١١ – أيام الدراسة . « بركة المعلم » : ترينا الصورة ظهر لوح ذى أربعة حقول موجود فى متحف الجامعة ، ومدون برسالة عن الحياة المدرسية . لاحظ توقيع الكاتب تحت الخطين المزدوجين فى العمود الأيسر .



« فى (مجمعنا) (؟) ... ان طوفانا سيدمر مراكز العبادة ،
« وتهلك ذرية البشر ... ،
« إن هذا هو القرار الذى أصدره الآلهة فى مجمعهم .
« وبالكلمة التى أمر بها « آن » و « انليل » ،
« (سيؤتى) على ملوكيتها ونظام حكمها » .

ويلزم أن يكون النص فى أصله الكامل قد استمر ببيان الارشادات المفصلة التى بلغها الاله الى « زيوسدرا » بأن يبنى فلكا عظيما لينقذ نفسه من الهلاك ، ولكن ذلك ناقص من النص لوجود كسر آخر يتضمن زهاء ٤٠ سطرا . ولما أن يصبح النص واضحا من بعد ذلك نقرأ أن الطوفان العنيف المدمر قد حــل فى البلاد وظل ثائرا محتدما طوال سبعة أيام وسبع ليال ثم يشرق الاله « الشمس » مرة ثانية ناشرا ضوءه النيّر فى كل مكان . فيسجد « زيوسدرا » له ويقدم الأضاحى والقرابين، على ما جاء فى الأسطر الباقية من النص :

« كانت جميع الزوابع تهجم بعنف وضراوة وهى مجتمعة ،
« وفى الوقت نفسه جرف الطوفان مراكز العبادة ،

« وبعد أن استمر الطوفان سبعة أيام وسبع ليال ،
« واكتسح الطوفان البلاد ،
« وكانت السفينة الضخمة تتقاذفها الأعاصير فى المياه الجارفة ،
« ظهر « أوتو » الذى نشر ضوءه على السماء والأرض ،
« فتح « زيوسدرا » شباكا فى الفلك العظيم ،
« وأنفذ البطل « أوتو » أشعته فى الفلك العظيم ،

« زيوسدرا » الملك ،

سجد أمام « أوتو » .

« وقتل الملك ثورا وذبح كبشا » .

ويعقب هذا الموطن أيضا نقص فى النص قوامه نحو ٣٩ سطرا . ثم تصف لنا الأسطر الأخيرة من النص كيف ألهوا « زيوسدرا » . فانه بعد أن سجد للاله « آن » و « انليل » وهبت له الحياة (الخالدة) مثل اله ، وزود بالنفس الخالد ونقل الى « دلمون » ، حيث مطلع الشمس :

« فاه « آن » و « انليل » بـ « نفس السماء » و « نفس الأرض »
فانتشر بـ ...

« وظهر النبات والزرع وارتفع ،

« الملك « زيوسدرا » ،

« سجد أمام « آن » و « انليل » ،

« واصطفى « آن » و « انليل » زيوسدرا ،

« ووهباه الحياة مثل اله .

« لقد أدخلا فيه النفس الخالد مثل اله ،

« زيوسدرا » ،

« الملك الذى حافظ على الزرع والذي صان ذرية البشر ،

« وفى أرض « العبور » فى أرض « دلمون » ، الموضع الذى تشرق منه الشمس ، أسكناه هناك » .

أما باقى اللوح ، وكان يحتوى على ٣٩ سطرا من النص ، فهو مكسور ولهذا لا نعرف شيئا عما عساه أن يكون قد حدث لزيوسدرا الذى انتقل من بشر الى اله فى عالم الخالدين .

وننتقل الآن من « الفردوس » الى الجحيم « هادس » ، من « الأعلى العظيم » ، الى « الأسفل العظيم » ، أو الى الموضع الذى نعته السومريون بالأرض التى لا رجعة منها . فالى هذه الأرض المظلمة المخيفة الخاصة بعالم الأموات نزلت « الهة » جموح عنود لتشبع رغباتها الغريبة الجامحة. ان قصة الهبوط الى العالم الأسفل التى سنرويها فى الفصل التاسع عشر تعد من أحسن الأساطير السومرية سلامة من بين ماكشف عنها حتى الآن وهى تعرض لنا شبها فريدا بأحد الموضوعات الهامة التى وردت فى العهد الجديد .

الفصل التاسع عشر

« العـالم الأسفل »

أول قصة عن العودة إلى الحيـاة

الكلمة السومرية المناظرة لكلمة « هادس » الاغريقية و « شيئول » العبرانية هى « كور » التى تعنى فى أصلها « جبلا » ثم صارت تعنى بعدئذ « البلاد الأجنبية » ،لأن الأقطار الجبلية المتاخمة لبلاد « سومر » كانت خطرا مستديما على أهلها . وفى ناحية العقائد الخاصة بالكون وأصل الأشياء كانوا يعدون « كور » المكان الفارغ بين سطح الأرض وبين « البحـر الأول » ، واليه تذهب أشباح الموتى جميعها . وكان الوصول اليه يستلزم عبور « نهر يبتلع الانسان » ، وبواسطة قارب يسيره ملاح خاص هو « الموكل بالقارب » ، وهذا أيضا يضاهى نهر « ستايكس » والملاح « كارون » [1] عند الاغريق .

ومع ان « العالم الأسفل » هو الموطن الخاص بالأموات ، الا أن فيه نوعا من الحياة والعيش . فمثلا يصف لنا سفر « اشعيا » (١٤ : ٩—١) تلك الحركة والاضطراب الذى حل فيه ، واضطراب أشـباح الملوك والرؤساء السابقين عند قدوم ملك بابل الى ذلك العالم . ويوجد فى متحف الجامعة لوح ، نشره « ستيفن لنجدون » فى عام ١٩١٩ ، مدون بقصيدة (سومرية) تصف لنا فى الواقع ما لاقاه ملك سومرى من أحداث

---

(١) فى الأساطير اليونانية نهر « ستايكس » هو نهر « هادس » أى العالم الأسفل أو جهنم و « كارون » هو الملاح الموكل ينقل الموتى بقاربه هناك . (المترجم)

فى ذلك العالم الأسفل . ويمكن تقرير مضمون ما بقى سالما من اللوح على الوجه الآتى :

بعد أن توفى الملك « أور — نمو » ذهب الى « كور » ، وهناك آخذ يقدم أولا الهبات والقرابين الى سبعة آلهة من آلهة العالم الأسفل ، كل فى قصره الخاص به . ثم قدم الهدايا بعدئذ إلى آلهين ، أحدهما «كاتب» العالم الأسفل ، ليضمن عونهما له . وأخيرا نجده يصل الى موضع خاص هيأه له الموظفون الكهنة فى « كور » ليكون مسكنه الخاص . وهنا يحييه ويرحب به بعض الموتى لتزول عنه الوحشة . ثم يتصل به البطل الميت « جلجامش » الذى أصبح « قاضيا فى العالم الأسفل » ويلقنه ويعلمه القواعد والأصول التى يسير بموجبها أهل تلك المناطق الجهنمية . ولكن بعد أن انقضت سبعة أيام ثم « عشرة أيام » صار يسمع بكاء بلاد سومر ونحيبها . وكانت أسوار مدينة « أور » التى تركها ولم يكمل بناءها ، وقصره المشيد حديثا ، الذى خلفه بدون تطهير ، وزوجه التى حرم من احتضانها ، وطفله الذى لم يعد قادرا على ملاعبته وهو يجلس فوق ركبتيه — كل ذلك أقض مضجعه وأقلق راحته فى العالم الأسفل . فشرع ينتحب نحيبا مرا متواصلا .

وكان من الممكن لأشباح الموتى فى مناسبات وأحوال خاصة أن «تقوم» فتصعد الى الأرض لأمد محدود .فيخبرنا مثلا سفر «صموئيل» الأول (الاصحاح ٢٨) استحضار شبح ذلك النبى (أى صموئيل) من « شيئول » عندما أصر على ذلك الملك شاؤل . ويضاهى هذا ما ورد فى القصيدة السومرية « جلجامش وانكيدو والأرض السفلى » (أنظر الفصل ٢١) اذ تقص علينا قيام شبح « انكيدو » من « كور »

الى سيده « جلجامش » الذى كان ينتظره لمعانقته ، وتروى لنا الحديث الذى جرى ما بينهما أيضا .

ومع ان المفروض أن « كور » كانت مقتصرة على البشر الفانين ، فقد كان فيها عدد من الآلهة المفروض فيهم انهم من الخالدين ، ولدينا بعض الأساطير التى تفسر سبب وجود بعض الآلهة فى العالم الأسفل .

فبموجب القصيدة المسماة « ولادة الاله القمر » (أنظر الفصل الثالث عشر) أبعد « انليل » ، كبير الآلهة السومرية (عن مجتمع الآلهة) حيث نفته الآلهة الأخرى من مدينة «نفَّر» الى العالم الأسفل لأنه اغتصب الالهة « ننليل » . وفى طريقه الى منفاه فى العالم الأسفل نجده يصبح أبا لثلاثة من آلهة العالم الأسفل (نعرف منهم اثنين من المصادر الأخرى) . ولكن فى قصة الاله الراعى «دموزى» ، أشهر الآلهة «الميتة»، يمكننا أن نتتبع بقدر واف من التفصيل الوقائع والحوادث التى أدت الى نزوله الى العالم الأسفل ، كما جاء فى تلك الأسطورة التى تدور قبل أى شئ آخر حول زوجته الالهة « انانا » ، وهى الالهة التى كانت موضوعا محببا لمؤلفى الأساطير السومريين .

ان الهة الحب ، مهما اختلفت أسماؤها التى عرفت بها بين الأمم القديمة ، قد افتتن بها خيال البشر فى جميع العصور . فان « فينوس » عند الرومان و « افروديت » عند الاغريق و « عشتار » بين البابليين كان لهن من المغنين المنشدين والشعراء من غنى بمآثرهن وسيئاتهن . وعبد السومريون الهة الحب تحت اسم « انانا » أى « ملكة السماء » ; وكان زوجها هو الاله الراعى المسمى « دموزى » وهو « تموز » الوارد ذكره فى التوراة ، حيث حرم النواح والبكاء لموته ، وقال النبى «حزقيال» فى عهد متأخر فى النصف الثانى من الألف الأول ق . م . بأنه أمر بغيض

مكروه . وقد روى خبر عشقه وخطبته للالهة «انانا» فى قصتين سومريتين احداهما هى تلك الأسطورة التى ذكر فيها منافس « لدموزى » هو الاله الفلاح « أنكمدو » ، وقد سبق أن أوجزناها فى الفصل السادس عشر . أما القصة الثانية فان الاله « دموزى » يتفرد بطلب يد « انانا » ويكون خاطبها الوحيد . ففى هذه القصة نجد ان الاله الراعى «دموزى» يقصد بيت الآلهة « انانا » وكان اللبن والزبد يقطر من يديه وجوانبه ، وأخذ يلح فى الدخول ، وبعد أن تستشير « انانا » أمها فى الأمر تغتسل وتطيب نفسها بالدهان وترتدى حللها الملكية وتزين نفسها بالأحجار الكريمة ، ثم تفتح الباب لعريسها المرتقب ، فيتعانقان وربما يتضاجعان ثم يأخذها الاله « دموزى » الى المدينة الخاصة بالهه .

ولكن لم يدر بخلد الاله « دموزى » أن ذلك الزواج الذى تاق اليه بذلك الشوق العارم سيفضى به الى الهلاك ويؤدى به الى جهنم . لقد فاته أن يأخذ حذره من طموح المرأة الذى يملك عليه مشاعره وهذا ما ترويه لنا الأسطورة المسماة « نزول « انانا » الى العالم الأسفل » ، وهى أسطورة ذات أهمية بالغة لما تضمنته من فكرة البعث (العودة الى الحياة) ويمكن تلخيص موضوعها وفكرتها على الوجه الآتى :

بالرغم من أن « انانا » كانت « سيدة السماء » أى « العالم الأعلى العظيم » ، كما يشير الى ذلك اسمها ، الا انها كانت تسعى أيضا وراء سلطان أوسع ، اذ استهدفت أن تحكم مناطق جهنم أيضا ، أى « العالم الأسفل العظيم » . ولهذا صممت على أن تهبط الى العالم الأسفل لترى ما يمكن عمله بهذا الشأن . وبعد أن جمعت لديها كل « النواميس » الالهية اللائقة وازدانت بحللها وحلاها الملكية ، كانت على أهبة الدخول الى تلك « الأرض التى لا رجعة منها » .

« وكانت الملكة التي تحكم في « العالم الأسفل » أختها الكبرى وعدوتها اللدودة « ايرشكيجال » وهي الهة الموت والظلام عند السومريين . وان « انانا » خشية أن تميتها أختها في ذلك العالم الذي تحكمه — وكانت محقة في تخوفها — احتاطت للأمر فأوصت وزيرها « ننشوبر » ، الذي كان طوع يديها ويلبى نداءها على الدوام ، أنها اذا لم تفلح في العودة من بعد ثلاثة أيام فعليه أن يندبها عند الخرائب في قاعة « مجمع الآلهة » ، ثم عليه أيضا أن يشد الرحال الى « نفر » ، مدينة الاله « انليل » ، كبير الآلهة السومرية ، فيستعطفه ليخلصها ولا يدعها تموت في العالم الأسفل . واذا رفض « انليل » نجدتها فعلى « ننشوبر » أن يقصد « أور » ، مدينة الاله القمر « ننا » فيعيد الضراعة . أما اذا أبى « ننا » مد يد المساعدة فيلزم على وزيرها أن يذهب الى « اريدو » ، مدينة « انكى » ، وهو اله الحكمة الذي يعرف سر « طعام الحياة » ويعرف « ماء الحياة » ، ولن يتقاعس هذا الاله عن المبادرة الى نجدتها وانقاذها .

وبعد هذا نجد « انانا » تهبط الى « العالم الأسفل » وتقترب من معبد « ايرشكيجال » المشيد من حجر اللازورد . وعند الباب يعترضها رئيس حراس المدخل الذي طلب منها أن تخبره من تكون ، ولماذا جاءت الى العالم الأسفل . فلفقت « انانا » عذرا لزيارتها ، وبعد ذلك يقودها رئيس الحجاب بموجب الأوامر والتعليمات التي تلقاها من سيدته (ملكة العالم الأسفل) ، ويمر بها من أبواب العالم الأسفل السبعة . وكانت كلما مرت بباب من الأبواب جردت من حللها وحلاها قطعة قطعة ، على الرغم من ممانعتها واحتجاجها . وأخيرا بعد أن مروا بها من الباب الأخير قادوها وهي عارية لا يستر جسمها شيء ، وأمرت أن تسجد الى « ايرشكيجال » والى « الأنوناكي » ، وهم القضاة السبعة المخيفون

الخاصون بالعالم الأسفل ، فصوبوا اليها نظرات الموت وتحولت من أثرها الى جثة هامدة ، علقت من عمود قائم .

« لقد مرت ثلاثة أيام وثلاث ليـال وفى اليوم الرابع لمـا رأى « ننشوبر » ان سيدته لم تعد ، شرع يستجير بالآلهة حسب وصاياها له . ولكن ، كما خمنت « انانا » أبى كل من « انليل » و « ننا » مد يد المساعدة . الاانالاله « انكى » ابتدع وسيلة لبعثها الى الحياة بأن صنع مخلوقين لا جنس لهما اسمهما « كورجَرّو » و « كَلَتُرّو » . وزودهما بطعام الحياة وماء الحياة وأمرهما أن يذهبـا ويدخـلا الى العـالم الأسفل وينثرا ذلك « الماء » وذلك « الطعام » على جثة « انانا » المعلقة . ففعلا ما أمرا به ، وعادت « انانا » الى الحياة .

« ولكن على الرغم من أن « انانا » عادت اليها الحياة فان آلامها ومتاعبها لم تكن قد انتهت ، لأن هناك قانونا لا مفر منه من قوانين « الأرض التى لا رجعة منها » يقضى بأنه ما من أحد يدخل من أبوابها يستطيع العودة الى العالم العلوى الا اذا قدم بديلا عنه ليحل محله فى العالم الأسفل . وتلك قاعدة لم تستثن منها « انانا » . فقد أذن لها أن تقوم وتعود الى الأرض ، ولكنها كانت فى حراسة عدد من الشياطين الغلاظ بعثوا بهم معها وأمروا بأن يعودوا بها الى المناطق السفلى ان هى أخفقت فى أن تقدم الها يحل محلها فى العالم الأسفل . وهكذا شرعت « انانا » بالمسير وهى محاطة بأولئك الشـياطين الحراس ، الأغوال . وقصدت أولا الى المدينتين السومريتين « أوما » و « باد تبيرا » فحل الذعر فى قلب الالهين الحاميين لهاتين المدينتين وهما الالهة «شارا» والاله « لتراك » من مشهد ذلك الموكب المرعب المخيف ، فلبسا المسوح ، وتمرغا فى التراب أمام « انانا » . فتقبلت على ما يبدو خضوعهما وتذللهما

اذ انها منعت الشياطين من أخذهما الى العالم الأسفل لما هموا بذلك ، فخلصت حياة هذين الالهين .

« ثم تواصل « انانا » ، ومعها حشد الشياطين ، سفرها فتصل الى المدينة السومرية « كُلاَّب » وهى مدينة كان الهها الحامى الخاص بها هو الاله الراعى « دموزى » . ولما كان هذا زوج « انانا » فليس غريبا اذا ما وجدناه يأبى ارتداء المسوح والتمرغ فى الأرض أمام قرينته ، بل انه بدلا من ذلك ارتدى حلل العيد والأفراح وجلس متربعا على عرشه فاستشاطت « انانا » غضبا وصوبت عليه نظرة الموت وأسلمته الى أيدى الشياطين الغلاظ ، القساة ، ليحملوه الى العالم الأسفل . فامتقع لون « دموزى » وبكى ورفع يديه الى السماء متضرعا الى الاله الشمس « أوتو » الذى كان أخا للالهة « انانا » أى نسيب « دموزى » . تضرع « دموزى » الى « أوتو » أن يعينه على الخلاص من قبضة الشياطين بتحويل يده الى يد حية وقدمه الى قدم حية .

ومما يؤسف له انه فى هذا الموضع فى منتصف عبارات الضراعة التى يخاطب بها « دموزى » الاله « أوتو » ينتهى نص اللوح الموجود بين أيدينا . ولكن لما كان « دموزى » قد عرف من مصادر أخرى متنوعة بكونه الها من آلهة العالم الأسفل فالأرجح ان ضراعته الى الاله « أوتو » لم تستجب ، وانه نقل الى العالم الأسفل فى الواقع .

ونقدم فيما يأتى ترجمة تلك الأسطورة بعبارات الشاعر القديم (وقد حذفنا منها بعض العبارات المكررة) :

من « الأعلى العظيم » اتجهت بأفكارها نحو « الأسفل العظيم » ،

الالهة ، من « الأعلى العظيم » اتجهت بأفكارها الى « الأسفل العظيم » ،

انانا من « الأعلى العظيم » اتجهت بأفكارها الى « الأسفل العظيم » .

هجرت « سيدتى » السماء وهجرت الأرض ،
والى العالم السفلى هبطت ،
هجرت « انانا » السماء ، وهجرت الأرض ،
وهبطت الى العالم السفلى ،
نبذت السيادة ونبذت السلطان ،
والى العالم السفلى هبطت ،

ربطت الى جانبها « النواميس » الالهية السبعه .
وجمعت كل « النواميس » الالهية ووضعتها فى يدها ،
ووضعت جميع « النواميس » الى جانب قدمها ،
ووضعت على رأسها الـ « شوجُرا » ، تاج السهل ،
وثبتت فوق جبينها خصلات الشعر ،
وأمسكت بيدها الخيط وعصا القياس من حجر اللازورد ،
وربطت حول جيدها عقدا من أحجار اللازورد الصغيرة ،
وعلى صدرها علقت حليتين متشابهتين من حجر الـ « مونز » ،
وأمسكت بيدها حلقة من الذهب ،
وربطت فوق صدرها الصدرية المسماة « تعـال يا رجل ! تعـال ! »
لبست حلة « پالا » حلة السيادة والحكم ،
واكتحلت فى عينها بالدهان المسمى « دعه يأتى ، دعه يأتى » ،

سارت « انانا » نحو العالم الأسفل ،

ومشى الى جانبها وزيرها « ننشوبر » .

قالت « انانا » الطاهرة لـ « ننشوبر » :

« انت يا معينى الدائم ،

يا وزيرى ذا الكلمات الحسنة .

يا فارسى ، صاحب الكلمات الصادقة .

انني الآن هابطة الى العالم السفلى .

« وحين أبلغ العالم السفلى اندبنى عند الخرائب ،

وفى معبد « المجمع » اضرب الطبل من أجلى ،

وفى بيت الآلهة تجول من أجلى ،

اخفض عينيك من أجلى ، وزم فمك من أجلى ..

والبس من أجلى ثوبا واحدا ، كما يفعل الصعلوك الفقير ،

« الى « ايكور » بيت « انليل » ، اليه وحده وجه خطواتك ،

وعند دخولك الى الـ « ايكور » ، بيت انليل ،

ابك أمام « أنليل » (وقل) :

أيها الأب « انليل » لاتدع ابنتك يحكم عليها بالموت فى العالم السفلى ،

لا تدع معدنك الطيب يختلط بتراب العالم السفلى ،

لا تدع لازوردك النفيس يكسر ويحول الى حجر يصنع به الحجار ،

ولا تدع خشب بقسك يقطع ليصير خشبا للنجار ،

لا تدع العذراء « انانا » يحكم عليها بالموت فى العالم السفلى » ،

ان لم يقف « انليل » بجانبك فى هذا الأمر فاذهب الى « أور » ،

وفى « أور » عند دخولك بيت .. البلاد ،

فى « ايكشنوجال » ، بيت « ننا » ،

ابك أمام « ننا » (وقل) :

أيها الأب « ننا » لا تدع ابنتك .. (وتكرر هنا خمسة أسطر) .

فان لم يقف « ننا » الى جانبك فى هذا الأمر فاذهب الى « اريدو » ،

وفى اريدو عند دخولك بيت « انكى » ،

ابك أمام « انكى » وقل :

أيها الأب « انكى » لا تدع ابنتك (تكرر الأسطر الخمسة السابقة) .

فان الأب « انكى » سيد الحكمة ،

الذى يعرف « طعام الحياة » ويعرف « ماء الحياة » ،

سيعيدنى حقا الى الحياة » .

سارت « انانا » نحو العالم الأسفل ،

« والى رسولها « ننشوبر » قالت :

اذهب يا « ننشوبر » ،

واحفظ الكلمة التى أوصيتك بها ولا تهملها » ،

ولما ان وصلت « انانا » الى القصر ، الى جبل اللازورد ،

« وفى مدخل العالم الأسفل تصرفت بجرأة ،

وفى قصر العالم الأسفل تكلمت بجرأة ،

« افتح البيت يا حاجب ! افتح البيت ،

افتح البيت يا « نيتى » ، افتح البيت ! أريد أن أدخل وحدى » .

« فقال « نيتى » ، كبير حجاب العالم الأسفل لـ « انانا » الطاهرة :
« من تكونين أرجوك » ؟
« أنا ملكة السماء ، الموضع الذى تشرق منه الشمس » .

« ان كنت ملكة السماء ، حيث تشرق الشمس ،
فلم جئت الى الأرض التى لا رجعة منها ؟
وفى الطريق الذى لا رجعة لمن سار فيه كيف قادك قلبك » ؟

فأجابته « انانا » الطاهرة :
« جئت من أجل أختى الكبرى « اير شكيجال » ،
لأن زوجها السيد « جوجالنا » قد قتل ،
لكى أحضر شعائر جنازته ،
.. وهكذا ليكن » ،

« نيتى » ، كبير حجاب العالم الأسفل ،
أجاب « انانا » الطاهرة وقال لها :
« ابقى مكانك يا « انانا » ، ودعينى أكلم مليكتى ،
دعينى أكلم مليكتى « ايرشكيجال » ، وأبلغها الأمر .

فدخل « نيتى » ، كبير حجاب العالم الأسفل ،
الى بيت ملكته « ايرشكيجال » وقال لها :

« يا مليكتى ان فى الباب عذراء مثل الهة ..
والنواميس « الالهية السبعة » الخ .. (وهنا تتكرر المقطوعة الثالثة بأكملها) .

وعندها عضت « ايرشكيجال » فخذها واستشاطت غضبا ،
وقالت لـ « نيتى » ، كبير حجابها :
« هلم الى يا « نيتى » ، يا كبير حجاب العالم الأسفل ،
والكلمة التى سآمرك بها لا تهملها ،
ارفع أقفال أبواب العالم الأسفل السبعة ،
وافتح أبواب قصره الوحيد المسمى « جنزير » ، وجه العالم الأسفل ،
وعند دخولها ،
احضرها أمامى وهى عارية تحنى رأسها .

وأطاع « نيتى » ، كبير حجاب العالم الأسفل كلمة ملكته ،
فرفع أقفال أبواب العالم الأسفل السبعة ،
وفتح أبواب قصره الوحيد « جنزير » ، وجه العالم الأسفل ،
وقال لـ « انانا » الطاهرة :
هلمى يا « انانا » وادخلى ،

وعند دخولها ،
نزع من رأسها الـ « شوجرا » « تاج السهل » ،
« ما هذا ؟ أتضرع اليك ! » .
« اسكتى يا « انانا » فان أحكام العالم الأسفل عادلة ،

فلا تعترضى ، ولا تسترحمى يا « انانا » من شعائر العالم الأسفل » .
وعند دخولها من الباب الثانى ،
أخذت منها عصا القياس وخيط اللازورد ،
ما هذا ؟ أتضرع اليك ؟
اسكتى يا « انانا » فان أحكام العالم الأسفل كاملة محكمة ،
يا « انانا » لا تعترضى ولا تسترحمى من شعائر العالم الأسفل .

وعند دخولها الباب الثالث ،
انتزعت أحجار اللازورد من جيدها ،
(يعاد هنا استفسار انانا وجواب الحاجب وكذلك فى القطع التالية) .

وعند دخولها الباب الرابع ،
انتزع من صدرها حجرا الـ .. « منز » ،

وعند دخولها الباب الخامس ،
أخذت من يدها حلقة الذهب ،

وعند دخولها الباب السادس ،
انتزع منها حجاب الصدر المسمى « تعال يا رجل ! تعال ! » ،

وعند دخولها الباب السابع ،
أخذت من جسدها حلة السيادة والحكم .

وأخـذت وهى منحنية عارية الى حضرتها (أى حضرة أختهـا ايرشكيجال) ،

استوت ايرشكيجال المطهرة على عرشها ،
ولفظ « الأنوناكى » القضاة السبعة بحكمهم فى حضرتها ،
فصوبت عينيها عليها ، ثبتت فيها نظرة الموت ،
وقالت الكلمة ضدها ، كلمة الغضب والسخط ،
فاهت بالصرخة ضدها ، صرخة التجريم ،
فتحولت المرأة العليلة الى جثة هامدة ، وعلقت الجثة من مسمار .

وبعد أن انقضى ثلاثة أيام وثلاث ليال ،
شرع وزيرها « ننشوبر » ،
وزيرها ذو الكلمات الحسنة ،
فارسها ذو الكلمات الصادقة ،
شرع يندبها (كما يحدث) عند الخرائب ،
وضرب الطبل من أجلها فى معبد المجمع (مجمع الآلهة) ،
وجال من أجلها فى بيت الآلهة ،
خفض عينيه من أجلها وزم فمه من أجلها ،
وكالصعلوك ارتدى من أجلها برداء واحد ،
ووجه خطواته الى الـ « ايكور » ، بيت « انليل » ،

وعند دخوله الـ « ايكور » ، بيت « انليل » ،

بكى فى حضرة « انليل » وقال :
« أيها الأب « انليل » لا تدع ابنتك يحل بها الموت فى العالم الأسفل،
ولا تدع معدنك الطيب يختلط بتراب العالم الأسفل ،
لا تدع لازوردك النفيس يكسر ويحول الى حجر يصنع به الحجار ،
لا تدع خشب بقسك يقطع ليصير خشبا للنجار ،
ولا تدع العذراء « انانا » يحكم عليها بالموت فى العالم السفلى .

لم يقف الأب « انليل » بجانبه فى هذا الأمر فقصد « أور » ،
وفى أور عند دخوله بيت ... البلاد ،
فى « ايكشنوجال » ، بيت « ننا »
انتحب وبكى أمام « ننا » ،
أيها الأب « ننا » لا تدع ابنتك الخ .. (تتكرر الأسطر الخمسة السابقة) .

لم يقف الأب « ننا » الى جانبه فى هذا الأمر فذهب الى « أريدو » ،
وفى « أريدو » عند دخوله الى بيت « انكى » ،
بكى أمام « انكى » ،
أيها الأب « انكى » لا تدع ابنتك .. (تتكرر الأسطر الخمسة السابقة) .

فأجاب الأب « انكى » « ننشوبر » قائلا له :
« ماذا حدث لابنتى ، انني قلق .
ما الذى وقع لانانا ؟ انني قلق ،

ماذا حدث لملكة كل البلدان ؟ انني قلق ،
ماذا حدث « لبغي » السماء المقدسة ؟ انني مضطرب ،
ثم أخذ وسخا من أظافره وصنع منه الـ « كوجرو » ،
أخذ وسخا من الظفر المصبوغ باللون الأحمر وصنع منه الـ « كلترو » ،
وأعطى « كوجرو » « طعام الحياة » ،
والى « كلترو » أعطى « ماء الحياة » ،
وقال الأب « انكى » الى الـ « كلترو » والـ « كوجرو » ،
. . . . . »
.. (لم يبق سالما الا القسم الأخير من كلام «انكى » ونصه) :
« سيقدمون لكما (أي آلهة العالم الأسفل) ماء النهر فلا تقبلاه ،
وسيقدمون لكما غلة الحقل فلا تقبلاها ،
قولا لها (الى ايرشكيجال) سلمى لنا الجثة المعلقة من المسمار ،
ولينثر أحدكما عليها « طعام الحياة » ولينثر عليها الآخر « ماء الحياة»
وعند ذاك ستقوم « انانا » وتعود الى الحياة .
وتفذ كل من الـ « كوجرو » والـ « كلترو » وصية « انكى » .
ولكن لم يبق سالما من هذه الفقرة من النص الا القسم الأخير وترجمته :
لقد قدموا لهما ماء النهر فلم يتقبلاه ،
وقدموا لهما غلة الحقل فلم يتقبلاها ،
وقالا لها : اعطينا الجثة المعلقة من المسمار .

فردت « ايرشكيجال » الطاهرة على « كلترو » و « كورجرو » :
« الجثة ! انها جثة مليكتكما » .

فقالا لها : « اعطينا الجثة ولو انها جثة مليكتنا » .
فسلموهما الجثة المعلقة من المسمار ،
ونثر أحدهما عليها « طعام الحياة » ونثر الآخر عليها « ماء الحياة » ،
فقامت « انانا » .

ولما أن شرعت « انانا » بالصعود من العالم الأسفل ،
أمسكها « الأنوناكي » وقالوا لها :
« مَن من الذين هبطوا الى العالم الأسفل استطاع أن يصعد سالما
من العالم الأسفل ؟
فاذا أرادت « انانا » أن تصعد من العالم الأسفل ،
فدعها تقدم من يكون بديلا عنها ،
صعدت « انانا » من العالم الأسفل ،
وكان الشياطين الصغار مثل قصب الـ « شوكر » ،
والشياطين الكبار مثل قصب الـ « دِبّان »
يمشون الى جانبها ، حافين بها ،
والشيطان الذي مشى قدامها أمسك صولجانا بيده ، وان لم يكن
وزيرا ،
والذي بجانبها ، وان لم يكن فارسا ، فقد تمنطق بالسلاح ،
ان الذين رافقوها ،
الذين رافقوا « انانا » ،
كانوا مخلوقات لا يعرفون الطعام ولا يعرفون الماء ،
فلا يأكلون من الطحين المبسوس ،
ولا يشربون الماء الذي يقدم قربانا ،

انهم يأخذون الزوجة من حضن زوجها ،
ويأخذون الطفل الرضيع من ثدى مرضعته . »

* * *

وتقصد « انانا » الى المدينتين السومريتين « أوما » و « بادتبيرا » ، حيث نجد الهيهما ، كما قدمنا ، يسجدان لها وبذلك تخلصا من قبضة الشياطين . ثم تصل الى مدينة « كلاب » التى كان « دموزى » الهها الحامى . وتستمر القصيدة على الوجه الآتى :

ارتدى « دموزى » حلة فاخرة واعتلى جالسا على منصته ،
فمسكه الشياطين من فخذيه .... ،
لقد هجم عليه الشياطين السبعة كما يفعلون بجانب الرجل المريض ،
فانقطع الرعاة عن نفخ الناى والمزمار أمامه .

ثم صوبت (أى « انانا ») نظرها عليه ، ثبتت غليه نظرة الموت ،
نطقت بالكلمة ضده ، كلمة السخط والحنق ،
وصرخت ضده بصرخة التجريم قائلة ، :
« أما هذا فخذوه » ،
وهكذا أسلمت « انانا » الطاهرة الراعى « دموزى » الى أيديهم .

ان من رافقه ،
من رافق « دموزى » ،
كانوا مخلوقات لا يعرفون الطعام ولا يعرفون الماء ،
لا يأكلون الطحين المبسوس (: السويق) ،
ولا يشربون الماء المقرب (المقدم قربانا) ،

ولا يتمتعون فى حضن المرأة ،
ولا يقبلون الأطفال الأصحاء ،
انهم يأخذون ابن الرجل من فوق ركبتيه ،
ويسلبون الكنة من بيت أبى زوجها .

وبكى « دموزى » حتى اخضر وجهه ،
فرفع يده نحو السماء ، الى « أوتو » (الاله الشمس) وخاطبه :
« يا « أوتو » أنت أخو زوجتى وأنا زوج أختك ،
وأنا الذى يأتى بالزبد الى بيت أمك ،
وأنا الذى يأتى باللبن الى بيت « ننجال » ،
فحول يدى الى يد حية ، وحول قدمى الى قدم حية ،
اعمل على انقاذى من الشياطين ولا تدعهم يمسكوننى » .

ان استعادة النص الخاص بنزول « انانا » الى العالم الأسفل وجمعه وترجمته ، كل ذلك كان عملا بطيئا تدريجيا ساهم فيه عدد من الباحثين بدور فعال . لقد بدأ ذلك العمل فى عام ١٩١٤ حينما نشر لأول مرة « أرنوپوبل » ثلاث قطع صغيرة من هذه الأسطورة كانت موجودة فى متحف الجامعة فى فيلادلفيا . ونشر فى العام نفسه المرحوم « ستيفن لنجدون » قطعتين أخريين عثر عليهما فى متحف الشرق القـديم فى استانبول . وكانت احدى هاتين القطعتين النصف الأعلى من لوح كبير قوامه أربعة حقول ، وظهر انه على قدر عظيم من الأهمية فى تسهيل استعادة نص الأسطورة وتكميلها . واكتشف « ادوارد كييرا » وجود ثلاث قطع أخرى اضافة الى ما تقدم فى متحف الجامعة . وقد نشرت هذه القطع فى مؤلفيه اللذين نشرا من بعد موته ، المحتويين على النصوص الأدبية

السومرية ، وقد هيأت أنا هذين المجلدين للنشر حيث تولى أمر نشرهما المعهد الشرقى لجامعة شيكاغو فى عام ١٩٣٤ .

وحتى عام ١٩٣٤ كان لدينا من نصوص تلك الأسطورة ثمانى قطع ، وكلها غير سليمة ، ومع ذلك فقد بقيت محتوياتها مبهمة غير واضحة لأن المواطن الناقصة الموجودة فى تلك الألواح كانت من الكثرة ، وفى مواضع مهمة من القصة بحيث تعذر الوصول الى معرفة المعنى الصحيح الواضح للنص كله . ولكن « كيبرا » أنقذ الموقف عندما وفق الى كشف مهم ، فقد استطاع أن يكتشف بين ألواح متحف الجامعة فى فيلادلفيا النصف الأسفل من نفس ذلك اللوح ذى الحقول الأربعة الذى عثر على نصفه الأعلى واستنسخه «لنجدون» قبل سنين فى متحف الشرق فى استانبول . فيكون اللوح الأصلى قد انكسر قبل اجراء التنقيبات أو فى أثنائها فانفصل نصفاه بعضهما عن بعض ، واحتفظ بأحدهما فى استنابول وأخذ الثانى الى فيلادلفيا . ولكن « كيبرا » توفى قبل أن يستخدم محتوياته .

لقد كان تعرف « كيبرا » على النصف الأسفل من لوح « هبوط انانا » هـو الذى مكننى من نشر أولى للأسطورة فى عام ١٩٣٧ فى مجلة المباحث الأشورية (Revue d'Assyriologie) إذ أنه بجمع القسم الأسفل بالنصف الأعلى وبوصلهما بعضهما ببعض أمكن للنص المكمل على هذا الوجه أن يزودنا باطار صالح رتبت بموجبه القطع الأخرى الموجودة عن النص كلا فى موضعها الخاص .ولا يزال هناك عدة فجوات ومواطن ناقصة من النص مما جعـل ترجمته وتفسيره من الأمور غير السهلة اذ بقى معنى جملة مواطن مهمة فى القصة غامضـا مبهما . ولكن حدث فى عام ١٩٣٧ عندما كنت أشتغل فى متحف الشرق القديم فى اسـتانبول على حساب مؤسسة « جوجنهايم » ان أسعفنى الحظ كثيرا باكتشاف

ثلاث قطع اضافية فى استانبول تعود الى الأسطورة نفسها . وعند عودتى الى الولايات المتحدة فى عام ١٩٣٩ عينت قطعة أخرى كبيرة فى متحف الجامعة من فيلادلفيا ، وأخرى أيضا فى عام ١٩٤٠ . فساعدتنى هـذه القطع الخمس على ملء وتكميل أقسام مهمة خطيرة من المواطن الناقصة التى عرقلت المحاولة الأولى لاستعادة النص وترجمته . فأصبح من الممكن لى آنئذاك أن أهيىء نشرة أوفى وأكمل ظهرت فى « مجلة الجمعية الفلسفية الأمريكية » فى عام ١٩٤٢ .

(Proceedings of the American Philosophical Society)

ولكن لم تبق الأمور عند هذا الحد . اذ انه بعد مضى شطر من الزمن حصل لى شرف الامتياز بأن أفحص وأساهم فى فحص وتعيين نحو مائة لوح من الألواح الأدبية السومرية الموجودة بين مجموعات جامعة «ييل» تلك الألواح التى تعد من أهم مجموعات الألواح المكتوبة فى العالم . فوفقت فى أثناء اشتغالى هناك الى العثور على لوح محفوظ حفظا جيدا ، سبق « لادوارد كييرا » أن تعرف عليه منذ زمن طويل فى عام ١٩٢٤ وذكر ذلك فى ملاحظة له لم أتنبه لها . ويتألف هذا اللوح من نص قوامه اثنان وتسعون سطرا ، تشتمل الأسطر الثلاثين الأخيرة منه على فقرة جديدة لم تعرف من قبل ، تكمل القصة بعد الموضع الذى كسرت فيه فى النصوص التى كانت معروفة لنا .

وقد اتضح أن هذه المادة الجديدة على أهمية كبيرة لم يكن أحد يتوقعها . فلقد أزالت وهما يتعلق بالاله « دموزى » كان قد وقع فيه الدارسون للميثولوجيا (الأساطير) فى حضارة ما بين النهرين ولدياناتها ، وظلوا على ذلك الوهم أكثر من نصف قرن . فمنذ أن نشرت الرواية السامية للأسطورة التى بين أيدينا وهى الرواية المعنونة بعنوان « هبوط

عشتار الى العالم الأسفل » ، وقبل أن يظهر الى الوجود ما يضاهيها من الأصل السومرى ، كان الاعتقاد السائد ان الاله « دموزى » قد نقل الى العالم الأسفل لسبب مجهول قبل أن تنزل الالهة « انانا » الى ذلك العالم . واعتقدوا أيضا أن « انانا » انما هبطت الى العالم الأسفل لكى تحرر زوجها « دموزى » وترجعه الى الأرض . ولكن النص الجديد الذى عثرت عليه فى جامعة « ييل » برهن على أن كل هذه الافتراضات لا أساس لها من الصحة . بل الأصح أن يقال انها هى التى أسلمته الى الشياطين ليأخذوه الى « الأرض التى لا رجعة منها » ، بسبب ما أثاره تصرفه من حنقها وغضبها عليه . وان اضافة لوح جامعة « ييل » الجديد ، (وقد نقل نصوصه نقلا يدعو الى الاعجاب « فريس ستيفنس » ، أمين مجموعة الألواح البابلية فى ييل) ، قد جعلت نشر الأسطورة مرة ثالثة أمرا ضروريا . وان هذه النشرة المنقحة ، التى تضمنت ارشادات قيمة أسداها لى زملائى من الباحثين فى السومريات وهم « آدم فلكنشتاين » و « بينو لاندزبيرجر » و « ثور كلد ياكوبسن » ، قد ظهرت فى عام ١٩٥١ [1] . لقد سبق أن فسرنا فى القسم الأول من هذا الفصل كلمة « كور » بأنها الفراغ الكونى الفاصل بين سطح الأرض وبين مياه « البحر الأول » الأسفل العنيف (الذى يضاهى « تهوم » [2] الواردة فى التوراة) . ولكن يبدو أن المصطلح « كور » يعنى كذلك « التنين » ، وهو الوحش الذى يحتجز مياه البحر الأول « تهوم » .ويسيطر عليها . وموضوع قتل هذه التنانين من جانب الآلهة والأبطال ، من الموضوعات المحببة فى الأساطير السومرية وسنبحث فيها فى الفصل العشرين .

(١) Journal of the Cuneiform Studies, Vol. V.

(٢) تهوم معناها البحر وهى تضاهى الكلمة البابلية « تيامتو » أو « تامتو » والعربية « تهامة » . (المترجم)

الفصل العشرون

« ذبح التنين »

أول نظير للقديس جورج

ان فكرة ذبح التنين ، كانت ولا تزال من الموضوعات المحببة لدى مؤلفى الأساطير عند جميع الأقوام وفى جميع العصور تقريباً . ففى بلاد الأغريق بوجه خاص ، حيث القصص والأساطير الدائرة على الآلهة والأبطال جمة لا عداد لها ، يكاد لا يوجد بطل من أبطالهم الا وقد قام يذبح « التنين » الخاص به . ولعل « هرقل » و « فرسوس » [1] أشهر من عرف من أبطال اليونان فى قتل الوحوش . وبظهور المسيحية نقل ذلك العمل البطولى الى القديسين . والشاهد على ذلك قصة القديس « جورج » والتنين ، والقصص الأخرى الكثيرة المضاهية لها ، والمنتشرة انتشارا واسعا . أما الأسماء والتفاصيل فتتباين من مكان الى مكان آخر ومن قصة الى قصة أخرى . ولكن ما المنبع الأصلى لهذه القصص والوقائع ؟ والجواب على ذلك انه لما كان موضوع قتل « التنين » من الموضوعات المهمة فى الأساطير السومرية فى الألف الثالث ق.م ، فمن الصواب أن نفترض ان الكثير من خيوط ونسيج الأساطير الاغريقية والقصص

---

(١) Perseus فى الأساطير اليونانية ابن الاله « زوس » وهو الذى ذبح « الميدوسا » . وقد كانت هذه بحسب الأساطير اليونانية وحشا أنثى يعطى جسمها شعر كجلد الحية وكانت احدى ثلاث أخوات كن على درجة من هول الخلقة بحيث أن الناظر اليهن يتحول الى حجر .

(المترجم)

المسيحية القديمة الدائرة حول التنين انما يرجع فى أصله الى مصادر وأصول سومرية .

ولدينا الآن مالا يقل عن ثلاث روايات من قصة ذبح التنين السومرية ، كما كانت شائعة فى بلاد سومر قبل نيف وخمسة وثلاثين قرنا . ويكون الأبطال من الآلهة فى قصتين من هذه القصص الثلاث — فى احداهما اله الماء «أنكى» ، وهو أقرب ما يكون شبها بالاله الاغريقى «پوزيدون» وفى الثانية « ننورتا » ، الاله الموكل بالريح الجنوبية — أما القصة الثالثة فيكون فيها البطل الذى يقتل التنين من البشر الفانين ، هو البطل « جلجامش » ، الذى يرجح أن يكون أصل قصة القديس « چورچ » .

فى القصة التى تدور حول الاله « انكى » يكون الوحش الذى يذبحه الاله هو المخلوق المسمى «كور» ولعل ذلك النزال (بين الاله والوحش) قد وقع بعد انفصال السماء على الأرض . أما الذنب الذى اقترفه « كور » فكان اختطافه احدى الالهات السماويات (اذا صح تفسير الأسطر الجزئية الناقصة) . وهذه حادثة تعيد الى أذهاننا القصة الاغريقية عن اغتصاب « پير سيفونه » [1] . ولكن مما يؤسف له انه ليس لدينا فى تلك القصة السومرية سوى أسطر لا يزيد عددها عن اثنىعشر وأكثرها غير كامل ، لأنه لم يعثر فى التنقيبات على أى لوح من الألواح التى دونت فيها الأسطورة . وسبيلنا الوحيد الى معرفتها انه أشير اليها اشارات موجزة فى العبارات الواردة فى مقدمة القصة المعنونة : « جلجامش وأنكيدو والعالم الأسفل » حيث تأتى تلك العبارات رأسا

---

(١) Persephone بحسب الأساطير اليونانية ابنة الاله « زوس » والالهة « ديمتر » وزوجة الاله « هادس » ، اله العالم الاسفل ، وهى هناك ملكة ذلك العالم . (المترجم)

بعد الأسطر الخاصة بالخليقة . ويمكن تلخيص مضمونها على الوجه الآتي :

بعد أن فصل بين السماء والأرض أخذ السماء الاله « آن » وهو اله السماء ، فى حين أن « انليل » اله الهواء أخذ الأرض . وحدث عندئذ أن ارتكب عمل السوء ، اذ المرجح ان الالهة « ايرشكيجال » اختطفها بعنف المخلوق المسمى « كور » وأخذها غنيمة لنفسه (لم يذكر من الذى ارتكب تلك الفعلة ولكن الذى لا يستبعد ان « كور » نفسه هو الذى فعل ذلك) . وعندها نجد الاله « أنكى » يشرع بالسفر فى سفينة ، فيصل الى «كور» . ومع ان الهدف من سفره لم يذكر ، الا أن المرجح انه قصد الثأر لاختطاف الالهة « ايرشكيجال » . ومهما كان الأمر فان « كور » أخذ يقاتل قتالا وحشيا بجميع أنواع الأحجار . وهجم على سفينة « انكى » من مؤخرها ومقدمها ، مسلطا عليها المياه الأولى التى يسيطر عليها . وعند هذا الحد تنتهى المقدمة القصيرة ، لأن مؤلف أسطورة « جلجامش وأنكيدو والعالم الأسفل » لم يكن مقصده الأول سرد قصة « التنين » وانما كان حريصا على الاسراع فى عرض قصة جلجامش ، وهكذا تركنا فى ظلام عن نتيجة المعركة . ولكن الذى لا مراء فيه أن الاله « انكى » كان هو المنتصر . والى هذا ، فالمرجح ان الأسطورة انما وضعت لكى تفسر لماذا تصور القوم الاله « انكى » ، فى العصور التاريخية ، مثل « پوزيدون » ، الاله الاغريقى ، على انه اله البحر ، ولماذا سمى معبده فى مدينة « أريدو » باسم « آبزو » ، وهى الكلمة السومرية للبحر .

ونقدم هنا نص تلك العبارات الواردة فى تلك المقدمة المستخلصة منها أسطورة ذبح « التنين » :

بعد أن أخذ « آن » السماء ،
بعد أن أخذ « انليل » الأرض ،
وبعد أن أخذت « ايرشكيجال » الى « كور » غنيمة له .

بعد أن أبحر ، بعد أن أبحر الأب ليقاتل « كور » ،
بعد أن أبحر « أنكى » ، ليقاتل « كور » ،
لقد رمى « كور » الملك بالحجارة الصغيرة .
وشق « كور » « انكى » بالحجارة الكبيرة .
كانت أحجاره الصغيرة حجارة اليد ،
وأحجاره الكبيرة أحجار « القصب الراقص » ،

لقد قذف قاعدة سفينة « انكى » ،
وشن الحرب عليها كالزوبعة ، وأحدق بها .

وسلط ضد الملك الماء على رأس سفينته ،
وكما يفترس الذئب ،
سلط الماء ضد « انكى » على مؤخرة سفينته ،
وكالليث صار يضرب ويلطم » .

أما الرواية الثانية عن موضوع قتل « التنين » فتؤلف جزءا من قصيدة قوامها أكثر من ستمائة سطرا ، يمكننا أن نعنونها بعنوان «أعمال ومآثر الاله ننورتا » . وقد استخلصت محتوياتها من عدة ألواح وكسر ألواح لم ينشر أكثرها بعد .

والشرير المسمى فى القصة ليس « كور » بل شيطان من شياطين الأمراض والعلل اسمه « أسج » . وكان مسكنه فى « كور » — أى فى العالم الأسفل . أما البطل فكان « ننورتا » اله الريح الجنوبية ، الذى كانوا يعتبرونه انه ابن « انليل » ، اله الهواء . وبعد مقدمة من التراتيل والتمجيد ، تبدأ القصيدة فى القصة بخطاب يوجهه الى « ننورتا » سلاحه الخاص الذى شخص باسم « شارور » . ولأسباب لا نعرفها عزم « شارور » على منازلة الشيطان « أسج » . ولذلك جاء خطابه مليئا بعبارات الاطراء والتعظيم لصفات « ننورتا » ومآثره العظمى ، وبالحث على حرب ذلك الشيطان واهلاكه . فيفعل « ننورتا » ما حثه عليه . وعلى ما يبدو لم يقو « ننورتا » فى بداية النزال على مقارعة خصمه بل نجده قد « فر كالطير » . ولكن « شارور » يمضى مرة ثانية فى حثه وتشجيعه مؤكدا له الفوز . فيهجم « ننورتا » على « أسج » هجوما عنيفا بجميع ما عنده من عدة وسلاح . فيقضى على ذلك الشيطان .

ولكن حلت فى بلاد سومر بعد القضاء على « أسج » كارثة دهياء . فقد ارتفعت الى سطح الأرض المياه الأولى العميقة المحبوسة فى « كور » وكان من شدتها ان المياه العذبة لم تصل الى الحقول والبساتين . فحل القنوط واليأس بآلهة « سومر » ممن « يحمل الفأس والسلة » — أى أولئك الآلهة الموكلون بارواء بلاد سومر واعدادها للفلح والزرع . كما ان دجلة لم يرتفع وانعدم الماء الطيب من جداوله :

كان القحط شديدا قاسيا فلم ينتج أى شىء ،
فى الأنهار الصغيرة لم يعد بالامكان حتى « غسل الأيدى » ،
وظلت المياه واطئة ضحلة ،
والحقول لم تروا ...

ولم تحفر الجداول (لري الحقول) .
وانعدم الزرع من البلاد ،
ولم ينم سوى الحشائش ،

وعندها تدبر الاله الأمر في فكره الثاقب ،
ننورتا ابن « انليل » أتى الى الوجود بأشياء عظيمة » .

وضع « ننورتا » الأحجار فوق « كور » وكدسها فأصبحت شبيها بجدار أمام بلاد سومر فاحتجزت الحجارة « المياه العظمى » ، مما منع مياه « كور » من أن ترتفع مرة ثانية الى سطح الأرض . أما المياه التى سبق أن غمرت البلاد فان « ننورتا » جمعها وأجراها فى دجلة الذى أصبح قادرا على أن يروى الحقول بفيضه . واليك ترجمة نص القصيدة :

ما تبدد وفاض (من المياه) جمعه ،
ما تبدد وفاض من (مياه) « كور » ،
أجراه وسلطه فى دجلة ،
فأجرى المياه الفائضة العالية على الحقول ،
فانظر الآن كل شيء على الأرض ،
فرح يحمد « ننورتا » ، ملك البلاد ،
أخذت الحقول تنتج الغلة الوفيرة ،
وثقلت البساتين والكروم بالأثمار ،
وجمع المحصود وكدس فى الأهراء وفى تلال ،
لقد أزال الرب الحزن والحداد من البلاد ،
وأسعد أرواح الآلهة » ،

وبعد أن سمعت الالهة « ننماخ » بأعمال ابنها الباهرة وبطولته

ملكها الشوق له والفخر به وصارت لا يقر لها قرار ولا تستطيع النوم فى مخدعها ، وخاطبت « ننورتا » من بعيد ، متضرعة اليه أن يأذن لها بأن تزوره فتمتع نظرها بطلعته . فنظر اليها « ننورتا » بعين الحياة وخاطبها بقوله :

أيتها السيدة لأجل أن تأتى الى « كور » ،
يا « ننماخ » لأنك من أجلى عزمت على دخول تلك الأرض الجهنمية ،
ولأنك لم تخشى هول المعركة المحدقة بى ،
من أجل ذلك سأدعو « التل » الذى كدسته ، أنا البطل ،
وأسميه باسم « خَرْساج » (أى الجبل) لتكونى ملكته » [(١)] .

ثم يبارك « ننورتا » الـ « خرساج » (الجبل) لكى ينتج جميع أشكال الأعشاب والنباتات والخمور والعسل وصنوف الأشجار المتنوعة: وينتج الذهب والفضة والبرونز والماشية والغنم وجميع « ذوات الأربع » وبعد أن أسبغ بركته على الجبل التفت الى الأحجار فلعن تلك الأحجار التى اتخذت موقف العداء ازاءه فى حربه مع الشيطان « أسج » ، وبارك فى تلك التى انحازت الى جانبه . وتعيد هذه العبارة فى فحواها وصياغتها الى الذهن البركة واللعنة التى حلت فى أبناء يعقوب فى سفر التكوين ، وتنتهى القصيدة من بعد ذلك بترتيلة مطولة فى تمجيد الاله « ننورتا » .

وفى الرواية الثالثة من قصص قتل « التنين » يكون البطل انسانا وليس الها . انه « جلجامش » أشهر أبطال بلاد سومر . أما الوحش الذى قتله فكان « هواوا (أو خواوا) الحارس الموكل « بأرض الأحياء » ، ولا سيما موضع أشجار الأرز المقدسة فيها . وتروى لنا القصة قصيدة اسمها « جلجامش وأرض الأحياء » وقد جمع نصها من أربعة عشر لوحا وكسرة من لوح ، نشرت فى عام ١٩٥٠ فى الكتاب الموسوم « نصوص الشرق الأدنى القديمة » لناشره « چيمز پريتشارد » [(٢)] . ولكن لم يعثر

---

(١) ومن هنا اسم الآلهة « نن - خرساج » أى سيدة الجبل (المترجم)
(٢) James Pritchard, Ancient Near Eastern Texts (1950)

من تلك القصيدة حتى الآن الا على الـ ١٧٤ سطرا الأولى . على أن القصيدة حتى فيحالتها الراهنة تعد بحق ابداعا أدبيا وكان لها ، دون شك، وقع عميق وجاذبية جمالية فى نفوس السومريين الفطرية ، السريعة التصديق . وان موضوعها الأساسى أو الفكرة التى تدور عليها ، وهو جزع الانسان من الموت ، وتساميه الى تخليد الذكر ونشدان الاسم الخالد ، لهو على أهمية عامة شاملة مما أضفى عليها قيمة شعرية عالية . كما أن بناء أساسها وتصميمها ليكشف عن اختيار دقيق ، خصب الخيال ، لتلك التفاصيل اللازمة الى روحية القصة التى تسودها الحركة والحدة . ومن ناحية الأسلوب استطاع الشاعر أن يضمن التأثير الايقاعى باستعماله البارع لتلك الأطرزة المتنوعة من التكرار والتناظر والمقابلة . ومما يقال بوجه الاجمال ان هذه القصيدة تعد من أجمل وأسمى التآليف الأدبية السومرية مما كشف عنه الى الآن . وبامكاننا ايجاز محتوياتها على الوجه الآتى :

أدرك « السيد » جلجامش ، أنه يتحتم عليه مثل كل البشر الفانين أن يموت عاجلا أو آجلا ، ولهذا عزم على أن يخلد له « اسما » ، قبل أن يلاقى نهايته المحتومة .ولذلك نراه يزمع السفر الى تلك الأرض البعيدة ، « أرض الأحياء » . ولعله قصد من وراء ذلك ، بالاضافة الى نشدانه الخلود ، قطع أشجار الأرز من هناك لجلبها الى مدينة « ارك » (الوركاء) . ولذلك يبلغ خادمه الأمين ، وصاحبه الملازم له « انكيدو » بما عزم على القيام به ، فينصحه « أنكيدو » بأن عليه أولا أن يطلع الاله الشمس « أوتو » على عزمه وخطته ، لأن « أوتو » كان هو الاله الموكل « بأرض الأرز » .

استمع « جلجامش » لنصح صديقه فقدم القرابين للاله « أوتو » ،

وتضرع له ، ناشدا منه السند والعون فى سفره الذى أزمعه الى « أرض



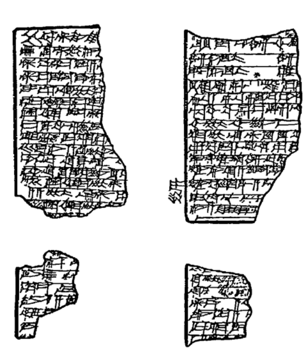
شكل ٦٤ و ٦٥ ــ أعمال الاله « ننورتا » ومآثره : نسخ يدوية لثلاث قطع موجودة فى متحف الشرق فى استانبول ، وهى مدونة بأجزاء من اسطورة . ذبح التنين السومرية

الأحياء » . ولكن « أوتو » يبدى أول الأمر الشكوك فى أهلية « جلجامش » للاضطلاع بالأمر . بيد أن جلجامش يكرر ملتمسه ويلحف فى الضراعة والاقناع ، فيعطف عليه « أوتو » ويقرر أن يمد اليه يد العون . والمرجح ان مساعدته له كانت بطريق شل حركة الشياطين السبعة الشريرة التى تشخص الظواهر الجوية المدمرة لئلا تكون خطرا يهدد جلجامش فى سفره عبر الجبال ، بين مدينته « ارك » وبين « أرض الأحياء » . فجمع جلجامش ، وهو مفعم بالسرور ، خمسين متطوعا من أهل « ارك » ، وكانوا كلهم خليين لا تربطهم

رابطة أسرة ، اذ لم يكن لهم « بيت » ولا « أم » . وكانوا على استعداد لأن يتبعوه فى كل ما يقوم به . وبعد أن هيأ أسلحة من البرونز والخشب ، له ولصحبه ، عبر معهم الجبال السبعة بعون الاله « أوتو » .

أما ماذا وقع لهم بعد عبور الجبل السابع الأخير فغير واضح فى النص ، لأن الموطن الخاص بذلك غير محفوظ حفظا جيدا . ولما أن يصبح النص واضحا مرة أخرى ، نجد جلجامش وقد وقع فى سبات عميق لم يستيقظ منه الا بعد وقت وجهد ، فأقسم وقد أثاره وحسّه تأخره ، بأمه « تنسون » وبأبيه « لوجال بندا » ليبلغن « أرض الأحياء » . وانه لن يأبه لأى تدخل أو عرقلة من انسان أو اله ، بيد أن «انكيدو» يتضرع له أن يعود أدراجه لأن حارس أشجار الأرز هو الوحش « هواوا » الذى لم يقو أحد على صد هجومه المهلك . أما جلجامش فقد أصر على أن لا يستمع الى هذا التحذير ، ولما كان مطمئنا من انه طالما كان انكيدو يساعده فلن يحدث لأى واحد منهما ضر أو يقع فى خطر ، فقد أشار عليه أن يطرد الخوف من قلبه ويسير قدما بصحبته .

ولما أن أبصرهما الوحش « هواوا » من بيته « الأرزى » بذل جهودا جنونية يائسة لطرد جلجامش وصحبه المغامرين . وبعد كسر عدة سطور تستمر القصة فى اخبارنا بأن « جلجامش » ، بعد أن قطع سبع أشجار ، وصل الى حجرة « هواوا » الداخلية . ولكن الغريب فى الأمر أن « هواوا » تملكه الهلع والخوف ، من أول هجوم خفيف شنه عليه « جلجامش » فأخذ يتضرع الى الاله الشمس « أوتو » ويناشـد



شكل ٦٦ ـ « جلجامش وأرض الأحياء » : نسخة يدوية لكسرتين غير منشورتين من « نفر » موجودتين فى متحف الشرق فى استانبول

« جلجامش » أن يبقى عليه فلا يقتله . ومال « جلجامش » الى أن يسلك سلوك المنتصر الرحيم ، فاقترح على « انكيدو » بعبارات أشبه بالألغاز أن يطلق سراح « هواوا » ولكن « انكيدو » خاف من العواقب الناجمة ، فرأى عكس رأى صاحبه الذى لا ينطوى على الحكمة . فأخذ « هواوا » يندد بمسلك « انكيدو » المنطوى على اللؤم . ولكنا نجد البطلين على أثر ذلك يقطعان رقبة « هواوا » ، وعلى ما يبدو حملا جثته الى « انليل » و « ننليل » . أما ما يعقب ذلك فهو غامض غير معروف على وجه التحقيق لأن النصوص المتيسرة تنتهى بعد بضعة أسطر ناقصة .

ونقدم فيما يأتى ترجمة حرفية لتلك الأجزاء الواضحة وضوحا أكثر من غيرها من أجزاء القصيدة :



شكل ٦٧ — « جلجامش وارض الأحياء » : نسخة يدوية لوجه لوح من « نفر » ذى أربعة حقول من الكتابة وهو موجود فى متحف الشرق فى استانبول ، ومدون برواية اخرى عن اسطورة « ذبح التنين »

الى أرض الأحياء ، أعلن السيد عزمه على السفر ،

السيد « جلجامش » صمم على المضى الى « أرض الأحياء » .

فقال لخادمه « أنكيدو » :

يا « أنكيدو » ، ان الآجر والختم لم يعلنا بعد النهاية المقدرة ،

لقد عزمت على دخول تلك « الأرض » ، وأريد أن أخلد اسمى (هنـاك) ،

فى المواضع التى أقيمت فيها « الأسماء » سأقيم اسمى ،

وفى تلك المواضع التى لم تقم فيها الأسماء بعد ، سأقيم أسـماء الالهـة ،

فأجابه خادمه « أنكيدو » :

سيدى ان انت أزمعت على دخول تلك « الأرض » فاخبر « أوتو » ،

اخبر « أوتو » . بلغ البطل « أوتو » ،

فان تلك « الأرض » فى عهدة « أوتو » وحماه .

ان أرض الأرز المقطوع هى فى عهدة « أوتو » فاخبر « أوتو » .

فأمسك جلجامش بيديه جديا أبيض لا شية فيه . وحمل جديا أسمر على صدره ليقدمه قربانا ،

ووضع فى يده عصا الفضة ... ،

وقال مخاطبا « أوتو » السماوى :

« يا أوتو أريد أن أدخل تلك « الأرض » فكن حليفى .

عزمت على دخول أرض الأرز المقطوع فعساك أن تكون حليفى وسندى » .

فأجابه « أوتو » السماوى :

« حقا انك ... ولكن ما شأنك بتلك الأرض » ؟

يا « أوتو » أريد أن أكلمك فاستمع لكلمتى ،

أريد كلمتى أن تصل اليك فاستمع لها ،

يموت الرجل فى مدينتى وهو محزون القلب .

يهلك الرجل وقلبه مثقل بالهموم ،

وهأنذا أنظر من فوق السور ،
فأشاهد الأجسام الميتة ...عائمة فى النهر ،
وأنا سيحل بى المصير نفسه حقا ،
والرجل مهما طال لا يستطيع أن يدرك السماء .
والرجل مهما عظم لا يستطيع أن يغطى الأرض ،
وما دام الآجر والختم لم يعلنا النهاية المقدرة ،
فانى عقدت العزم على دخول تلك « الأرض » لأخلد اسمى ،
فى مواضعها التى خلدت فيها الأسماء سأرفع اسمى ،
وفى المواضع التى لم ترفع فيها الأسماء بعد ، سوف أرفع أسماء الآلهـة .
فتقبل « أوتو » دموعه كقربان ،
وكرجل رحيم أظهر له الرحمة والشفقة ،
الأبطال السبعة أبناء الأم الواحدة .. ،
أتى بهم الى كهوف الجبال .

ان من اقتلع الأرز انما فعل بسرور ..
السيد « جلجامش » عمل بسرور وابتهاج ،
وفى مدينته كالرجل الواحد .... ،
وكصاحبين رفيقين هو ...
« من كان منكم يملك بيتا (فليعد) الى بيته . ومن كان له أم فليعد الى أمه ،

ليكن خمسون رجلا أعزب يفعلون كما أفعل هم الذين يقفون الى جانبى » .

ومن كان له بيت فقد عاد الى بيته ومن كانت له أم فقد عاد الى أمه .

ووقف الى جانبه خمسون رجلا أعزب يفعلون كما يفعل ،

ووجه خطاه الى بيت الحدادين ،

الفأس .. « قوة بطولته » جعلها تصب وتصنع هناك ،

لقد أخذ سبيله الى بستان السهل .. ،

شجرة الـ .. والصفصاف والتفاح والبقس اقتطعها هناك ،

فأخذها « أبناء » المدينة الذين رافقوه فى أيديهم » .

ان الأسطر الخمسة عشر التالية ناقصة ولكن نعرف منها أن « جلجامش » ، بعد أن عبر الجبال السبعة ، غط فى سبات عميق ولا يستطيع أحد أن يوقظه :

لقد لمسه ولكنه لا يستيقظ ،

وكلمه فلم يحر جوابا .

« أيها النائم أيها الراقد !

يا « جلجامش » ، يا أيها السيد ، يا ابن « كُلاّب » الى متى ستظل راقدا ؟

صارت الأرض حالكة وانتشرت الظلال عليها ،

ونشر الغسق ضوءه ،

لقد ذهب « أوتو » (الشمس) رافعا رأسه الى حضن أمه « ننجال » (الأرض) ،

فيا جلجامش الى متى ستظل راقدا ؟

لا تدع أبناء مدينتك الذين رافقوك ،

يقفون مطيلين الانتظار لك فى سفح الجبل ،

ولا تدع أمك التى ولدتك تطرد وتقصى الى « ميدان » المدينة .

فانتبه وأصغى للقول .

« وبكلمة بطولته » أحاط نفسه كأنها رداء ،

ولف حول صدره حلته التى تزن الثلاثين « شيقلا » التى يحملها بيـــده ،

كالثور قام واقفا على « الأرض العظيمة » ، .

ووضع فمه على الأرض فاصطكت أسنانه (وأقسم) :

« وحياة « ننسون » أمى التى ولدتنى من أبى الطاهر « لوجال بنـــدا » ،

ليتنى أصبح كمن يجلس على ركبة « ننسون » أمى التى ولدتنى فيعجب بى الناس » .

وقال له مرة أخرى أيضا :

« وحياة « ننسون » أمى التى ولدتنى من أبى الطاهر « لوجال بنـــدا » ،

حتى أقتل ذلك « الرجل » ، ان كان رجلا ، حتى أقتله اذا كان الهـــا ،

فان خطاى التى وجهتها الى تلك « الأرض » لن أعود بها الى المدينـــة » .

فاستعطفه الخادم الأمين وتضرع له من أجل حياة ... ،

وأجاب سيده :

« يا سيدى انك لم تشاهد ذلك « الرجل » ولهذا فلست خائفا،

ولكننى أنا الذى شاهدت ذلك « الرجل » خائف أشد الخوف ،

فان ذلك « المحارب » له أسنان كأسنان « التنين » ،

ووجهه وجه الأسد ،

و ....ه كالسيل العرم ،

ومن مقدمة رأسه التى تلتهم الأشجار والقصب لا يسلم أحد .

فيا سيدى سر أنت الى تلك « الأرض » أما أنا فسأعود الى المدينة ،

وسأبلغ أمك بمجدك . عساها أن تهلل ابتهاجا ،

سأخبرها بموتك الذى سيحدث فعساها أن تذرف الدموع الغزيرة» .

« ما من أحد سيموت بدلا عنى ، والقارب المحمل لن يغرق ،

والقماش ذو الطيات الثلاث لن يقص ،

والـ ... سوف لا يحاط به ويكتنف ،

والنار لن تدمر البيت والكوخ ،

فاذا ساعدتنى وساعدتك . فما عسى سيقع لنا ؟ ... ،

هلم نسر قدما وسوف نرشقه بالنظرات ،

فاذا ما تقدمنا وكان هناك خوف فانزع الخوف عنك ،

وان كنت تشعر بالهلع فاقض عليه ،

هلم بنا نذهب قدما .. » .
وما كادا يبلغان فى تقدمهما مسافة ١٢٠٠ قدما ،
حتى أخذ « هواوا » وهو فى بيته « الارزى » ،
يثبت نظرته عليه ، وهى نظرة الموت ،
هز له رأسه وحركه عليه ... ،
اقتلع جلجامش أول شجرة ،
فعمد أبناء مدينته الذين رافقوه على قطع تاجها وجعلوها حزمة ،
ووضعوها فى سفح الجبل .
وبعد أن أتم قطع الشجرة السابعة اقترب من حجرته (أى حجرة « هواوا ») ،
لقد دار على « حية مرفأ الخمر » فى جداره ،
وكما يعطى الانسان قبلة ، لطم خده ،

اصطكت أسنان « هواوا » ... وارتجفت يداه ،
« دعنى أقل لك كلمة .... ،
(يا أوتو) ، ان الأم التى ولدتنى لا أعرفها والأب الذى ربانى لا أعرفه ،
فانك أنت الذى ولدتنى فى « الأرض » وربيتنى .
ناشد « جلجامش » بحياة السماء وبحياة الأرض وحياة الأرض السفلى ،
أخذه بيده وحمله الى .... ،

فرق قلب « جلجامش » له ،

وقال لخادمه « انكيدو » :

« يا انكيدو » دع الطائر الحبيس يطير الى مكانه ،

دع الرجل المأسور يرجع الى حضن أمه .

فأجاب « انكيدو » جلجامش :

« ان المرء الذى لا تمييز ولا رأى له مهما استطال ،

فان « نمتار » (شيطان الموت) سيلتهمه . سيقبضه « نمتار » الذى لا يميز بين الرتب .

لو أن الطائر الحبيس عاد طليقا الى موضعه وعاد المأسور الى حضن أمه ،

فلن تستطيع العودة الى مدينة الأم التى ولدتك » .

فقال « هواوا » لانكيدو :

« لقد تحدثت اليه بالشر ضدى يا « انكيدو » ،

أيها الأجير ... لقد أشرت عليه بالشر ضدى » ،

فلما فاه بكلامه هذا ،

قطعا رقبته ،

ووضعا عليه ... ،

وحملاه الى « انليل » و « ننليل » ..

لقد كان « جلجامش » ، كما قلنا من قبل ، أشهر جميع الأبطال السومريين وأبعدهم صيتا . فصار موضوعا محببا لدى الشعراء والمغنين

المنشدين من أهل الأزمان القديمة . ومع ذلك فان المستشرقين المحدثين لم يعرفوه ويقفوا على مآثره وأعمال بطولته من المصادر السومرية وانما كان ذلك من الكتابات السامية . لأنه كان بطل ملحمة بابلية تعد الآن أهم ابداع أدبى فى جميع آداب ما بين النهرين القديمة . ولكن تحليلا مقارنا لهذه الملحمة البابلية ولأصولها السومرية سوف يبين لنا ان المؤلفين والجامعين البابليين قد استعملوا وحوروا فى الملاحم السومرية لأغراضهم الخاصة . وسنحاول فى الفصل الواحد والعشرين أن نميز ونفرق ما بين « السداة » السومرية وبين « اللحمة » البابلية السامية .

الفصل الحادى والعشرون

« قصص جلجامش »

أول حالة من الاستعارة والاقتباسات الأدبية

ألقى چورج سمث الباحث الانجليزى الذى كان يدرس آلاف الألواح التى نقلت الى المتحف البريطانى من خرائب مدينة « نينوى » ، ألقى خطابا فى عام ١٨٦٢ ، فى الثالث من (ديسمبر) كانون الأول أمام « جمعية الآثار التوراتية » Society of Biblical Archaeology التى كانت حديثة التكوين آنذاك ، فصار خطابه ذلك نصبا أو علما سارت على هداه الدراسات « التوراتية » ولا سيما الدراسات المقارنة منها .

لقد أعلن « سمث » فى محاضرته تلك أنه فى أحد الألواح المستخرجة من خزانة الكتب الخاصة بالملك الأشورى « آشور بانيبال » ، الذى حكم فى القرن السابع ق . م ، والتى ظلت مطمورة تحت التراب طوال العصور ، اكتشف وحل رموز رواية عن الطوفان كثيرة الشبه بقصة الطوفان المذكورة فى سفر التكوين من التوراة . فكانت الحماسة التى أثارها ذلك الاعلان فى الأوساط العلمية عظيما ، وولد اهتماما فى الرأى العام فى جميع أنحاء العالم . فانبرت « الديلى تلغراف » ، الصحيفة اللندنية آنذاك ، الى تقديم المال لتمويل بعثة تنقيبات جديدة أخرى الى « نينوى » . فاضطلع « چورج سمث » نفسه بأعباء التنقيبات ولكن

صحته ومزاجه لم يلائمهما الشرق الأدنى فمات أثناء العمل فى سن مبكرة لا تتجاوز الستة والثلاثين عاما .

ولم يمض زمن طويل على اكتشاف قصة الطوفان البابلى حتى أدرك « سمث » بعد دراسات أخرى للألواح المستخرجة من مكتبة « آشور بانيبال » أن أسطورة الطوفان هذه ما هى الا جزء من قصيدة طويلة ، وأن البابليين أنفسهم أشاروا الى هذه القصيدة بعنوان « مجموعة جلجامش » . وكانت ، بحسب ترتيب الكتبة القدماء ، تتألف من اثنتى عشرة قطعة غنائية أو اثنى عشر فصلا يحتوى كل منها على نحو ثلثمائة سطر . وقد دون كل فصل على لوح منفصل فى مكتبة الملك « آشور بانيبال » . أما قصة الطوفان فتشغل القسم الأعظم من اللوح الحادى عشر .

ومن بعد أيام « چورچ سمث » عثر فى التنقيبات التى أجريت فى العراق ، على عدة قطع جديدة من هذه « المجموعة من ألواح جلجامش » أو « ملحمة جلجامش » كما تسمى الآن . وبعض هذه القطع قد دون فى العهد البابلى القديم — أى فى حدود القرن السابع عشر أو الثامن عشر ق . م . — كما وجدت ترجمات قديمة لأجزاء من هذه الملحمة الى اللغة الحورية واللغة الحيثية (الختية) ، وهى من اللغات الهندية الأوروبية ، وقد دونت مثل هذه الترجمات على ألواح من الطين كشف عنها فى التنقيبات التى جرت فى آسيا الصغرى ، ويرجع عهدها الى النصف الثانى من الألف الثانى ق . م . ، وهذا يبين بجلاء ان « ملحمة جلجامش » البابلية كانت تدرس وتترجم وتقلد فى العصور القديمة فى جميع أنحاء الشرق الأدنى القديم . وقد تم حتى الآن الكشف عما يقارب نصف مجموع أسطرها البالغة زهاء ٣٥٠٠ سطرا . ونشر

فى عام ١٩٣٠ باحث انجليزى آخر ، هو الأثرى المختص بالدراسات الأدبية الانسانية « كامبل تومسن » نشرة فاخرة متقنة احتوت جميع ما كان معروفا من النصوص الخاصة بهذه الملحمة . ثم ظهرت من بعد ذلك ترجمتان جديدتان متقنتان باللغـة الانجليزية احداهما ترجمـة « الكسندر هايدل » المعنـونة « ملحمة جلجامش وما يضاهيها فى التوراة » [1] ، والترجمة الأخرى بقلم « افرايم سپايزر » فى مجموعة « نصوص الشرق الأدنى القديم » [2] .

وهناك أسباب وجيهة لهذه الشهرة والذيوع بين الجماهير فى الأزمان القديمة والحديثة على السواء ، لأن « ملحمة جلجامش » تعد من ناحية أهميتها الانسانية ووقعها الدراماتيكى قطعة فريدة فى الأدب البابلى . ففى معظم التآليف البابلية الأخرى يكون الآلهة هم الذين يحتلون مركز المسرح ، وهم الآلهة الذين صاروا على الأكثر يمثلون الأشياء المجردة وليس أشخاصا معينين ، ويصورون النواحى العقلية المشخصة وليس القوى الروحية العميقة . وانه حتى فى تلك القصص البابلية التى يكون فيها أبطال الرواية من البشر الفانين ، كان الدور الذى يقوم به هؤلاء الأبطـال اصطناعيا (ميكانيكيا) غير شخصى ، وينقصـه وقع الأثر الدراماتيكى ، ويكون أشخاص الرواية جامدين لا حياة فيهم ، فهم مخلوقات لا لون ولا طابع لها ، وحركاتهم وأعمالهم شبيهة بتمثيل «القرقوز» ، لأنهم لا يقومون بذلك الا لتحقيق غرض الأسطورة التى تسير بموجب طراز أو عرف مقيد ، لتحقيق أهداف مخصوصة متعارف عليها .

ولكن الحال يختلف تمام الاختلاف بالنسبة الى «ملحمة جلجامش» .

---

(١) Alexander Heidel. The Gilgamesh Epic and Old Testament Parallels.

(٢) Ephraim Speiser in James Pritchard, Ancient Near Eastern Texts.

ففى هذه القصيدة يكون الانسان هو الشاغل لمركز المسرح — الانسان « جلجامش » الذى يحب ويبغض ، ويفرح ويكافح ، ويجزع ويأمل ، ويقنط . ومع أن الآلهة فى الواقع موجودون ، وأن « جلجامش » نفسه ، بمقتضى الطـراز الميثولـوجى المتعـارف عليـه فى ذلك الزمان ، كان ثلثاه الها والثلث الباقى بشرا فانيا ، ولكن مع ذلك فان الذى يطغى على الحوادث والحركة فى الملحمـة انما هو « جلجامش » الانسان . أما الآلهة فهى فى أثرها وفاعليتها وضعت من أجـل أن تكون اطارا أو « مشهدا خلفيا » للوقائع والحوادث الدراماتيكية الخاصة بحياة بطل الرواية . والذى يكسب هذه الوقائع الأهمية الخالدة والتأثير الشامل العام هى صفتها الانسانية . فانها تدور على قوى ومشاكل عامة فى حياة الانسان حيثما كان وفى خلال جميع العصور — كالحاجة الى الصداقة والرفقة وغريزة الولاء ، والاخلاص ، والحافز الدافع للشهرة والاسم ، وحب المغامرة والانجاز ، والخوف الشامل من الموت ، والشوق العذب الملح الى الخلود . ان التفاعل المتنوع بين هذه البواعث والحوافز فى الانسان هو الذى يؤلف الأساس الدراماتيكى لملحمة جلجامش . وهى دراما تتسامى وتعلو على حدود الزمان والمكان . فلا عجب اذن أن يبلغ تأثير هذه القصيدة فى أدب الملاحم القديم ذلك العمق وتلك السعة . وحتى القـارىء المحدث الآن ليتأثر ويهتز باندفاع حوادثها وقـوة عناصر مأساتها .

تبدأ القصيدة بمقدمة فى ازجاء المديح « لجلجامش » والى مدينة « ارك » . ثم تقرأ أن « جلجامش » ، ملك « ارك » كان بطـلا قلقا ، لا يقـر له قرار ، ولا يضارعة مضـارع . وكان مطلق العنان ، اضطهد سكان مدينته وسامهم العذاب . وكان أشـد مطالبه ظلما وبشاعة تعسفه

واشباع شهواته ولذاته الجنسية . وصرخ أهل « ارك » يستغيثون بالآلهة حيث استجابوا لشكاتهم فأمروا « الأم الالهة » العظيمة « آرورو » أن تضع حدا لتلك الحالة من الاضطهاد والظلم ، مدركين ان جلجامش انما سلك سلوك الطغيان والظلم لأنه لم يجد له ندا بين صحبه من البشر . فشرعت « آرورو » تصنع من الطين مخلوقا قويا هو « أنكيدو » وكان هذا مخلوقا عاريا ، يغطي الشعر جسمه ، وساذجا بدائيا لا يعرف العلاقات البشرية ، فكان يمضى أيامه ولياليه مع وحوش البرية . وان « أنكيدو » هذا ، الذى كان وحشا أكثر منه انسانا ، هو الذى عهد اليه أن يكبح من طغيان « جلجامش » ويروض روحه الجامحة . ولكن اقتضى الأمر أولا أن يحول « أنكيدو » الى انسان مستأنس ، وهى عملية وقع عبئها الأكبر على المرأة . فان بغيا من مدينة « ارك » هى التى أهاجت فيه غرائزه الجنسية وأشبعتها ففقد بنتيجة ذلك عنفوان قوته الطبيعية الوحشية ، ولكنه كسب فى بنائه العقلى والروحى . وأكسبت تلك الخبرة الجنسية « أنكيدو » الحكمة والمعرفة ، فلم تعد الحيوانات الوحشية تعرفه كما كانت تألفه كواحد منها . لقد أخذت البغى بيد « أنكيدو » على مهل وصبر وعلمته فنون المدنية من الأكل والشرب واللباس ، وعند ذاك أصبح « أنكيدو » المستأنس على أهبة اللقاء مع جلجامش الذى كان مقدرا له أن يخضع روحه الباغية المستبدة . وقد سبق لجلجامش أن علم عن طريق الأحلام بقرب مجىء « أنكيدو » . ولما كان مولعا باظهار مكانته التى لا ينافسها ويتحداها أحد من أهل « ارك » فقد أعد حفلة رقص وسكر وعربدة ليلية دعا اليها « أنكيدو » . ولكن « أنكيدو » اشمأز ونفر من تهتك « جلجامش » فى شهواته فعمد الى سد طريق

دخوله ليصده ويمنعه من دخول البيت المعد لذلك الاجتماع الداعر . فاشتبك البطلان العملاقان فى القتال — « جلجامش » الحضرى المتفنن ، و « أنكيدو » ، ابن السهول الساذج . وكانت لأنكيدو على ما يبدو اليد العليا على غريمه فى مبدأ الأمر ، ولكن (لسبب لم يذكر فى الملحمة) زال عن « جلجامش » غضبه وحدته ، فأخذ البطلان يتعانقان ويقبل أحدهما الآخر . نجمت عن ذلك الصراع المرير صداقة حميمة بين البطلين ، وهى صداقة ذهبت مثلا سائرا فى القصص الشعبية العالمية بثباتها ودوامها وشدة اخلاصها ، وولائها وبكونها مفعمة بمآثر البطولة وأعمالها .

ولكن « أنكيدو » لم يكن سعيدا فى مدينة « ارك » . فان حياتها الصاخبة التى ترمى الى اشباع الشهوات قد أضعفته وأنهكت قواه . فعرض « جلجامش » على صديقه خطة مغامرة اعتزم القيام بها وتنفيذها ، وهى أن يشدا الرحال الى غابات الأرز البعيدة ويقتلا حارسها الرهيب المخيف ، « هواوا » ، ويقطعا أشجار الأرز هناك ، وأن « يقضيا على كل ما هو شر فى البلاد » . بيد أن « أنكيدو » ، الذى كان فى أيام وحشيته الأولى يجول فى أرجاء غابة الأرز ، أخذ يحذر « جلجامش » من الأخطار المهلكة التى تنطوى عليها تلك المغامرة . فما كان من « جلجامش » ازاء هذه النصيحة الا أن سخر من مخاوفه . لأن ما كان ينشده « جلجامش » ويتشوق اليه فى حياته انما هى الشهرة الدائمة والاسم الخالد وليس مجرد الوجود والحياة الطويلة الخالية من البطولة . فأخذ يتشاور فى الأمر مع شيوخ « ارك » ، وحصل على رضا الاله الشمس « شمش » ، حامى المسافرين كلهم . وجعل صناع مدينة « ارك » يصنعون الأسلحة الضخمة الهائلة له ولصاحبه « أنكيدو » . وبعد أن أخذ البطلان أهبتهما وهيأت عدتهما على هذا الوجه شرعا بالسير فى

طريق مغامرتهما . وبعد سفر مضن طويل نجدهما يصلان الى غابة الأرز الجميلة الباهرة ، ويقتلان « هواوا » ويقتطعان أشجار الأرز .

ولكن لم ينته الأمر عند هذا الحد . فقد صارت المغامرة تستتبع المغامرة . اذ انهما بعدما عادا الى مدينة « ارك » وقعت « عشتار » ، الهة الحب والشهوة فى هوى جلجامش الجميل القوام . فحاولت أن تغرى « جلجامش » بأن يستجيب الى رغباتها واعدة اياه بأنها ستغدق عليه جميع أنواع الخير والهبات السنية . ولكن جلجامش لم يعد ذلك الجبار المطلق العنان ، كما كان فى سابق عهده . ولما كان عارفا حق المعرفة بعبث « عشتار » ولهوها وتقلبها فى هواها أخذ يسخر ويزدرى بمطلبها ، رافضا اياها بازدراء وامتهان . وعند ذاك عمدت « عشتار » ، وقد أحزنها يأسها وأغضبها امتهانها واهانتها الى اقناع « آنو » اله السماء ، بأن يرسل « ثور السماء » ويسلطه على مدينة « ارك » ليقضى على « جلجامش » ويهلك مدينته . ورفض « آنو » طلب عشتار فى مبدأ الأمر ، ولكنها هددته بأنها ستخرج الأموات من العالم الأسفل فاضطر الى الاذعان واستجاب الى مطلبها ، فهبط « ثور السماء » الى الأرض وشرع يدمر مدينة « ارك » ويقتل محاربيها وأبطالها بالمئات . وعندها بادر « جلجامش » و « آنكيدو » معا الى صد الوحش ومصارعته ، فنجحا بعد جهود شاقة مشتركة فى قتله والقضاء عليه .

والى هنا يكون البطلان قد بلغا ذروة المجد فى أعمالهما . فرددت « ارك » أصداء التغنى بمآثرهما وأمجادهما . ولكن القدر القاسى يختتم سعادتهما بنهاية مرة محزنة . فقد حكم الآلهة على « انكيدو » بالموت المبكر لأنه اشترك فى قتل « هواوا » وقتل « ثور السماء » . وبعد مرض دام اثنى عشر يوما لفظ « انكيدو » نفسه الأخير . وكان رفيقه

«جلجامش» يشاهده فى ساعة إحتضاره وهو قانط فملكه الحزن واللوعة . وهنا تصبح روحه معذبة وقد شغلتها فكرة مريرة الى أبعد الحدود . لقد مات « انكيدو » وانه (أى جلجامش) سيلاقى المصير نفسه عاجلا أم آجلا . انه لم يجد فى كل شهرته ومجده ومآثره الماضية العزاء والسلوى . ان الخلود المادى المحسوس هو الذى كان يعذب روحه التى حفزته رغبتها الملحة فيه الى تحقيقه ، فعليه أن يبحث ويجد سر الحياة الخالدة .

وكان « جلجامش » يعلم حق العلم انه لم يكن سوى فرد واحد من البشر فى جميع التاريخ هو الذى استطاع أن ينال الخلود ، ذلك هو « أوتا — نپشتم » ، الملك الحكيم ، الصالح التقى ، ملك « شروپاك » ، المدينة القديمة ، احدى المدن الخمس الملكية التى كانت فى الوجود قبل الطوفان . (لقد حفرت فى خرائب هذه المدينة بعثة أثرية ألمانية وأخرى أمريكية ، وكشفت فى أثناء عملهما مجموعة كبيرة من ألواح الطين يرجع تاريخها الى النصف الأول من الألف الثالث ق . م) .

ولذلك عزم جلجامش على أن ينجح فى مهمته مهما كلفه الأمر حتى يصل الى موضع سكنى « أوتا نپشتم » القاصى ، فلعل ذلك البطل المخلد يكشف له عن سره الثمين . فشد الرحال وسافر فى الأقطار البعيدة ، فى الجبل والسهل ، معرضا نفسه لأخطار الوحوش المفترسة ، والهلاك جوعا . لقد عبر « البحر الأول » ، وعبر « مياه الموت » . وفى نهاية المطاف نجد « جلجامش » وقد أصبح هزيلا ذا شعر طويل أشعث وقد اتسخ جسمه واتخذ من جلود الحيوان لباسا له ، وهو ذلك الحاكم الفخور فى « ارك » فيما مضى ، ويقف أمام « أوتا نپشتم » ، وهو متحرق ليقف منه على سر الحياة الخالدة .

ولكن الكلام الذى خاطبه به « أوتا نپشتم » لم يكن مشجعا . فقد قص عليه ملك « شروپاك » ، بعد لأى ، قصة ذلك الطوفان المدمر الذى سلطه الآلهة فيما مضى على الأرض ليستأصلوا جميع المخلوقات الحية . وان « أوتا نپشتم » نفسه ، لو لم يعتصم بالفلك الذى صنعه بنصيحة الاله العظيم « ايا » ، اله الحكمة ، لكان من الهالكين حتما . أما عن هبة الحياة الخالدة الأبدية التى وهبها فان الآلهــة هم الذين منحوها له . ولكن أين الاله الذى سيزيد الخلود « لجلجامش » ؟ . وهنا يبدأ « جلجامش » ، وهو يائس مهموم لمصيره ، بالتهيؤ للعودة صفر اليدين الى مدينته « ارك » . فيظهر له فجأة شعاع من الأمل . اذ أن «أوتانپشتم» وقد حضته زوجته على الرفق بجلجامش ، كشف له عن موضع « نبات » الشباب الأبدى الذى ينمو فى أعماق البحر . وعندها يغوص « جلجامش » الى قاع البحر ويحصل على ذلك النبات العجيب . ثم يشرع بالعودة الى « ارك » وقد تملكه الفرح والحبور .. ولكن الآلهة أرادت غير ذلك . اذ بينما كان « جلجامش » يستحم فى بئر فاذا بالحية تسرق منه ذلك النبات . وعندها يعــود البطل ادراجه وهو متعب يائس الى مدينــة « ارك » باحثا فيها عما عساه أن يجده من سلوى وعزاء ، فى بناء أسوارها الخالدة .

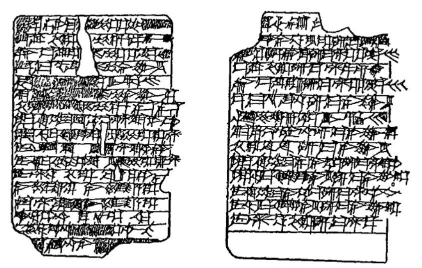
يكفينا هذا القدر عن محتويات الأحــد عشر لوحا من الألواح المتضمنة « ملحمة جلجامش » (أما ما يعرف باللوح الثانى عشر الذى لا شأن له فى الواقع بالملحمة فسوف نعالج أمره فى نهاية هذا الفصل) . أما عن زمن تأليف القصيدة فان مقارنة بعض نصوص الرواية التى ترجع فى زمنها الى العهد البابلى القديم بالرواية الأشورية المتأخرة فى زمنها عنها كثيرا ، تظهر لنا أن القصيدة كانت متداولة بالصورة التى نعرفها بها

فى عهد قديم ، يرقى الى النصف الأول من الألف الثانى ق . م . ومن ناحية أصولها فانه ، حتى النظر السطحى المقتصر على دراسة التشابه فى الأسماء والتسميات ، يبين لنا ان الكثير من مادتها ومحتوياتها ينبغى أن يرجع الى مصادر سومرية وليس الى مصادر سامية ، على الرغم من قدم القصيدة البابلية . فان اسمى بطلى الملحمة ، جلجامش وانكيدو ، هما على الأرجح من أصل سومرى . اذ أن أبوى جلجامش مسميان باسمين سومريين : أبوه «لوجال بندا» وأمه «ننسون» . والالهة «أرورو» التى خلقت « انكيدو » هى الالهة « الأم » السومرية المهمة المعروفة بأسماء أخرى أشهر مثل « ننماخ » و « ننخرساج » و « ننتو » (انظر الفصل الثالث عشر) . ثم ان الاله « آن » الذى صنع « ثور السماء » لعشتار الطالبة للثأر قد اقتبس عبادته البابليون من السومريين وسموه باسم « آنو » . وكان الاله السومرى « أنليل » هو الذى أصدر ارادته بموت « انكيدو » . وفى حادثة الطوفان كان الآلهة السومريون هم الذين قاموا بالدور الرئيسى .

ولكننا لسنا بحاجة أن نستند الى الاستنتاجات المنطقية فقط لنخلص الى نتيجة ان الكثير من مادة « ملحمة جلجامش » البابلية من أصل سومرى ، لأنه لدينا فى الواقع الأصول السومرية لعدة حوادث ذكرت فى القصيدة . فبين عامى ١٩١١ ، ١٩٣٥ تم نشر ستة وعشرين لوحا وكسرة من لوح مدونة بالقصائد الخاصة بجلجامش ، نشرها باحثون مشهورون فى المسماريات أمثال « راداو » (Radau) و«تسمر» (Zimmern) و « پوبل » (Poebel) و « لنجدون » (Langdon) و « كيبرا » (Chiera) و « دى جنوياك » (De Genouillac) و « جاد » Gadd و « فش » Fish"

وقد نشر « كيبرا » وحده أربعة عشر لوحا من هذه النصوص . ومنذ عام ١٩٣٥ استطعت أن أتعرف فى استانبول وفيلادلفيا على أكثر من ست قطع من قصص « جلجامش » وأكملت استنساخ القسم الأعظم منها.

وهكذا فان فى متناول أيدينا الآن عددا كبيرا نسبيا من النصوص المتعلقة بقصص جلجامش السومرية . وان تحليلا لمحتوياتها ومقارنتها بما تحويه ملحمة « جلجامش » البابلية سيكشف لنا عن الأسلوب الذى اتبعه مبدعو « الملحمة البابلية » فى استعمالهم المصادر السومرية ، وعن مدى ذلك الاستعمال . ومع ذلك فان قضية الأصل السومرى لملحمة جلجامش البابلية ليست بالأمر اليسير كما قد يتراءى لأول وهلة . فهناك تعقيدات وملابسات ، مالم تحل وتوضح ، فانها قد تجرنا الى حل خاطىء . ولذلك فمن المستحسن اذن أن نعيد عرض القضية بشكل موجز على هيئة أسئلة :



شكل ٧٠ ــ « محرمات العالم الاسفل » : نسخة يدوية للوح غير منشور موجود فى متحف الجامعة ، وهو مدون بأجزاء من ملحمة « جلجامش وانكيدو والعالم الاسفل » وقد ساعد هذا اللوح فى توضيح أساس القطعة

١ ــ هل يوجد أصل سومرى لملحمة جلجامش البابلية بكاملها ؟

أى هل تتوقع أن نجد قصيدة سومرية ستكون ، على الرغم من الفروق في الصيغة والمضمون ، قريبة الشبه بالملحمة البابلية بحيث يمكن تمييزها وقبولها على انها الأصل السومرى ؟ .

٢ — واذا ما اتضح من المادة التى فى متناول أيدينا انه لا يوجد أصل سومرى للملحمة البابلية بكاملها وان بعض حوادثها فقط هى التى ترجع الى نظائر سومرية لها ، فهل نحن فى موقف يمكننا من أن نعين هذه الحوادث ونحن متأكدون بوجه معقول ؟

٣ — وفى حالة تلك الحوادث التى لا يوجد لها رواية أو أصول سومرية معروفة حتى الآن ، هل يسوغ لنا أن نفترض أنها سامية الأصل ؟ أو أن هناك من الأسباب ما يحملنا على الافتراض ان هذه الحوادث أيضا ترجع الى مصادر سومرية ؟ .

ومع احتفاظنا بهذه الأسئلة فى أذهاننا نشرع الآن فى عمل تحليل مقارن للمحتويات الخاصة بالمادة السومرية التى تدور على قصص جلجامش المتيسرة لدينا . تتألف هذه المادة من ست قصائد يمكن أن نعنونها على الوجه الآتى :

١ — « جلجامش وأرض الأحياء » .

٢ — « جلجامش وثور السماء » .

٣ — « الطوفان » .

٤ — « موت جلجامش » .

٥ — « جلجامش « وأجا » ، صاحب مدينة كيش » .

٦ — « جلجامش وانكيدو والعالم الأسفل » .

وينبغى أن يفهم قبل كل شيء ان نصوص أكثر هذه القصائد لا تزال ناقصة وأن الترجمة غالبا ما تكون صعبة وغير مؤكدة ، حتى فى حالة كون النص سالما كاملا . ولكن مع ذلك فان المادة السومرية التى فى متناول أيدينا تقدم لنا حقائق تكفى للاجابة جوابا قاطعا على السؤال الأول والثانى من أسئلتنا التى أوجزنا بها قضية أصول الملحمة البابلية ، واذا كان السؤال الثالث لا يمكن الاجابة عليه بنفس التأكيد والقطع ، الا انه فى وسعنا أن نصل الى استنتاجات مأمونة ومعقولة .

ويلزم لامكان الاجابة على تلك الأسئلة أن نفحص محتويات كل من تلك القصائد الست :

فأولا : ان محتويات القصيدة الأولى المعنونة « جلجامش وأرض الأحياء » قد سبق أن أوجزناها فى الفصل العشرين . فهذه القصة ، على ما هو واضح ، تناظر وتعادل بوجه عام قصة « غابة الأرز » الواردة فى « ملحمة جلجامش البابلية » . ولكن اذا ما وضعنا كلتا الروايتين الواحدة بجانب الأخرى للمقارنة وجدنا أن الشيء المشترك فيهما ليس الا مجرد هيكل القصة . ففى كلتا الروايتين نجد جلجامش يعتزم السفر الى غابة الأرز ويصحبه « انكيدو » وينشد حماية الاله الشمس فيحصل عليها ، ويصلان الى المكان الذى يقصدانه حيث يقتلعان الأرز ويقتلان « هواوا » . ولكن الروايتين تختلفان بعضهما عن بعض اختلافا كبيرا فى تفصيل حوادثهما وفى ترتيبهما وتأكيد كل منهما على بعض الوقائع دون الأخرى . ففى القصيدة السومرية مثلا لم يكن صحب جلجامش مقتصرين علـى « انكيـدو » بل رافقـه خمسون من أهـل « ارك » فى حين انه فى الرواية البابلية لم يصحب جلجامش فى سفره سـوى

« انكيدو » وحده . والى هذا لا نجد فى القصيدة السومرية أية اشارة الى « مجلس المشيخة » الخاص بمدينة « ارك » ، وهو المجلس الذى يحتل مكانا مهما ودورا بارزا فى الرواية السامية .

وثانيا : أما القصيدة السومرية المعنونة « جلجامش وثور السماء » فانها لم تنشر بعد . ومع انها غير محفوظة حفظا جيدا ، الا انه يمكن ايجاز محتوياتها على الوجه الآتى : « بعد نقص فى النص يبلغ زهاء العشرين سطرا تبدأ القصيدة بخطاب توجهه الى « جلجامش » الالهة « انانا » ، (وهى الالهة السومرية المعادلة للالهة عشتار البابلية) ، تصف فيه الهبات والخيرات التى ستجزلها عليه . ومن الممكن أن نفترض ان القسم السابق وهو المفقود من النص يحتوى على عرض « انانا » حبها على جلجامش . وبعد ذلك يأتى كسر آخر فى النص ينبغى أن يكون متضمنا رفض جلجامش . ثم بعد أن يصبح النص مفهوما مرة أخرى نجد الالهة « انانا » فى حضرة الاله « آن » ، اله السماء وهى تطلب منه أن يقدم لها « ثورالسماء » فيرفض فى مبدأ الأمر . ولكن « انانا » تهدده بأنها ستتولى الأمر مع جميع آلهة الكون العظام . وعندها ملكه الخوف فأجابها الى مطلبها . ثم ترسل « انانا » « ثور السماء » على مدينة « ارك » فيعيث فى المدينة ويحل فيها الدمار . ثم يصبح النص الذى ينتهى بخطاب « انكيدو » لجلجامش غير واضح . أما خاتمة القصيدة التى يحتمل انها تصف صراع جلجامش المظفر مع « ثور السماء » فهى مفقودة تماما .

فاذا ما قورنت محتويات هذه القصيدة السومرية بما يضاهيها من القسم البابلى فى « ملحمة جلجامش » فان كلا المضمونين يتشابهان

شبها قريبا لا يشك معه فى الفكرة العامة المشتركة بين الروايتين . ففى كلتا القصيدتين نجد « انانا » (عشتار) وهى تعرض حبها وهداياها المغرية لجلجامش الذى يرفض العرض . ثم يرسل « ثور السماء » بموافقة الاله آن ولكن دون أن يرضى عنه ليهجم على مدينة « ارك » فيحدث ذلك الوحش الدمار فى المدينة ، ولكن الثور يقتل فى النهاية . أما اذا أتينا الى التفاصيل وجدنا الروايتين مختلفتين الواحدة عن الأخرى اختلافا كبيرا . فان الهبات التى عرضتها « انانا » (عشتار) لتغرى جلجامش بقبول حبها تختلف تمام الاختلاف فى كل من الروايتين . كما أن الخطاب المتضمن رفض جلجامش لعروض « انانا » ، الذى يتألف فى الرواية البابلية من ستة وخمسين سطرا والملىء بالاشارات البارعة الحكيمة الى الأساطير والأمثال البابلية ، يكون فى الرواية السومرية موجزا مقتضبا . والمحادثة بين « انانا » (عشتار) وبين الاله « آن » (آنو) ليست الا على تشابه قليل فى كل من الروايتين . هذا ولا يكاد يخامرنا شك فى أن الخاتمة التفصيلية فى نهاية القصيدة السومرية لو كشف عنها فى المستقبل ستكون على شبه قليل بما يضارعها من الملحمة البابلية .

ثالثا : أما القصيدة السومرية الثالثة المعروفة باسم « الطوفان » فقد أوجزنا حوادثها فى الفصل الثامن عشر ، الذى ترجمت فيه جميع النصوص الخاصة بالطوفان من تلك القصيدة . تؤلف حادثة الطوفان أيضا القسم الأكبر من اللوح الحادى عشر من « ملحمة جلجامش » البابلية . على أن حقيقة كون رواية الطوفان السومرية غير مرتبطة بأية حال مع قصص جلجامش الأخرى تزودنا بمفتاح فى تعيين الطرق والأساليب الخاصة التى اتبعت فى الاقتباسات الأدبية فى الأزمان القديمة .

أما حادثة الطوفان السومرية فهى جزء من قصيدة خصصت أصلا

لأسطورة تخليد « زيوسدرا » ، وقد استعار الشعراء البابليون هذه الأسطورة واستعملوها استعمالا ماهرا لأغراضهم الأدبية . فانه حين يصل « جلجامش » المنهوك الى « أوتانپشتم » (زيوسدرا السنومرى) ويسأله عن سر الحياة الأبدية لم يشأ الشعراء البابليون أن يجيبوه جوابا قصيرا مقتصرا على تلك المسألة الخاصة فقط ، بل انهم بدلا من ذلك استغلوا هذه « الثغرة » فى القصة ليدخلوا روايتهم الخاصة بقصة الطوفان . أما الشطر الأول من الأسطورة السومرية فقد حذفوه بالمرة لأنهم اعتبروه غير ضرورى لموضـوعهم . انهم لم يحتفظوا الا بحادثة الطوفان التى تنتهى بتخليد « زيوسدرا » . وانهم بجعلهم « أوتانپشتم » (زيوسدوا السومرى) هو الراوى لقصة الطوفان ، ووضعهم الرواية بضمير المتكلم بدلا من الغائب ، بدلوا الطريقة السومرية التى كان الراوى فيها شاعرا لا يذكرون اسمه .

أضف الى ذلك أننا نجد فروقا فى التفاصيل . فقد وصفوا «زيوسدرا» (فى الرواية السومرية) بأنه ملك تقى متواضع يخاف الآلهة . ولكن لم يرد « أوتانپشتم » على هذه الصفة (فى الرواية البابلية) . ومن الناحية الثانية نجد الرواية البابلية مسرفة أشد الاسراف فى ايراد التفاصيل الخاصة بصنع « الفلك » ، وفى وصف الطوفان وشـدته وعنفه . وفى الأسطورة السومرية يستمر الطوفان سبعة أيام وسبع ليال . ولكنه يدوم فى الرواية البابلية ستة أيام وسبع ليال . وأخيرا فان ارسال الطيور لمعرفة درجة انحسار المياه لا توجد الا فى الملحمة البابلية .

رابعا : واذا ما أتينا الى القصيدة المعنونة « موت جلجامش » فنجد

أن نصها لا يزال ناقصا جزئيا (١) . وما بقى من أجزائها القليلة لا يعرف منه معرفة واضحة سوى الآتى :

نقرأ فى هذه الأجزاء المفهومة أن جلجامش لا يزال يسعى الى نشدان الخلود ، بيد انه يبلغ بأن الحياة الخالدة متعذرة الحصول . حقا ان الملوكية والجاه والشهرة والبطولة فى القتال كل هذا قد قدر له أن يناله ، ولكن ليس الخلود . ومع نقصان النص فان الباقى منه يرينا علاقة فى الأصل والمصدر لا يشك فيها بالنسبة الى اللوح التاسع والعاشر والحادى عشر من « ملحمة جلجامش » (البابلية) . فقد ورد فى هذه الألواح نشدان جلجامش للحياة الأبدية واخباره بأن الموت وليس الخلود هو النصيب المقدر للانسان . أما الوصف السومرى لموت جلجامش فالغريب تمام الغرابة انه لا يوجد ما يعادله فى الروايات المتيسرة لملحمة جلجامش البابلية .

خامسا : لا يوجد أى أثر للقصيدة السومرية الخامسة « جلجامش وأجا » فى الملحمة البابلية (أنظر الفصل الرابع) . ان هذه القصيدة من أقصر قصص الملاحم السومرية فهى لا تربو فى نصها على ١١٥ سطرا ، ولكنها مع قصرها تعد على أهمية خاصة من عدة وجوه . فأولا تقتصر فى وقائعها وحوادثها على البشر فقط . ثم هى بخلاف قصص الملاحم السومرية الأخرى لا تتضمن آراء أو حوافز ميثولوجية مما يتعلق بالآلهة . وثانيا أنها على قدر عظيم من الأهمية التاريخية لأنها تزودنا بحقائق لم تكن معروفة فيما يختص بالنزاع والخصام بين دول المدن السومرية . وأخيرا فانها ذات أهمية خاصة فى تاريخ الفكر السياسى

(١) انظر Ancient Near Eastern Texts. PP. 50-52

وممارســـة السياسة لأنها تكشف لنا عن وجود نوع من مؤسسات ديموقراطية فى عهد متطاول فى القدم يرجع الى ٣٠٠٠ ق . م . ولعل هذه هى الأسباب التى حدت بالجامعين والمقتبسين البابليين الى اغفال شأن هذه القصة وحذفها بالمرة من ملحمة جلجامش (البابلية) . فان تلك القصة السومرية ينقصها تلك الأمور الخارقة للطبيعة والبطولات التى هى فوق قدرة البشر وغير ذلك من الأمور المميزة لشعر الملاحم .

سادسا : أما تعليقاتنا على الاقتباسات البابلية من القصيدة السومرية المعنونة « جلجامش وانكيدو والعالم الأسفل » فانظرها فى نهاية هذا الفصـــل .

وبهذا ينتهى تحليلنا المقارن للنصوص السومرية المتيسرة الخاصة بقصص جلجامش ، ونستطيع الآن الاجابة على الأسئلة التى وضعناها ســـابقا :

١ — هل يوجد أصل سومرى « لملحمة جلجامش » البابلية بصفتها وحدة كاملة قائمة بذاتها ؟ والجواب الواضح على ذلك يكون بالنفى . فان القصائد السومرية المضاهية ، لتختلف اختلافا كبيرا فى طولها . وهى مؤلفة من قصص منفردة لا ارتباط فيما بينها . أما أساس الملحمة البابلية وسياقها الذى حورت فيه الحوادث العديدة وربط ما بينها لتكون وحدة متكاملة ، انما هو تجديد بابلى وابتداع بابلى .

٢ — هل نحن فى موقف نستطيع فيه أن نعين فى الملحمة البابلية تلك الحوادث التى ترجع الى أصولها السومرية ؟ والجواب على ذلك ، بنعم ، الى حد ما على الأقل . فان حادثة غابة الأرز (اللوح الثالث والرابع من الملحمة) وحادثة « ثور السماء » (اللوح الرابع) وأجزاء من حادثة

السعى وراء الحصول على الحياة الخالدة (اللوح التاسع والعاشر والحادى عشر) وقصة الطوفان (اللوح الحادى عشر) كل هـذه الحوادث لها ما يعادلها من نظائرها السومرية . ولكن مع ذلك فان الروايات البابلية ليست مجرد اعادة مبتذلة للأصول السومرية فالشىء المشترك بينهما ليس سوى الخطوط العامة لأساس الرواية .

٣ — ولكن ماذا يقال عن تلك الأقسام من « ملحمة جلجامش » مما لم يعثر لها على أصول ونظائر سومرية ؟ أما هذه الاقسام فتتضمن المقدمة التى فى مطلع الملحمة ، وسلسلة الحوادث التى تكللت بتمكين رباط الصداقة بين جلجامش وانكيدو (اللوح الأول والثانى) ، وموت « انكيدو » ودفنه (اللوح السابع والثامن) . فهل هذه الوقائع من أصل بابلى صرف ؟ أو هل ترجع أيضا الى أصول سومرية ؟ أما الجواب فينبغى أن يكون من باب الافتراض . ولكن مهما كان الحال فاننا اذا قمنا بتحليل المادة البابلية على ضوء ما هو موجود لدينا من الملاحم والأساطير السومرية فان ذلك يسوغ لنا استخلاص عدد من الاستنتاجات ، وان كانت وقتية .

فأولا هناك المقدمة فى مطلع الملحمة البابلية . ان الشاعر بعد أن يصـور لنـا البطل جلجامش على انه المحيط بكل شىء ، والجوال ، العارف بكل شىء ، والذى أقام أسوار « ارك » ، فانه يستمر فى وصف تلك الاسوار وصفا عاطفيا مؤثرا ، هو فى الاغلب على هيئة خطاب بلاغى موجه الى القارىء . اننا لا نجد مثل هذا الاسلوب الوصفى فى أية مادة من مواد قصص الملاحم السومرية . ولذلك يمكننا أن نستنتج ان مقدمة الملحمة انما هى ابداع بابلى بحت .

أما عن سلسلة الحوادث التى أفضت الى توطيد الصداقة بين البطلين أى جلجامش وأنكيدو ، مما يعقب مقـدمة الملحمة ، ويؤلف القسم الأكبر من اللوحين الأول والثانى من الملحمة البابلية ، فهى تتألف من الوقائع الآتية : طغيان جلجامش واستبداده ، خلق انكيدو ، سقوط انكيدو ونهايته ، أحلام جلجامش ، تمدين انكيدو ، ثم الصراع بين البطلين . ان تسلسل هـذه الحوادث يؤلف تدرجا محبوكا فى وقائع القصة ، يتكلل بتوطيـد الصـداقة بين البطلين . ومن المحتمل كثيرا أن فكرة « الصداقة » هذه قد استغلها الشاعر واستخدمها لتساعد على توليد فكرة السفر الى غابة الأرز . ولكن مثل هذا « الباعث » غير موجود فى الرواية السومرية الخاصة بالسفر الى غابة الأرز ، وبامكاننا الافتراض أننا لن نجد أى نظير سومرى يعادل تلك السلسلة المتتابعة من الحوادث التى ربطت وأدمجت فى الملحمة البابلية . ولكن مع ذلك ليس غريبا اذا ماوجدنا نماذج سومرية أصلية للحوادث والوقائع الفردية المتعددة التى تؤلف سلسلة تلك الرواية المترابطة ، على الرغم من انه ليس من اللازم أن تتألف تلك النماذج الأصلية دائما من القصص الدائرة حول شخصية جلجامش . فان البواعث الاسطورية المنطوية عليها تلك الوقائع الخاصة بخلق انكيدو ، وأحلام جلجامش والصراع بين البطلين تعكس لنا فى الواقع مصادر وأصولا سومرية . أما عن « سقوط انكيدو » و « تمدينه » فان المقاييس التى يمكن الاستناد اليها للوصول الى استنتاج مأمون عن أصولها مفقودة بحسب معرفتنا الراهنة . كما يلزم أن نترك تلك القضية الطريفة دون بت فيها ألا وهى أن الخبرة الجنسية ، هى السبب فى حكمة الانسان وهل هى من أصل سامى أو من أصل سومرى ؟ .

وأخيرا فان قصة موت « انكيدو » ودفنه هى على ارجح الاحتمالات من أصل بابلى غير سومرى . فبموجب القصيدة المعنونة « جلجامش وانكيدو والعالم الأسفل » لم يمت « انكيدو » موتا بالمعنى المألوف للموت وانما احتجزه فى العالم الأسفل « كور » ، وهو ذلك الشيطان الموكل بالعالم الاسفل والشبيه بالتنين، لأنه ارتكب المحرمات الخاصة بالعالم الاسفل، وهو عارف بها . ولقد اخترع مؤلفو «ملحمة جلجامش» البابليون حادث موت « انكيدو » ليهيئوا الباعث القصصى الدراماتيكى على سعى جلجامش ونشدانه الخلود وهو ما يؤلف الذروة الدراماتيكية فى القصيدة .

* وخلاصة القول هناك جملة وقائع من الحوادث المتنوعة التى تؤلف « ملحمة جلجامش » البابلية ترجع الى أصول سومرية « وهى تدور فى الواقع حول شخصية جلجامش . وانه حتى فى تلك الحوادث التى لا يوجد ما يعادلها من نظائرها السومرية فان معظم البواعث الفردية يعكس لنا مصادر أسطورية وملاحم سومرية . ولكن مهما كان الحال فان الشعراء البابليين لم يكونوا بأية حال من الأحوال مجرد مستنسخين ومقلدين تقليدا أعمى للمادة السومرية . بل الواقع انهم بدلوا وغيروا فى مضمونها وكيفوا تركيبها وهيئتها الى درجة جسيمة لتلائم مزاجهم وتراثهم ، بحيث لم يبق ما يميز منها الا النواة السومرية الاصلية . أما عن أساس بناء الملحمة البابلية بصفتها وحدة كاملة ، أى بصفتها « دراما » قوية مشحونة بالاحداث والاقدار وتدور على حياة بطل مغامر متبرم بالحياة ، وتنتهى فى النهاية المحزنة باكتشاف عبث آماله الخادعة ، — نقول ان هذه الدراما بصفتها هذه انما هى انجاز وتطور بابليان ، وليسا

سومرين بوجه التأكيد . وعلى هذا يجوز لنا القول بان «ملحمة جلجامش» يمكن وصفها بحق على انها ابداع سامى (بابلى) بحت .

ولكن لا يمكن وصف « ملحمة جلجامش » على أنها ابداع ادبى سامى الا بالاقتصار على الالواح الاحد عشر من ألواحها الاثنى عشر (على الرغم من الاقتباسات الواضحة من المصادر السومرية) . لأن اللوح الثانى عشر (وهو اللوح الأخير من الملحمة البابلية) ليس الا ترجمة حرفية مطابقة للنصف الثانى من قصيدة سومرية الى اللغة الاكدية السامية — وتعرف أيضا باسم اللغة البابلية والاشورية — وقد ربط الكتبة البابليون هذا القسم (المترجم من القصيدة السومرية) بالألواح الاحد عشر غير ملتفتين الى معنى الملحمة الكلى ولا الى ترابطها او سياقها .

وقد تطرق الشك منذ زمن طويل بأن اللوح الثانى عشر من تلك الملحمة لم يكن سوى ذيل ألحق بتلك الالواح الاحد عشر ، التى تؤلف بصورة معقولة وحدة قصصية متكاملة مطردة . ولكن لم تتيسر البرهنة على ذلك الا بعد أن كشف عن نص القصيدة السومرية المعنونة «جلجامش وانكيدو والعالم الأسفل » ، وبعد أن جمعت أجزاؤها وترجمت . ومنذ وقت بعيد ، فى عام ١٩٣٠ استطاع الباحث « سى . ج . جاد » ، فى المتحف البريطانى آنذاك ان يشير فى بحث له عن أحد الألواح السومرية المدونة بجزء من تلك القصيدة والتى عثر عليه فى حفائر مدينة « أور » ، الى تلك الصلة الوثيقة بين محتويات ذلك اللوح وبين اللوح الثانى عشر من ملحمة جلجامش البابلية .

والنص الكامل لقصيدة « جلجامش وانكيدو والعالم الاسفل »

لم ينشر بعد (انظر بحث المؤلف المعنون «جلجامش وشجرة الهُلُپو») [١]، وكتابه الموســوم « الميثولوجيا السومرية » [٢] ونقدم هنــا تلخيصا موجزا لها :

تبدأ القصيدة بمقدمة قوامها سبعة وعشرون سطرا ليس لمحتوياتها أية علاقة بقصة القصيدة نفسها . وتشتمل الأسطر الثلاثة عشر الأولى من هذه المقدمة على بعض الحقائق الاساسية التى تمكننا من تحليل تصورات السومريين عن خلق الكون (انظر الفصل الثانى عشر) ، فى حين ان الأسطر الأربعة عشرة الباقية تصف لنا الصراع بين الاله «أنكى» وبين « كور » (انظر الفصل العشرين) . ثم تأتى من بعد ذلك القصة نفسها على الوجه الآتى : « فى قديم الزمان كانت شجرة « الهلپو » (ولعلها الصفصاف) مغروسة فى شاطىء الفرات حيث تغذيها مياهه فحدث أن هبت عليها « الريح الجنوبية » هبوبا عنيفا ، وفاضت عليها مياه الفرات . وحين كانت الالهة « انانا » تتمشى على شاطىء النهر أخذت الشجرة بيدها وأتت بها الى مدينتها « ارك » فغرستها فى بستانها المقدس وتعهدتها بالرعاية لانها أرادت أن تصنع من خشبها ، اذا كبرت ، كرسيا وسريرا لها .

ومرت السنون ، فنمت تلك الشجرة وكبرت . ولكن الالهة « انانا » وجدت نفسها عاجزة عن قطعها لأن حية لم يكن « يؤثر فيها أى رقية أو تعويذة » قد بنت عشها فيها . وفى اعلاها وضع الطائر « ام دوجد » صغاره ، واتخذت فى وسطها الشيطانة « ليـليث » مسكنها . وهكذا أخذت « انانا » تبكى بكاء مرا ، وهى العذراء المرحة السعيدة « التى

(١) S. N. Kramer, "Gilgamesh and the Huluppu-tree", Assyriological Study No. 8 (Oriental Institute of the University of Chicago).

(٢) S. N. Kramer, Sumerian Mythology, PP. 30 ff.

لم تعرف الحزن من قبل » . ولما ان انبثق الفجر وظهر اخوها الاله الشمس « أوتو » من حجرة نومه ، قصدته « انانا » وقصت عليه باكية ما حدث لشجرتها الـ « هلپو » وعندها انبرى « جلجامش » الذى سمع شكواها وتقدم لنجدتها وهو مدفوع بالنبل والشهامة . فلبس درعه الذى يزن خمسين « منا » [1] وتسلح بفأسه التى تزن سبع « وزنات » [2] وسبع منات ، فقصد الشجرة وذبح تلك الحية التى لا تؤثر فيها الرقى والتعاويذ فى قاعدة الشجرة . ولما أن شاهد الطائر « ام دوجد » ما جرى طار هاربا مع صغاره الى الجبال ، فى حين ان الشيطانة « ليلث » هدمت بيتها وفرت الى المواضع الخربة المهجورة . فعمد جلجامش عندئذ ، ومعه رجال « ارك » الذين رافقوه ، الى قطع تلك الشجرة وسلمها الى « انانا » لتصنع منها كرسيا وسريرا لها .

فماذا صنعت « انانا » ؟ انها صنعت من قسم الشجرة الأسفل آلة وردت باسم « پكُّو » (ولعلها تكون طبلا) ومن أعلاها صنعت آلة أخرى باسم « مِكُّو » (ولعل ذلك مضرب الطبل) . ويعقب ذلك موطن مؤلف من اثنى عشر سطرا تصف الأفعال التى قام بها « جلجامش » بهذين الـ « پكو » والـ « مكو » ، (أى الطبل ومضرب الطبل) ، فى مدينة « ارك » . ومع أن النص فى حال سليمة كاملة الا انه يتعذر التكهن بمعناه . والمحتمل انه يصف بعض أعمال الطغيان التى قام بها «جلجامش» فأحلت بأهل « ارك » الظلم والأسى . ولما ان تصبح القصة مفهومة مرة ثانية فانها تستمر فتروى لنا انه « من أجل استغاثة العذارى » سقط الـ « پكو » والـ « مكو » فى العالم الأسفل . فأدخل جلجامش يده

---

(١) « المنا » وزن بابلى يعادل نحو نصف كيلوغرام او رطل انجليزى من أوزان العصر الحاضر .

(٢) أما الوزنة (Talent) فتبلغ (٦٠) « منا » . (المترجم)

وقدمه ليسترجعهما ، ولكنه لم يستطع ان يصل اليهما . ثم نجده من بعد ذلك جالسا عند مدخل العالم الأسفل وهو يندب وينوح :

« يا « پكى » ويا « مكى » .
« ان پكى لا يقاوم فى شدة الشهوة ،
« ومكى فى الرقص والايقاع لا مثيل له ،
« ان پكى كان معى سابقا فى بيت النجار ،
« وكانت زوجة النجار معى آنذاك كالأم التى ولدتنى ،
« وكانت ابنة النجار معى كأختى الصغرى ،
« آه يا « پكى » من سيرجعه الى من العالم الأسفل ؟
« و « مكى » من سيعيده الى من « وجه » العالم الأسفل ؟ . »

وعندها ينبرى « انكيدو » ، خادم جلجامش ، ويتطوع بالنزول الى العالم الأسفل ليعيدها له ويخاطبه قائلا :

« يا سيدى علام تبكى ؟ وعلام قلبك مريض محزون ؟
« هو ذا اننى سآتى لك بـ « پكك » من العالم الأسفل ،
« ومكك « سأعيده اليك من « وجه » العالم الأسفل » .

* * *

وبعد أن استمع جلجامش الى العرض الكريم الذي تقدم به خادمه ، نراه يحذره بلزوم مراعاة عدد من « المحرمات » (المحظورات) الخاصة بالعالم الأسفل مما ينبغى له ألا يرتكبها . ونص العبارة على الوجه الآتى :

« قال جلجامش لانكيدو :
« اذا ما نزلت الآن الى العالم الأسفل ،
« فدعنى أقل لك كلمة فاستمع لكلمتى ،

« أرشدك فاعمل بموجب ارشادى ،
« لا تلبس ثيابا نظيفة .
« لئلا يخرج لك خازن « الارض » السفلى كالعدو ،
« لا تمسح جسمك بالدهن الطيب من اناء الـ « بور » ،
« لئلا يتجمعوا عليك من جراء رائحته ،

« لا ترم « عصا الرماية » فى العالم الأسفل ،
« لئلا يحدق بك من ستصيبيهم العصا المرمية .
« لا تحمل بيدك عصا ،
« لئلا ترفرف حواليك أشباح الموتى .

« لا تلبس فى قدمك نعلا .
« ولا تحدث صوتا فى العالم الأسفل .
« لا تقبل زوجتك المحبوبة .
« ولا تضرب زوجتك التى تكرهها .
« لا تقبل ابنك المحبوب ولا تضرب ابنك المكروه .
« لئلا يمسك بك صراخ الـ « كور » (العالم الأسفل) .
« (ذلك الصراخ) الموجه الى تلك المضطجعة ،
« الى أم « ننازو » المضطجعة ،
« التى لا يغطى جسمها رداء ،
« ولا يغطى ثديها المقدس دثار .

ولعل أم « ننازو » الوارد ذكرها فى هذه الاسطر هى الالهة « ننليل »

التى رافقت الاله « انليل » الى العالم الأسفل ، والتى ولدت الاله القمر « سين » الى هناك (انظر الفصل الثانى عشر) .

ولكن « انكيدو » لم يلتزم بارشادات سيده . بل انه ارتكب نفس تلك الافعال المحرمة التى حذره جلجامش من ارتكابها . وهكذا حبسه « كور » ، فلم يستطع الصعود مرة أخرى الى الأرض . وعندئذ قصد جلجامش مدينة « نفر » حيث بكى وتضرع امام الاله « انليل » : —

« يا أبتى أنليل لقد سقط « پكى » فى العالم الأسفل ،

« وسقط « مكى » فى « وجه » العالم الأسفل ،

« ارسلت « انكيدو » ليرجعهما الى ولكن « كور » حبسه .

« ان « نمتار » (شيطان المـــوت) لم يقض عليه ولم يقض عليه « أسبح » (شيطان المرض) .

« ولكن « كور » هو الذى قضى عليه ،

« انه لم يسقط فى ميدان القتال ، فى حلبة الرجولة ،

« ان « كور » هو الذى قضى عليه .

— ان كمين « نرجال » الذى لا يفلت منه أحد (أى الموت) ، لم يقبض عليه ،

— ان « كور » هو الذى قضى عليه ،

ولكن « انليل » أبى أن يقف الى جانب « جلجامش » ، فيشد الرحال الى « أريدو » ويعيد تضرعه الى الاله « انكى » الذى يأمر الاله الشمس « أوتو » أن يفتح ثقبا فى العالم الأسفل ، وأن يسمح لشبح « انكيدو » بالصعود الى الأرض . وفعل « أوتو » ما أمر به فظهر شبح « انكيدو » أمام جلجامش . فتعانق السيد والخادم وأخذ جلجامش يسأل « انكيدو » عما شاهده ورآه فى العالم الأسفل . وكانت الأسئلة

السبعة الأولى التى وجهها اليه تتعلق بالاستفسار عن حال أولئك الآباء الذين خلفوا أولادا ، من ذوى الولد الواحد الى ذوى السبعة أولاد ، وكيف يعاملون فى العالم الأسفل . أما بقية نص القصيدة فهى فى حال غير كاملة ، ولكن ما زالت واضحة فيها بعض أجزاء من الحوار بين جلجامش وانكيدو الخاص بالمعاملة التى يلاقيها فى العالم الأسفل خادم القصر والمرأة التى أنجبت ذرية ، ومعاملة ذلك الذى سقط فى ساحة القتال ، وذلك الذى لا يوجد من يعنى بحاجات روحه ، ومن لم يدفن جثمانه .

ان القسم الثانى من القصيدة هو الذى ترجمه الكتبة البابليون ترجمة حرفية تقريبا ، وذيلوا به « ملحمة جلجامش » على أنه اللوح الثانى عشر من مجموع ألواح تلك الملحمة . ولم يكن اكتشاف هذه الحقيقة بالأمر القليل الخطر ، لأنه أمكن بالاستعانة بنص الرواية السومرية اكمال كثير من الكلمات والعبارات ، وأسطر كاملة برمتها ناقصة من النص البابلى . وأمكن أيضا توضيح مضمون اللوح الثانى عشر الذى بقى غير مفهوم على الرغم من جهود عدد من المختصين المشهورين فى البحوث المسمارية .

هذا وان جلجامش لم يكن البطل السومرى الوحيد لدى السومريين فان البطلين اللذين سبقاه وهما « اينمركار » و « لوجال بندا » كانا أيضا بطلين محببين لدى الشعراء السومريين . والواقع ان السومريين أوجدوا ، كما يستدل من أدب ملاحمهم ، ما يسمى بـ « عصر البطولة » . وسيكون هذا العصر وما له من أهمية فى تاريخ بلاد سومر بوجه خاص ، وفى تاريخ ما بين النهرين بوجه عام ، موضوع بحثنا فى الفصل الثانى والعشرين .

الفصل الثاني والعشرون

«أدب الملاحم»

أول عصر بطولة عند الإنسان

يدرك المؤرخون الآن بوجه عام ، ويرجع الفضل الأكبر فى ذلك الى الباحث الانجليزى « هـ . مونرو تشـادوك » [1] ، ان ما يعرف بعصور البطولة ، التى وجدت فى تاريخ الحضارة ، وتكرر حدوثها من زمن الى زمن ، ومن مكان الى مكان ، لا يقتصر الامر فيها على انها مجرد خيال أدبى ، بل تعكس لنا ظواهر اجتماعية حقيقية مهمة . وعلى سبيل المثال نذكر ثلاثة أمثلة من تلك العصور المعروفة معرفة جيدة : وهى « عصر البطولة » الاغريقى الذى ازدهر فى أرض الاغريق حوالى نهاية الألف الثانى ق . م . و « وعصر البطولة » الهندى الذى يرقى فى تاريخه على ما يرجح الى ما بعد عصر الاغريق بقرن أو نحو ذلك . و « عصر البطولة » التيوتونى الذى عم معظم شمالى أوروبا من القرن الرابع الى القرن السادس الميلادى . وتتشابه عصور البطولة الثلاثة تشابها بارزا فيما بينها فى البناء الاجتماعى وتنظيم الحكومة وفى العقائد والتصورات الدينية وفى التعابير الجمالية ، والأرجح انها ترجع فى أصلها ووجودها الى عوامل اجتماعية وسياسية ونفسية متشابهة .

---

(١) فى كتابه الشهير عن عصور البطولة

H. Munro Chadwick, Heroic Ages (1920)

والقصائد السومرية التى تدور على قصص البطولة ووقائعها ، التى لخصناها فى الفصول السابقة والتى سنوجز بعضها الآخر فى هذا الفصل تؤلف أدب ملاحم لعصر بطولة جديد فى تاريخ العالم ، وفى الآداب العالمية — ذلك هو « عصر البطولة » السومرى . ويرجع عهد ازدهار هذا العصر على الأرجح الى زمن متأخر عن الربع الأول من الألف الثالث ق . م ، فيسبق على ذلك بأكثر من ١٥٠٠ عام أقدم عصر من عصور بطولة الأقوام الهندو — أوروبية (أى عصر بطولة الاغريق) . ومع ذلك فان طرازه الثقافى يشبه شبها بارزا الطراز الثقافى المميز لعصور البطولة التى عرفت منذ أزمان طويلة .

ان عصور البطولة الاغريقية والهندية والتيوتونية ، على ما استنتج « تشادوك » من السجلات الادبية الخاصة بالموضوع ، كانت كلها عهودا بربرية بوجه أساسى ، وتشترك جميعها فى مميزات وخصائص بارزة . فكان قوام الوحدة السياسية ، فى مثل تلك العهود ، مملكة صغيرة يحكمها ملك أو أمير حصل على سلطته عن طريق مهارته وحنكته فى الحرب ، وان ينبوع قوته مستمد ممن يطلق عليهم اسم « كوميتاتوس » وهى حاشية من الاتباع المسلحين ، الموالين له ، والذين يأتمرون بأمره ويطيعونه طاعة عمياء مهما كان الأمر الذى يؤمرون به ومهما كان فيه من طيش وخطر . وقد يكون هناك « مجالس أو مجامع للشورى » . ولكن مهما كان الحال فان اجتماعاتها كانت رهن مشيئة الحاكم . ولم يكن لها سوى حق تقديم المشورة ، وتأييد الحاكم فى مشروعاته . وكان الملوك والأمراء الحاكمون فى الولايات والامارات المنفصلة كثيرا ما يؤسسون فيما بينهم الاتصالات السلمية والودية أيضا . وهكذا كانوا يتجهون الى تأليف ما يصح تسميته بالطبقة الأرستوقراطية الدولية ، التى لم يكن

لأعمالها وآرائها وأفكارها سوى القليل من الأوجه المشتركة مع مصالح رعاياها .

وفى الناحية الدينية تميزت عصور البطولة الهندية — الأوروبية الثلاثة بعبادة آلهة تمتاز بأنها على صورة الانسان ، وكانت على ما يبدو معترفا بها فى جميع الدويلات والامارات. وهى تتألف من مجموعات أو مجتمعات الهية اختارت لها مواضع مختارة ، على الرغم من ان كل اله منها كان له موضع سكناه الخاص به . أما عبادة الأرواح التى تعيش فى العالم الأرضى فلم يوجد لها فى تلك العهود الا آثار ضئيلة . وكان المعتقد السائد عندهم عن الروح ، انها عند الموت تذهب الى موضع قاص ، كان يعتبر موطنا عاما لأرواح جميع الناس ، لم يحجز أو يخصص لجماعة معينة من البشر . وقد اعتقدوا فى بعض الأبطال انهم منحدرون من نسل الآلهة ، ولكن لا يوجد أثر لعبادة البطولة والأبطال . وفى جميع هذه الخصائص والظواهر المشتركة المميزة لعصور البطولة الخاصة باليونان والهند وشمالى أوروبا يشترك أيضا عصر البطولة السومرى .

ولكن أوجه التشابه تمتد الى حدود أبعد . اذ الواقع اننا نجدها بارزة جلية فى النواحى الجمالية ، ولا سيما فى الأدب . فمن أهم الأمور التى حققتها عصور البطولة الأربعة كان ابداع قصص البطولة فى صورة شعرية لتتلى أو يتغنى بها ، وتعكس لنا هذه القصص روح العصر ومزاجه وتظهرها لنا اظهارا جليا . فقد كان الشعراء والمغنون التابعون للبلاط ، وهم مدفوعون بالدوافع الشديدة الناشئة عن تعطش الطبقة الحاكمة لنيل الشهرة وبعد الصيت — وهذا من مميزات عصر البطولة — ينظمون على الدوام القصائد القصصية أو الأغانى التى تشيد بأعمال المغامرة ومآثر البطولة الخاصة بالملوك والنبلاء . وكان الغرض الأول

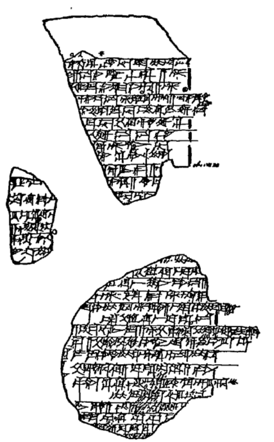
من أناشيد الملاحم أن تكون أداة تسلية فى الأعياد وفى المآدب الكثيرة التى كانت تقام فى البلاط ، وكانت تنشد على الأرجح بمصاحبة العود أو القيثار .

وما من واحدة من تلك القصائد أو الأناشيد البطولية وصلت الينا فى صورتها الأصلية لانها ألفت فى أزمان كانت فيها الكتابة اما غير معروفة، أو كانت على فرض وجودها ، لاتهم أولئك المنشدين الأميين . والملاحم المدونة الخاصة بعصور البطولة عند اليونان والهنود والتيوتون يرجع تدوينها الى عهود متأخرة ، وهى تتألف من نسخ أدبية منقحة ومجموعات مختارة لا تحوى الا عددا مختارا من أناشيد وقصائد الايام القديمة ؛ وحتى هذه فقد حورت ودخلت عليها زيادات كثيرة . وهناك من الاسباب المعقولة ما يحملنا على الاعتقاد بأن بعض القصائد الغنائية القديمة عند السومريين قد دونت لأول مرة فى الواح الطين من بعد نهاية عصر البطولة السومرى بنحو خمسمائة الى ستمائة عام . وانها أيضا لم تدون الا بعد ان دخل عليها كثير من التبديل والتحوير على أيدى الكهنة والكتبة . وعلى أى حال ، فيجب أن نضع فى أذهاننا أن نصوص الملاحم السومرية التى فى متناول أيدينا الآن يرجع تاريخها كلها تقريبا ، الى النصف الأول من الألف الثانى ق . م .

وفى جميع الملاحم المدونة الخاصة بعصور بطولة « الأقوام الهندية ــ الأوروبية » الثلاثة نرى تشابها يلفت النظر فى صيغها وأشكالها ومحتوياتها . فأولا تدور جميع تلك القصائد على أعمال الأفراد أكثر من أى شيء آخر . فان أعمال البطل الفرد ومآثره هى الموضوع الذى كان يهم الشاعر ويشغله ، وليس مصير الدولة والجماعة أو أمجادهما . والى ذلك فمع انه لا يوجد أدنى شك فى أن بعض أعمال المغامرة التى أشادت بها تلك القصائد لها أساس تاريخى الا أن الشاعر لم يكن ليتحرج من أن يدخل فى قصائده بواعث وحوافز وعادات لا تقوم على واقع

أو أساس تاريخى ، كتلك التصورات والأوهام المبالغ فيها عن مقدرة البطل وشجاعته ، والأحلام والرؤى المنبئة المنذرة بما سيقع ، ووجود الكائنات الالهية . ومن ناحية الأسلوب تكثر فى قصائد الملاحم النعوت والصفات المؤثرة الثابتة ، وتتخللها الاعادة والتكرار المطولين، والأساليب والقواعد المتكررة المعـادة ، ثم الوصف المسهب المغرق فى الافاضة والتفصيل . والى ذلك فان أبرز ما يلاحظ فى الملاحم انها تخصص أقساما كبيرة لالقاء الخطب .

وفى جميع تلك الوجوه نجد طراز شعر البطولة السومرى شبيها بالأسلوب الاغريقى والهندى والتيوتونى المتبع فى شعر الملاحم الخاص بهذه الأقوام .



شكل ٧١ ـ « اينمركار » و « اينسوكشسيرانا » نسخة يدوية لكسرتين غير منشورتين فى متحف الشرق فى استانبول

ونظرا لأنه من غير المحتمل أن يكون باب من أبواب الأدب على تلك الدرجة من التفرد بالأسلوب والطريقة كالشعر القصصي ، قد نشأ وتطور تطورا مستقلا في أزمان مختلفة في بلاد سومر وبلاد الاغريق والهند وشمالي أوروبا . ونظرا لأن أدب شعر القصص السومري هو أقدم الآداب الأربعة ، فمن المعقول أن نستنتج أن أصل شعر الملاحم قد نشأ في بلاد سومر (١) .

ولكن اذا التزمنا جانب الدقة وجدنا عددا من الفروق البارزة المهمة بين مادة الملاحم السومرية وبين مادة ملاحم الاغريق والهنود والتيوتون . فمثلا تتألف قصائد الملاحم السومرية من قصص منفردة ، منفصلة ، مختلفة الأطوال ، وقد اختصت كل واحدة منها بحادثة منفردة ، ولم يحاولوا جمع هذه الحوادث وربطها بعضها ببعض وجعلها في وحدة أكبر وأوسع . وكما بينا في الفصل الواحد والعشرين ، كان الشعراء البابليون أول من حقق ذلك حيث اقتبسوا تلك القصص السومرية القصيرة ، المقتصرة على الحادثة الواحدة ، وحوروا فيها وأعادوا صياغتها . ويتضح هذا العمل البابلي بوجه خاص في ملحمة جلجامش البابلية ، التي تتجلى فيها مقدرتهم في انتاج ملحمة مركبة مطولة . هذا ولا نجد في المادة السومرية سوى القدر القليل من تصوير أشخاص الأبطال والتعمق النفساني في تحليل سجاياهم . فالأبطال فيها هم على الأغلب من النوع العام المألوف غير المخصص والمميز ، ان لم يكونوا أفرادا مشخصين لهم سجاياهم الفردية . والى ذلك فان حوادث القصة

---

(١) المرجح كثيرا ان هذا الاستنتاج مبالغ فيه بل لعل المؤلف سلك فيه سبيل الشطط . لأنه على الرغم من أوجه الشبه التي اريناها ، ومع سبق ما يسميه بعصر البطولة السومري للعصور الأخرى المماثلة ، فانه يصعب البرهنة على طريق الانصال . وقد يمكن تفسير أوجه المناظرة تلك بحوافز متماثلة عند تلك الأقوام المخلفة المتباعدة في الزمان والمكان كما أشار الى ذلك المؤلف نفسه في بداية هذا الفصل . (المترجم)

ودوافعها وحوافزها قد رويت بوجه خاص، بأسلوب جامد مقيد بالأساليب المتعارف عليها . فلا يوجد سوى القليل من تلك الحركة المرنة المعبرة ، مما يميز بعض الملاحم الشهيرة مثل « الياذة هوميروس » و « أوديسته » . وهناك بون آخر طريف . ذلك هو أن النساء من البشر الفانين كن معدومات الأدوار تقريبا فى أدب الملاحم السومرى ، فى حين انهن يقمن بأدوار بارزة مهمة فى أدب ملاحم الأقوام الهندية — الأوروبية . وأخيرا فمن ناحية الصيغة والأسلوب كان الشاعر السومرى يضمن التأثيرات الموسيقية الايقاعية على الأغلب بطريق التنويعات الناجمة من الأساليب المعادة المكررة . وهو لا يستعمل أبدا أسلوب الأوزان أو الأبيات الشعرية المنتظمة المطردة ، وهو الأمر الذى يميز أسلوب أدب الملاحم الهندى — الأوروبى .

لنعد الآن الى محتويات ما لدينا من قصائد الملاحم السومرية . ففى وسعنا أن نعين الآن تسع قصص من قصص الملاحم التى تتباين فى مقاديرها وأطوالها من مائة سطر الى أكثر من ستمائة سطرا ، وهناك اثنتان منها تدوران حول البطل « اينمركار » ، واثنتان أخريان تتعلقان بالبطل « لوجال بندا » ، (ويقوم « اينمركار » فى احداهما بدور مهم أيضا) . والخمس الباقية تدور حول أشهر الأبطال الثلاثة ، ألا وهو « جلجامش » . وهؤلاء الأبطال الثلاثة معروفون أيضا من « ثبت الملوك السومريين » . وهذه وثيقة تاريخية وجدت ، مثل مادة الملاحم الشعرية ، مدونة فى نسخ من ألواح الطين ترقى فى زمنها الى النصف الأول من الألف الثانى ق . م . والمحتمل ان ذلك الثبت قد تم تأليفه فى الربع الأخير من الألف الثالث ق . م . وقد ذكر هؤلاء الأبطال الثلاثة فى « ثبت » الملوك السالف الذكر بكونهم الملك الثانى والثالث والخامس

من حكام سلالة « ارك » الأولى ، تلك السلالة التى أعقبت ، بحسب رأى أهل المعرفة السومريين ، سلالة مدينة « كيش » الأولى ، التى أعقبت بدورها حادثة الطوفان مباشرة . هــذا ولقد سبق البحث فى محتويات احدى القصص الخاصة « باينمركار » ، وجميع القصص الخمس المتعلقة بجلجامش ، فى الفصل الثالث ، والرابع ، والعشرين ، والواحد والعشرين . فيتبقى ثلاث قصص : واحدة منها خاصة باينمركار وقصتان تدوران على « لوجال بندا » . وفى تلخيصنا لهذه القصص الثلاث نكون قد أكملنا ايجاز جميع ما هو موجود لدينا من أدب الملاحم السومرى .

ان قصة « اينمركار » الثانية ، مثل القصة التى أوجزناها فى الفصل الثالث ، تدور حول خضوع سيد « أرتا » واذعانه الى « اينمركار » . ولكن فى هذه القصيدة لم يكن « اينمركار » هو الذى فرض مطالبه على خصمه وغريمه « سيد أرتا » ، بل ان هذا نفسه هو الذى تحرش باينمركار ، وتحداه ، مما أفضى الى غلبته . كما اننا نجد فى هــذه القصيدة الثانية سيد «أرتا» وقد دعى باسمه الحقيقى «انسوكشسيراننا» ولهذا فليس من المؤكد اذا كان هذا الشخص هو سيد « أرتا » نفسه ، الذى لم يسم باسمه الشخصى فى قصيدة « اينمركار » الأولى . أما عن الأجزاء المتيسرة الخاصة بمحتويات هــذه القصة الثانية من قصص « اينمركار » فقد أمكن حتى عام ١٩٥٢ ، تعيين نحو مائة سطر منها وهى بحال سليمة ، مما يؤلف بداية القصة ، ونحو خمسة وعشرين سطرا من نهاية القصيدة . ولكن التنقيبات ، التى أجرتها فى نفر عام (١٩٥١ — ١٩٥٢) البعثة الأثرية المشتركة بين المعهد الشرقى ومتحف الجامعة ، أظهرت لنا من بين ما كشفت عنه من الآثار ، لوحين بحال جيــدة من

الحفظ . ويكملان الكثير من المواطن الناقصة من النص . ولهذا أمكننا استعادة الرواية وتلخيصها مبدئيا على الوجه الآتى :

فى الزمن الذى كان فيه « اينَّا ـمبَرـَجَّا — أوتو » ملكا على جميع بلاد سومر عمد « انسوكوشسيرانا » ، حاكم « أرتا » ، الذى كان لديه وزير اسمه « آ ِنسجَّرـَيا » ، الى تحدى « اينمركار » وأبلغ تحديه بوساطة رسول أرسله اليه . وكان « اينمركار » سيد « ارك » وله وزير اسمه « نَـا ِمـّنا دوما » . وكان فحوى الرسالة انه طلب من « اينمركار » الاعتراف بـ « انسوكوشسيرانا » سيدا له ، وأن يحملوا الالهة « اانانا » الى « أرتَّا » فازدرى « اينمركار » بهذا التحدى . وفى خطاب مطول ، يصـــور فيه نفسه بأنه محبوب الآلهة ومصطفاها ، يعلن لغريمـــه أن « اانانا » ستظل فى « ارك » ، ويطلب من « انســوكوشسيرانا » أن يخضع له . وعندها جمع « انسوكوشسيرانا » أعضاء مجلس شوراه ، وسألهم عما عساه أن يفعل فى ذلك الشأن . أما مشاوروه فانهم على ما يبدو نصحوه بتقديم الخضوع ولكنه رفض ذلك وهو غاضب برم . ثم انبرى لمعونته كاهن « أرتا » من الصنف المسمى « مَشْـمَش » ولعل اسمه « أور ِجرنوتَّا » . ثم نجد متكلما (لا نعرف شخصيته من النص) وربما كان الكاهن نفسه وهو يتبجح بأنه سيعبر نهر « ارك » ويقهر جميع البلدان من الشمال الأعلى الى الجنوب ، ومن البحر الى جبال « الأرز » . وانه سيعود الى « أرتا » بغنائم غالية كثيرة . فابتهج لذلك « انسوكوشسيرانا » وزوده بخمس « منـــات » من الذهب وبخمس منات (١) من الفضة وزوده أيضا بالمؤن والعدة الضرورية للسفر .

---

(١) لقد سبق تعريف هذا الوزن فيما تقدم حيث قلنا انه يساوى زهاء نصف كيلو غرام (المترجم)

وعندما يصل ذلك الكاهن (المشمش) الى مدينة «ارك» ، (ولا تبين لنا القصيدة كيف استطاع الوصول اليها) ، نراه يقصد الاصطبل المقدس والحظائر الخاصة بالالهة « ندابا » ويقنع « بقرتها » و « عنزتها » بحبس لبنهما وزبدهما من تزويد موائدها . ولعله يمكن الوقوف على روح النص الخاص من الترجمة المبدئية الآتية :

لقد تكلم الكاهن (أى المَشْمش) مع البقرة وحادثها كالانسان ،
« أيتها البقرة من يأكل زبدك ومن يشرب لبنك ؟
ان « ندابا » هى التى تأكل زبدى ،
و « ندابا » هى التى تشرب لبنى ،
ان لبنى وجبنى .... ،
هو الذى يؤخذ الى قاعات المآدب الكبرى ، قاعات مآدب « ندابا »
سأجلب زبدى .. من الاسطبل المقدس ،
وسأجلب لبنى ... من الحظيرة ،
ان « نِدّابا » البقرة المكرمة ، « نِدّابا » ، ابنة « انليل » المفضلة »

« ايتها البقرة .. زبدك .. ولبنك ... »
فحبست (؟) البقرة زبدها .. ولبنها ،
(ثم تكرر هذه الاسطر بالنسبة الى العنزة)

* * *

وحدث من جراء انقطاع اللبن والزبدة من بقرة « ندابا » ، وعنزتها ، أن عم الشح والدمار فى اصطبلات « ارك » وفى حظائرها . فأخذ الرعاة يبكون ويندبون ، وتخلى عنهم مساعدوهم . وعندها تدخل فى الأمر راعيا الالهة « ندابا » وهما « مَشْجَولا » و « أور اِدنّا » « الولدان اللذان

ولدتهما أم واحدة » ، واستطاعا ، ولعل ذلك كان بارشاد الاله الشمس « أوتو » ، أن يفسدا خطط ذلك الكاهن «المشمش» بعون «الأم الالهة» « سَاجْ بْرُو » (وعبارات النص الخاصة بهذا الموطن فى حال رديئة من الحفظ) واليك ترجمة الفقرة التى تأتى بعد ذلك :

لقد رمى الاثنان ، (أى « مَشْجَوْلا » و « أور اِدمَّا ») ، الأمير فى النهر ،

وأخرج كاهن « المشمش » من الماء سمكة الـ « سُهُرْ » الكبيرة
وجلبت الأم « ساج برو » طير الـ .. من الماء ،
فاختطف طير الـ .. سمكة الـ « سهر » وأخذها الى الجبال ،

ثم رميا الأمير مرة ثانية فى الماء ،
وأخرج كاهن « المشمش » من الماء نعجة وحملها ،
فأخرجت الأم « ساج برو » الذئب من الماء ،
فاختطف الذئب النعجة وحملها وأخذهما الى السهل الواسع ،

ورميا الأمير فى الماء مرة ثالثة ،
وأخرج كاهن « المشمش » بقرة وعجلها من الماء ،
فأخرجت الأم « ساج برو » من الماء أسداً ،
فاختطف الأسد البقرة وعجلها ، وأخذهما الى احراش القصب .

رميا الأمير فى النهر مرة رابعة ،
أخرج كاهن « المشمش » من الماء الخروف البرى ،
فأخرجت الأم « ساج برو » نمر الجبل من الماء ،

فاختطف نمر الجبل الخروف البرى وأخذه الى الجبل .

ورميا الأمير مرة خامسة فى النهر ،
أخرج كاهن « المشمش » الظبى من الماء ،
فأخرجت الأم « ساج برو » وحش « الجوج » من الماء ،
فاختطف وحش الـ « جُوجْ » الظبى وأخذه الى الغابات .

* * *

وبعد أن غلب كاهن «المشمش» وأفسدت خططه المرة بعد المرة «اسود وجهه وفقد الرأى والصواب » . ولما ان أخذت الأم « ساج برُّو » تهينه وتعيره لغباوته ، تضرع اليها ان تدعه يعود الى « أرتا » بسلام ، واعدا اياها انه سيتغنى بحمدها ويشيد بذكرها . ولكن « ساج برو » أبت أن تفعل ذلك فقتلته بدلا من ذلك ورمت بجثته فى نهر الفرات . ولما ان سمع « انسوكو شسيرانا » بما وقع لكاهن « المشمش » أسرع فبعث رسولا الى « اينمركار » عارضا استسلامه التام :

« أنت محبوب » اناتَّا » انت وحدك المبجل ،
لقد اختارتك « انانا » بحق لحضنها المقدس ،
انت السيد من البلدان السفلى الى البلدان العليا ، وانا بعدك فى المنزلة ،
ومنذ لحظة الحبل بك لم أكن معادلا لك ، فانت « الأخ الكبير »
لا استطيع أن أقارن نفسى بك » .

وتنتهى القصيدة بالاسطر التى تميز عادة أدب المناظرة (انظر الفصل السادس عشر) أى بالعبارات :

« فى الخصومة بين« اينمركار » و « انسوكوشسيرانا »

« بعد (؟) تغلب « اينمركار » على « انسوكوشسيرانا » ، لك الحمد يا ندابا » .

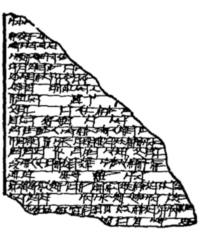
وننتقل الآن الى قصص الملاحم التى يقوم فيها البطل « لوجال بندا » بالدور الأول . فهناك القصة الأولى التى يمكن عنونتها بـ («لوجال بندا» و «اينمركار ») التى تتضمنها قصيدة تربو على أربعمائة سطرا ، أغلبها محفوظ حفظا جيدا . وعلى الرغم من أن المواضع الناقصة منها قليلة نسبيا الا ان معنى كثير من الفقرات لا يزال غير واضح . وعلى هذا فان الموجز الذى سنعرضه لأوضح أجزاء تلك القصيدة ، بعد الجهود المتواصلة لادراك معنى القصيدة ، ينبغى أن يعتبر حتى الآن ترجمة مبدئية :

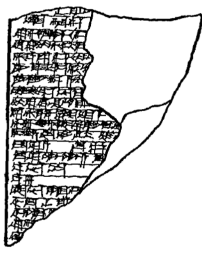
ان البطل « لوجال بندا » ، الذى وجد نفسه فى أرض بعيدة اسمها « زابو » على خلاف رغبته ، أخذ يحن الى العودة الى مدينته « ارك » ، فعزم أولا على كسب صداقة طير الصاعقة المسمى « أم دوجد » الذى يقرر المصائر ، ويصدر الكلمة التى لا يعصاها أحد . فذهب ذات يوم ، وكان فيه الطائر « ام دوجد » بعيدا عن عشه ، وقدم الى فراخه الشحم والعسل والخبز ، وزوق أوجهها بالأصباغ ، ووضع التاج المسمى « شوجرّا » على رءوسها . ولما أن عاد ذلك الطائر سر سرورا عظيما بهذا الصنع الكريم مع صغاره . فأعلن انه سيهب صداقته وعطفه على من قام بذلك الفعل الجميل ، الها كان أم انسانا .

فتقدم « لوجال بَنْدَا »ليتسلم جزاء صنعه . أخذ الطائر «امدوجد» يفوه بعبارات المديح والاطراء واجزل البركات على « لوجال بندا » ،

وأمره ان يعود الى مدينته وهو مرفوع الرأس ، وقدر « للوجال بندا » سفرا ميمونا بناء على ملتمسه ، وقدم له نصيحة سديدة ؛ وهى ألا يبوح بذلك الى أى أحد حتى الى أخلص أتباعه ، ويعود الطائر «ام دوجد » بعد ذلك الى عشه ، أما « لوجال بندا » فيعود الى أصدقائه ويخبرهم بعزمه على سفر وشيك ، فحاولوا ان يصرفوه عن ذلك السفر الذى لم يعد أحد منه سالما ، لانه كان يستلزم عبور الجبال الشاهقة وعبور ذلك البحر المميت الخاص بـ «كور» (العالم الأسفل) . ولكن «لوجال بندا» أصر على عزمه ومأربه فشد الرحال ، وكان سفرا ميمونا أوصله الى مدينته « ارك » .

وفى « ارك » كان « اينمر كار » سيد « لوجال بندا » ، وابن الاله الشمس « أوتو » فى محنة كبرى . فلقد كان قوم الـ «مارتو» الساميون طوال سنين عديدة يعيثون فى بلاد سومر وبلاد « أكد » مسببين فيها الدمار . وحدث آنذاك أن جاءوا وحاصروا مدينة « ارك » نفسها . فوجد « اينمركار » نفسه مضطرا لطلب العون من اخته الالهة « اناتا » ، الهة مدينة « أرتا » . ولكن لم يجد من يقوم بتلك السفرة الخطرة الى « ارتا » ليبلغ رسالته . فانبرى « لوجال بندا » وأظهر البسالة فى الاضطلاع بتلك المهمة . ولما ان طلب منه « اينمركار » ان يحتفظ بالسر ، أقسم له انه سيقوم بالسفر منفردا وحده فلا يصحبه أحد من أتباعه . وبعد أن تسلم « لوجال بندا » من « اينمركار » نص رسالة الاستغاثة الى « انانا » الهة مدينة « أرتا » اسرع الى رفقائه واتباعه وأبلغهم بما أزمع عليه من سفر قريب ، فحاول هؤلاء أن يقنعوه بالعدول ، ولكن ذلك لم يثن عزمه ، بل أخذ سلاحه وعبر الجبال السبعة التى تربط بلاد « أنشان » من أولها الى نهايتها . وبلغ فى نهاية الأمر المكان الذى كان يقصده ، وهو فرح مسرور .





شكل ٧٢ ـ « لوجال بندا » و « اينمركار » : نسخة يدوية لكسرة من « نفر » غير منشورة موجودة فى متحف الشرق فى استانبول وهى ملونة بأجزاء من تلك الملحمة

وفى « أرتا » رحبت الالهـة « انانا » بـ « لوجال بنـدا » أجمل ترحيب ، ولما سألته عما جاء به وحيدا منفردا من « ارك » الى « أرتا » أعاد عليها كلمة فكلمة رسالة « اينمركار » وطلبه النجدة منها . أما اجابة « انانا » التى تؤلف نهاية القصيدة ، فهى غير واضحة المعنى ويبدو أن جوابها كان يتضمن الذهاب الى نهر غريب يلزم على « اينمركار » أن يصطاد من سمكه العجيب . وأوصى كذلك بأن يصنع بعض أوعية خاصة

للماء ، وتتحدث أيضا عن صناع المعادن والأحجار الذى كان يتحتم عليه أن يوطنهم فى مدينته . أما كيف ان تلك الأمور كانت ستدفع خطر قوم الـ « مارتو » ، وتهديدهم لبلاد « سومر وأكد » ، وترفع الحصار عن « ارك » ، فأمر يتعذر فهمه .

أما القصة الثانية المتعلقة « بلوجال بندا » التى يمكن تسميتها مبدئيا بعنوان « لوجال بندا » « وجبل هُرّم » فلعلها كانت تتضمن أكثر من اربعمائة سطرا . ولكن نظرا لأن بداية القصة ونهايتها ناقصتان فعلينا أن نقنع بنحو ثلثمائة وخمسين سطرا ، نصفها تقريبا فى حال جيدة من الحفظ . وبالامكان تلخيص محتويات القصة بالقدر الذى يمكن استعادته من النص الصعب الناقص على الوجه الآتى :

فى طـريق السـفر من « ارك » الى « أرتا » القـاصـية نجـد « لوجال بندا » واتباعه يصلون الى جبل اسمه « هُرّم » . وهنا فى هذا الموضع يقع « لوجال بندا » صريع المرض . واعتقـد أصحابه انه على وشك الموت ولهذا قرروا مواصلة السفر تاركين اياه فى ذلك الموضع ، على أن يحملوا جثمانه عند عودتهم من « أرتا » وينقلوه الى « ارك » . ولكى يؤمنوا ما عسى أن يحتاج اليه من الضروريات ، تركوا معه مقدارا وافرا من الطعام والماء والشراب القوى وخلفوا معه سلاحه . ولما رأى « لوجال بندا » نفسه مريضا وحيدا ، ومنبوذا ، أخذ يتضرع الى الاله الشمس « اوتو » ، فاشفق عليه هذا الاله وأعاد اليه صحته وعافيته بواسطة « طعام الحياة » و « ماء الحياة » .

ولما أن استعاد « لوجال بندا » عافيته أخذ يجول وحيدا فى سهوب البلاد الجبلية . وكان يحصل على قوته من صيد الحيوان الوحشى وجمع

النباتات البرية . وذات يوم رأى ابان نومه حلما كأن شخصا ، ولعله الاله الشمس « اوتو » ، يأمره بأن يأخذ سلاحه ويصطاد ثورا وحشيا فيقتله ويقربه الى « اوتو » المشرق . وأمر أيضا بأن يذبح جديا ويسكب دمه فى خندق ويريق دهنه فى السهل . ولما ان استيقظ « لوجال بندا » فعل ما أمر به بالضبط ، وأضاف على ذلك أن أعد طعاما وشرابا قويا للآلهة « آن » و « انليل » و « انكى » و «ننخرساج» ، وهمأعظم الآلهة فى مجموعة الآلهة السومرية . (والى هنا تنتهى الأجزاء الواضحة من النص) أما الأسطر الأخيرة التى تناهز المائة سطرا فانها تتضمن على ما يبدو الثناء والتمجيد الى سبعة أنوار سماوية هى التى تساعد الاله . القمر « نَنَّا » والاله الشمس « أوتو » والالهة « انانّا » ، أى الالهة الزهرة ، على انارة الكون .

ان ما ذكرناه يكفى لاستعراضنا أدب الملاحم السومرى ، وعصر البطولة الذى يكشف عنه ذلك الأدب ، ولننتقل الآن الى قضية تاريخية لا تزال تقلق بال الأثريين والباحثين فى حضارات الشرق الأدنى طوال عشرات من السنين ، وعرفت « بالقضية السومرية » ، أو المشكلة السومرية ، التى تتعلق بمجىء السومريين الى بلاد ما بين النهرين . وهذه المشكلة هى ما اذا كان السومريون هم أول قوم استوطنوا بلاد ما بين النهرين السفلى ، أو أن جماعة أو جماعات أخرى سبقتهم فى الاستيطان هناك ؟ وفى الظاهر يبدو أنه لا توجد سوى صلة ضئيلة بين هذه المشكلة وبين حقيقة وجود عصر البطولة السومرى . ولكن الحقيقة هى ان اكتشاف وجود عصر البطولة عند السومريين ذو أهمية كبرى فى حل « المشكلة السومرية » على أسس جديدة . بل أنها فضلا عن ذلك تتيح الفرصة لتقديم تفسير جديد لأقدم عصور التاريخ فى

بلاد ما بين النهرين . وسنجد ان هذا التفسير أقرب الى الحقيقة من أى تفسير سابق . ولكنه يلزم علينا أولا عرض تلك المشكلة ، التى سببت انقسام الأثريين الباحثين فى حضارات الشرق الادنى الى معسكرين متضادين ، فنوجزها على الوجه الآتى :

يتفق الأثريون الآن اتفاقا عاما على تقسيم أقدم طور ثقافى فى بلاد ما بين النهرين السفلى الى دورين (أو عصرين) ، استنادا الى أسس ومعايير أثرية معول عليها نتيجة لما جرى من تنقيبات فى عدد من الطبقات التى ترجع الى عصر ما قبل التاريخ فى عدد من المواقع فى غضون عشرات السنين الماضية ، وذانك الدوران (أو العصران) المتميزان هما : (١) دور أو عصر « العُبَيْد » الذى وجدت آثاره المميزة فى كل مكان فوق التربة الأصلية . (٢) ودور أو عصر « الوركاء » الذى تقع آثاره فوق طبقة آثار عصر « العبيد » مباشرة . والى هذا فان دور « الوركاء » قسم أيضا الى مرحلتين أو طورين ثقافيين أساسيين : الى طور قديم ، والى طور ثان أحدث منه : وفى هذا الطور الثانى من عصر الوركاء ظهر فى حضارة ما بين النهرين ما يعرف بالاختام الاسطوانية ، وظهرت كذلك أولى الألواح المدونة فى التاريخ . ولما كانت اللغة المدونة فى تلك الألواح ، بموجب الادلة المتوافرة الآن ، هى على ما يبدو اللغة السومرية على الرغم من أشكال العلامات الصورية ، فان معظم الأثريين متفقون على ان السومريين كانوا حتما موجودين فى القسم الأسفل من بلاد ما بين النهرين فى حدود النصف الثانى من طور الوركاء .

أما الاختلافات الخطيرة فى وجهات النظر فانما تنحصر فى موضوع الشطر الأول القديم من طور الوركاء وأيضا فى موضوع عصر العبيد الأقدم

منه . وقد استنتج جماعة من الأثريين بدرسهم وتحليلهم الآثار المادية الباقية من هذين الدورين القديمين أنه ، مع اختلاف آثار الدور القديم من طور الوركاء عن آثار الدور الثانى منه وعن آثار الأدوار الحضارية التالية أيضا ، الا أن آثار تلك الأدوار القديمة يمكن عدها أصولا للآثار المتأخر عنها . ونظرا لأن العلماء يسلمون بأن هذه الآثار آثار سومرية ، فيلزم أن نعزو الآثار الأقدم منها الى السومريين أيضا . وتستنتج هذه الطائفة من الأثريين أن السومريين كانوا أول من استوطنوا فى بلاد ما بين النهرين . ولكن هناك طائفة ثانية من الأثريين وصلت بدرسها وتحليلها نفس المواد الأثرية تقريبا الى استنتاج مضاد لاستنتاج الطائفة الأولى . اذ ترى هذه الطائفة الثانية أنه على الرغم من أن بقايا الأدوار الأقدم فيها أوجه شبه بآثار الأدوار المتأخرة ، وهى آثار سومرية دون شك ، الا ان الاختلافات فيما بينها كثيرة ومتباينة بحيث انها تشير الى فروق عنصرية واضحة بين سكان دور الوركاء المتأخر وبين الأدوار التى سبقته . ولما كان أقوام الأدوار المتأخرة سومريين فينبغى أن نعزو آثار الأدوار الأقدم منها الى ثقافة سبقت ثقافة السومريين فى قسم ما بين النهرين الأسفل . وعلى هذا فتقول هذه الطائفة ان السومريين لم يكونوا أول مستوطنين فى ذلك الاقليم .

وهنا يكون حل « القضية السومرية » قد بلغ مرحلة تكاد تكون « مأزقا » لا خروج منه . وان مجرد تكديس المواد الآثارية من التنقيبات الجديدة سوف لا يسدى سوى القليل لحل تلك المشكلة ، التى وقفت فى ذلك الحد المسدود . لان الأدلة الجديدة الممكن استخلاصها من الآثار الجديدة سوف تفسر بلا شك بموجب احدى وجهتى النظر الخاصة بهاتين المدرستين الآثاريتين وأما مانحتاج اليه فهو دليل من نوع

جديد يستند الى حقائق تختلف فى نوعها وجوهرها عن البقايا المادية المبهمة [1] عما استخدم حتى الآن .

وهذا هو السبب فى كون قصائد الملاحم السومرية وعصر البطولة السومرى الذى أظهرته لنا على قدر عظيم من الأهمية فانها تضع بين أيدينا معايير جديدة مهمة من النوع الأدبى التاريخى الصرف . على ان الواقع هو ان البرهان ليس واضحا بأى حال من الأحوال ، اذ ليس هناك روايات ظاهرة صريحة فى تلك النصوص القديمة عن زمن مجىء السومريين الى بلاد ما بين النهرين . بل ان جل ذلك مستند الى مايستخلص ويستنتج من درس الطراز الثقافى والأساس التاريخى لعصر البطولة السومرى بمقارنته مع عصور بطولة أخرى كانت معروفة سابقا من أزمان طويلة ، أى عصر بطولة الأغريق ، والهنود ، والأقوام التيوتونية .

وهناك عاملان مهمان فى اتصاف عصر البطولة الاغريقى والهندى والتيوتونى بصفاتها وخصائصها المميزة (وهنا نجد بحث الاستاذ « تشدوك » أساسيا فى هذا الموضوع) ونذكر من هذين العاملين العامل الثانى فهو أخطر وأهم :

ان عصور البطولة تطابق فى أزمانها عهد هجرات قومية أى ما يعرف « بزمن هجرة الأقوام » (Volkerwanderungzeit) وثانيا أن أولئك الأقوام — أى الآخيين والآريين والتيوتون — كانوا لا يزالون على مستوى واطىء نسبيا من النظام القبلى ، ولكن كلا منهم كان على اتصال واحتكاك بدولة متحضرة كانت قد بدأت فى طور الانهيار

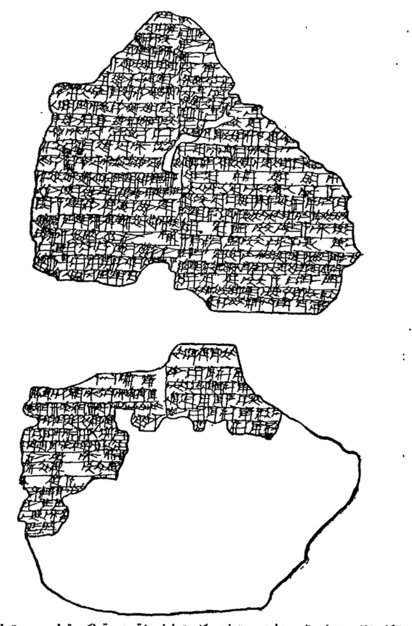
---

(1) لا نقر المؤلف الفاضل على هذا المذهب . ومهما كان الحال فعلى فرض صحة نسبة الابهام الى البقايا المادية الأثرية فان الأمور التى استند اليها المؤلف فى استنتاجاته هذه أشد غموضا وابهاما . (المترجم)

والانحلال. وأنهم ، بسبب كونهم جنودا مرتزقة في جيوش تلك الدولة في أثناء كفاحها من أجل البقاء ، أخذوا الأساليب العسكرية وأخذوا أيضا بعض العناصر الثقافية من جيرانهم المتفوقين عليهم في مضمار الحضارة بدرجات كبيرة . وانهم لما ان عبروا التخوم الخاصة بتلك الامبراطورية المتحضرة ونجحوا في تأسيس ممالك وامارات خاصة بهم ، ضمن رقاع تلك الامبراطورية ، محرزين في تلك العملية على ثروات عظمى — تقول انهم حينما تم لهم انجاز ذلك ، انشأوا تلك المرحلة الثقافية اليافعة ، البربرية مما يعرف « بعصر البطولة » .

وان أحسن عصر بطولة معروفة اسمه ومقدماته التاريخية — وهو عصر البطولة التيوتوني — يطابق في زمنه عهد هجرات قومية . ولكن أهم من كل هذا ان تلك الأقوام التيوتونية البدائية نوعا ما قد كانت طوال عدد من القرون التي سبقت عصر البطولة عندهم على اتصال بالامبراطورية الرومانية ، التي كانت أرقى منهم حضارة بمراحل كبرى ، ولكنها كانت آخذة في الضعف المتزايد ، وكانوا تحت التأثيرات الثقافية المنبعثة منها ، وعلى الأخص عن طريق الرهائن الموجودين في بلاط تلك الامبراطورية والجنود المرتزقة في جيوشها . وفي القرنين الخامس والسادس للميلاد نجح هؤلاء الأقوام التيوتونيون في احتلال معظم الأقاليم التي كانت فيما مضى جزءا من الامبراطورية الرومانية . وكان هذان القرنان عهد ازدهار عصر البطولة التيوتوني .

واذا افترضنا أن العوامل التي عملت على نشوء عصر البطولة السومري ونموه كانت مماثلة لتلك العوامل التي سببت نشوء ونمو عصور البطولة اليونانية والهندية والتيوتونية ، ويبدو أنه ليس هناك من سبب لافتراض خلاف ذلك ، ففي وسعنا ان نستنتج ان عصر البطولة السومري



شكل ٧٤ ــ « لوجال بندا » و « اينمركار » : نسخة يدوية لكسرة لوح من « نفر »
غير منشورة وموجودة فى متحف الجامعة . انها جزء يمكن وصله بلوح كبير
سبق أن نشر فى عام ١٩٣٤

أيضا كان ، على ما ينبغى من جهة القياس ، مطابقا فى عهده مع زمن هجرات قومية . وأهم من ذلك ان استيطان السومريين للقسم الأسفل من بلاد ما بين النهرين الذى تولد فيه عصر بطولتهم ينبغى أن يمثل أيضا ذروة المرحلة من تلك العملية التاريخية التى سبق ان بدأت قبل عدة قرون لما كانت بلاد ما بين النهرين السفلى جزءا من دولة كانت حضارتها أكثر تقدما ، وأبعد شوطا من حضارة السومريين ، الذين كانوا مستوطنين فى مكان ما فى تخومها الخارجية . وكان السومريون البدائيون ، الذين لا يشك فى انهم كانوا أيضا جنودا مرتزقة فى الخدمة العسكرية لتلك الدولة الاكثر تقدما فى مضمار الحضارة ، يقتبسون أساليبها العسكرية وكذلك بعض مقوماتها وانجازاتها الثقافية . واستطاع السومريون فى النهاية ان يتغلغلوا فى تخوم تلك الدولة واحتلوا جزءا كبيرا من اقاليمها ، وحازوا فى غضون ذلك على مقادير عظمى من الثراء والغنى ، وان هذه الفترة هى العهد الذى يحدد ازدهار عصر البطولة السومرى .

وبالاستناد الى تحقيقنا فان وجود عصر البطولة السومرى يسوغ لنا أن نستنتج أن السومريين لم يكونوا أول مستوطنين فى قسم ما بين النهرين الجنوبى ، بل ينبغى ان يكون سبقتهم فى الاستيطان هناك دولة أبعد شوطا منهم فى مضمار الحضارة ، وعلى درجة كبيرة من السعة وامتداد الرقعة .

وان ما يدعى بالحضارة السومرية — وهى تلك الحضارة التى كان لها دور بارز الأثر فى حياة الشرق الأدنى القديم واستمر أثرها من بعد زوال السومريين السياسى بأزمان طويلة — نقول ان هذه الحضارة ينبغى أن ينظر اليها على انها نتاج خمسة أو ستة قرون أعقبت عصر البطولة السومرى البدائى البربرى . وانها نتجت بلا شك من عمل

العبقرية السومرية البانية فى ذلك التراث المادى والروحى الذى أخذه السومريون من تلك الحضارة التى سبقت السومريين فى جنوبى العراق .

والآن ونحن على هذه البصيرة الجديدة فى التكوين الحضارى للقسم الجنوبى من العراق نستطيع أن نعيد رسم المعالم الأساسية لتاريخه . ومع أن هذه الاستعادة مؤقتة مبدئية ، ومفترضة فى طبيعتها ، الا أنه يؤمل منها أنها ستكون ذات قيمة كبرى لتفسير وتكميل تلك المادة التاريخية المهمة التى كشفت عنها التنقيبات فى العراق الجنوبى وستكشف عنها فى المستقبل . ويمكن تقسيم تاريخ العراق الجنوبى منذ زمن أول مستوطنين الى زمن الملك الأكدى « سرجون » العظيم ، الذى يمكن اعتبار حكمه بداية النهاية لسيطرة السومريين السياسية ، الى عهدين رئيسين :

١ — عهد ما قبل السومريين (الذى يمكن تسميته باسم أوضح هو العهد « الايرانى — السامى »)

٢ — والعهد السومرى .

بدأ عهد ما قبل السومريين بمرحلة ثقافية قوامها قرى الفلاحة والزراعة ، وعلى ما هو مفترض الآن ، أدخلت هذه الثقافة على أيدى مهاجرين جاءوا من جنوب — غربى ايران واشتهروا بفخارهم (أوانيهم الفخارية) من النوع المزوق المصبوغ . ولم يمض عهد طويل على استقرار أول مستوطن من الايرانيين حتى بدأ الساميون يتوافدون فى هجراتهم الى العراق الجنوبى ، بصفتهم مهاجرين مسالمين وغزاة فاتحين أيضا . ونجم عن امتزاج هاتين الجماعتين القوميتين — أى جماعة الايرانيين من الشرق والساميين من الغرب — نشوء أول دولة حضرية متمدنة

فى العراق الجنوبى . وكانت ، مثل الحضــارة السومرية التى أعقبتها ، مؤلفــة من مجموعة من دول المــدن كانت فى نزاع واحتراب دائمين حول احراز السلطان على جميع البــلاد . ولكن مما لا شك فيه كانت الوحدة السياسية تتحقق فى خلال مرور القرون بين حين وآخر ولفترات قصيرة على الأقل . وفى مثل هذه الفترات كانت دولة ما بين النهرين الموحدة ، التى كان فيها الساميون العنصر الغالب ، تحرز النجاح على ما يبدو فى مد نفــوذها على الكثير من الجهات والاقاليم المجاورة ، وأنشأت ما يمكن أن يكون أول امبراطورية فى الشرق الأدنى ، وهى أيضا أول امبراطورية فى تاريخ الحضارة على ما يرجح .

ومما لاشك فيه انه من بين الأجزاء التى سيطرت عليها هذه الامبراطورية ، فى كلتا الناحيتين الحضارية والسياسية ، كانت الأقسام الغربية من هضبة ايران ، ويدخــل فيهــا ذلك الأقليم الذى صــار يعرف بعــدئذ باسم « عيلام » . وقد دخلت دولة ما بين النهرين للمرة الأولى فى تاريخها فى الصراع مع السومريين فى غضون ذلك النشاط السياسى وما نتج عنه من حملات عسكرية . كان أولئك السومريون من الأقوام البدائيين فى أصلهم ولعلهم بدو اندفعوا اما مما وراء القوقاز أو مما وراء بلاد بحر قزوين ، وكانوا يضغطون على أقاليم غربى ايران ، مما استوجب الدفاع عن تلك الأجزاء ، لأنها كانت تؤلف نوعا من دولة حاجزة بين امبراطورية ما بين النهرين وبين البرابرة فيما وراءها .

ومما لا ريب فيه انه فى الاصطدامات الأولى كانت قوى دولة ما بين النهرين ، المتفوقة فى فنها وأساليبها العسكرية ، فوق ماكانت تحتمله جموع السومريين . ولكن فى نهاية الأمر كان السومريون البدائيون السريعو الحركة هم الذين أحرزوا اليد العليا على خصومهم المستوطنين

المستقرين ، والمتفوقين عليهم فى مضمار الحضارة . وبمرور السنين كان المحاربون السومريون ، بصفتهم رهائن أسرى فى مدن ما بين النهرين وجندا مرتزقة فى جيوشها ، يتعلمون معظم ما كانوا يحتاجون اليه من فنون الحرب من آسريهم . فلما أن دب الضعف فى دولة ما بين النهرين وشرعت تترنح فى طريقها الى الانهيار اندفعت جموع السومريين من خلال الدويلات الحاجزة فى غربى ايران وغزوا جنوبى العراق نفسه ، حيث حلوا فيه بصفتهم أسيادا فاتحين .

وموجـز القـول هو أن العصر الذى سـبق العهـد السومرى بدأ على هيئة حضارة قروية زراعية أدخلها الايرانيون (الى جنوبى العراق) من الشرق ، وقد مر فى مرحلة متوسطة حدثت فيها الهجرة والغزو من جانب الساميين من الغرب . وبلغ ذروة تطوره عندما نشأت مدنيـة يرجح أن الساميين كانوا العنصر الغالب فيهـا ، وأن جموع السومريين هم الذين أنهوا الحكم السياسى لتلك المدنية .

واذا ما انتقلنا الآن من الطور السابق للعهد السومرى أى من العهد « السامى — الايرانى » ، الذى هو أقدم عهود تاريخ ما بين النهرين ، الى العهد السومرى الذى أعقبه ، وجدنا هذا العهد نفسه ينقسم بدوره الى ثلاثة أطوار ثقافية :

فالعهد الأول هو الطور السابق لنشوء الكتابة ، ثم يليه الطور الشبيه بالكتابى (أى عهد بداية الكتابة) ثم العهد الكتابى القديم . وكان العهد الأول أى عهد ما قبـل الكتابة يتميز بفترة من الركود والتدهور الثقافى ، جاءت فى أعقاب انهيار المدنية «السامية — الايرانية» التى كانت أقدم عهدا وأكثر تقدما ، من جراء دخول الجماعات السومرية

المحاربة الى جنوبى ما بين النهرين . وفى غضون تلك القرون ، التى نجم عنها عصر البطولة السومرى ، كان قادة الحرب السومريون ، الذين لم يبلغوا طور النضج الثقافى ولم يدركوا مرحلة الاستقرار النفسى ، والمجبولون على الروح الفردية والنهب والسلب ، هم الذين أخذوا بأيديهم زمام السلطان فى المدن المنهوبة المدمرة والقرى المحروقة التابعة لامبراطورية ما بين النهرين المغلوبة على أمرها . بيد أن أولئك الغزاة السومريين كانوا أبعد من أن يكونوا مطمئنين آمنين فى موطنهم الجديد فى أرض ما بين النهرين ، لأنه لم يمض عليهم طويل عهد بعد أن أصبحوا أسيادا فى الأرض التى حلوا فيها حتى أخذت تتدفق الى جنوب ما بين النهرين جماعات جديدة من البادية الغربية — أى من القبائل السامية الذين سموا (فى المصادر السومرية) باسم « مارتو » ونعتوا بأنهم « الذين لا يعرفون الغلة » . فانه حتى فى أزمان متأخرة ، أى فى عهد « اينمركار » و « لوجال بندا » — وكان هذا العهد ذروة عصر البطولة السومرى — كان الصراع لايزال على أشده بين هؤلاء البرابرة البدو وبين السومريين الذين كانوا حديثى عهد بسكنى المدن وبالمدنية . وفى مثل هذه الأحوال لم تكن الأزمان التى أعقبت مجىء جموع السومريين صالحة للتقدم الاقتصادى والتقنى (التكنولوجى) وليست ملائمة للجهود المبدعة فى حقل الفن والعمارة . ولم يحصل نشاط مبدع الا فى حقل الأدب — من جانب المغنين والمنشدين والشعراء فى البلاط ، ممن دفعتهم أحوال العصر الى انشاء قصائد الملاحم لتسلية حكامهم وأسيادهم .

ولم يستقر السومريون ويتوطدوا فى وطنهم الجديد الا عندما نأتى الى الطور الثانى من العهد السومرى أى العصر الذى أطلقنا عليه اسم العهد « الشبيه بالكتابى » . وفى هذا العصر على ما يرجح أطلق اسم

« سومر » على القسم الأسفل من بلاد ما بين النهرين . وفى هذا العهد أيضا برز فى حياة المجتمع أثبت وأقوى أجزاء الطبقة الحاكمة ، وبوجه خاص حاشية البلاط والقائمون على شؤون المعابد وطبقة الكتبة والمثقفين. وكانت الحاجة شديدة الى استتباب القانون والنظام فى البلاد . وحصلت اليقظة فى روح الجماعة والاعتزاز بالقومية . أضف الى ذلك ان الاندماج المثمر فى الناحيتين القومية والثقافية ، — أى الاندماج الذى تم بين السومريين الفاتحين وبين السكان الاصليين المغلوبين الذين كانوا أكثر تقدما فى الحضارة ، نقول ان ذلك الاندماج هو الذى عمل على ذلك التقدم المبدع ، الذى كان ذا أهمية عظمى ليس بالنسبة الى بلاد « سومر » فحسب بل بالنسبة الى جميع آسيا الغربية . ففى هذه المرحلة الثقافية نمت العمارة وبلغت مستوى عاليا جديدا . وكان هذا الزمن على ما يرجح هو الذى حصل فيه اختراع الكتابة ، وهو أمر برهن على كونه العامل الحاسم فى صب الشرق الادنى فى قالب الوحدة الثقافية وعلى الرغم من وجود عناصر كثيرة من أجناس مختلفة فان طريقة الكتابة السومرية ، فى هيئتها الأخيرة الاصطلاحية ، قد اقتبسها جميع الأقوام المتحضرين تقريبا فى آسيا الغربية . ونجم عن ذلك أن صار درس اللغة السومرية والأدب السومرى درسا أساسيا تتعلمه الطبقات المتعلمة ، التى كانت محدودة فى عددها ، ولكنها ذات نفوذ جسيم فى مجتمعات الشرق الادنى ، فكانت هذه الخميرة من الانجاز السومرى فى الناحيتين العقلية والروحية هى التى رفعت روح الشرق الادنى الى درجة عليا جديدة فى ذلك العهد المتطاول فى القدم من تاريخ المدنية . (ويجب ألا يغيب عن الذهن ان الانجازات السومرية كانت فى الواقع نتاج ما لا يقل عن ثلاثة أقوام — وهم سكان ايران الأوائل والساميين والسومريين) .

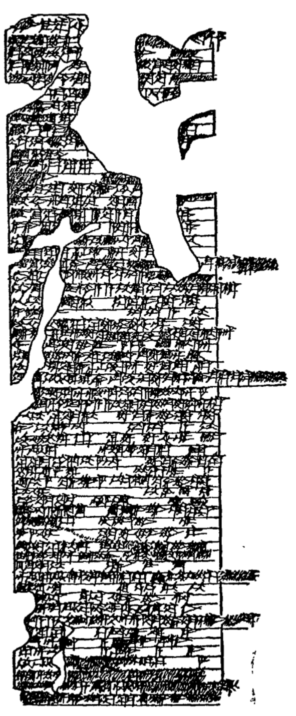
أما الطور الأخير من العهد السومرى ، أى العهد الكتابى القديم ، فقد حصل فيه تقدم أكثر وأبعد فى تلك العناصر المادية والروحية التى ظهرت أكثر أسسها وأصولها فى العهد السابق ، أى فى الطور الشبيه بالكتابى الذى كان أكثر ابداعا ولا سيما فى موضوع الكتابة .

فان الخط المسمارى الذى كان على الأغلب صوريا (يكتب برسم الصور) ورمزيا (أى معبرا عن فكرة) فى العهد السابق قد تحور وتطور بمرور السنين ، واصبح طريقة اصطلاحية للكتابة وطريقة صوتية صرفة [1] . وفى نهاية هذا العصر أصبح من الممكن استعماله حتى فى كتابة النصوص التاريخية المعقدة .

والمحتمل انه فى غضون هذا الطور الكتابى القديم ، أو لعله فى نهاية الطور الشبيه بالكتابى السابق ، ظهرت الى الوجود سلالات سومرية حاكمة قوية . وعلى الرغم من الاحتراب الدائم بين مدينة ومدينة لاحراز السيادة على بلاد سومر جميعها فقد نجح بعض تلك السلالات (الأسرات) ولو لفترات قصيرة ، فى مد حدود بلاد سومر السياسية الى مدى بعيد الى ما وراء القسم الجنوبى من بلاد ما بين النهرين نفسها . وهكذا ظهر الى الوجود ما يمكن تسميته بالامبراطورية الثانية فى تاريخ الشرق الأدنى ، ولكن كان يغلب عليها فى هذه المرة الطابع السومرى . وفى نهاية الأمر دب الضعف فى هذه الامبراطورية السومرية ، مثل سابقتها الامبراطورية السامية المفترضة ، فانهارت . وبسبب تغلغل الأكديين الساميين المستمر فى البلاد ازداد هؤلاء الساميون فى القوة والبأس حتى انتهى

---

(١) لقد سبق أن نوهنا بعدم صحة اطلاق هذه الصفة على الخط المسمارى . فانه لم يصر طريقة صوتية صرفة وانما ظل الى آخر عهود تطوره طريقة خليطة من الكتابة الرمزية والكتابة الصوتية المقطعية . (المترجم)

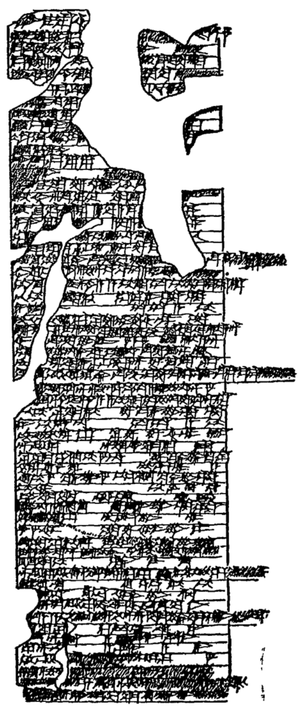


شكل ٧٥ ـ « لوجال بندا وجبل هرم » : نسخة لوجه لوح من « نفر » موجود في متحف الجامعة . وهو مدون بجزء من تلك الملحمة لاحظ حجم القطعة الكبيرة بوجـه غير مألوف

العهد السومرى بحكم « سرجون » الذى يمكن عـده بداية العصر « الأكدى — السومرى » .

وفى الختام ، لعله من المفيد أن نحاول تخصيص أزمان معينة الى تلك الأطوار الثقافية التى وصفناها فيما استعدناه من نشوء أقدم عهود التاريخ لبلاد ما بين النهرين السفلى ، خصوصا وقد عاد الى الظهور مرة أخرى ذلك الاتجاه الى تخصيص تواريخ عالية (وهذا موطن ضعف فى البحوث الأثرية يمكن معرفة أسبابه) .

ولنبدأ بزمن « حمورابى » ، المعروف معرفة جيدة ، وهو مفتاح بارز فى تاريخ ما بين النهرين وفى تسلسل أدوار ذلك التاريخ . لقد كانت بداية حكمه قبل بضع عشرات من السنين تؤرخ فى زمن قديم فى القرن العشرين ق . م . ولكن المتفق عليه عموما الآن أن هذا التاريخ أقدم من التاريخ الحقيقى بمدًى بعيد ، وان عام ١٧٥٠ ق . م . أقرب التواريخ المحتملة الى الحقيقة . والواقع انه حتى هذا التاريخ قد يظهر فى المستقبل أعلى من التاريخ الحقيقى بأربعين أو خمسين عاما ، وان الفترة الزمنية الفاصلة بين بداية حكم « حمورابى » وبداية حكم سرجون الأكدى ، وهو أيضا شخصية تاريخية تعد مفتاحا فى تاريخ ما بين النهرين ، تقدر بنحو خمسة قرون ونصف قرن ، وهى الفترة التى كان يظن فيها سابقا انها تمتد الى نحو سبعة قرون. وبمقتضى هذا التقدير يكون حكم سرجون قد بدأ فى حدود ٢٣٠٠ ق . م . ولو خصصنا ، بالاستناد الى تطور طريقة الكتابة المسمارية ، نحو أربعة قرون الى العهد الذى سميناه بالطور الكتابى القديم من العصر السومرى فتمتد بدايته الى حدود ٢٧٠٠ ق. م. تقريبا . أما الطور السابق الذى سميناه بالعهد الشبيه بالكتابى فلعله لم يستغرق أكثر من قرنين ، وان عصر البطولة السومرى الذى سبقه



شكل ٧٥ ــ « لوجال بندا وجبل هرم » : نسخة لوجه لوح من « نفر » موجود فى متحف الجامعة . وهو مدون بجزء من تلك الملحمة لاحظ حجم القطعة الكبيرة بوجـه غير مألوف

العهد السومرى بحكم « سرجون » الذى يمكن عـده بداية العصر « الأكدى — السومرى » .

وفى الختام ، لعله من المفيد أن نحاول تخصيص أزمان معينة الى تلك الأطوار الثقافية التى وصفناها فيما استعدناه من نشوء أقدم عهود التاريخ لبلاد ما بين النهرين السفلى ، خصوصا وقد عاد الى الظهور مرة أخرى ذلك الاتجاه الى تخصيص تواريخ عالية (وهذا موطن ضعف فى البحوث الأثرية يمكن معرفة أسبابه) .

ولنبدأ بزمن « حمورابى » ، المعروف معرفة جيدة ، وهو مفتاح بارز فى تاريخ ما بين النهرين وفى تسلسل أدوار ذلك التاريخ . لقد كانت بداية حكمه قبل بضع عشرات من السنين تؤرخ فى زمن قديم فى القرن العشرين ق . م . ولكن المتفق عليه عموما الآن أن هذا التاريخ أقدم من التاريخ الحقيقى بمدًى بعيد ، وان عام ١٧٥٠ ق . م . أقرب التواريخ المحتملة الى الحقيقة . والواقع انه حتى هذا التاريخ قد يظهر فى المستقبل أعلى من التاريخ الحقيقى بأربعين أو خمسين عاما ، وان الفترة الزمنية الفاصلة بين بداية حكم « حمورابى » وبداية حكم سرجون الأكدى ، وهو أيضا شخصية تاريخية تعد مفتاحا فى تاريخ ما بين النهرين ، تقدر بنحو خمسة قرون ونصف قرن ، وهى الفترة التى كان يظن فيها سابقا انها تمتد الى نحو سبعة قرون . وبمقتضى هذا التقدير يكون حكم سرجون قد بدأ فى حدود ٢٣٠٠ ق . م . ولو خصصنا ، بالاستناد الى تطور طريقة الكتابة المسمارية ، نحو أربعة قرون الى العهد الذى سميناه بالطور الكتابى القديم من العصر السومرى فتمتد بدايته الى حدود ٢٧٠٠ ق. م. تقريبا . أما الطور السابق الذى سميناه بالعهد الشبيه بالكتابى فلعله لم يستغرق أكثر من قرنين ، وان عصر البطولة السومرى الذى سبقه

يمكن بالقياس الى ذلك تخصيصه الى القرن الأول من الألف الثالث ق.م. وبالنسبة الى أول دخول السومريين الفاتحين البدائيين الى جنوبى ما بين النهرين ينبغى أن يكون هذا الحدث قد وقع فى الربع الأخير من الألف الرابع ق . م . واذا خصصنا نحو خمسة الى ستة قرون أخرى الى عهد الحضارة « السامية — الايرانية » فيكون أول استيطان للبشر فى جنوبى ما بين النهرين يمتد الى الربع الأول من الألف الرابع ق . م .

وعلى خلاف الشعر القصصى وشعر التراتيل الدينية كان الشعر الغنائى (الغزلى) نادرا فى الأدب السومرى ، ولا سيما شعر الغزل والحب . فلم يصلنا حتى الآن سوى قصيدتين من شعر الغزل أمكن العثور عليهما من بين المئات والألوف من ألواح الطين السومرية . ومع هذا فانه حتى هاتين القصيدتين ، كما سيظهر من الترجمة التى سنوردها فى الفصل الثالث والعشرين ، ليستا شعر حب وغزل بالمعنى المفهوم لهذا الباب من الأدب . فكلتاهما تبدو وهى نوع من غناء مفكك فى الغزل أنشدته « عروس » ملكية الى ملكها . انهما تذكراننا « بنشيد الانشاد » فى التوراة .

الفصل الثالث والعشرون

« إلى العريس الملكى »

أول أغنية فى الحب

عندما كنت أشتغل فى متحف الشرق القــديم فى استانبول بصفة أستاذ باحث على حساب مشروع « فلبرايت » وكان ذلك فى نهاية عام ١٩٥١ ، اهتديت الى لوح صغير مسجل فى ذلك المتحف تحت الرقم (٢٤٦١) . كنت أعمل منذ أسابيع ، وأنا أفحص وأدرس بصورة مبدئية درجا بعد درج وكلها ملأى بألواح الطين المدونة بالآداب السومرية التى لم يسبق نشرها ، لكى أعين كل قطعة وأصنفها فى الباب الذى تعود اليــه . كان كل ذلك نوعا من التنقيب أو التهيؤ السابق للاختيــار ، أى اختيار القطع المهمة لا ستنساخها . لأنه لم يكن لدى متسع من الوقت لاستنساخها كلها . وكانت القطعة الصغيرة ذات الرقم (٢٤٦١) موضوعة فى أحد الأدراج مع قطع أخرى ، ولما أن وقعت عليها عيناى كان أهم ما يلفت اليها النظر حالتها (الجيدة) من الحفظ . ثم سرعان ما أدركت اننى كنت أقرأ فيها قصيدة مقسمة الى عدد من الأبيات الشعرية التى تشيد بالجمــال والحب ، وتدور حول عروس مبتهجة وملك اســمه « شو — سين » (وهو ملك كان يحكم فى بلاد ســومر قبل نحو ٤٠٠٠ عام) . وكلما أعدت قراءتها المرة تلو المرة لم أجد انى أخطأت فى تعيين ما هو مدون عليها وتأكد لدى أن ما كنت أقرؤه ليس الا قصيدة من أقدم أغانى الحب التى كتبتها يد الانسان .

ثم سرعان ماتبين لى ايضا ان تلك القصيدة لم تكن قصيدة غزل دنيــوية ، اى لم تكن اغنيــة حب بين « رجــل وفتــاة » من البشر العاديين ، بل انها تدور حول ملك وعروسه المختارة . ومما لا مراء فيه كان المقصود منها أن تتلى فى أثناء بعض المراسيم والشعائر المقدسة القديمة ، وبوجه خاص فى المناسبة الدينية المعروفة باســم « الزواج المقدس » . فبمقتضى المعتقدات السومرية كان واجبا دينيا على الحاكم فى كل عام أن يتزوج بكاهنة ممن نذرن أنفسهن الى « اناننا » الهة الحب ، والتــوالد ، ضمانا لخصب التربة وخصب الأرحــام . وان هــذا الاحتفال الذى زادت السنون من قداسته كان يحتفى به فى يوم عيد رأس السنة ، وذلك باقامة الأعياد والولائم المقرونة بالموسيقى والغناء والرقص . وكانت القصيدة المدونة فى ذلك اللوح الصغير الموجود فى اســتانبول على أكثر الترجيح تتــلوها العروس المختــارة للملك « شو — سين » فى أثناء سير الاحتفالات والأعياد الخاصــة بعيد رأس السنة .

لقد استنسخت تلك القصيدة السيدة « معززچك » ، من الأمنــاء الموكلين بمجموعات الألواح فى متحف استانبول . ولقــد نشرت هذه القصيدة بالاشتراك مع « چك » مع الاستنساخ والتعريب (١) والترجمة والتعليقات فى « مجلة الجمعية التاريخية التركية (٢) » . ونقدم فيما يأتى ترجمة أولية للقصيدة : —

« أيها العريس الحبيب الى قلبى ،

« جمالك باهر ، حلو ، كالشهد ،

(١) Transliteration أى نقل أصوات لغة (وفى هذه الحالة اللغة السومرية) بالحروف اللاتينية . (المترجم)

(٢) Belleten, Vol. 16, PP. 345 ff.

« أيها الأسد الحبيب الى قلبى ،
« جمالك باهر ، حلو ، كالشهد ،

« لقد أسرت قلبى فدعنى أقف بحضرتك ، وأنا خائفة مرتعشة ،
« أيها العريس سيأخذوننى اليك الى غرفة النوم ،
« لقد أسرت قلبى ، فدعنى أقف بحضرتك ، وأنا خائفة مرتعشة ،
« أيها الأسد ستأخذ بى الى غرفة نومك .

« أيها العريس دعنى أدلّلك ،
« فان تدليلى أطعم وأشهى من الشهد ،
« وفى حجرة النوم ، الملأى بالشهد ،
« دعنا نستمتع بجمالك الفاتن ،
« أيها الأسد ، دعنى أدلّلك ،
« فان تدليلى أطعم وأشهى من الشهد .

« أيها العريس لقد قضيت وطر لذتك منى ،
« فأبلغ أمى وستعطيك الأطايب ،
« أما أبى فسيغدق عليك الهبات ،
« وروحك ، أنا أعرف كيف أبهج روحك ،
« أيها العريس نم فى بيتنا حتى انبلاج الفجر ،
« وقلبك ، أعرف أين أدخل السرور الى قلبك ،
« أيها الأسد نم فى بيتنا حتى انبلاج الفجر .

« وأنت ، لأنك تهوانى ،
« هبنى بحقك شيئا من تدليلك وملاطفتك ،
« يا مولاى ، الاله ، يا سيدى الحامى ،
« يا « شو — سين » الذى يفرح قلب « أنليل » ،
« ألا هبنى من ملاطفتك .

« موضعك جميل حلو كالشهد ، فضع يدك عليه ،
« قرب يدك عليه كرداء الـ « جشبان » ،
« ضم كفك عليه كرداء الـ « جشبان » ،
« انها قصيدة غناء (بلباله) من قصائد « اناتا » .

* * *

والأغنية السومرية الأخرى الوحيدة المعروفة بكونها أغنية فى الحب وجدت مدونة أيضا فى لوح من ألواح استانبول . ومع انه سبق للباحث المرحوم « ادوارد كييرا » ان نشر ذلك اللوح فى عام ١٩٢٤ ، الا انه لم يترجم الا فى عام ١٩٤٧ حيث ظهرت تلك النشرة القيمة المفصلة التى وضعها الباحث « أدم فلكنشتاين » ونشرها فى مجلة « عالم الشرق » [1]. وتتألف هذه القصيدة أيضا من عبارات الغزل والغرام الصادرة من كاهنة منذورة اسمها غير معروف ، حيث تخاطب فيها ملكها . بيد ان تراكيبها ولغتها ليست واضحة كل الوضوح ، ومبهمة المعنى فى جملة مواطن . ويبدو انها مؤلفة من ست مقطوعات اثنتان منها يتألف كل منهما من أربعة أسطر وواحدة من ستة أسطر واثنتان أخريان تتألفان من أربعة أسطر . وواحدة من ستة أسطر . بيد أن الصلة أو الرابطة المنطقية بين المقطوعات،

(1) Welt des Orients (1947), PP. 43-50

المختلفة ليست تامة الوضوح . فالمقطوعة الأولى تتغنى بمولد الملك « شو — سين » ، فى حين يبدو على الثانية انها تتضمن تمجيد « شو — سين » وأمه المسماة « أبسيميتى » وزوجته « كوباتُم » . وفى المقطوعة الثالثة وهى أطولها كلها تذكر لنا الشاعرة الهبات السنية التى أغدقها عليها الملك من أجل أغانيها المفرحة المشجية . أما المقطوعات الثلاث الأخيرة

شكل ٧٦ ــ قصيدة فى «الحب» : نسخة يدوية لوجه وقفا لوح موجود فى استانبول وهو مدون بقصيدة غزل فى الملك « شو ــ سين » شبيهة بنشيد الانشاد فى التوراة

تتألف الأولى والثالثة من أبيات تهتف وتشيد بالملك ، فى حين أن الثانية تتغنى غناء مغريا بجمال الشاعرة وفتنتها وسحرها . ونقدم فيما يأتى ترجمة أولية للقصيدة :

« لقد ولدت النسل الطاهر ، أنجبت الطاهر ،

« ولدت الملكة ذلك الطاهر ،

« أنجبت « أبسيمتى » ، ذلك الولد الطاهر

« ولدت الملكة ذلك الطاهر .

« يا مليكتى يا من كرمت بأعضائها (المتناسقة) ،
« يا مليكتى يا ذات الرأس .. يا مليكتى « كوباتم » ،
« يا سيدى يا من شعره .. أيها المولى « شو — سين »
« يا سيدى يا من كلمته .. يا ولدى من « شولـجِى » !

« لأننى فهت بها ، لأننى قلتها ، أكرمنى المولى بهبته ،
« لأننى أنشدت أغنية ال « ألارى » ، خصنى المولى بهبة .
« قلادة من الذهب ، وخاتم من اللازورد ، أعطانى المولى هدية ،
« حبانى المولى بخاتم من الذهب ، وخاتم من الفضة ،
« يا سيدى ان هباتك ملأى .. ارفع وجهك الى ،
« يا « شو — سين » ان عطاياك ملأى بـ ... — ارفع وجهك الى .

« أيها المولى .. أيها المولى .. ،
« . . . كالسلاح . . . ،
« ها هى ذى المدينة ترفع يدها مثل «تنين» ، يا سيدى «شو — سين» .
« انها رابضة عند قدميك مثل شبل الأسد ، يا ابن « شولجى » .

« يا الهى ان « ساقية الخمر » شرابها حلو ،
« ومثل خمرتها ، فرجها حلو ، ان شرابها حلو ،

« ومثل رضاب شفتيها ، حلو فرجها ، حلو شرابها ،

« شرابها الممزوج حلو ، شرابها (حلو) .
« يا « شو — سين » ، الذى يخصنى بكرم حظوته ،
« آه يا « شــو — سين » ، الذى يخصنى بحظوته ، ويدللنى ويخصنى بحظوته ،
« يا « شــو — سين » يا محبوبى ، المحبوب عنــد « انليل » يا « شو — سينى » [1] .
يا مليكى يا اله بلاده انها أغنية « باو » [2] .

ان القصائد والمقالات السومرية التى حللناها وبحثنا فيها فى هذا الكتاب لا تمثل لنا الا جزءا صغيرا من مخلفات الادب السومرى التى بين أيدينا — ناهيك بعــدد غفير لا يحصى من الألواح التى لا تزال مطمورة تحت التراب . والجدير بالذكر فى هذا الصدد ان عددا كبيرا من التآليف الأدبية السومرية المختلفة فى أبوابها وأصنافها كانت متداولة فى المدارس السومرية فى النصف الأول من الألف الثانى ق . م . وكانت هذه على ما نوهنا به مرارا مدونة فى ألواح الطين ، وفى منشورات الطين، والاساطين ذات الحجوم والاشكال المختلفة التى كانت تستعمل فى القراءة ، وينبغى خزنها والاعتناء بها . فمن البدهى ان نفترض ان جماعة من أعضاء الهيئات التدريسية رأوا من اللائق اعداد أثبات أو فهارس بأسماء مجاميع المؤلفات الأدبية لغرض الرجوع اليها وتنظيم خزنها . هذا ولقد تم فى عام ١٩٤٢ تعيين فهرسين من فهارس أسماء الكتب . وجد أحدهما فى متحف اللوفر ، والآخر فى متحف جامعة بنسلفانيا . وسيكون هذان اللوحان اللذان يعدان « أول فهرس لخزانة الكتب » موضوع بحثنا فى الفصل الرابع والعشرين .

---

(١) اضافة الى ياء المتكلم .
(٢) الهة من آلهات الخصب والزراعة . (المترجم)

الفصل الرابع والعشرون

« فهارس الكتب »

أول فهرس لخزانات الكتب

فى متحف جامعة بنسلفانيا لوح مسجل تحت الرقم « ٢٩ — ١٥ — ١٦٦ » . انه « فهرس كتب » قديم . وهو صغير الحجم لا يتجاوز طوله (٢ ½) أنجا (بوصة) وعرضه (١ ½) أنجا (بوصة) ، وفى حالة سليمة من الحفظ وهو كامل تقريبا . ومع صغر حجم اللوح ، الا ان الكاتب استطاع بتقسيمه كل جانب منه الى حقلين ، وباستعماله خطا دقيقا ، أن يفهرس عناوين اثنين وستين عنوانا من التآليف الأدبية فى هذا اللوح الصغير . ولقد قسم العناوين الأربعين الأولى الى عشر مجموعات برسمه خطا فاصلا بين الرقم ١٠ و ١١ وبين ٢٠ و ٢١ وبين ٣٠ و ٣١ وبين ٤٠ و ٤١ . أما الاثنان والعشرون عنوانا الباقية فقد قسمها وفصلها الى مجموعتين تتألف المجموعة الأولى من تسعة عناوين والثانية من ثلاثة عشر عنوانا . وان مالا يقل عن أربعة وعشرين عنوانا من العناوين التى أثبتها هذا الكاتب فى فهرسته يمكن تعيينها بكونها عناوين تآليف جاءتنا نصوصها الخاصة بكاملها أو القسم الأكبر منها . كما انه من المحتمل انه سيكون لدينا أقسام كبيرة من النصوص الأخرى المثبتة عناوينها فى ذلك الفهرس . ولكن لما كانت عناوين التآليف السومرية تتألف من جزء من السطر الأول منها —

والغالب الجزء الأول منه — فليس هناك وسيلة لتعيين عناوين تلك القصائد أو المقالات التى كسرت منها أسطرها الأولى أو التى شوهت فيها هذه الأسطر الأولى .

ان تمييز محتويات ذلك اللوح الصغير الموجود فى متحف الجامعة وتعيينه بكونه « فهرس كتب » لم يتم بيسر وسهولة ولا من النظرة الأولى . وحين تناولت ذلك اللوح الصغير من خزانته المودع فيها بغية درسه ، لم يكن لدى سابق معرفة بطبيعته ومضمونه . ولما أن شاهدته سررت لحسبانى اياه قصيدة سومرية . وشرعت فى ترجمته على انه نص متصل المعنى مترابطه . ولكن الواقع اننى اضطربت وتحيرت بسبب أسطره المتناهية فى القصر ومن جراء التقسيم المحير فى نصه الى مجموعات مختلفة بالخطوط المرسومة بين أسطره . ولكن وصفه بأنه « فهرس كتب » لم يكن ليدور فى خلدى لو لم يكن مألوفا لدى الأسطر الأولى لعدد من التآليف الأدبية السومرية ، من جراء اشتغالى طوال سنين كثيرة فى جمع نصوصها المتيسرة . ولما كنت أقرأ العبارات المنفردة فى ذلك اللوح وأعيد قراءتها المرة بعد الأخرى كان التشابه بينها وبين الأسطر الأولى لعدد من القصائد والمقالات السومرية يتبادر الى ذهنى ويبرز بروزا واضحا قويا . فسهل الأمر على عند ذاك ، ساعدتنى المقارنة المسهبة فى أن أستنتج أن الأسطر المدونة فى تلك الوثيقة الصغيرة لم تكن تتضمن فى الواقع نصا مطردا متصلا ، وانما هى أثبات أو فهارس منفصلة لعدد من التآليف الأدبية السومرية .

ولما أن تمت معرفة المحتويات التى تضمنها فهرس ذلك اللوح الأدبى وعينت محتوياته بدا لى من المستحسن أن أفحص جميع

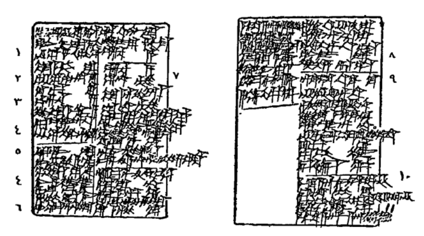
النصوص السـومرية التى نشرتهـا المتـاحف المختلفة فى غضـون عشرات السنين الماضية ، للبحث عما اذا كان يوجد من بينها وثيقة مماثلة مما تم نشره سابقا ولكن لم يفطن أحد الى طبيعة محتوياتها . فتحقق أملى لما وجهت بحثى الى نشرة متحف اللوفر المعنونة « نصوص دينية سومرية » ، اذ وجدت أن اللوح المسـجل تحت الرقم (AO 5393) فى متحف اللوفر ، الذى وصفه ناسخه الباحث الفرنسى «دى جنوياك» بكونه ترتيلة دينية ، انما هو فى الواقع « فهرس » يشـبه لوحنـا الموجود فى متحف الجامعة شبها كبيرا . والواقع أنه يحتمل ، بالاستناد الى خطه ، أنه خط بيد نفس ذلك الكاتب . ولوح متحف « اللوفر » مقسم أيضـا الى أربعـة حقول ، تتضمن فهرس ثمانية وستين عنوانا ، أى يزيد على لوح متحف الجامعة بستة عناوين . ويوجد ثلاثة وأربعون عنوانا متطابقة فى كلا اللوحين على الرغم من أن ترتيبها مختلف فى أكثر المواطن . وعلى ذلك يكون لوح متحف « اللوفر » مشـتملا على خمسة وعشرين عنوانا غير موجودة فى لوح متحف الجامعة . فى حين أن فى هذا اللوح بدوره تسعة عشر عنوانا غير موجـودة فى اللوح الأول . ويحتوى كلا اللوحين فهرسا بعناوين ٨٧ تأليفا من التآليف الأدبية السومرية . وان ثمانية عناوين من بين العناوين الخمسة والعشرين المثبتة فى لوح متحف « اللوفر » فقط يوجد لدينا عنها القسم الأكبر من نصوص التآليف الخاصة بها . وهـذا يجعل مجموع التـآليف المعروفة لدينا (من فهرس هذين اللوحين) اثنين وثلاثين تأليفا .

أما بالنسبة الى الأسس التى سار بموجبها ذلك الكاتب القديم فى تنظيم فهرسه فانها غير واضحة بالمرة . فأول ما يلاحظ انه . لما كان

الثلاثة والأربعون العنوان الموجودة فى كلا الفهرسين بصورة مشتركة تختلف اختلافا كبيرا فى تنظيمها وتسلسلها فى كل من اللوحين ، فيتضح ان الأسس المتبعة فى كل من الفهرسين لم تكن متطابقة . والمتوقع بداهة فى مثل هذه الأمور أن تكون طبيعة محتويات التآليف هى المبدأ أو المقياس الذى يتبع فى ترتيب عناوينها . ولكن الواقع ان هذا هو النادر . وان المثال الوحيد الدال على اتباع التنظيم على أسس المحتويات نجده فى الثلاثة عشر عنوانا الأخيرة المثبتة فى لوح متحف الجامعة ، فهى كلها عناوين مؤلفات فى « الحكمة » و « الأمثال » . والطريف فى هذا الأمر اننا لا نجد أثرا من هذه العناوين مثبتا فى لوح متحف « اللوڤر » .

هذا وما زلنا نجهل الأهداف العملية التى قصد تحقيقها من تنظيم ذلك الفهرس ، فلا سبيل لنـــا الا الحدس فى الدوافع الحقيقية التى حملت الكاتب القديم على ذلك الاختيار الخاص . واذا ما بدأنا بايراد أوضح الاحتمالات فيرجح ان ذلك الكاتب دون تلك « العناوين » حينما كان يخزن الألواح الأدبية واحدا بعد واحد فى « جرة » طين ، أو عندما كان يستخرجها من « الجرة » ، أو لعله كان ينظمها وينضدها فوق رفوف حجرة خزانة كتب « بيت الألواح » . ومهما كان الحال فلعل أحجام تلك الألواح كانت عاملا أساسيا فى ترتيب الاختيار أيضا . والى أن تظهر حقـــائق أخرى فان قضية تنظيم ذلك الفهرس ستبقى غامضة مبهمة .

وللايضاح نذكر فيما يأتى العناوين المثبتة فى الوثيقتين مما يمكن تعيينه وارجاعه الى تلك القصائد والمقالات السومرية التى بحثنا فيها فى هذا الكتاب :



شكل ٧٧ — « فهرست خزانة كتب » : فهرست بأسماء مؤلفات بحث فيها فى هذا الكتاب . وفى هذه النسخة اليدوية « لفهرست الكتب » تشير الأرقام الى التآليف الأدبية التى عالجناها فى هذا الكتاب

١ — Ene nigdue [1] ومعناه : (« المولى (السيد) ما هو لائق ») . وهذا مثبت تحت العنوان الثالث من فهرست متحف الجامعة (ولعله موجود فى وثيقة متحف اللوفر ، ولكن اللوح مكسور فى هذا الموضع) . وهـذا هو العنوان الذى تبدأ به الأسطورة الخاصة « بخلق الفأس » التى اعتمدنا على الأسطر الأولى منها فى استنتاج العقـائد والتصورات السومرية فى خـلق الكون (أنظر الفصل الثانى عشر) .

٢ — Enlil Sudushe : أى : « انليل واسع (بعيد) الادراك » . وهو مثبت بالعنوان رقم (٥) فى كلا الفهرسين . ويكون بداية ترتيلة « أنليل » التى اقتبسنا معظمها فى الفصل الثانى عشر .

٣ — Uria : أى « أزمان (أيام) الخليقة » وهو مثبت برقم ٧ فى كلا الفهرسين . انه بداية ملحمـة « جلجامش وأنكيدو والعـالم

(١) لقد تركنا تأدية العبارات السومرية بالحروف اللاتينية لصعوبة نقلها الى الحروف العربيـة . (المترجم)

الأســفل » (أنظر الفصل الواحد والعشرين) . ويظهر العنوان Uria أيضا مرتين أخريين فى الفهرسين مما يدل على انه كان فى متناول يد واضع الفهرس تأليفان آخران يبدآن بهذه العبارة ، ولكن مع ذلك فيبدو أن كاتب الفهرس لم يجـد حاجة للتمييز بين هـذه العناوين الثلاثة المتطابقة .

٤ — Ene kurlutilashe : أى « السيد الى جهة أرض الأحياء » لقد جاء تحت الرقم (١٠) فى كلا الفهرسين . وهو بداية حادثة « ذبح التنين » فى قصة « جلجامش وأرض الأحياء » (أنظر الفصل العشرين) وفى ص ٢٠٢ — ٢٠٣ وضحت احدى روايات هذا اللوح .

٥ — Lukingia Ag : أى « رسل أجا » وهو تحت الرقم (١١) فى لوح متحف الجامعة ، ولكنه محذوف فى قطعة متحف اللوفر . انه بداية الملحمة المهمة سياسيا ، التى عنوناها : « جلجامش وأجا » (أنظر الفصل الرابع) . ان العنوان السومرى يكتفى من اسم « أجا » بالمقطع (Ag) على الرغم من أن هذا المقطع ليس الا الجزء الأول من الاسم [1] .

٦ — Hursag an kibida : أى « على جبل السماء والأرض » وهو تحت رقم (١٧) فى لوح متحف الجامعة ، ولكنه محذوف من لوح متحف اللوفر . انه بداية المنـاظرة المعنوية « الماشية والغلة » (أنظر الفصل الثالث عشر) . وهى أسطورة مهمة عن آراء السومريين فى خلق الانسان .

٧ — Uru nanam : أى « هوذا . المدينة » . لقد جاء تحت

(١) لعل التفسير الصحيح هو أن المقطع Ag يقـرأ أيضـا aga على ما هو معروف فى أصوات العلامات والمقاطع المسمارية . (المترجم)

الرقم ٢٢ فى لوح متحف الجامعة ، ولكنه محذوف من قطعة متحف « اللوفر . وهو بداية الترتيلة الخاصة بالالهة « نانشه » (أنظر الفصل الثالث عشر) . وهى ترتيلة مهمة عن تاريخ الأخلاق والسلوك عند السومريين .

٨ — Lugalbanda : أى « لوجال بندا » . جاء تحت الرقم ٣٩ فى لوح متحف الجامعة ولكنه محذوف من لوح متحف « اللوفر » . وهو بداية الملحمة الخاصة بالبطلين « لوجال بندا » و « اينمركار » (أنظر الفصل الثانى والعشرين) .

٩ — Angalta kigalshe : أى « من الأعلى العظيم الى الأسفل العظيم » . ورد تحت الرقم (٤١) فى وثيقة متحف الجامعة ولكنه تحت رقم (٣٤) فى قطعة متحف « اللوفر » . وهو بداية أسطورة « هبوط انانا الى العالم الأسفل » (أنظر الفصل التاسع عشر) .

١٠ — Mesheam iduen : أى « الى أين ذهبت » ورد تحت الرقم (٥٠) فى لوح متحف الجامعة ولكنه محذوف فى وثيقة متحف « اللوفر » . وهو نهاية السطر الأول من تأليف « أيام الدراسة » الذى بحثنا فيه فى الفصل الثانى . أما السطر الأول من هذه المقالة بكامله فنصه باللفظ السومرى «dumu edubba u ulam meshe iduen» ومعناه : « يا ابن المدرسة الى أين كنت تذهب فى الأيام القديمة ؟ » ولكن واضع الفهرس اختار لفهرسه الشطر الأخير وليس القسم الأول من هذا الشطر ، ولعل ذلك بسبب عدد آخر من المقالات المعنونة بعبارة Dumu edubba (أى « ابن المدرسة ») فأراد التمييز ما بينها .

١١ — U ul engarra : أى « الفلاح فى سابق الأيام » . ورد تحت الرقم ٥٣ فى لوح متحف الجامعة ، ولكنه محذوف فى لوح متحف

اللوفر . وهو بداية تلك الرسالة التى تتضمن الارشادات الموجهة من فلاح الى ابنه . وقد بحثنا فيها فى الفصل العاشر بعنوان « تقويم الفـلاح » .

١٢ — Lugale Umelambi nirgal ورد تحت الرقم ١٨ فى لوح متحف اللوفر بيد انه محذوف فى لوح متحف الجامعة . وهو بداية أسطورة « ذبح التنين » من أسطورة « أعمال الاله ننورتا ومآثره » (أنظر الفصل العشرين) .

١٣ — Lulu nammah dingire : أى « الانسـان . تمجيـد الآلهة » . ذكر تحت الرقم ٤٦ فى قطعـة متحف « اللوفر » ولكنـه محذوف فى لوح متحف الجامعة ، وهو بداية المقالة الشعرية فى « عذاب الانسان واستسلامه » ، وهو الموضـوع الذى عالجناه فى الفصـل الرابع عشر .

* * *

ان السومريين لم يعلقوا آمالا مفرحة سارة عن الانسان ومستقبله ، بل كانوا فى الواقع أكثر ما يتشوقون اليه هو الاطمئنان ، والى ثلاث حريات من تلك الحريات الأربع التى ننادى بها فى عصرنا الراهن الا وهى : التحرر من الخوف والتحرر من الحاجة والتحرر من الحرب . ولكن لم يدر بخلدهم البتة أن يتمثلوا (يسقطوا) [1] تحقيق هذه الرغبات فى المستقبل . انهم بدلا من ذلك رأوا فى مثل هذه الآمال انها حـوادث ماضية ، فتصورها فى المـاضى الواغـل فى القـدم . وسنعرض أول آراء مدونة عن فكرة « الماضى الذهبى » فى الفصل الخامس والعشرين .

---

(١) Projection : مصطلح « الاسـقاط » فى عـلم النفس مسـتعمل فى العربيـة فى مصطلحات علم النفس الحديث . (المترجم)

الفصل الخامس والعشرون

« السلام والوئام فى العالم »

أول عصر ذهبي للانسان

فى الأساطير الكلاسيكية (اليونانية — الرومانية) يصور العصر الذهبى على انه عصر السعادة الكاملة ، يوم كان الناس يعيشون بلا كد ولا كفاح . وفى الأدب السومرى نرى أول تصور للانسان عن العصر الذهبى مدونا فى لوح من الطين . فنجد وجهة النظر السومرية عن العصر الذهبى فى قصة الملحمة المعنونة (« اينمركار » وأرض « أرتا ») (أنظر الفصل الثالث) . فان هذه القصة تتضمن من بين نصوصها فقرات مؤلفة من واحد وعشرين سطرا تصف لنا حالة السلام والطمأنينة فى قديم الزمان التى انتهت بسقوط الانسان من تلك الحالة السعيدة . واليك ترجمة تلك العبارات :

فى سالف العصور ، لم يكن فى الوجود حية ولم يكن فيه عقرب ،
لم يكن الضبع ولا كان السبع ،
لم يكن الكلب الوحش ، ولم يوجد الذئب ،
لم يكن هناك خوف ولا فزع ،
ولم يكن للانسان منافس ،

وفى غابر الأزمان كانت بلاد « شوبر » و « هَمَازى » [1] ،
وبلاد سومر الكثيرة الألسنة (؟) ، البلد العظيم ذو النواميس المقدسة الخاصة بالامارة ،

(١) حول تعيين هذه الأقاليم انظر آخر هذا الفصل . (المترجم)

وبلاد « أورى » ، البلاد التى احتوت كل ما هو لائق ،
وبلاد « مارتو » [1] ، كانت آمنة مطمئنة ،
« وجميع الكون والناس فى وحدة وألفة (؟) ،
« حيث كان الجميع يمجدون « أنليل » ، بلسان واحد .

« ثم (حدث) بعدئذ ان المولى — الأب الأمير — الأب الملك — الأب ،
« انكى السيد — الأب الأمير — الأب . الملك — الأب ،
« المولى — الأب الغاضب (؟) ، الأمير الأب الغاضب ، والملك — الأب الغاضب ،
« ... كثرة ... (خمسة أسطر مخرومة) ،
« .. الانسان .. » .

ان الأحد عشر سطرا الأولى ، وهى بحالة جيدة من الحفظ ، تصف لنا تلك الأزمان البعيدة السعيدة يوم كان الانسان وهو لا يعرف الخوف ولا منافس له ، يعيش فى عالم يسود فيه السلام والوفرة ، وجميع شعوب الأرض يعبدون الها واحدا هو « أنليل » . والواقع اننا اذا أخذنا عبارة « فى لسان واحد » بمعناها الحرفى وليس بمعناها المجازى للتعبير عن معنى « بقلب واحد » (أى باتفاق ووئام) فذلك يدل على ان السومريين ، كالعبرانيين فى أزمان متأخرة ، كانوا يعتقدون بأنه كان لدى البشر لغة عامة واحدة قبل عهد « بلبلة الألسن » .

أما الأسطر العشرة التى تؤلف الجزء التالى من النص فانها ناقصة الى درجة لا تمكننا الا أن نحدس مضمونها . وبالاستناد الى سياق النص فلعلنا لا نجانب الصواب اذا قلنا ان الاله « انكى » ، وقد أزعجه سلطان الاله « انليل » ، أو انه غار منه ، عمد الى تقويضه ،

(١) انظر الهامش السابق . المترجم

وقضى بذلك على عصر الانسان الذهبى ، بأن أوقع النزاع والاحتراب بين شعوب الأرض . ولعل الاله « انكى » أيضا (اذا أخذنا المعنى الحرفى للسطرين ١٠ و ١١) هو الذى سبب بلبلة الألسنة . واذا صح ذلك فيرجح أن تكون هنا أول اشارة الى وجود مشابهة فى الأدب السومرى لقصة « برج بابل » الواردة فى التوراة (سفر التكوين : ١١ : ١ — ٩) ، باستثناء ان السومريين عزوا سقوط الانسان الى الغيرة والتحاسد بين الآلهة ، فى حين أن العبرانيين اعتقدوا بأن سبب ذلك يرجع الى « غيرة » « الوهيم » أى (الله) من طموح الانسان ليكون مثل الآلهة .

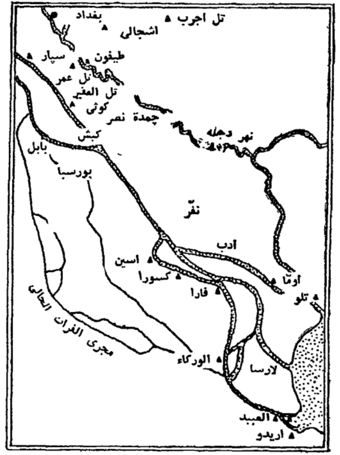


شكل ٧٨ — « عصر الانسان الذهبى » : نسخة يدوية لوجه وقفا كسرة لوح من « نفر » موجودة فى متحف الجامعة ، وهى مدونة بأجزاء من الملحمة الخاصة بقصة « اينمركار وسيد أرتا »

لقد عنون الشاعر السومرى الفقرة الخاصة بالعصر الذهبى بعنوان « سحر أنكى » ومنشأ هذه التسمية كما جاء فى الأسطورة ان « اينمركار » ، سيد « ارك » والمقرب الى الاله « انكى » ، عزم ذات مرة على جعل دولة « أرتا » الغنية بالمعادن ، تابعة وخاضعة له . فأرسل الى حاكم « أرتا » رسولا ليهدده وينذره بتدمير « أرتا » اذا لم يقدم هو وشعبه المعادن الثمينة والأحجار الكريمة ، ويشيدوا معبد « انكى » ، المسمى « آبزو » ، ويزينوه له . ولكى يجعل الانذار

مؤثرا فى حاكم « أرتا » ، أوصى « انكى » الرسول أن يتلو على حاكم « أرتا » « سحر انكى » ، أو تعويذته التى تقص كيف ان « انكى » استطاع أن يقضى على نفوذ « انليل » وسلطانه على الأرض وساكنيها .

ولهذه المقطوعة المؤلفة من واحد وعشرين سطرا وجه آخر من الأهمية ، فوق خطورتها فى الكشف عن آراء السومريين فى ماضى الإنسان السعيد ، فانها تنيرنا بفكرة عن حجم وجغرافية العالم الذى كان معروفا لدى السومريين . ويؤخذ من الأسطر « ٦ — ٩ » أن الشاعر تصور الكون على انه مكون من أربعة أقطار أو أقسام رئيسية . وان قطره ، أى بلاد سومر ، كان يؤلف الحد الجنوبى لهذا الكون ،



شكل ٧٩ ــ مواضع المدن القديمة : خريطة القسم الجنوبى من العراق تبين المواضع المهمة التى جرت فيها التنقيبات الآثارية

وهو يتألف بوجه التقريب من الاقليم المحصور بين نهرى دجلة والفرات أى من خط العرض الثالث والثلاثين تقريبا الى خليج فارس . والى شمال بلاد سومر رأسا يقع الاقليم المسمى « أو°رى » الذى يرجح انه كان يتألف من الاقليم الكائن بين دجلة والفرات أيضا ، أى الى شمال خط العرض الثالث والثلاثين ويشمل ذلك بلاد « أكـّد » وبلاد « أشور » والى الشرق من « سومر » و « أورى » كان الاقليم المسمى « شوبـّر — همازى » ، الذى لا شك فى انه كان يشمل غربى ايران أيضا . والى الغرب والجنوب الغربى من « سومر » كانت تقع بلاد « مارتو » التى كانت تدخل فيها المنطقة الواقعة بين نهر الفرات والبحر المتوسط ، وبلاد العرب أيضا . وبالاجمال كان الكون ، على ما تصوره الشعراء السومريون ، يمتد على الأقل من مرتفعات بلاد أرمينية من جهة الشمال الى خليج فارس . ومن مرتفعات بلاد ايران من جهة الشرق الى البحر المتوسط .

مـــلاحق

الملحق الأول – « لعنة وخارطة »

لمحات جديدة من ألواح سومر

كتب الجزء الأكبر من هذا الملحق فى مدينة « يينا » ، (بألمانيا الشرقية) حيث قضيت عشرة أسابيع فى خريف عام ١٩٥٥ وأنا أدرس وأستنسخ الألواح الأدبية السومرية ضمن المجموعة المعروفة باسم « مجموعة هلبرشت » ، فى جامعة « فردريش – شيلر » . ان هذه الوثائق التى وجدت جميعها فى التنقيبات التى أجريت قبل نيف وخمسين عـاما بواسطة جامعة بنسلفانيا فى مدينة « نفر » (أنظر المقدمة) هى جزء من مجموعة الآثار الخاصة بـ « هرمان هلبرشت » ، الذى كان أول من شغل كرسى أستاذ البحوث الأشورية فى جامعة بنسلفانيا ، ذلك الكرسى المخصص لذكرى « كلارك » – وهو نفس المنصب الذى أشغله الآن فى تلك الجامعة . وبعد أن توفى « هلبرشت » فى عام ١٩٢٥ آلت تلك المجموعة من الآثار الى ملكية جامعة « يينا » التى تعرف الآن رسميا باسم « جامعة فردريش شيلر » .

تشتمل مجموعة « هلبرشت » على نحو (٢٥٠٠) لوح وكسرة من لوح . ولكن مائة وخمسين لوحا منها فقط هى التى تحتوى على تآليف أدبية سومرية . وبقيت زهاء خمسة عشر عاما وأنا أحاول الذهاب الى « يينا » لدرس تلك الألواح التى علمت بوجودها هناك من ملاحظة موجزة وردت فى احدى المجلات العلمية الألمانية ، ولكن حال دون

تحقيق تلك الرغبة أولا سيطرة النازية ثم الحرب العالمية الثانية ثم الستار الحديدى . وبدا لى الوقت ملائما لمحاولة أخرى فى غضون فترة زوال التوتر الدولى فى عام ١٩٥٥ ، فأذن لى أن أشتغل بضعة أشهر فى درس مجموعة « هلبرشت » . وحصلت وأنا هناك على أقصى حدود المساعدة والتعاون من جامعة « فردريك شيلر » ، ومن دائرة المباحث فيها . وساعدنى كثيرا فى مهمتى الأمين المساعد الموكل بمجموعة «هلبرشت» الدكتور «اينز بيرنهاردت» Dr. Inez Bernhardt وأوجز هنا أهم نتائج دراستى :

يوجد فى مجموعة « هلبرشت » مائة وخمسون قطعة أدبية ، نحو مائة منها ألواح صغيرة ، لم يبق من نصوصها سوى بضعة أسطر ناقصة . ولكن البقية ألواح محفوظة حفظا جيدا . وان ثلاثة عشر لوحا منها مدون عليها حقول من الكتابة ، تتراوح من أربعة الى ثمانية حقول . ومع هذا فهناك أمر مهم ينبغى ذكره وهو انه فى المرحلة الراهنة من استعادة وتكميل التآليف الأدبية السومرية تكون أجزاء الألواح المتضمنة نصوصا جديدة ، مهما كانت مقاديرها ، أهم من الوجهة العلمية من تلك الألواح الكاملة السالمة ذات النصوص المعروفة سابقا .

وتمثل لنا تلك الألواح المائة والخمسون التى سبق ذكرها ، جميع أبواب الأدب السومرى المعروفة تقريبا : الأساطير ، وقصص الملاحم ، والتراتيل الدينية ، والرثاء ، والنصوص التاريخية ، والرسائل ، والحكمة والأمثال ، كالأقوال السائرة والحكم ، والوصايا ، والمقالات والمناظرات ، وفهارس الكتب . ولا يوجد من بينها سوى القليل من التآليف الجديدة التى لم تكن معروفة من قبل . فمن بين هذه التآليف ،

الجديدة قطعة طريفة من ترتيلة للاله المسمى « هِنْدُرْسجَّا » ، بصفته وزير الالهة « نانشه » ، التى تسيطر على سلوك الانسان الأخلاقى . وقطعة حوار غرامى بين الالهة « انانا » والاله « دموزى » . وأسطورة تتعلق بأحد آلهة العالم الأسفل المسمى « نِنْجِشزدّا » ، والالهة « تنازيموا » ، وجزء مقتبس من أسطورة تروى كيف ان الهين أخوين قد أدخلا الشعير الى بلاد « سومر ، التى لم تعرف الشعير من قبل » ، اذ جلباه من الجبل حيث خزنه الاله « انليل » ، ورسالة استعطاف من شخص اسمه « جوديا » الى الهه الشخصى الحامى . وأخيرا فهرسان قيمان بأسماء الكتب والمؤلفات من النوع الذى ذكرناه فى الفصل الرابع والعشرين .

ومهما كان الحال فان أبرز أهمية تميز الألواح الأدبية السومرية فى مجموعة « هلبرشت » ترجع الى انها تعيننا على ملء عدد كبير من الثغرات والأجزاء الناقصة فى تلك التآليف الأدبية التى كانت معروفة سابقا ، مما جمع فى غضون العشرين السنة الماضية من الألواح وكسر الألواح المبعثرة فى متاحف العالم المختلفة ، وبوجه خاص فى متحف الشرق القديم فى استانبول ومتحف الجامعة فى فيلادلفيا . وستفيدنا المادة الجديدة فى نصوص جميع هذه التآليف الى حد ما ، ولكن بعض القطع المهمة من مجموعة « هلبرشت » ، ستكون ذات أهمية كبرى .

وسنحلل هنا احدى هذه الوثائق المهمة لتوضيح أوجه الأهمية لهذه المادة الجديدة ، وتتألف هذه الوثيقة من أكثر من ثلاثمائة سطر . وبامكاننا أن نسميها « لعنة مدينة أجادة : الثأر للايكور » . ومع انه قد سبق التعرف على جملة قطع من ألواح نشر بعضها ولم ينشر البعض الآخر بعد ، وكلها من هذا المؤلف الذى أشرنا اليه فان حقيقة هذه الوثيقة قد

فاتت علينا لأن النصف الثانى منها لم يمكن اكماله الا بصورة جزئية . ونظرا لأن أغلب نصوصها تتعلق بتدمير مدينة « أجادة » ونهبها وتخريبها فقد كان يظن ان هذا التأليف من نوع الرثاء الخاص بمدينة « أجادة » ، على الرغم من أن صياغته وأسلوبه تختلف اختلافا بارزا عن تلك التآليف الممكن مقارنتها به من نصوص الرثاء ، مثل « رثاء وتدمير مدينة أور » و « رثاء تدمير نفر » . وتوجد فى مجموعة « هلبرشت » سبع قطع منقوشة بأجزاء من هذه القصة ، احداها ، وهى المسجلة تحت الرقم H. S. 1514 ، لوح محفوظ حفظا جيدا ومؤلف من أربعة حقول تتضمن الأسطر الـ (١٣٨) الأخيرة . وبالاستعانة بهذه المادة الجديدة الاضافية اتضح أن هذا التأليف ليس من نوع « الرثاء » مطلقا ، وانما هو وثيقة تاريخية كتبت بأسلوب النثر الشعرى الراقى . ونقرأ فى هذه الوثيقة ان كاتبا وحكيما سومريا يقدم تفسيره للأسباب التى تكمن وراء تلك الحادثة التاريخية المشهورة التى كانت كارثة دهياء على جميع بلاد سومر بوجه عام ، وبالنسبة الى مدينة « أجادة » العظيمة بوجه خاص .

شاهد القرن الذى يبدأ حوالى ٢٣٠٠ ق . م ، بموجب تسلسل التاريخ الواطىء ، ظهور فاتح وحاكم من الساميين فى بلاد ما بين النهرين اسمه « سرجون » . وقد استطاع « سرجون » هذا ، بعد تغلبه على العاصمتين السومريتين « كيش » فى الشمال و « ارك » فى الجنوب ، أن يجعل نفسه سيد جميع الشرق الأدنى تقريبا وبضمن ذلك مصر [1] والحبشة . وقد اتخذ عاصمته فى مدينة « أجادة » فى شمال بلاد سومر

(١) ان هذا من الآراء القديمة المشكوك فيها كثيرا .

(المترجم)

ولكن تعيين موضع خرائبها لا يزال غير معروف بالضبط . وان « أجاده » هذه قد صارت ، تحت حكمه وحكم خلفائه الأوائل ممن أعقبوه فى الحكم ، أغنى وأقوى مدينة فى بلاد « سومر » [1] . وكانت موارد الجزية والهبات تتدفق عليها من البلدان المحيطة المجاورة ، ولكن لم يمض قرن واحد على ظهورها وتعاظمها حتى سقطت سقوطا سابقا للأوان . لقـد هاجمها وضربها القوم المعروفون باسم الجوتيين Guti ، وهم جماعات بربرية شديدة جاءت من أقاليم الجبال الى جهة الشرق ، ثم دمر الجوتيون بعد ذلك بلاد سومر جميعها .

والذى لا مراء فيه ان هذا الخطب الجلل والنكبة المشينة قد شغلت قلوب وعقول الكثيرين من المفكرين فى بلاد « سومر » واستحث بعضهم على الأقل ليبحثوا عن أسبابه . وكان من هؤلاء الذين بحثوا عن أسباب ذلك مؤلف هذه الوثيقة التاريخية التى نبحث فيها الآن ، وقد وجد الجواب الصحيح ، بمقتضى وجهة نظره ، (وكان هذا يتفق بلا شك مع وجهة نظر السومريين ، ولا سيما أهل نفر) . وموجز ذلك كالآتى :

أن « نرام — سين » ، الملك الرابع فى سلالة « أجاده » ، قد دمر مدينة « نفر » ، وارتكب جميع أنواع الامتهان والتدنيس ازاء «ايكور» المعبـد العظيم الخاص بالاله « أنليل » . لذلك اتجه « أنليل » الى « الجوتيين » ، وجعلهم يأتون من مواطنهم الجبلية ليدمروا « أجاده » ويثأروا لمعبده الذى يحبه . زد على ذلك أن ثمانية آلهة من الآلهـة السومرية ، من أجل أن يهدئوا من غضب ملكهم « أنليل » ، أصدروا لعنتهم على « أجاده » وحكموا عليها بأنها ستظل الى الأبد خرابا مهجورة

---

(1) الاصح ان يقال فى بلاد سومر واكد .

(المترجم)

وهذا ، كما قال المؤلف فى نهاية تأليفه ، ما حل بها . لقد بقيت « أجاده » فى الواقع خرابا مهجورة .

يبدأ مؤرخنا تأليفه بمقدمة يقارن فيها بين مجد « أجاده » وقوتها وسلطانها السابقين يوم ظهورها وبين الخراب والدمار اللذين حلا فيها من بعد سقوطها . ونقدم ترجمة بعض الأسطر الأولى :

« بعد أن أهلك « أنليــل » ، وهو متجهم غاضب ، أهل مدينة « كيش » ، كما يفعل ثور السماء . وكالثور العظيم ، سحق بيت « ارك » وجعله ترابا . وبعــد أن حبــا انليل فى الوقت المناسب « سرجون » بالسيادة الملكية على البلدان العليا والسفلى « أخذت عندئذ مدينة « أجاده » ، (وهنا نلخص أوضح المواطن فهما) تزداد رفاهية وقوة وعظمة بتدبير الهتها الحامية « انانا » ورعايتها ، فامتلأت منازلها بالذهب والفضة والنحاس والقصدير وحجر اللازورد . وتميز شيوخها وعجائزها بسداد الرأى وحسن الشورى ، وأطفالها كان يغمرهم الفرح . وكانت الموسيقى والأغانى تتجاوب فى كل مكان . وعاشت جميع البلدان المجاورة فى سلام وطمأنينة . وجعل « نرام — سين » معابدها سنية الأمجاد ، ورفع من أسوارها وجعلها كالجبال ، فى حين ان أبوابها كانت تترك مفتوحة . كان يأتى اليها من الغرب البدو المسمون « مارتو » ، وهم القوم الذين لم يعرفوا الغلة ، جالبين معهم خيار أبقارهم وأغنامهم . واليها كان يأتى أيضا أهل « مَلُوخَّا » ،قوم الأرض السوداء ، حاملين معهم بضائعهم الغريبة ، ويأتى اليها العيلاميون والسوباريون من الشرق والشمال ومعهم أحمال مثل « حمير الحمل » . وكان يقصدها جميع أمراء الســهل وشيوخه جالبين معهم الهدايا كل شهر ، وفى السنة الجديدة . ثم حلت الكارثة ، أو عــلى ما جــاء فى قول المؤلف ، كيف أصبحت أبــواب

« أجاده » المطروحة ساقطة .... ان « انانا » المقدسة تركت هداياهم وقرابينهم فلم تمسها . لقد حل الرعب فى « أولماش » ، (معبد الالهة « انانا ») ، لأنها هجرت المدينة وتركتها . وكالعذراء التى تهجر حجرة مخدعها ، هجرت « انانا » الطاهرة مزارها فى « أجاده » . وكالمحارب الشاهر السلاح أخذت تهاجم المدينــة وتشن عليها الحرب القاسية ، وعرضتها الى هجمات الأعداء . وهكذا فى مدة قصيرة ، لم تزد على خمسة أيام ولا عشرة أيام انتقلت السيادة والملوكية من « أجاده » وتحزب الآلهة ضدها ، فتحولت « أجاده » خرابا يبابا . وصار « نرام — سين » يقاسى الآلام وحده ، ولبس المسوح وأصبحت مركباته وسفنه مطروحة مهمــلة .

فكيف وقع هذا ؟ السبب فى ذلك ، بحسب رواية ذلك المؤرخ القديم ، هو أن « نرام — سين » ، فى غضون السنوات السبع التى توطد فيها حكمه ، لم ينصع لأمر الاله « أنليل » . وأذن لجنده بأن يهجموا على معبد « ايكور » وينهبوه وينهبوا بساتينه . لقد خرب أبنية « ايكور » بفئوس النحاس فأصبح ذلك « البيت وقد تمدد كالشاب المطروح الميت » ، وحل الدمار والخراب فى جميع البلدان . وفوق هذا فى الباب المسمى « الباب الذى لا تقطع منه الغلة » ، قطعت الغلة ودمر الباب المسمى « باب الســلام » بالفأس . لقد دنس الآنية والأوعية المقدسة ، وقطع أحراش معبد « ايكور » ، وسحق ذهبه وفضته وأوانى النحاس فيه وجعلها ترابا . وحمل جميع أموال مدينة « نفر » المدمرة فى سفن أرساها عند معبد « أنليل » نفسه ، ونقلها الى مدينته « أجاده ».

ولكن لم يكد ينتهى مما فعله فى « نفر » حتى هجرت الشورى مدينة « أجاده » . وتحول نهى « أجاده » الى حمق وجنون . أما « انليل »

الطوفان الهائج الذى لامنافس ولا ندّ له ، فمن أجل تخريب بيته المحبوب ما أشد الدمار الذى أوقعه ! انه صوب نظره الى الجبال وأتى « بالجوتيين» القوم الذين لا يصبرون على سلطان عليهم ، فغطوا وجه الأرض كالجراد . ولم يسلم من قبضتهم أحد . لقد انقطعت المواصلات والطرق فى الأرض والبحر فى جميع بلاد « سومر » . ولم يعد بامكان الرسول أن يسير فى طريق سفره ، وراكب البحر لم يستطع أن يبحر بقاربه .. امتلأت الطرق باللصوص وتحولت أبواب مداخل البلاد الى طين . وأخذت جميع البلدان المجاورة تضمر الشر فى داخل أسوار مدنها ، وعم القحط والجوع بلاد « سومر » نتيجة لذلك ، والحقـول الكبيرة والمراعى لم تنتج الغلال . ومواضع صيد الأسماك لم تنتج السمك . ولم تنتج البساتين المسقية عسلا ولا خمرا ، ومن جراء هذا القحط ارتفعت الأسعار ارتفاعا فاحشا بحيث ان الحمل الواحد لم يشتر به الا نصف «سيلا»(١) من الدهن أو نصف « سيلا » من الحبوب أو نصف « منا » من الصوف .

ولما أن أخذ القحط والموت والدمار يهدد بالفناء « جميع البشر » الذين خلقهم « أنليل » قرر ثمانية آلهة عظيمة من الآلهة السومرية — وهم « سين » و « أنكى » و « انانا » و « ننورتا » و « اشكر » و « أوتو » و « نسكو » و « ندابا » — قرر هؤلاء أنه حان الوقت لتهدئة غضب « انليل » . فقطعوا على أنفسهم عهدا فى تضرع قدموه الى انليل بأن « أجاده » ، المدينة التى دمرت « نفر » ، ستدمر هى أيضا كما دمرت « نفر » .

---

(١) قياس للأحجام يعادل نحـو ٨٤ر٠ من اللتر

(المترجم)

وهكذا اتجه هؤلاء الآلهة الثمانية صوب المدينة ، ونطقوا بلعنة الخراب والهلاك على « أجاده » :

« يأيتها المدينة ! لقـد تجرأت بالهجوم على « ايكور » ، يا من تحديت « انليل » ،

يا « أجاده » ، يا من اجترأت بالهجوم على « ايكور » وتحديت « انليل » ،

عسى أن تتكدس غياضك وتتراكم كالتراب ... ،

وعسى أن يعود « آجرك » المصنوع من الطين الى (أصله في) « ماء العمق » ،

وليكن آجرا ملعونا من « أنكى » ،

وعسى أن تعود أشجارك الى غاباتها ،

ولتكن أشجارا ملعونة من « نِن° — الدو » .

وأبقارك « المعدة » للذبح ، عساك تذبحين زوجاتك بدلا منها ،

وأغنامك « المعدة » للذبح عساك أن تذبحى أبناءك بدلا منها .

وفقراؤك عساهم يغرقون أطفالهم الأعزاء من الجوع ،

يا « أجاده » ، عسى قصرك المشيد بالفرح يتحول الى خراب محزن !

وفي المواضع التى كانت تقام فيها شعائرك ، عسى الثعلب الذى يسكن الخرائب يهز ذيله .... ،

وعسى ألا تنبت مواضع جر القوارب سوى الأعشاب ،

وعسى طرق عرباتك لا ينمو فيها سوى « النبات الباكى » ،

وفوق هذا عسى ألا يستطيع انسان أن يمشى في مواضع جر القوارب وفي مواضع الرسو .

من جراء السخول الوحشية والديدان (؟) والحيات وعقارب الجبل .

وفى سهولك حيث تنمو النباتات المسرة للقلب عسى ألا ينبت سوى « قصب الدموع » ،

« وبدلا من مياهك العذبة الجارية عسى أن تجرى المياه المرة فيك يا « أجاده » .

« ومن يقل « أريد أن أقطن تلك المدينة » لن يجد فيك موضعا صالحا للسكنى ،

« ومن يقل « سأضطجع فى أجاده » لن يجد فيك موضع منام .

ثم يختتم ذلك المؤرخ قوله بالتأكيد بأن كل ذلك قد وقع لمدينة « أجاده » :

« لم تنبت مواضع جر القوارب فيها سوى الأعشاب ،
« ولم ينم فى طرقات عرباتها سوى « النبات الباكى » ،
« وفوق هذا لم يستطع انسان أن يمشى فى مواضع جر القوارب .
« من جراء السخول البرية والديدان (؟) والحيات وعقارب الجبل ،
« وفى السهول حيث نمت النباتات المسرة للقلب لم ينم سوى « قصب الدموع » ،
« وصار يجرى فى «أجاده» المياه المرة بدلا من مياهها العذبة الجارية ،
« ومن قال « أريد أن أقطن تلك المدينة » لم يجد فيها موضعا صالحا للسكنى ،
« ومن قال « سأضطجع فى «أجاده» لم يجد فيها موضع منام صالحا .

* * *

ولعل أهم وثيقة فى « مجموعة هلبرشت » ليست من التآليف الأدبية السومرية على الاطلاق ، وانما هى خارطة — وهى أقدم خارطة

لمدينة فى التاريخ . لقد رسمت تلك الخارطة على لوح محفوظ جيدا ، وكبير الحجم ، اذ يقيس فى حالته الراهنة (٢١ × ١٨) سم . لمخطط مدينة « نفر » التى كانت المركز الثقافى لبلاد سومر . وقد رسمت فيه جملة من معابدها وعماراتها المهمة و « حديقتها المركزية » وأنهارها وجداولها ، وبوجه خاص أسوارها وأبوابها . ودون فيها عـدة أبعاد وقياسات مفصلة أظهرت ، بعد التحقيق ، أن الخارطة رسمت رسما مضبوطا وبمقياس معين ، ومع أن راسم تلك الخارطة قد عاش فى حدود ١٥٠٠ ق . م . أى قبل نحو ٣٥٠٠ عام الا انه رسم مخطط الخارطة بعناية ودقة مما يتطلب من نظرائه الرسامين المحدثين (أنظر الصورة الموضحة رقم ٨١) .

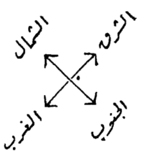
أما الكتابة الموجودة فى الخارطة ، التى تحتوى بوجه خاص على أسـماء الأبنية والأنهار والأبواب ، فهى خليط من اللغـة السومرية والأكدية . وفى حالات كثيرة لا تزال الأسماء مدونة بعلامات الرموز [١] السومرية القديمة مع ان اللغة السومرية فى الوقت الذى رسمت فيه تلك الخارطة كانت لغة ميتة منذ عهد طويل . ولم تدون باللغة الأكدية الا كلمات قلائل ، واللغة الأكدية كانت لغة الساميين الذين أخضـعوا السومريين وجعلوا أنفسهم أسـياد البلاد فى الربع الأول من الألف الثانى ق . م . [٢] .

---

(١) Ideograph والمقصـود بهـا علامات مسمارية تقـوم كل منها للتعبير عن كلمه .
(المترجم)

(٢) اذا كان المقصود بهؤلاء الساميين أول دولة لهم فى بلاد مابين النهرين وهى الدولة الأكدية فان التاريخ المذكور غير مضبوط بل يجب أن يكون فى منتصف الألف الثالث ق . م .
(المترجم)

ان تلك الخارطة لم ترسم بتوجيهها الى الشمال والجنوب وانما وجهت بزاوية تقرب من ٤٥ درجة على الصورة الآتية :



ودوّن فى وسط الخارطة اسم المدينة « نفر » (رقم ١) وقد كتبت بالعلامات الرمزية القديمة أى : E N LIL - KI (أى موضع انليل) ، أى المدينة التى كان يسكن فيها اله الهواء والجو « انليل » ، كبير مجموعة الآلهة السومرية . أما الأبنية المبينة فى الخارطة فهى :

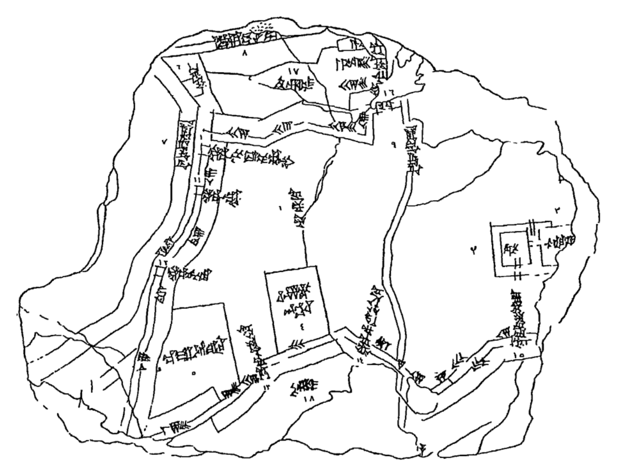
١ — « ايكور » (رقم ٢) أى (البيت الجبلى) . وهو أشهر معبد فى بلاد سومر (أى معبد الاله انليل) . « كى — أور » (رقم ٣) . وهو معبد قريب من معبد « ايكور » ويبدو أنه كان ذا أهمية خاصة فى المعتقدات السومرية عن العالم الأسفل .

٢ — بناء باسم « أنيجينا » (رقم ٤) وهو نوع من بناء مسور غير معروف الماهية (حتى ان قراءة الاسم نفسه غير مؤكدة) . وفى موضع بعيد فى ضواحى المدينة يوجد بناء المعبد المسمى « اشماخ » (رقم ٦) (أى المعبد الرفيع) . وفى الزاوية المكونة بين السور الجنوبى الشرقى والسور الجنوبى الغربى تقع « الحديقة المركزية » لمدينة « نفر » (رقم ٥) المسماة باسم (كيرى شا أورو) **Kirishauru** الذى يعنى حرفيا « بستان أو حديقة قلب المدينة » .

والفرات يؤلف الحد الجنوبي الغربي للمدينة (رقم ٧) . وقد كتب بالصيغة السومرية القديمة Buranun « بورانن » . وفي الجهة الشمالية الغربية كان يحد المدينة الجدول المسمى « نتبردو » (رقم ٨) ، وهو الموضع الذي رأينا فيه الاله « انليل » ، بموجب الأسطورة السومرية الخاصة بولادة الاله القمر (أنظر الفصل ١٢) ، يشاهد زوجته المرتقبة وهي تستحم فيه ، فهام بحبها وأصبح أسير هواها . ويجري في وسط المدينة النهر المسمى « ادشا أورو » (رقم ٩) الذي يعني اسمه حرفيا « نهر قلب المدينة » ويدعى الآن شط النيل .

واهتم راسم الخارطة اهتماما خاصا بالأسوار والأبواب ، الأمر الذي يرجح كون المخطط انما رسم لغرض الدفاع عن المدينة ازاء هجـوم متوقع . وقد رسم السور الجنوبي الغربي تخترقه ثلاثة أبواب (١) الباب المسمى « كاجال موسكتم Kagal Musukkatim رقم ١٠ » . (ومعناه باب الأنجاس من الناحية الجنسية) وقد أشار عليّ بهذا المعنى الأستاذ آدم فلكنشتاين (٢) الباب المسمى « كاجال ماخ » (رقم ١١) أي « البوابة السامية » (٣) الباب المسمى « كاجال جولا » Kagal Gula (رقم ١٢) أي « البوابة العظيمة » .

ونجد السور الجنوبي الشرقي أيضا وقد اخترقته أيضا ثلاث بوابات : الأولى بوابة « كاجال ننا » Kagal Nanna أي « بوابة الاله ننا » (والاله « ننا » الاسم السومري للاله القمر) (الرقم ١٣) . والثانية بوابة «كاجال أوروك » Kagal Uruk (رقم ١٤) أي « بـوابة أوروك » . وهي « ارك » الواردة في التوراة ، المدينة السومرية الشهيرة جنوبي شرق « نفر ».والثالثة بوابة «كاجال أجيبيأ وريشه » Kagal Igibiurishe (رقم١٥) أي « البوابة المواجهة لأور » (ومدينة أور هي أور الكلدانيين الوارد



شكل ٨١ ـــ خريطة مدينة « نفر » : استنساخ الدكتور « اينز برنهاروت » الأمين المساعد لمجموعة ألواح « هلبرشت » فى جامعة « فردريك شيلر » فى ينيا

ذكرها فى التوراة) . وان البوابتين الأخيرتين هما السر فى توجيه الخارطة . لأن « ارك » و « أور » كانتا مدينتين واقعتين جنوب شرقى « نفر » .

أما السور الشمالى الغربى فليس فيه سوى بوابة واحدة وهى البوابة المسماة « كاجال نرجال » Kagal Nergal (رقم ١٦) . أى « بوابة الاله نرجال » والاله « نرجال » ملك العالم الأسفل ، وزوج الالهة « ايرشكيجال » ، التى رأيناها تقوم بدور مهم فى أسطورة نزول الالهة « اثانا » الى العالم الأسفل (أنظر الفصل التاسع عشر) .

ونذكر أخيرا وجود خندق يجرى موازيا للسور الشمالى الغربى (رقم ١٧) . ويوجد خندق آخر يجرى موازيا للسور الجنوبى الشرقى (رقم ١٨) ، وقد سمى كليهما راسم الخارطة بمصطلح « خريتم » [1] ، وهى كلمة أكدية وليست سومرية ، تعنى الخندق .

ومن الأمور المهمة التى تلاحظ فى هذه الخارطة التفاصيل التى بينت فيها القياسات والأبعاد . اذ انها على ما أخبرنى مساعدى الدكتور « ادموند جوردن » ، بعد درسه الدقيق ، قد رسمت فى الأغلب بموجب مقياس معين . أما القياس المستعمل فى الخارطة فيحتمل كثيرا انه وحدة القياس المسماة « جار » Gar على الرغم من أن ذلك لم يذكر كتابة فى الخارطة . وكان الـ « جار » يحتوى على ١٢ ذراعا Cubit ومقداره زهاء ٢٠ قدما . وعلى هذا فان عرض الموضع المسمى « أنيجينا » (رقم ١٤) قدره فى الخارطة ٣٠ جار (وقد كتب الرقم ٣٠ بثلاث عشرات) أى نحو (٦٠٠) قدم . ولنأخذ الجدول المسمى « جدول قلب المدينة » (رقم ٩) الذى دون عرضه بمقدار ٤ (جار) (وقد عبر عن

(١) « والخر » لا يزال يستعمل فى العراق اليوم بهذا المعنى من المادة السامية « خر » . (المترجم)

الرقم ٤ بثلاث وحدات مرسومة الى الأعلى ووحدة أسفلها) ، ومقدار ذلك نحو ٨٠ قدما . وهذا يقارب عرض قاع شط النيل الآن . وبينت المسافة بين الباب المسمى « كاجال موسكتم » (رقم ١٠) وبين البوابة « كاجال ماخ » (رقم ١١) بمقدار ١٦ « جار » أى نحو ٣٢٠ قدما ، فى حين ان المسافة بين البوابة « كاجال ماخ » (رقم ١١) والبوابة « كاجال جولا » (رقم ١٢) ، التى هى أكثر بثلاث مرات ، قد ذكرت بوجه مضبوط بمقدار ٤٧ « جار » أى نحو ٩٤٠ قدما .

وفى وسع القارىء غير المختص أن يقرأ تلك الأبعاد ويتحقق منها بنفسه اذا علم ان العلامة المسمارية العمودية تقوم للرقم (١) و (٦٠) وان العلامة التى بهيئــة زاوية تقوم للعشرة . وهناك بعدان بعيدان عن المقياس (أقل من المقياس) بمقدار كبير وهما الرقم ½ ٧ (أى — بطريقة العد الستينى — ٧٫٣٠ = ٣٠/٦٠ ٧) الموجود فى الزاوية السفلى على يمين الموضع المسمى « الحديقة المركزية » (رقم ٥) ورقم ½ ٢٤ (٢٤٫٣٠ = ٣٠/٦٠ ٢٤) وهو مقدار القطاع الثالث من السور الشمالى الغربى . وفى هذه الحالة الأخيرة يحتمل ان الناسخ نسى أو حذف علامة مسمارية بهيئة الزاوية (أى رقم عشرة) وان الرقم الأصلى الصحيح يحتمل أن يكون ½ ٣٤ ، وهذا يجعل المقدار وفق المقياس .

لقد عثر على اللوح الذى رسمت فيه هذه الخارطة فى التنقيبات التى أجرتها فى نفر فى خريف عام ١٨٩٩ جامعة بنسلفانيا . وقد وجد فى حجرة من الفخار مع عدد آخر من ألواح الطين المكتوبة ، التى تتراوح فى تواريخهــا من ٢٣٠٠ الى ٦٠٠ ق . م . فهــذه الجرة ، بالاستناد الى محتوياتها ، كانت كما وصفها المنقبون ، متحفا حقيقيا صغيرا . وفى

عام ١٩٠٣ نشر « هرمان هلبرشت » صورة صغيرة لذلك اللوح فى كتابه المسمى « التنقيبات فى بلاد التوراة » (١) . ولكن تلك الصورة لم تكن واضحة ، فكانت عديمة الجدوى تقريبا فى صلاحيتها لترجمة الوثيقة وتفسيرها (وقد حاول ذلك جملة باحثين) . وظل ذلك اللوح مطمورا فى مجموعة ألواح « هلبرشت » حيث لم يستنسخ وينشر طوال هـذه السنين الكثيرة ، ولكن تم الآن استنساخه استنساخا متقنا دقيقا من جانب الدكتور « اينز برنهاردت » تحت ارشادى وستظهر الدراسة الناتجة التى قمنا بها مشتركين فى المجلة العلمية لجامعة « فردريك شيلر » (٢) .

---

(١) Hermann Hilprecht, Explorations in Bible Lands 1903 P. 518

(٢) وقد ظهرت هذه النشرة فى :
Wissensch aftliche Zeitschrift المجلد ١٩٥٥/١٩٥٦ .

« الملحق الثـانى »

نشوء طريقة الخط المسمارى وتطورها « الشكل ٥ »

وتعليقات أخرى على الرسوم والصور الايضاحية

المقـــدمة :

اللوح رقم ١ — حارة الكتبة فى نفر — صورة من التنقيبات القديمة :

ان مدينة « نفر » ، التى تقع الى جنوب بغداد الحديثة فى العراق بنحو مائة ميل ، كانت المركز الروحى والثقافى لبلاد « سومر » القديمة . وفى الأعوام الواقعة بين ١٨٨٩ و ١٩٠٠ أرسلت جامعة بنسلفانيا أربع بعثات أثرية نقبت فيها وكشفت عن الألوف من ألواح الطين التى كان من بينها عدة آلاف من الألواح وكسر الألواح المدونة بالنصوص الأدبية السومرية مما يؤلف المصدر الأساسى لمادة هذا الكتاب . وان خرائب الأبنية المبينة فى هذه الصورة ، التى أخذت فى أثناء تلك التنقيبات القديمة ، هى خرائب بيوت فى التل الذى سماه المنقبون « بتل الألواح » . وهو موضع حارة الكتبة فى « نفر » . وقد وجد الكثير من الألواح الأدبية السومرية فى هـذه الحارة . ويحتمل أن يكون بعض هذه الخرائب « بيوت المدارس » أو « بيوت الأساتذة » الذين كانوا يعلمون الطلاب فى بيوتهم .

اللوح رقم ٢ — حارة الكتبة فى «نفر» — صورة من التنقيبات الحديثة :

صورة أخذتها بعثة التنقيبات لخرائب بيوت « تل الألواح » الذى حفر حفرا دقيقا ودونت النتائج فيه من جانب بعثة آثار مشتركة بين

المعهد الشرقى ومتحف الجامعة تحت ادارة « دونالد مكون » Donald McCown وقد كشفت فيه عن نحو ألف قطعة أدبية من الآداب السومرية معظمها كسر من ألواح . وكان ذلك فى غضون مواسم التنقيبات الثلاثة من ١٩٤٨ الى عام ١٩٥٢ .

اللوح ٣ — ألواح فى مواضعها الأصلية :

صورة أخذتها بعثة التنقيبات ، تبين لنا مبلغ العناية والصبر المتطلبين فى عملية استخراج الألواح سالمة من التربة . وتكاد تكون جميع الألواح التى وجدت فى نفر مجففة بالشمس فقط ومعرضة الى التهشم والتلف . وقد أصبح الآن من الطرق المتبعة فى التنقيبات أن تنظف الألواح المستخرجة وتطبخ (تشوى) فى موضع التنقيبات ، وهذا مما يقلل بعض الأخطار مما ينجم عن الشحن والنقل .

اللوح ٤ — شخص سومرى عاش فى حدود ٢٥٠٠ ق . م :

تمثال من حجر الكلس (الحجر الجيرى) ارتفاعه نحو ٢٣ سم . وقد وجد فى التنقيبات التىأجرتها جامعة بنسلفانيا فىمعبد قديم فى الموضع المسمى « خفاجى » . والمرجح أن الشخص الممثل كان أحد موظفى المعبد أو القصر البارزين . ولعل الشعراء الذين ألفوا التراتيل الخاصة بالاله « انليل » الموضحة فى اللوحين المرقمين ٦ و ٦ أ كانوا يشبهون هذا الشخص .

الشكل ٥ — أصل طريقة الكتابة المسمارية وتطورها :

المرجح ان طريقة الكتابة المسمارية قد اخترعها السومريون وان أقدم كتابات كشف عنها حتى الآن — حيث عثر على أكثر من ألف لوح فى حدود ٣٠٠٠ ق. م. تقريبا — يرجح انها كتبت باللغة السومرية . وسواءأكانالسومريونهمالذيناخترعوا تلكالكتابة أم غيرهمفالمؤكد أنهم

هم الذين جعلوا منها في الألف الثالث ق . م . طريقة ناجعة في الكتابة والتدوين . وقد أدركت الأقوام المجاورون تدريجيا قيمتها وفائدتها العملية فاقتبسوها من السومريين وكيفوها في كتابة لغاتهم . وأصبح ذلك الخط في الألف الثاني ق . م . شائع الاستعمال في جميع الشرق الأدنى .

لقد بدأ الخط المسماري وهو بهيئة كتابة صورية . فكانت كل علامة في ذلك الخط عبارة عن صورة لشيء مادي وتقوم للكلمة التي كان معناها مطابقا أو مقاربا لذلك الشيء المادي . ولذلك كانت نقائص مثل هذه الطريقة من الكتابة مضاعفة من وجهين : أشكال العلامات المعقدة أولا ، ثم ان الحاجة الى استعمال عدد جسيم من العلامات الصورية جعله سمجا صعبا من الناحية العملية . فتغلب الكتبة السومريون على الصعوبة الأولى بأن أخذوا يبسطون ويختصرون بالتدريج في أشكال العلامات الصورية حتى ابتعدت هيئاتها الصورية . أما عن الصعوبة الثانية فانهم اختزلوا في عدد العلامات وجعلوها ضمن حدود معقولة بطرق وأساليب مختلفة . وكان أهم أسلوب اتبعوه في هذا الشأن انهم استعاضوا عن الكتابة الصورية الرمزية بطريقة الكتابة الصوتية وان الثبت المنشور مع هذا قد أعد بوجه خاص لايضاح هـذا التطور في الكتابة المسمارية الذي يتدرج من الأعلى الى الأسفل ، واليك تفسير العلامات المسمارية الواردة فيه : —

الرقم ١ — صـورة نجمة وهي تمثل بالدرجـة الأولى الكلمة السومرية للسماء « آن » وتقوم العلامة نفسـها للكلمة السـومرية « دنجر » أي « اله » .

٢ — تقوم هـذه العلامة للكلمة السومرية « كى » (أرض) . والواضح انه قصد من شكل العلامة أن يكون صورة للأرض ، على الرغم من أن تفسير شكل العلامة لا يزال غير مؤكد .

٣ — لعل هذه الصورة شكل مختصر لهيئة الجزء الأعلى للجسم الانسانى . انها تقوم للكلمة السومرية « لو » (رجل ، انسان) .

٤ — صورة الفرج . انها تقوم للكلمة السومرية « سال » (الفرج) وتستعمل نفس العـلامة للكلمـة السـومرية « مونس » Munus (أى امرأة) .

٥ — صورة الجبل وتقوم للكلمة السومرية « كور » التى معناها الأساسى « الجبل » .

٦ — توضح لنا هـذه الصورة الأسلوب البارع الذى أوجـده مخترعو طريقـة الكتابة السومرية الأوائل ، اذ استطاعوا باتباعه أن يعبروا عن كلمات تمثيلا صوريا بطرق خاصـة ، اذ لا يمكن التعبير عنها بطريقة صورية محضة الا بصعوبة . فالعلامة التى تقوم للكلمة السـومرية « جيمه » [1] geme (أى الأمـة أو العبـدة) هى فى صورة مركبة من علامتين : من العلامة التى تقـوم للكلمة السومرية « مونس » (أى امرأة) ، ومن العلامة التى تعبر عن الكلمة « كور » (أى الجبل) (العلامتان رقم ٤ و ٥ فى الثبت) . فيكون المعنى الحرفى لهذه العلامة المركبة انها تعبر عن « المرأة الجبلية » . ولكن ، لما كان السومريون يحصلون على الاماء بالدرجة الأولى من الأقاليم الجبلية المجاورة لهم ، صارت هذه العلامة المركبة تعبر عن هذا الوجه عن الكلمة السومرية « جيمه » أى « الأمة » .

(١) تلفظ الجيم كافا فارسية .

٧ — صورة الرأس . انها تقوم للكلمة السومرية « ساج » [1] sag (أى الرأس) .

٨ — انها صورة رأس أيضا . ولكن الخطوط العمودية تشير الى أن جزءا من الرأس هو الذى قصد تمثيله — أى الفم — ولذلك فان هذه العلامة تقوم للكلمة السومرية « كا » (أى الفم) وتعبر العلامة نفسها عن الكلمة السومرية « دج » [1] dug أى (تكلم) .

٩ — يرجح أن تكون فى أصلها صورة وعاء كان يستعمل بالدرجة الأولى لحفظ الطعام . انها تقوم للكلمة السومرية « تندا » (أى الطعام) .

١٠ — علامة مركبة مؤلفة من العلامة التى تمثل الفم والعلامة الخاصة بالطعام (رقم ٨ و ٩ من الثبت) انها تقوم للكلمة السومرية « كو » (Ku) (أى آكل) .

١١ — صورة تمثل مجرى ماء . انها تقوم للكلمة السومرية « آ » (أى الماء) . ان هذه العلامة تقدم لنا أيضا ايضاحا حسنا لتلك الطرق والعمليات التى فقد بها الخط السومرى صفته الصورية الثقيلة وأصبح طريقة صوتية فى الكتابة . فمع ان الكلمة السومرية (آ) التى تعبر عنها العلامة رقم ١١ كانت تستعمل بالدرجة الأولى للتعبير عن كلمة « ماء » الا انها استعملت أيضا لتعنى حرف الجر « فى » . والكلمة « فى » تعبر عن علاقة لغوية وتقوم لمعنى يصعب التعبير عنه تعبيرا صوريا . فعنت لمخترعى (موجدى) الخط المسمارى فكرة بارعة هى انه بدلا من أن يوجدوا علامة صورية معقدة للتعبير عن كلمة « فى » كان باستطاعتهم أن يستعملوا العلامة التى تقوم للماء « آ » ، لأن كلتا الكلمتين متطابقتان فى اللفظ .

---

(١) تلفظ الجيم كافا فارسية .

لقد أدرك الكتبة السومريون الأوائل ان العلامة المخصصة للتعبير عن كلمة خاصة يمكن استعمالها للتعبير عن كلمة أخرى ذات معنى لا يمت الى معنى الأولى بصلة ، اذا كان لفظ كلتا الكلمتين متطابقا . وباتساع هذا الاستعمال تدريجيا فقد الخط السومرى صفته الصورية وأخذ يتجه حتى أصبح خطا صوتيا .

١٢ — علامة مركبة من صورة « الفم » وصورة « الماء » (رقم ٨ و ١١) . انها تقوم للكلمة السومرية « ناج » [1] nag « شرب يشرب » .

١٣ — صورة تمثل الجزء الأسفل من الرجل والقدم فى حالة المشى . انها تقوم للكلمة السومرية « دو » (ذهب ، يذهب) . وللكلمة « جب » gub [1] أيضا (أى قام) .

١٤ — صورة طائر . انها تقوم للكلمة « مشين » mushen أى « طائر » .

١٥ — صورة سمكة . انها تقوم للكلمة « خا » (ها) ، أى «سمكة» ان هذه العلامة تقدم لنا مثلا آخر على التطور الصوتى الذى طرأ على الخط السومرى . ان الكلمة السومرية « خا » لا تعنى « سمكة » فقط بل كلمة « لعل » — أى انه كان عند السومريين كلمتان بلفظ « خا » متطابقتان فى اللفظ ، ولكن لا يمت بعضهما الى بعض بصلة فى المعنى . وهكذا استعمل الكتبة السومريون فى طور قديم من تطور كتابتهم العلامة التى تقوم لكلمة « سمكة » (خا) للتعبير عن صوت « خا » أى « لعل » تعبيرا صوتيا .

١٦ — صورة رأس الثور مع قرنين . انها تقوم للكلمة « جد » gud [1] أى « ثور » .

---

(١) تلفظ الجيم كافا فارسية .

١٧ — صورة رأس بقرة وتعبر عن الكلمة « آب » ab (أى البقرة) .

١٨ — صورة سنبلة شعير . وتعبر عن الكلمة « شه » (أو شى) she أى شعير .

ان العلامات المثبتة فى الحقل الأول من « الثبت » جاءتنا من أقدم عهد معروف فى تطور الكتابة السومرية .ولم يمض عهد طويل بعد اختراع الخط الصورى حتى وجد الكتبة السومريون أن من الملائم فى الكتابة أن يديروا لوح الطين بهيئة تجعل العلامات الصورية وهى موضوعة على ظهورها . ولما أن نمت الكتابة وتطورت صار هذا الأسلوب هو الطريقة الشائعة اى الاستعمال ، فكانت العلامات منحرفة بوجه منتظم بزاوية قدرها ٩٠ درجة . ويرينا الحقل الثانى من الثبت العلامات الصورية وهى بتلك الهيئات المائلة المنحرفة . أما الحقلان التاليان فيمثلان لنا شكل الخطوط القديمة التى كانت مستعملة من حدود (٢٥٠٠ — ٢٣٥٠ ق . م) حيث يبين الحقل الثالث العلامات وهى شبيهة برءوس المسامير فى نهاياتها عندما تنقش فى الطين . فى حين أن الحقل الرابع يرينا الأشكال الخطية للعلامات عندما تنقش على الحجر أو المعدن . ويوضح لنا الحقلان الخامس والسادس العلامات الشائعة فى الاستعمال من حدود ٢٣٥٠ الى ٢٠٠٠ ق . م . وفى الحقل السابع نجد نماذج من العلامات التى كانت شائعة الاستعمال فى غضون النصف الأول من الألف الثانى ق . م ، وهو العهد الذى دون فيه القسم الأعظم من الألواح التى بحثنا فيها هذا الكتاب . أما العلامات المبسطة أكثر من ذلك والمبينة فى الحقل الأخير من الثبت فهى العلامات التى استعملها الكتاب الملكيون فى بلاد أشور فى الألف الأول ق . م .

اللوح ٦ — الأسطورة الخاصة بالاله « انليل » من حدود ٢٤٠٠ ق . م . ان هذه الاسطوانة الطينية منقوشة بأسطورة الاله « انليل » ، ويرقى عهد كتابتها الى حدود ٢٤٠٠ ق . م . وهو عهد لم يأتنا منه سوى القليل من الوثائق الأدبية . والسبيل الى معرفة عهد هذه الوثيقة هو الاعتماد على شكل الخط ، فالعلامات المدونة بها تلك الوثيقة تضاهى العلامات المبينة فى الحقل الثالث من الثبت الموضح فى الشكل رقم ٥ . وهذه الأسطورة مع الأسطورة الأخرى الموضحة فى اللوح (٦ أ) برهان جلى على أن التآليف الأدبية السومرية كانت تؤلف وتدون فى أزمان قديمة فى النصف الأخير من الألف الثالث ق . م . لقد استنسخ اللوح « جورج بارتون » ونشره فى عام ١٩١٨ فى مؤلفه الموسوم « كتابات بابلية متنوعة » (١) . ولكن معنى النص ظل غامضا غير مفهوم .

٦ أ — أسطورة أخرى خاصة بالاله « انليل » من حدود ٢٤٠٠ ق . م .

وهذه كسرة لا تزال غير منشورة وموجودة فى متحف الشرق فى استانبول ، وقد عين زمنها بالاستناد الى شكل الخط . وهى تحتوى على جزء من أسطورة « انليل » التى تروى لنا ، على ما يؤخذ من الأجزاء الناقصة الباقية ، خبر اختفاء ابنه وهو « اشكر » ، اله الصاعقة فى العالم الأسفل « كور » (أنظر الفصل ١٩) . فجمع الاله « انليل » الآلهة المعروفين باسم « أنوناكى » وسألهم من منهم يستطيع أن يعيد ابنه من « كور » والمرجح أن الثعلب هو الذى تبرع للاضطلاع بتلك المهمة — وهى عين الفكرة التى صادفناها فى قصة « الفردوس » (أنظر الفصل ١٧) ، تلك القصة التى دونت على لوح يرجع فى عهده بعد تلك الأسطورة بسبعة قرون .

---

(1) George Barton, Miscellaneous Babylonian Inscriptions (1918)

الفصل الأول ـ التعليم :

اللوح ٧ — تمثال « دودو » :

وهو كاتب سومرى من حـدود ٢٣٥٠ ق . م . كانت المدرسـة السومرية مدينة من أصل نشأتها وأهميتها الى الحاجة العملية لتدريب الكتبة المحترفين والموكلين بالسجلات الذين كان وجودهم ضروريا لنمو الحياة الاقتصادية والادارية فى البلاد . وهنا نشاهد تمثال أحد هؤلاء الكتبة الذى عاش فى مدينة « لجش » ومارس مهنته فى حدود ٢٣٥٠ . وقد خصص للاله « ننجرسو » حامى مدينـة « لجش » تمثاله وهو بهيئة صلاة . والتمثال الآن فى المتحف العراقى. وللاحاطة بالتفاصيل الأخرى عن تمثال دودو أنظر مجلة « سومر » المجلد الخامس (الصفحات ١٣١ — ١٣٥) .

اللوح ٨ — الكتابة الموجودة على تمثال « دودو » فى ظهر التمثال حيث تذكر اسمه ومهنته وتقديمه للتمثال الى الاله « ننجرسو » على الوجه الآتى :

(بحسب الأسطر) (١) الى الاله « ننجرسو » (٢) دودو (٣) الكاتب (٤) ذرية [1] « أم — دوجد » (٥) قدّم (هذا التمثال) .

ان معنى الكتابة فى السطر الرابع وعلاقتها بكتابة الأسطر السابقة والتالية غير واضح [1] .

اللوح ٩ — تأليف فى النبات والحيوان :

وتبين الصورة ظهر اللوح الذى وجده طه باقر من دائرة الآثار العراقية فى التنقيبات التى أجراها فى عام ١٩٤٤ فى التل المعروف باسم تل حرمل

---

(١) الأصح قراءة هـذه العلامة على انها العـدد (٢) . والمعنى انه قدم صورتين لأم « دوجـد » .
(المترجم)

فى ضواحى بغداد . ان هذا اللوح منقوش بالمئات من أسماء الأشجار والقصب والمواد والأدوات المصنوعة من الخشب وبأسماء الطيور . وقد وردت أسماء الطيور ، التى تربو على مائة اسم ، مدونة فى الحقول الثلاثة الأخيرة ابتداء من اليمين . وفى وسع القارىء أن يعرف أن هذه الأسماء أسماء طيور اذا عرف أنها كلها تنتهى فى العلامة المسمارية التى تقوم للكلمة السومرية « مشين » mushen (أى طائر) (أنظر الرقم ١٤ فى الصورة الايضاحية شكل ٥) . ونجد أسفل منتصف الحقل الأيسر من اللوح (وهو الحقل الذى لم يدون بشىء) الكاتب القديم وقد دون اسمه بهيئة « ارّا — ايمتى » ، الذى يرجح أن يكون المؤلف الأصلى لذلك الكتاب فى النبات والحيوان . ولكن لعله ليس المؤلف الأصلى بل أحد النساخ ، ويعد هذا التوقيع من أقــدم الأمثلة على أســماء المؤلفين فى تاريخ الكتابة . وعلاوة على ذلك فان ذلك المؤلف ، بمقتضى الآراء الدينية الشائعة آنذاك ، رأى لزاما أن يذكر أسماء مؤلفين آخرين بالاشتراك معه . وهم الآلهة « ندابا » وزوجها « هاى » (خاى) ، والالهة « جشتن — أنّا » . وهم الآلهة الثلاثة الحامية لفن الكتابة والتأليف . ونص التوقيع بكامله . « ندابا ، خاى ، جشتن — أنا » و « ارا — ايمتى » بن « نورم — ليسيى » . الكاتب ، كتبوه (أى كتبوا اللوح) .

اللوح ١٠ — تل حرمل :

مشهد عام يبين المعبد والقصر والمدرسة (؟) . وتل حرمل موضع أثرى صغير يقع بنحو ستة أميال الى الشرق من بغداد . والمرجح ان هذا الموضع استوطن فى منتصف الألف الثالث ق . م . ولكن أهم الاكتشافات الأثرية التى وجدت فيه ترجع فى تاريخها الى النصف الأول

من الألف الثانى ق . م . وكان أهم بناء كشف عنه معبد (فى وسط اليمين فى الصورة) . وهو يتألف من مدخل وساحة و « ما قبل المحراب » (Antecella) « وحجرة المحراب » (Cella) . وهذه كلها مرتبة على محور واحد ذات أبواب يتصل بعضها ببعض باستقامة واحدة ، بحيث ان الواقف فى الشارع يرى من المدخل فى الشارع عند فتح الأبواب تمثال الاله الذى كان يوضع فى الهيكل . ومن الأبنية الأخرى التى كشف عنها فى هذا الموضع قصر ومعابد أخرى أصغر من المعبد الأول وجملة بيوت لعلها كانت مدرسة ، حيث وجد فيها نماذج من الكتب والمؤلفات المدرسية من النوع الذى ذكرناه فى اللوح رقم ٩ . ووجد أيضا قانون سامى (بابلى) للملك « بلالاما » [١] (الذى ذكرناه فى الفصل السابع) . وان آجر اللبن الذى تبدو عليه الجدة هو بناء حديث بنى ليكون واجهة لحفظ بقايا البناء القديم من الانهيار لوقت ما على الأقل ، والا تحول البناء الى أنقاض بفعل الرياح والأمطار والزوابع بعد زمن قصير من الكشف عنه بالتنقيبات . لقد أجرى التنقيب فى تل حرمل الآثاريون العراقيون التابعون لمصلحة الآثار العراقية القديرة المنتجة تحت ادارة مديرها الناجعة الدكتور ناجى الأصيل ذى النظر الآثارى البعيد . وان بعض أعضائها مثل طه باقر وفؤاد سفر ومحمد على مصطفى قد أصبحوا ذوى شهرة عالمية فى التنقيبات والبحوث الآثارية . ويمكن الوقوف على التفاصيل الأخرى حول التنقيبات فى تل حرمل فى مجلة « سومر » المجلدات ٢ — ٦ .

الفصل الثانى ـ أيام الدراسة :

اللوح ١١ — أيام الدراسة — بركة المعلم . صورة ظهر لوح محفوظ

(١) انظر تعليق المترجم حول عدم صحة نسبة هذا القانون الى بلالاما فى الفصل السابع.

حفظا جيدا ومؤلف من أربعة حقول من الكتابة وموجود فى متحف الجامعة . وهو مدون برسالة فى أحزان وأفراح حياة المدرسة . أما «بركة» المعلم التى خص بها الطالب ، بعد أن أغدق عليه الهدايا أبوه الثرى ، فتبدأ بعد تسعة أسطر ابتداء من أعلى الحقل الأيمن . ويشاهد تحت السطر المضاعف فى الحقل الأيسر توقيع كاتب اللوح ونصه : « نسخة نابى — أنليل » .

اللوح ١٢ — أيام الدراسة : صورة خمس كسر صغيرة من الألواح (وحجمها فى الصورة نحو ½ ١ من الأصل) . لقد استعملت هذه الكسر فى استعادة وتكميل نص الرسالة الخاصة بأيام الدراسة . ان جميع هذه الكسر موجودة الآن فى متحف الجامعة . ومع انها كسر ناقصة الا ان كلا منها يساعد فى تكميل المواطن الناقصة فى النص .

اللوح ١٣ — صورة لوح عنوناه بعنوان « استنساخ يدك غير مرض » . لقد كان الطالب ، على ما يؤخذ من نصوص « أيام الدراسة » ، معرضـا للعقاب فى منـاسبات ليست بالقليلة . ومن أسـباب ذلك ما يتضح من نص هذا اللوح المدرسى الذى وجد فى « نفر » والموجود الآن فى متحف الجامعة . انه يتضمن اقتباسا من أول « معجم » معروف لدى الانسان . ونجد فى يسار اللوح الكلمات السومرية وفى اليسار معانيها فى اللغة الأكدية السامية ، فان السومرية لم تكن تستعمل فى حـدود ١٧٥٠ ق . م . الا كلغـة دينيـة أدبية مقدسة ، فى حين ان الأكدية هى التى كانت شائعة الاستعمال . وعلى ما هو واضـح ، حتى لدى غير المختصين ، تبدو الكتابة وهى ملأى بالخدوش والمحو ، بحيث يمكننا أن نظن أن هذا الاستنساخ الردىء لم يقع تحت نظر « مساعد الأسـتاذ » أى « الأخ الكبير » ، الذى ورد ذكره فى كلامنـا على

« حياة الدراسة » ، والذى لا شك فى أنه أنزل العقاب بذلك الطالب المهمل . ان هذا اللوح هو واحد من آلاف الألواح اللغوية المعجمية الموجودة فى متاحف العالم — وبوجه خاص فى المتحف البريطانى — وقد بحث فيها ونشرها جملة باحثين فى غضون مائة العام الماضية . وان مضامين هذه « المعاجم » الأصلية واثبات المفردات اللغوية والعلامات هى الآن قيد الدرس والجمع والنشر فى جملة مجلدات من جانب الباحث « بينو لاندزبيرجر » ، من منتسبى المعهد الشرقى فى جامعة شيكاغو . وقد اضطلع بنشر هذه المؤلفات مؤسسة بحوث التوراة فى الفاتيكان فى روما (١) .

الفصل الثالث ـ الشئون والعلاقات الدولية :

اللوحان ١٤ و ١٥ — « اينمركار وسيد أرتا » . لوح متحف استانبول . صورتان للوجه والظهر من اللوح المحفوظ فى متحف الشرق فى استانبول ، والذى وجد فى « نفر » . وهو مؤلف من اثنى عشر حقلا من الكتابة . وقد نشر فى عام ١٩٥٢ فى نشرة متحف الجامعة الخاصة بعنوان « اينمركار وسيد أرتا » : ملحمة سومرية عن العراق وايران . هذا وقد أمكن اكمال كثير من المواطن الناقصة فى هذا اللوح بالاستعانة بنصوص تسعة عشر لوحا وكسرة من لوح موجودة فى استانبول وفيلادلفيا . لاحظ بوجه خاص الزاوية السفلى الى اليسار المخرومة من اللوح . واقرأ أيضا التعليقات الخاصة باللوح رقم ١٦ .

لوح رقم ١٦ — « اينمركار وسيد أرتا » — صورة قطعة صغيرة من لوح موجود فى فيلادلفيا (متحف الجامعة) . والذى لا شك فيه ان

---

(١) Pontificium Institutum Biblicum

هذه القطعة تكمل الجزء الناقص المخروم فى الزاوية السفلى الى اليسار من اللوح المشار اليه فى لوح رقم ١٤/١٥ المؤلف من اثنى عشر حقلا والموجود فى متحف الشرق فى استانبول . فتؤلف هذه القطعة « وصلة » من هذا اللوح .

وكلمة « وصلة » أو « وصل » مصطلح خاص فى حقل ألواح الطين يعنى الوصل بين جزأين يعودان الى لوح واحد ولكنهما انفصلا بعضهما عن بعض قبل اجراء التنقيبات أو فى خلالها أو من بعدها . ولقد تم « وصل » المئات ولعله الآلاف من مثل هذه الألواح فى غضون القرن الماضى من جانب مختلف الباحثين فى المتاحف العالمية ، لأن الباحثين كثيرو الاهتمام والشغف بأمر هذه « الوصلات » . وهناك أمر طريف بالنسبة الى هذه « الوصلة » الخاصة ، هو أن الوصل قد تم بين قطعتين من لوح واحد موجودتين فى متحفين منفصلين . وان مثل هذا « الوصل » ليس من الأمور المألوفة كما هو الشأن فى « الوصل » بين القطع والكسر الموجودة فى نفس المتحف الواحد . ومع ذلك فان هذا الوصل الذى يتم « فى المسافات البعيدة » كثيرا ما تكرر حدوثه فى حالة تلك الألواح التى وجدت فى التنقيبات القديمة التى جرت فى « نفر » بين عام ١٨٨٩ وعام ١٩٠٠ ، لأن تلك الألواح قد قسمت قبل أن تعين ماهيتها بين متحف الشرق فى استانبول ومتحف الجامعة فى فيلادلفيا . وهكذا فقد حدث فى بعض الحالات ان كسرا تعود الى نفس اللوح الواحد قد قسمت بين هذين المعهدين . ومن أهم حالات الوصل من « المسافات البعيدة » قد تمت على يد الباحث « ادوارد كييرا » بعد عام ١٩٢٠ بقليل . حيث عين فى متحف الجامعة النصف الأسفل من اللوح المدون بأسطورة « هبوط انانا » . وقد سبق للباحث « ستيفن لنجدون » أن استنسخ النصف

الأعلى منه قبل عشر سنوات فى متحف الشرق فى استانبول (أنظر الفصل الثامن عشر) . قارن التعليقات على صور الايضاحات المرقمة ٤١ ، ٤٢ ، ٤٨ ، ٦٣ .

الشكلان ١٧ — ١٨ « اينمركار وسيد أرتا » — نسخة يدوية : تبين الصورة استنساخ المؤلف للحقلين الرابع والخامس من اللوح المؤلف من اثنى عشر حقلا والموجود فى متحف الشرق فى استانبول. ولقد التزم المؤلف طريقة استنساخ الألواح بنفس أحجامها وأشكالها لتجنب الأخطاء الشخصية على قدر المستطاع ، وهى الأخطاء التى تنجم فى أثناء نقل العلامات المسمارية من اللوح الى ورق الاستنساخ . ولكن فى هذه الحالة كان من الأنسب والأحسن ، لغرض النشر أن يستنسخ كل حقل فى ورقة منفصلة ، يمكن تصغير مقياسها أو تكبيره ، لا سيما وان صورة فوتوغرافية للوح قد نشرت مع الاستنساخ لغرض التحقق و « الضبط ». والجدير بالذكر أن استنساخ الألواح لهو من أكثر الأشغال المستهلكة لوقت الباحث فى المسماريات . فلقد تطلب منى صرف شهر تقريبا فى اكمال استنساخ هذا اللوح الخاص . ولكن لحسن الحظ بلغ فن التصوير « الفوتغرافى » مرحلة من الاتقان الآن بحيث يمكن للصورة الفوتغرافية ، فى أحسن الأحوال المواتية ، أن تعوض عن الاستنساخ اليدوى . وبذلك لا يقتصر الأمر فيها على الاقتصاد فى وقت الباحث بل يمكن بها تجنب الأخطاء الناجمة عن الاستنساخ اليدوى حتى فى أدق النسخ وأشدها أمانة واعتناء .

الفصل الرابع ـ الحكومة :

شكل ١٩ — « جلجامش وأجا » : مجلس الشيوخ يقرر السلم : صورة استنساخ المؤلف لظهر لوح من الألواح الأحد عشر التى وجدت

فى نفر واستعملت فى استكمال نص قصيدة الملحمة المؤلفة من ١١٥ سطرا والتى تدور حول « جلجامش وأجا » ، وهى الملحمة المهمة لما ورد فيها عن « الديموقراطية البدائية » — وهو المصطلح الذى ابتدعه « ياكوبسن ». وتبدأ هذه القطعة المبينة فى الصورة بمطلع القصيدة . ثم يأتى النص الكامل لالتماس « جلجامش » من « مجلس الشيوخ » ألا يخضعوا لسلطان « كيش » ، ثم قرار ذلك المجلس الذى جاء عكس ذلك الالتماس ثم عرض جلجامش للأمر أمام « مجلس رجال مدينته » — وهو مجلس يضاهى بوجه التقريب مجلس النواب أو مجلس العموم . حول التفصيلات الأخرى انظر مقالة المؤلف المعنونة « جلجامش وأجا » فى المجلة الأثرية الأمريكية »[1] (المجلد ٥٣ ، الصفحات ١ — ١٨) .

اللوح ٢٠ — الحرب والسلم : راية مدينة « أور » ترينا هذه الصـــورة الموجودة فى متحف الجامعـــة مشهدين من مشاهد الحرب . ولعل هذا المشهد هو الذى كان متمثلا فى عقول أعضاء برلمان « ارك » عنـــدما كانوا يفكرون فى قرارهم الخطير . ويريـنـــا أحد المشـــاهد الملك السومرى وهو فى عربته ، منتصرا فى المعركة على جيش الأعداء ، حيث نشاهد جنودهم وهم اما مأسورين أو أن بعضهم تدوسهم سنابك الخيل وتسحقهم بلا رحمة . والمشهد الثانى يرينا مائدة وليمة ملكية فاخرة ، لعلها للاحتفاء بالنصر . لاحظ بوجه خاص المغنى (المنشد) الذى يحمل القيثار فى الزاوية العليـــا الى اليمين من الحقـــل الأول . والذى لا شك فيه ان هذا كان من المنشدين الأميين الذين كانوا أوائل الشعراء ، ممن ألفوا الأساطير وقصص الملاحم التى بحثنا فيها فى هذا الكتاب . حول المعلومات الأخرى حول راية « أور » والاكتشافات

(١) American Journal of Archaeology, Vol. 53

الأثرية الأخـرى الخطيرة أنظـر تأليف المنقب « ليونرد وولى » عن (تنقيبات أور . والمقبرة الملوكية فيها)[1] .

الفصل الخـامس ـ حرب أهلية فى بلاد سومر :

اللوح ٢١ — صورة لوحة منحوتة تصور « أور — نانشه » ، ملك دولة مدينة « لجش » . عاش هذا الحاكم زهاء ١٥٠ عاما قبـل زمن « أورو — كاجينا » الذى كان أول مصلح اجتماعى معروف فى التاريخ . وأسس « أور — نانشه » سلالة لجش القوية العنيفة التى نشأت فيها بالتدريج طبقة من الموظفين « البيروقراطيين » ، اضطهدت الشعب فكانت ممقوتة . ويظهر « أور — نانشه » فى هذا اللوح المنحوت من حجر الكلس ، الموجود الآن فى متحف اللوفر ، وهو رجـل سلم يحف به أولاده وأطفاله وحاشية ندمانه . ويظهر فى الحقل الأعلى وهو يحمل فوق رأسه سلة مملوءة بالتراب ، رمزا لبداية الشروع فى اقامة أبنية جديدة . وصور فى الحقل الأسفل وهو جالس يشرب فى وليمة لعلهـا احتفاء باكمال تلك الأبنية . واذا أردت الوقوف على التفاصيل الأخرى عن نتائج التنقيبات فى « لجش » ، وهى أول تنقيبات ناجحة فى موضع سومرى اضطلع بها المنقبون الفرنسيون منذ عام ١٨٧٧ فى فترات متقطعة ، فارجع الى الكتاب القيم الجامع « تلو » ، لمؤلفه المنقب الفرنسى « أندريه پارو » (André Parrot)

اللوح ٢٢ — المسـلة المعـروفة باسـم « مسلة النسـور » : ويشاهد فيها مشاهد حربية تصور لنا « ايانا تم » ، حفيد « أور — نانشه » ، وهو يقود جيش « لجش » الى المعركة والنصر . وكان « ايانا تم » ، الذى سبق زمن « أورو كاجينا » بنحو قرن واحـد ، البطل الفاتح العظيم فى سلالة حكام لجش ، وهى السلالة التى حلت بها

(١) Leonard Woolley, Ur Excavations : The Royal Cemetery (1934)

النهاية المشينة عندما غلبها حاكم مدينـة « أوما » المسمى « لوجال زاجيزى » . وتتخلل الصور المنحوتة ، وفى كل فراغ فى اللوح ، نقوش كتابية تعد أقدم كتابة تدون لنا أقدم وثيقة تاريخية معروفة لدى الانسان. وهى كتابة تسجل خبر انتصار « ايانا تم » على أهل « أوما » ، ومعاهدة الصلح التى فرضت عليهم . ان التفاصيل عن هذه المسلة ونقوشها الكتابية موجودة فى المؤلف القيم المثالى الذى نشره كل من « هوزى » و « ثورو — دانجن » (١). وكذلك انظر كتاب « تلو » (لمؤلفه أندريه پارو) .

الفصل السادس ـ الإصلاح الاجتماعى :

شكل ٢٣ — الاصلاح الاجتماعى — والحرية : ترينا هذه الصورة نسخـة من النص المـدون فى مخروط من الطين عثر عليـه المنقبون الفرنسيون فى عام ١٨٧٨ فى « تلو » ، وهو موضع خرائب مدينـة « لجش » القديمة . لقد هيأ الاستنساخ مع الترجمة ونقل اللفظ بالحروف اللاتينية الباحث المرحوم « ثورو — دانجن » . حول التفاصيل الخاصة بالمراجع انظر مؤلف « أندريه پارو » المعنون « تلو » . والكلمة المحصورة بخط كبير فى القسم الأسفل الى اليسار هى الكلمة السومرية للحرية « أمارجى » (٢) .

الفصل السابع ـ الشرائع والقوانين :

اللوح ٢٤— قانون « أور — نمو » ، المقدمة : والصورة لوجه اللوح الذى وجد فى نفر والمحفوظ الآن فى متحف الشرق فى استانبول

---

(١) Heuzey and Thureau - Dangin, Restitution de la stèle des Vautours

(٢) الكلمة المحصورة فى الواقع هى « اماجى » وليست « امارجى » وتعنى « اماجى » الحرية أيضا . وتلفظ الجيم هنا كافا فارسية . (المترجم)

وهو منقوش بأقدم شريعة كشف عنها حتى الآن . ان الكتابة مشوهة فكان من الصعب فى بادىء الأمر الوقوف على ماهية مضامينها الحقيقية. وكان المفتـاح الحاسم فى حلها راجعـا الى تكرار عبـارة فى النص تشير الى زمن « قبل » و « بعد » أن يثبت « أور — نمو » القانون والنظام فى البلاد . ولقد نشر مؤلف هذا الكتاب عنه نشرة مفصلة تتضمن الاستنساخ والترجمة ونقل اللفظ بالحروف اللاتينية مع ملحق مهم للباحث « آدم فلكنشتاين » فى مجلة « أورينتاليا » [1] ، المجلد ٢٣ . وفى المجلة العلمية الأمريكية [2] عدد كانون الثانى (يناير) ١٩٥٣ .

شكل ٢٥ — قانون « أور — نمو » : نسخة يدوية للمقدمة : لقد هيأ المؤلف نسخة هذا اللوح فى استانبول حيث اشتغل فى متحف الشرق بصفته باحثا على مشروع « فلبرايت » لعام ١٩٥١ — ١٩٥٢ . ويشير شكل الخط الى أن اللوح كان قد دون فى حدود ١٧٥٠ ق . م . أى بعد عهد « أور — نمو» بنحو ثلاثة قرون . ولكن هناك من الأسباب القوية ما يحملنا على القول ان هذا اللوح هو نسخة من القانون الأصلى الذى ربما كان منقوشا على مسلحة من الحجر .

اللوح ٢٦ — قانون « أورنمو » : مواد الأحكام . ترينا الصور ظهر اللوح الموجود فى استانبول الذى كان مدونا فى الأصل بنحو ٢٢ مادة ، لا يمكن قراءة سوى خمس مواد منها بوجه ما من الاطمئنان . وفى القسم الأعلى من الحقل الموجود فى أقصى اليسار نشاهد المواد الثلاث التى تبين لنا أن قانون « القصاص » لم يكن متبعا فى أيام « أور — نمو » فى نهاية الألف الثالث ق . م .

(١) Orientalia, (New Series), Vol. 23. PP. 40-51

(٢) Scientific American, January 1953

اللوح ٢٧ — « أور — نمو » أول « موسى » (مشرع) : ترينا الصورة الجزء المتبقى من المسلة التى وجدها « ليونرد وولى » فى تنقيباته فى « أور » عام ١٩٢٤ . وهى الآن فى متحف الجامعة . ونشاهد فى وسط اللوح الملك « أور — نمو » وقد مثل مرتين وهو واقف يسكب الماء المقدس أمام الاله القمر « ننا » (الجالس الى اليمين) ، وهو اله مدينة « أور » الحامى وكذلك زوج الالهة المسماة « ننجال » (الجالسة الى اليسار) . وفى الحقل الأسفل صور الملك «أور — نمو» وهو يحمل آلات البناء ، ويتقدمه اله يلبس تاج الرأس « المقرن » ويتبعه خادم يساعده فى حمل تلك الآلات الثقيلة حيث يسندها خلفه بيديه . أما الحقل الأعلى فلم يبق من صوره سوى النصف الأسفل من صورة « أور — نمو » الواقف . ويمكن مشاهدة العبارة التى تدون (أور — نمو » ، ملك أور) وهى منقوشة فى القسم الأسفل من ردائه . لقد درس هذه المسلة وأكمل بعض ماينقصها « ليون لجران » Leon Legrain ، الأمين السابق لقسم آثار ما بين النهرين فى متحف الجامعة ، وقد أصدر عنها دراسة مفصلة فى « مجلة المتحف » المجلد ١٨ (١٩٢٧) [١] .

اللوح ٢٨ — « قانون » لبت — عشتار » : ترينا الصورة ظهر قالب اللوح المدون فيه « قانون لبت — عشتار » ، كما أعاده «فرنسيس ستيل » Francis Steele من ثلاث كسر . ويحتوى اللوح ، وهو بحاله الكاملة ، على جميع مواد القانون المؤلف من مقدمة وخاتمة ، وعلى عدد غير معروف من مواد الأحكام التى أمكن استعادة ٣٧ مادة

(1) Leon Legrain, "The Stele of the Flying Angels", Museum Journal, Vol. 18 (1927), PP. 75-98

منها بعضها كامل وبعضها جزئى . حول التفاصيل راجع مقال « ستيل » (قانون لبت — عشتار) المنشور أولا فى عام ١٩٤٨ فى « المجلة الأثرية الأمريكية » [١] المجلد ٥٢ ثم أعيد نشره فى نشرة خاصة من نشرات متحف الجامعة .

الفصل الثامن ـ العدالة :

اللوح ٢٩ — قضية الزوجة « الساكتة » : صورة فوتوغرافية أخذتها بعثة التنقيبات المشتركة بين المعهد الشرقى ومتحف الجامعة (١٩٤٩ — ١٩٥٠) وتبين الصورة ظهر اللوح المدون بقرار محكمة فى قضية جريمة قتل . وقد أمكن تكميل القسم الناقص فى القسم الأسفل الى اليسار من لوح مكسور آخر سبق أن وجدته فى نفر بعثة جامعة بنسلفانيا قديما ، وهو موجود الآن فى متحف الجامعة . وقد نشره « ادورد كييرا » فى عام ١٩٢٢ فى كتابه : عقود بابلية قديمة [٢] .

الفصل التاسع ـ الطب :

اللوح ٣٠ — أقدم وصفات طبية عند الانسان : ـــ ترينا الصورة ظهر لوح « طبى » وجد فى نفر وهو الآن محفوظ فى متحف الجامعة . والقسمان المعلمان بالاشارة يحتويان على وصفتين نصهما باللغة السومرية كما يأتى : —

1. gish kashhur — babbar. e-ri-na u-gish nanna. u-gaz. kash -e u-tu lu al-nag-nag

شجرة الكمثرى الأبيض (؟) وجذر شجرة الاله القمر . اسحق واذب فى الجعة ودع الرجل (المريض) يشربه .

2. numun — nig — nagar -sar. shim -mar-ka-ka-zi. u-ha shu-an -um. u. gaz kash-eu-tu lu al-nag-nag

(١) Francis steele, "The Code of Libit-Ishtar", American Journal of Archaeology Vol. 52 (1948)

(٢) Edward Chiera, Old Babylonian Contracts (No. 173)

« بذر نبات « النجار » وصمغ الراتنج المستخلص من الـ «مركازى» والزعتر .اسحق واذب فى الجعة . ودع الرجل يشربه .

حول التفصيلات الأخرى أنظر مجلة :

"Illustrated London News", February, 26, 1955 PP. 370-71

اللـــوح ٣١ — ترتيلة الى « الطبيبـــة العظمى لذوى الرءوس السود » : ترينا الصورة وجه لوح من « نفر » محفوظ حفظا جيدا ، ومنقوش بأربعة حقول من الكتابة . وهو موجود فى متحف الشرق فى استانبول ، ويرجع فى تاريخه الى حدود ١٧٥٠ ق . م . واللوح مدون بترتيلة الى الالهة « نسنا » ، التى وصفت هنا بنعت « الطبيبة العظمى لذوى الرءوس السود » (أى السومريين) . والالهة « نِنْسِنّا » ، على رأى مؤلف الترتيلة ، كانت موكلة بالنواميس الالهيـــة التى وضعت للشفاء قبل الخليقة . وقد قدمها لها الاله « أنكى » ، الاله الموكل بالنواميس الالهية me (أنظر الفصل الثانى عشر) ، وعلمتها لابنها المسمى « دامو » ، وهذا هو أحد الأسماء التى يسمى بهـــا الاله « دموزى » (تموز) . وتعزى الأمراض فى هذه الترتيلة الى الشياطين فيكون العلاج بالدرجة الأولى عن طريق الرقى والتعاويذ . لقـــد استنسخ هذا النص ونشره الباحث « ادورد كييرا » فى كتابه « نصوص دينية سومرية » [1] .

الفصل العاشر ـ الزراعة :

ش ٣٢ — تقويم الفلاح الزراعى : — استنساخ يدوى غير منشور بيد الدكتور محمود الأمين من مديرية الآثار العراقية . ان هذا اللوح

(1) Edward Chiera, Sumerian Religious Texts (No. 6)

ذو أربعة حقول من الكتابة التي تحتوى وهى كاملة على كل « تقويم الفلاح الزراعى » . وجد اللوح فى موسم تنقيبات عام ١٩٤٩ — ١٩٥٠ لبعثة الآثار المشتركة بين المعهد الشرقى وبين متحف الجامعة . أما الاستنساخ فقد تم بارشادى من جانب الدكتور محمود الأمين الذى كان عضوا زائرا فى متحف الجامعة .

ش ٣٣ — « مشهد الحرث » : ترينا الصورة منظر حرث ، صوّر على ختم اسطوانى . وطبع فى لوح نشره وأكمل منظره « ألبرت كلاى » ، فى عام ١٩١٢ فى كتابة الموسوم « وثائق من سجلات المعبد » فى نفر « مؤرخه فى عهود الملوك الكشيين » [1] . لاحظ بوجه خاص المحراث المجهز بقمع (لبذر البذور) ، وهو الآلة التى ورد ذكرها فى وثيقة « تقويم الفلاح الزراعى » .

الفصل الحادي عشر ـ فن البستنة :

اللوح ٣٤ — « اانانا » و « شوكليتودا » : خطيئة البستانى المهلكة :

ترينا الصورة وجه لوح ذى ستة حقول من الكتابة موجود فى متحف الشرق فى استانبول واللوح مدون بأسطورة تروى قصة اغتصاب الالهة « اانانا » من جانب البستانى « شوكليتودا » ، وفيها قصة بلاء الدم الشبيهة بالقصة الواردة فى التوراة فى « سفر الخروج » . لم تكن هذه الأسطورة معروفة حتى عام ١٩٤٦ ، حين استنسخت هذا اللوح فى استانبول . ويمكن الآن تعيين قطع أخرى تعود الى الأسطورة نفسها موجودة فى متحف الجامعة وفى استانبول .

(1) Albert Clay, Documents from the Temple Archives of Nippur Dated in the Reign of Cassite Rulers (1912), No. 20

الفصل الثانى عشر ـ الفلسفة :

اللوح ٣٥ — معبد سومرى : صورة تبين اكمال معبد سومرى من بداية الألف الثالث ق . م . لقد كشفت عنه دائرة الآثار العراقية فى عام ١٩٤٠ — ١٩٤١ بادارة « سيتون لويد » وفؤاد سفر ، فى الموضع المسمى تل « العقير » ، الذى يبعد عن بغداد بنحو ٥٠ ميلا الى الجنوب . ويمكن اعادة رسم مخطط المعبد بدرجة مأمونة من الدقة . ولكن طريقة التسقيف من الأمور المشكوك فيها . والمرجح ان المعبد كان مؤلفا من قاعة وسطى طويلة وتنتهى فى احدى نهايتيها بمذبح altar وبدكة للقرابين فى الوسط . ويوجد صفان يتألف كل منهما من أربع حجرات تحيط بالقاعة الوسطى . لقد شيد المعبد على مصطبة تقوم بدورها فوق دكة نصف دائرية بهيئة الحرف (D) ويوجد سلم يؤدى من هذه الدكة الى المصطبة ، وسلمان آخران متناظران ، للنزول من المصطبة الى أسفل الدكة . وتتألف أوجه الجدران الخارجية من البناء من سلسلة من الطلعات والدخلات (١) ، وكانت هذه الجدران مصبوغة بطلاء أبيض من الجص . أما الجدران الداخلية للمعبد فقد وجدت مزينة برسوم ملونة (٢) لم يمكن الحصول الا على أجزاء قليلة منها لأنها كانت ملتصقة بأبنية وضعت داخل تلك الجدران وملأت باطن المعبد فى العهود المتأخرة . حول التنقيبات فى العقير انظر « مجلة دراسات الشرق الأدنى » المجلد الثانى ، العدد الثانى (٣) .

اللوح ٣٦ — عبادة الآلهة : رسوم ملونة من هيكل « المعبد

(١) Buttresses and recesses
(٢) Frescoes
(٣) Journal of Near Eastern Studies, Vol. 2. No. 2.

الملون » . ترينا الصــورة هنا الرســوم الجدارية فى هيكل معبد « العقير » مما أمكن استخلاصها بصورة جزئية ، وهى مثال حسن لأشكال الصور التى ترسم على الجدران والطرق المتبعة فى ذلك بوجه عام . وبحسب ما جاء فى تقرير المنقبين كانت الأشكال وتصميمات الرسوم فى معبد « العقير » ترسم وتلون على الدوام فوق أرضية بيضاء . وقد استعملت جملة ألوان متنوعة ، ولكن لا يوجــد من بينها الأزرق أو الأخضر . لقد رسمت الأشكال وحددت معالمها بخطوط حمراء أو صفراء برتقالية ثم أضيفت الى تلك الخطوط ، التى تحدد الشكل العام ، خطوط سوداء فوق الخطوط الحمراء أو بمحاذاتها ، وكانت أكثر الطرق شيوعا فى تلوين الجدران أن يثبت نطاق من لون بسيط ، هو اللون الأحمر الباهت على الأغلب ، ليؤلف نطاقا يدور فى جوانب الجدران ارتفاعه نحو متر واحد . ثم يرسم فوق هذا النطاق dado نطاق آخر يؤلف زينة هندسية علوها زهاء (٣٠) سنتيمترا . أما الأقسام العليا من الجدران فقد كانت تزوق بمشاهد من الأشكال البشرية والحيوانية التى تلون فوق أرضيــة بيضــاء بسيطة . ومما يؤسف له انه لم يصــل الى أيدينا شكل آدمى كامل وانما هى أجزاء ناقصة لم يبق منها سوى الأجزاء السفلى من تحت الحزام ، من جراء سقوط الأجزاء العليا من الجدران .

اللوح — ٣٧ — صورة « نمر » وجد فى الهيكل : وترينا الصورة نسخة مكبرة من الصورة الأصلية لنمر أو أسد تظهر فى الوجه المرقوم « A » من الصورة الموضحة فى اللوح السابق رقم (٣٦) .

اللوح — ٣٨ « فصل السماء عن الأرض » : صــورة لوح من « نفر » موجود فى متحف الجامعة . لقد دون هذا اللوح بالقسم الأول من قصيدة « جلجامش وانكيدو والعالم الأسفل » التى تحتوى على

العبارات الخاصة بالخليقة وأصل الأشياء ، مما اقتبسناه . لقد استنسخها « ادوارد كييرا » ونشرها فى عام ١٩٣٤ فى كتابه الموسوم « ملاحم وأساطير سومرية » (١) .

اللوح ٣٩ — « انليل يفصل ما بين السماء والأرض » : لوح « نفر » الموجود فى متحف الجامعة ، وهو مدون بالقصيدة المعنونة « خلق الفأس » . أنظر كتابى « الميثولوجيا السومرية » الذى يحتوى على العبارات الخاصة بأصل الأشياء والخليقة المقتبسة فى هذا الكتاب . لقد استنسخ اللوح « ستيفن لنجدون » ، ونشره فى عام ١٩١٩ فى كتابه الموسوم « تراتيل وصلوات سومرية » (٢) .

اللوح ٤٠ — «ولادة الاله القمر» : من التنقيبات القديمة فى «نفر» : صورة تبين ظهر لوح يحتوى على أربعة حقول من الكتابة ، وقد وجد فى تنقيبات « نفر » عام ١٨٩٠ ، وهو الآن فى متحف الجامعة . انه مدون بالأسطورة المعنونة (انليل وننليل : ولادة الاله القمر) . وقد استنسخه « جورج بارتون » ونشره فى عام ١٩١٨ فى كتابه المعنون « كتابات بابلية متنوعة » (٣) .

ش ٤١ — « ترتيلة الى انليل » : نسخة بيد « هاتيجه كزلياى » ، لظهر القسم الأسفل من لوح ذى أربعة حقول وجــد فى نفر ، والآن محفوظ فى متحف استانبول فى متحف الشرق . أما القسم الأعلى من اللوح فهو موجود فى متحف الجامعــة فى فيلادلفيا . ويؤلف القسمان

---

(١) Erward Chiera, Sumerian Epics and Myths (1934) No. 2

(٢) Stephen Langdon, Sumerian Liturgies and Psalms No. 16

(٣) George Barton, Miscellaneous Babylonian Inscriptions No. 4

« وصلة » تمت فى المسافات البعيدة (أنظر شرح الصورة رقم ١٦) . وبالاضافة الى هذا اللوح الذى نشر فى مجلة الآثار التركية Belleten المجلد ١٦ ، ويوجد الآن ست قطع اضافية أخرى تعود الى هذه الترتيلة .

اللوح — ٤٢ — « فى الانثروبولوجيا الثقافية » : — ثبت بأنواع النواميس الالهية me . ترينا الصورة ظهر اللوح المؤلف من ستة حقول والموجود فى متحف الجامعة . وهو مدون بأسطورة (انانا وانكى وانتقال عناصر الفن والحضارة من اريدو الى ارك) . ولقد استنسخ هذا اللوح « ارنو پوبل » ونشره فى عام ١٩١٤ فى كتابه « نصوص تاريخية » ، لاحظ الزاوية العليا اليسرى المفقودة ، فقد وجد هذا القسم المفقود واستنسخه المؤلف فى متحف الشرق فى استانبول ونشر فى عام ١٩٤٤ فى رسالته المعنونة « نصوص سومرية أدبية من نفر » (١) . تحت الرقم ٣١ .

الفصل الثالث عشر - « السلوك والأخلاق »

اللوح — ٤٣ العدالة الاجتماعية : ترتيلة الى الالهة نانشه : صورة لوح من نفر فى متحف الجامعة وهو مدون بمقتبسات من ترتيلة «نانشه» التى تتضمن — كما عرف الباحث « ياكوبسن » لأول مرة نصا واضحا فى أصول الرعاية الالهية للعدالة الاجتماعية . وهو النص الوحيد الموجود فى الأدب السومرى الدينى . وهو يحتوى أيضا على اشارة أو تلميح الى « يوم الحساب » السنوى لجميع البشر . ويوجد الآن ١٥ لوحا وكسرة من لوح منقوشة بأجزاء من هذه الترتيلة غير المألوفة ، اثنتا عشرة قطعة منها جاءت من التنقيبات القديمة فى نفر وثلاث قطع من التنقيبات الجديدة .

(١) S. N. Kramer, Sumerian Literary Texts from Nippur.

ش ٤٤ — العدالة الاجتماعية : — صورة كسر من الألواح التى استنسخها المؤلف فى متحف الشرق فى استانبول وهى مدونة بأجزاء من ترتيلة « نانشه » . ان هذه الكسر غير منشورة .

اللوحان ٤٥ و ٤٦ — « خلق الانسان » : توضح هاتان الصورتان وجه لوح واحد من « نفر » فى متحف الجامعة قبل « الوصل » وبعد « الوصل » ما بين القطع العائدة لنفس ذلك اللوح . ولقد استنسخ القطعة السفلى « ستيفن لنجدون » فى عام ١٩١٩ ونشرها فى كتابه المشار اليه فى الحاشية رقم ١ الصفحة (٣٠٦) . أما القطعة العليا فقد استنسخها « ادوارد كييرا » ونشرت فى عام ١٩٣٤ فى كتابه المشار اليه سابقا بعنوان « أساطير وملاحم سومرية » . أما القطعة الثالثة فقد عينها مؤلف هـذا الكتاب وأثبت أنها تعود الى نفس اللوح الواحـد وانها « تتصل » فى الواقع بالقطعة السفلى .

الفصل الرابع عشر — « العذاب والتسليم » :

اللوح ٤٧ — « أول أيوب » : صورة أكبر ألواح « نفر » وأحسنها حفظا ، وهو مدون بالمقالة الشعرية التى عنوناها بعنوان : « الانسان وربه » . وقد استنسخه فى متحف الجامعة « ادوارد كييرا » فى عام ١٩٣٤ ونشره فى كتابه المسمى « نصوص سومرية مختلفة المضمونات » [1] .

ولقد ظن فى مبدأ الأمر بأنه مجموعة من الأمثـال حتى عام ١٩٥٠ عندما استطاع المؤلف والباحث الهولندى « فان ديك » J. J. Van Dijk أحد تلاميذ « آدم فلكنشتاين » ، أن يعين بوجه مستقل ان هـذه النصوص تأليف متصل يدور على « العذاب الانسانى » . ولقد ظهرت نشرة للنص هيأها المؤلف ونشرت فى مؤلف بمناسبة العيد الخمسينى .

(1) Edward Chiera, Sumerian Texts of Varied Contents No. 1

للباحث الشهير المختص بدراسات العهد القديم ، « رولى » المعنون « الحكمة فى اسرائيل وفى الشرق الأدنى القديم » [1] ومع ذلك فالذى تجدر ملاحظته ان خمس قطع فقط هى التى ذكرت فى هذا المؤلف على انها تحتوى على تلك الرسالة ، وهناك قطعة سادسة ، وهى صغيرة عينها ودرسها « ادورد جوردون » فى أثناء اشتغاله على الأمثال السومرية ، وهى لا تزال غير منشورة .

اللوح ٤٨ — أول « أيوب » : قطعتان وصلتا من « المسافات البعيدة » . يرينا الجزء الأعلى من هذه الصورة الفوتغرافية لوحا مكسورا وجد فى « نفر » وموجود فى متحف الجامعة فى فيلادلفيا ، وهو مدون بجزء من الرسالة التى عنوناها « الانسان وربه » . أما الجزء الأسفل من الصورة فتشاهد فيه كسرة من « نفر » موجودة فى متحف الشرق فى استانبول . أما كيفية التعرف على ان كلتا القطعتين تعودان الى نفس اللوح على الرغم من وجودهما بعيدتين بعضهما عن بعض بآلاف الأميال فقد تم ذلك نتيجة اقتراح ارتآه « ادمون جوردون » فى أثناء التهيئة النهائية للترجمة الى النشر .

الفصل الخامس عشر ـ « الحكمة » :

اللوح ٤٩ — « الأمثال » : مجموعة الأمثـال التى تبدأ بكلمة « نج » [2] السومرية . كان الأساتذة السومريون يميلون الى التنظيم والتبويب فعمدوا الى جمع أمثالهم تحت كلمة أو علامة مسمارية تبدأ بها مجموعة تلك الأمثال دون جمعها جمعا كيفيا كيما اتفق وعلى هيئة منفصلة . ان اللوح الذى وجد فى نفر والمبين فى الصورة كان يحتوى

(1) Wisdom in Israel and in the Ancient Near East

(٢) تلفظ الجيم كافا فارسية .

على مجموعة كاملة من الأمثـال تبلغ نحو مائتى مثـل . ولقد أتم المؤلف استنساخ اللوح فى عام ١٩٥٢ وتبدأ أول مجموعة من هذه الأمثال بالعلامة المسمارية التى تلفظ بالسومرية « نج » وهـذه تعنى « شيئا » أو « خبرا » . وبالامكان معرفة الألواح المدونة بالأمثال حتى بالنسبة الى غير المختصين لأنه يفصل بين كل مثل ومثل آخر يعقبه خط واضح تحتـه .

اللوحان ٥٠ و ٥١ — « الأمثال » : مقتبسات من مجموعة الأمثال المبتدئة بكلمة « نج » : ان هذا اللوح من أنواع التمارين المدرسية ، وهو موجود فى متحف الجامعة ، ويشتمل على خمسة من هذه الأمثال (من رقم ٦ — ١٠) . وتشير « الشخوط » وكثرة أماكن المحو على ان ذلك التلميذ « النفرى » الذى كتب هذا التمرين قد قاسى الأمرّين وقد تنفس الصعداء عندما ترك اللوح غير كامل الكتابة ، مؤملا وداعيا ان « الأخ الكبير » سوف لا يقسو عليه (انظر الفصل الثالث عشر) .

اللوح ٥٢ — « الأمثال » : مجموعة أخرى من الأمثال التى تبتدىء بالكلمة السومرية التى تعنى « نصيب » . والصورة تبين لنا شكل لوح من « نفر » مدون بتسعة حقول من الكتابة . وهو موجود فى متحف الجامعة . واللوح فى أصله الكامل يشتمل على نحو ١٦٢ مثلا من مجموعة أمثال تتضمن أيضا طائفة من الأمثال المبتدئة بكلمة «نمتار» (أى نصيب) . وهناك طائفة أخرى تدور حول الفقير والكاتب والمغنى والثعلب والحمار والثور والكلب والبيت .

الفصل السادس عشر ـ « المناظرات الكلامية » :

اللوحان ٥٣ و ٥٤ — « الماشية والغلة » : ترينا الصورة وجه وظهر لوح من « نفر » موجود فى متحف الجامعة ، لا يزال غير منشور . وهو

مدون بأجزاء من منتصف المناظرة الشعرية بين اله الماشية المسمى « لهار » وبين أخته ، الهة الغلة المسماة « أشنان » . ان هذه القصيدة التى تبلغ زهاء مائتى سطر يمكن استكمالها الآن واستعادتها من أكثر من اثنى عشر لوحا وكسرة من لوح لا يزال القسم الأعظم منها غير منشور . وان المقدمة الميثولوجية لهذا التأليف هى التى تبين انه ذو أهمية كبيرة فى ايضاح التصورات السومرية الخاصة بخلق الانسان .

اللوح ٥٥ — « الصيف والشتاء » : ترينا الصورة وجه لوح لا يزال غير منشور وهو من « نفر » ومحفوظ فى متحف الشرق فى استانبول . انه مدون بثمانية حقول من الكتابة تحتوى على جميع النص المتعلق بالنزاع والمنافرة بين الهين من الآلهة الصغيرة وهما « ايمش » و « اينتن » . وهما يمثلان ، كما أبان « بينولاندز برجر » لأول مرة ، الصيف والشتاء ، ويوجد الآن عشرون لوحا وكسرة من لوح منقوشة بنصوص هذه القصيدة ، لا يزال القسم الأكبر منها غير منشور . والقصيدة على قدر عظيم من الأهمية لأنها توقفنا على الأساليب الزراعية السومرية .

الشكلان ٥٦ و ٥٧ — « الصيف والشتاء » : نسخة المؤلف لأربعة حقول من الكتابة فى وجه اللوح المبين فى الصورة السابقة ، ولعل هذا اللوح سيكون أهم الألواح الخاصة بالموضوع لاستعادة واستكمال هذه القصيدة .

شكل ٥٨ — « بين الطير والسمك » وبين « الشجر والقصب » : نسخ يدوية لا تزال غير منشورة لجملة كسر من ألواح موجودة فى متحف الشرق فى استانبول . وهى مدونة بأجزاء من النزاع والمناظرة أو المفاخرة بين « الطير والسمك » وبين « الشجر والقصب » .

الفصل السابع عشر ـ « الفردوس » :

اللوح ٥٩ — ولادة الالهة المنعوتة بـ « سيدة الضلع » : صورة ظهر لوح يحتوى على ستة حقول من الكتابة نشره « ستيفن لنجدون » فى عام ١٩١٥ بعنوان « ملحمة سومرية عن الفردوس والطوفان وسقوط الانسان » . ان تلك النشرة أثارت ، كما هو متوقع ، اهتمام المستشرقين ولا سيما الباحثين فى الدراسات التوراتية . ولكن مما يؤسف له ان ترجمة « لنجدون » وتفسيره للقصيدة ظهر انهما لا يستندان الى مبررات معقولة ، وبوجه خاص لا يوجد فى النص أى ذكر للطوفان أو سقوط الانسان . وظهرت ترجمة مؤلف هذا الكتاب وتفسيره لهذه القصيدة فى عام ١٩٥٤ بهيئة نشرة ملحقة لنشرة المدارس الأمريكية للبحوث الشرقية[1].

الفصل الثامن عشر ـ « الطوفان » :

شكل ٦٠ — (الطوفان ، والفلك ، ونوح السومرى) : نسخة « أرنو پوبل » لكتابة اللوح الخاص بالطوفان والموجود فى متحف الجامعة . ولقد نشر فى عام ١٩١٤ فى كتاب « پوبل » المعنون « نصوص تاريخية ونحوية » (رقم ١) المشار اليه فيما سبق . ان هذا اللوح الثمين لا يزال الوحيد من نوعه فلم يعثر على أى لوح آخر أو كسرة من لوح مدونة بهذه الأسطورة . والعبارة المحصورة بالخط تتضمن الأسطر الستة الأولى للعبارة الرابعة التى اقتبسناها فى الفصل الثامن عشر .

اللوحان ٦١ و ٦٢ — « حكمة ما قبل الطوفان » : كسرتان صغيرتان مدونتان بأجزاء من رسالة لا تزال غير معروفة فى أغلبها ، وعنوانها : « وصايا شروپاك لابنه زيو سدار » . وكان « زيو سدرا » ، فى رأى

(١) Supplementary Study No.1 of the Bulletin of the American Schools of Oriental Research.

الشعراء والمفكرين السومريين ، مثال الحكمة ، والا كيف أمكن ، من دون جميع البشر الفانين ، أن تصطفيه الآلهة ليصحبهم وهو مخلد في فردوسهم المقدس ؟ وكان من جملة الطرق التى حصل بها على حكمته أن جملة وصايا ونصائح تسلمها من أبيه الملك « شروپاك » ، الذىعاش قبل الطوفان . وهذا على الأقل هو الذى يؤخذ من العبارات الواردة فى تلك النصوص الشبيهة بما ورد فى التوراة واليك نص العبارة :

« شروپاك أوصى ابنه ،

« شروپاك ابن « أوبارا — توتو » نصح ابنــه « زيوسُدْرا » (وقال له) :

« يا بنى أريد أن أوصيك فخذ وصيتى ،

« يا زيوسدرا سأقول لك كلمة فاستمع لكلمتى ،

« لا تهمل وصيتى ولا تتعد على كلمتى » .

الفصل التاسع عشر - « العالم الأسفل » (هادس) :

اللوح ٦٣ — « الموت والقيامة » : صورة تبين الوصل ما بين كسر الألواح فى « المسافات البعيدة » ، وقد تم ذلك على يد الباحث « ادوارد كيبرا » حيث يشاهد فى الصورة المركبة لوح « نفر » المؤلف من أربعة حقول من الكتابة ، واللوح مكون من قسمين : القسم الأعلى منه فى متحف الجامعة فى فيلادلفيا وهو مدون بـ (٢٠٨) من الأسطر الأولى من أسطورة « هبوط انانا الى العالم الأسفل » . وقد استنسخ « ستيفن لنجدون » الجزء الموجود فى استانبول فى عام ١٩١٤ ، وعين « ادوارد كيبرا » قطعة فيلادلفيا حينما كان يستنسخ قطع الألواح الأدبية الموجودة فى متحف الجامعة فى عام ١٩٢٤ .

وبهذه الطريقة من عملية « الوصـــل » من المسافات البعيدة استطاع مؤلف هذا الكتاب أن ينشر دراسته الأولى عن الأسطورة فى مجلة « البحوث الأشورية » [1] .

الفصل العشرون ـ « ذبح التنين » :

شكل ٦٤ و ٦٥ — (مآثر الاله « ننورتا » وأعماله) : استنساخ المؤلف لثلاث قطع موجودة فى متحف الشرق فى استانبول وهى مدونة بأجزاء من الأسطورة السومرية التى تدور حول « ذبح التنين » وتعرف لدى الباحثين فى المسماريات بعنوانها السومرى Lugale u melambi nirgal وتوجد الآن جملة ألواح وكسر من الألواح لا يزال القسم الأعظم منها غير منشور لاستكمال واستعادة نصوص هذه الأسطورة المؤلفة من أكثر من ٦٠٠ سطر .

شكل ٦٦ — « جلجامش وأرض الأحياء » : نسخة المؤلف لكسرتين من « نفر » غير منشورتين وموجودتين فى متحف الشرق فى استانبول .

شكل ٦٧ — (جلجامش وأرض الأحياء : رواية أخرى) : نسخة بيد المؤلف لوجه لوح من « نفر » موجود الآن فى متحف الشرق فى استانبول وهو مؤلف من أربعة حقول من الكتابة . انه غير منشور ، ومدون برواية مختلفة من أسطورة ذبح « التنين » . وعلى هذا فان هذا اللوح على أهمية خاصة بالنسبة الى تاريخ الأدب ، لأن كونه رواية مختلفة يرينا انه فى زمن تأليفه كان يوجد على الأقل روايتان من القصة الواحدة نفسها . وان كلتا الروايتين قد دونتا واستنسختا بدون أن يدمجا ويوحدا فى نص واحد أساسى كما حدث على ما يبـــدو فى جميع التآليف الأدبية السومرية الأخرى تقريبا .

---

(١) Revue d'Assyriologie, Vol. 34, PP. 93-134

اللوح ٦٨ — « ذبح التنين » : صورة طبعة ختم اسطوانى يرجع تاريخه الى الألف الثالث ق . م . ووجد فى التنقيبات المشتركة بين المتحف البريطانى ومتحف جامعـة بنسلفانيا فى مدينـة أور ونشره « ليون لجـران » فى كتاب « ليونرد وولى » عن « تنقيبات أور — المقـبرة الملوكية » (١) ونشاهد فى الصورة بطلا وهو يبارز فى المعركة . انه من نوع البطل « جلجامش » . ومعه صاحبه الممثل بهيئة « الرجل — الثور » وهما يذبحان « التنين » .

الفصل الواحد والعشرون - « قصص جلجامش » :

اللوح ٦٩ — الأصل السومرى للوح الثانى عشر من ملحمة جلجامش البابلية : وفى الصورة ظهر لوح من نفر غير منشور حتى الآن ، ذى ستة حقول من الكتابة ، وموجود فى متحف الجامعة . واللوح فى أصله الكامل مدون بكل الملحمة السومرية المعنونة « جلجامش وأنكيدو والعالم الأسفل » ويمكن الآن استكمال نصها البالغ زهاء ثلاثمائة سطرا من نحو خمسة وعشرين لوحا وكسرة من لوح لا يزال زهاء نصفها غير منشور .

شكل ٧٠ — « محرمات العالم الأسفل » : نسخة بيد المؤلف للوح محفوظ حفظا جيدا . وهو لوح صغير لا يزال غير منشور ومحفوظ فى متحف الجامعة . انه مدون بأجزاء من ملحمة « جلجامش وأنكيدو والعالم الأسفل » . وقد ساعدنا هذا اللوح على توضيح أساس القصة توضيحا كثيرا . ويحتوى وجه اللوح على معظم الأشياء المحظور عملها فى العالم الأسفل ، والتى حذر جلجامش تابعه « أنكيدو » ألا يرتكبها (أنظر النص فى صفحة ٢٣٠ — ٢٣١) . ويروى لنا النص فى ظهر اللوح

Leonard Woolley, Ur Excavations : The Royal Cemetery P. 359 (1)

كيف ان « أنكيدو » ارتكب تلك المحرمات واحدا بعد آخر مما سبب أن « يمسكه صراخ كور » .

الفصل الثانى والعشرون – « أدب الملاحم » :

شكل ٧١ – « اينمركار » و « اينسوكشسيراننا » ، من التنقيبات القديمة فى نفر . نسخة بيد المؤلف لكسرتين من « نفر » غير منشورتين وموجودتين فى متحف الشرق فى استانبول . ومع ان جملة ألواح وكسر من ألواح خاصة بهذا النص كانت موجودة ، الا أن فكرة هذه الملحمة أو أساسها قد ظل غامضا حتى تم الكشف عن لوحين محفوظين حفظا جيدا فى التنقيبات المشتركة بين المعهد الشرقى لجامعة شيكاغو وبين متحف جامعة بنسلفانيا .

شكل ٧٢ – « البقرة المقدسة » (؟) : افريز من الفسيفساء فيه مشهد حلب الأبقار . كشف عن هذا الافريز « ليونرد وولى » فى الموضع المسمى « العبيد » قرب « أور » . ويرجع فى تاريخه الى حدود القرن الخامس والعشرين ق . م . ويذكرنا هذا المشهد بحظائر الأبقار المقدسة وحظائر الأغنام الخاصة بالالهة « ندابا » التى ذكرت فى قصيدة « اينمركار » و « اينسوكشسيرانا » .

شكل ٧٣ – « لوجال بندا واينمركار » : نسخة بيد المؤلف لكسرة لوح من نفر غير منشور وموجود فى متحف الشرق فى استانبول . وهو مدون بجزء من قصة الملحمة « لوجال بندا واينمركار » .

شكل ٧٤ – « لوجال بندا واينمركار » : نسخة بيد المؤلف لكسرة من لوح من نفر غير منشور ، وموجود فى متحف جامعة بنلسفانيا فى فيلادلفيا . وهو مدون بجزء من ملحمة « لوجال بندا واينمركار » .

وهناك حقيقة خاصة مهمة حول هذه القطعة ، وهى انه أمكن « وصلها » بلوح كبير سبق أن استنسخه « ادوارد كييرا » ونشره فى عام ١٩٣٤ فى كتابه الموسوم « ملاحم وأساطير سومرية » (رقم ١) (الذى سبقت الاشارة اليه) وكذلك فهى تكمل نقصا خطيرا فى النص وأمكن بواسطتها أيضا ترقيم الأسطر ترقيما متتاليا وهو أمر أساسى على الدوام للحصول على سياق متتابع لنص قصة بكاملها .

شكل ٧٥ — « لوجال بندا وجبل هرم » : نسخة بيد المؤلف لظهر لوح من نفر موجود فى متحف الجامعة . وهو مدون بجزء من ملحمة « لوجال بندا وجبل هرم » . والقطعة غريبة فى شكلها اذ يبلغ طولها ضعف أى لوح اعتيادى بنفس عرضها . وبينما يحتوى اللوح العادى ذو الحقل الواحد على نحـو ٦٠ سطرا من النص ، فان هـذه القطعة تحتوى على ١٠١ سطرا .

الفصل الثالث والعشرون ـ « العريس الملكى » :

ش ٧٦ — « قصيدة فى الغزل » : نسخة يدوية أتمتها « معززجك » احدى الأمناء على مجموعة الألواح فى متحف الشرق فى استانبول . وترينا الصورة الوجه والظهر من لوح مدون بقصيدة فى الغزل والنسيب بالملك « شو — سين » مما يذكرنا بـ « نشيد الانشاد » فى التوراة . حول التفاصيل انظر مجلة الآثار التركية Belleten الخاصة بالجمعية التاريخية الأثرية التركية المجـلد ١٦ (أنقرة ١٩٢٥ ، الصفحات ٣٤٥ — ٣٦٥) .

الفصل الرابع والعشرون ـ « الكتب » :

شـكل ٧٧ — « فهرس خـزانة كتب » : وهى تأليف بحثناه فى هذا الكتاب . ترينا الصورة نسخة يدوية للمؤلف لفهرس « المكتبة »

وتشير الأرقام الى المؤلفات الأدبية التى عرضنا لها فى هذا الكتاب ، كما بينت . حول التفاصيل أنظر نشرة المدارس الأمريكية للبحوث الشرقية (الرقم ٨٨ الصفحات ١٠ — ١٩ عام ١٩٤٢) [١] .

الفصل الخامس والعشرون ـ « السلام والوئام فى العالم »:

شكل ٧٨ — « عصر الانسان الذهبى » : نسخة بيد المؤلف لكسرة لوح من نفر موجود فى متحف جامعة بنسلفانيا ، وهى مدونة بجزء من ملحمة « اينمركار وسيد أرتا » ، التى بحثنا فيها بالتفصيل فى الفصل الثالث من هذا الكتاب . ويحتوى الحقل الأول من ظهر هذه الكسرة على الجزء الخاص « بالعصر الذهبى » ، وهو الجزء الناقص من وجه لوح كبير ذى اثنى عشر حقلا من الكتابة ، موجودة فى استانبول ، فكان ضروريا لاستعادة نص القصيدة بكاملها . حول التفاصيل انظر رسالة المؤلف فى نشرة متحف الجامعة الخاصة عام ١٩٥٢ بعنوان : « اينمركار وسيد أرتا » . وكذلك فى « مجلة الجمعية الشرقية الأمريكية » المجلد ٦٣ الصفحات ١٩١ — ١٩٤ [٢] .

شكل ٧٩ — خارطة تبين المواضع القديمة فى بلاد سومر: اذا ما ابتدأنا من مدينة « نفر » التى تقع فى مركز بلاد سومر تقريبا واتجهنا جنوبا ، فنجد ان أهم المواضع التى أجريت فيها التنقيبات هى : « فارة » ، وهى خرائب المدينة القديمة « شروپاك » حيث حكم « زيوسدرا » ، نوح البابلى (انظر الفصل ١٨) . و « تلو » ، وهى خرائب مدينة « لجش » القديمة (انظر الفصلين ٥ و ٦) . و « الوركاء » وهى « ارك » الوارد

---

(1) Bulletin of the American Schools of Oriental Research No. 88 (1942), PP. 10-19

(2) Journal of the American Oriental Society, Vol. 63 PP. 191-194

ذكرها فى التوراة ومدينة الأبطال السومريين « اينمركار » و « لوجال بندا » و « جلجامش » . (انظر الفصول ٣ و ٤ و ٢٠ و ٢١ و ٢٢) . كما انها المدينة التى رأينا كيف أن الالهة « انانا » حملت اليها من مدينة « اريدو » النواميس الالهية (me) (انظر الفصل ١٢) . ومدينة « أور » وهى مركز ثلاث سلالات سومرية ، تمتاز منها بوجه خاص السلالة التى أسسها المشروع « أور — نمو » (الفصل ٧) ، وكان حفيده « شو — سين » الملك الذى قيلت فيه قصيدة الغزل والنسيب فى (الفصل ٢٣) . ثم مدينة « أريدو » مركز عبادة الاله « أنكى » ، اله الحكمة السومرى (الفصل ١٢) . والى الشمال من مدينة « نفر » نجد « بابل » التى نسب اليها اسم البابليين وبلاد بابل التى أطلقت فى الأزمان المتأخرة على « بلاد سومر » . ولم تكن بابل فى العهود السومرية مدينة ذات شأن كبير . ثم « كيش » ، وهى المدينة التى حكمت فيها أول سلالة حاكمة من بعد الطوفان . وكان أحد ملوكها « أجا » الذى مر بنا فى الملحمة المعنونة « جلجامش وأجا » (انظر الفصل ٤) . ونشاهد أيضا « العقير » ، موضع الخرائب التى نقبت فيها دائرة الآثار العراقية وكشف فيها عن المعبد « الملون » (أنظر الألواح ٣٥ و ٣٦ و ٣٧) ، وأخيرا نشاهد بغداد ، عاصمة العراق الحديثة . وفى ضواحى بغداد يقع تل حرمل (لم يعلم فى الخارطة) وهو الموضع الذى نقب فيه طه باقر من دائرة الآثار العراقية وكشف عن عدد من العمارات العمومية وعلى عدد من الكتب والنصوص المدرسية (انظر الألواح ٩ و ١٠) .

الملحق الأول — « لعنة وخارطة » :

اللوح ٨٠ — خارطة « نفر » : صورة فوتوغرافية عن اللوح الأصلى.

شكل ٨١ — خارطة « نفر » : نسخة بيد الدكتور « اينز برنهاردت » الأمين المساعد لمجموعة ألواح « هلبرشت » فى جامعة فردريك شيلر فى « يينا » .

فهرس أبجـــدى

« الآلهـة »

(ا)

«البـــــلاد»

(أ)

(ش)

(ع)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

مطبعة مصر ٤٦٩٥/٥٧/٣٠٠٠

« عمومى »

(ن)

(هـ)

هذا الكتاب

« ... مضى العهد الذى كان يظن فيه الناس أنه يمكن دراسة تاريخ مصر أو تاريخ العراق أو تاريخ ايران أو سورية أو الأناضول أو فلسطين على حدة ، لقد مضى ذلك العهد الى غير رجعة اذ يتحتم على من يريد دراسة تاريخ أى بلد من هذه البلدان أن يبدأ بدراسة تاريخ بلاد الشرق القديم كلها ، ويعرف صلة حضاراته ببعضها ، ويعرف أثر كل منها على الآخر ثم يتخصص بعد ذلك فى تاريخ البلد الذى يختاره .

« لقد نشأت وازدهرت فى كثير من بلاد الشرق حضارات ومدنيات ، ولم تكن تلك الحضارات بمعزل عن بعضها ، بل اتصلت ، وأخذت وأعطت ، وكان من أهم تلك الحضارات حضارتا مصر وبلاد الرافدين ...

« ... ويكاد يجمع علماء الدراسات المصرية ، والدراسات السومرية على أن عصر « جمدة نصر » فى بلاد الرافدين يوافق عصر قبيل الأسرات وبداية الأسرة الأولى فى مصر .

« ... وهذه الترجمة العربية التى بين أيدينا لكتاب « من ألواح سومر » وفق فيها الاستاذ طه باقر كل التوفيق ويستحق عليها كل التهنئة ، اذ حرص فيها على أسلوب صاحب الكتاب ، وروحه ، ولم يضن علينا فى الوقت ذاته ببعض التعليقات الهامة . » .

من مقدمة
الدكتور أحمد فخرى

« كتاب لابد ان يقرأ »

مطبعة مصر